بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم : (رباعي) : أمال رمضان عبد الحميد صديق كلية : الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية الأطروحة المقدمة لنيل درجة : الماجستير

عنوان الأطروحة : " الحياة العلمية في الاسكندرية في العصر المملوكي " .

" ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة عاليه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤٢٢/١/٢٤هـ بقبول الأطروحة بعد إجراء التعديلات المطلوبة وحيث قد تم عمل اللازم . فإن اللجنة توصي بإجازة الأطروحة في صيغتها النهائية للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

وبالله التوفيق ،،،،

أعضاء اللجنة

المشرف	مناقش	مناقش
الاسم :د. عبد الله بن سعيد الغامدي	الاسم : د . محمد بن ربيع مدخلي	الاسم :د. بندر بن محمد الهمزاني
التوقيع :	التوقيع : ١٤٢٢/٤/٢٥	التوقيع :

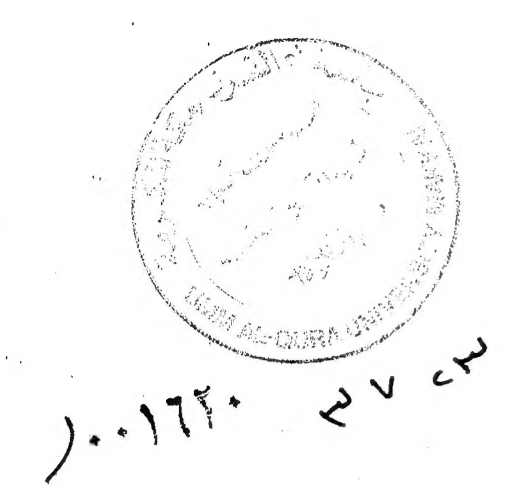
يعتمد :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ . د . ضيف الله بن يحي الزهراني

* يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .





المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية

قســـم الدراسات العليا ـــ طالبات

الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي

(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) ـ (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشراف : فضيلة الدكتور / **عبد الله سعيد الغامدي**

إعداد الطالبة

أمال رمضان عبد الحميد

١٤٢١هـ ـــ ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

" وقل ربي زدني علماً "

سورة طه : آية ١١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه.. . أما بعد..

فتعد مدينة الإسكندرية مركزاً حضارياً وعلمياً منذ نشأتها ، كما تردد اسمها كثيراً ضمن المدن العلمية خلال الدولة الإسلامية، حتى كانت أزهى عصورها في العصر المملوكي حيث صارت مرحولاً إليها لطلب العلم ولاسيما الحديث والقرآن والفقه المالكي.

وهذه الدراسة تسهم في بيان الدور الرائد لعلماء الإسكندرية في نشر العلوم الشرعية في العهد المملوكي تحت رعاية سلاطين المماليك و الذين عنوا بنشر العلم الشرعي، وأحبوا العلماء وقاموا بالعمل على التمكين للمذهب السني بعد أن رزحت مصر تحت حكم الشيعة ردحاً من الزمان.

وقد جاءت الدراسة في **مقدمة وتمهيد وخمسة فصول**، بينت في **المقدمة** أسباب اختيار الموضع وأهميته والتعريف بأهم مصادر البحث، وأما **التمهيد** فخصصته لبيان الحركة العلمية في الإسكندرية في العصر الأيوبي قبيل قيام دولة المماليك، والمظاهر العلمية التي أولتها الدولة الصلاحية للعلماء من أهل السنة، ونشر الفقه السني والحديث النبوي في ربوع الدولة عامة والإسكندرية خاصة.

وأما الفصل الأول: فخصصته لبيان **(الأوضاع العامة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي)**، تناولته في أربعة مباحث ، درست فيه الأوضاع **السياسية** من اهتمام السلاطين بالثغر وعمارته وتحصينه وما إلى ذلك، ثم تحدثت عن الأوضاع **الاجتماعية** وأظهرت طبقات المجتمع المملوكي في الإسكندرية وأهم الاحتفالات التي كانت تجري دينية أو موسمية، وكذلك تحدثت عن الملابس المملوكية بالإسكندرية وعادات أهل الثغر والوافدين وما إلى ذلك،وكذلك درست الأوضاع **الاقتصادية** من الحركة التجارية التي كانت في الثغر ولا سيما من التجار البنادقة والجنويين والقطلان، وأما الأوضاع **الدينية** فخصصت الحديث فيه عن القضاء في الإسكندرية والمناصب الدينية ، ثم تحدثت عن مركز التصوف بالثغر ، وبينت في كل هذه المباحث تأثير كل منها على الحركة العلمية بالثغر.

وأما الفصل الثاني: فخصصته لبيان **(مظاهر الحركة العلمية في الإسكندرية في العهد المملوكي)** وتناولته في عدد من المباحث، خصصت الأول لبيان **إحياء الخلافة العباسية** في القاهرة، وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم تحدثت عن **اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحركة العلمية** بالإسكندرية، ثم أفردت **حركة التأليف** بمبحث تناولت فيه طرق وأهم المؤلفات بالثغر في هذا العصر، ثم تحدثت عن **خزانة الكتب العامة والخاصة**، ومن ثم تناولت بعد ذلك **الأسر العلمية** بالثغر بالدراسة والتحليل، ثم تحدثت عن **موارد الإنفاق على التعليم** بالثغر من أوقاف وأحباس وهبات وصدقات وإنفاق حكومي وغيره، ثم تحدثت عن **العلاقات العلمية** بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة وكيف تخرج الإسكندريون من مدرسة العلم بالثغر ثم صاروا في المناصب الدينية في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وكان آخر مباحث هذا الفصل بيان **للاتجاه السني للحركة العلمية** في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

وأما الفصل الثالث: فخصصته لبيان **(دور العلم في الإسكندرية ونظمه ووسائله خلال العصر المملوكي)**، تحدثت فيه عن **المساجد والكتاتيب والمدارس** النظامية **ودور العلماء والأربطة** ،وأثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية، **والرحلات** ، **والإجازات** العلمية، **والمناظرات** والندوات،**وكذلك عن المدرسين** وطرق التدريس.

وأما الفصل الرابع : فخصصته لبيان **(دور الرحالة والحجاج في إثراء الحركة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي)** ، ودرست في ذلك **دور الرحالة من مدن مصر الإسلامية ومن المشرق الإسلامي** ثم دور **الحجاج المغاربة والأندلسيين**، ثم تحدثت عن **دور الرحالة المغاربة والأندلسيين**، وكان آخر المباحث دراسة **دور الرحالة الأوربيين**، وبيان الأسباب التي أدت إلى **ضعف** هذا التأثير في الإسكندرية في حين كان لهم دور في غير الإسكندرية من بلاد العالم الإسلامي.

وأما الفصل الخامس: فخصصته لدراسة **النشاط العلمي في الإسكندرية في العصر المملوكي** ، درست فيه النشاط العلمي من خلال **العلوم الشرعية**: القراءة والتفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول والفرائض، ثم **العلوم اللغوية والأدبية** والشعر، وكذلك **العلوم الاجتماعية** من تاريخ وجغرافيا وتربيّة ، ثم ختمت ببيان النشاط من خلال **العلوم التطبيقية** من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء.

وقد بحثت في ذلك كله **أثر العلماء** في نشاطاتهم في التدريس والتأليف ، وبحثت كذلك فيه **أهم الكتب المتداولة** في الثغر في هذه العلوم ، وكذلك **المؤلفات** في الثغر مما يتعلق بهذه العلوم . ، وأما **الخاتمة** : فقد خصصتها لبيان أهم نتائج البحث وتوصياته،

وفي النهاية أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وينفعني به في الدارين.. آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عميد كلية الشريعة	المشرف	الطالبة
أ.د. محمد العقلا	د. عبد الله سعيد الغامدي	أمال رمضان عبد ا لحميد صديق

الإهداء

* إلى والديَّ الكريمين أول من حباني العطف ، ووضع قدمي على طريق العلم .

أهدي رسالتي هذه

أمال رمضان عبد الحميد صديق

شكر وتقدير

من لم يشكر الناس لم يشكر الله[1]

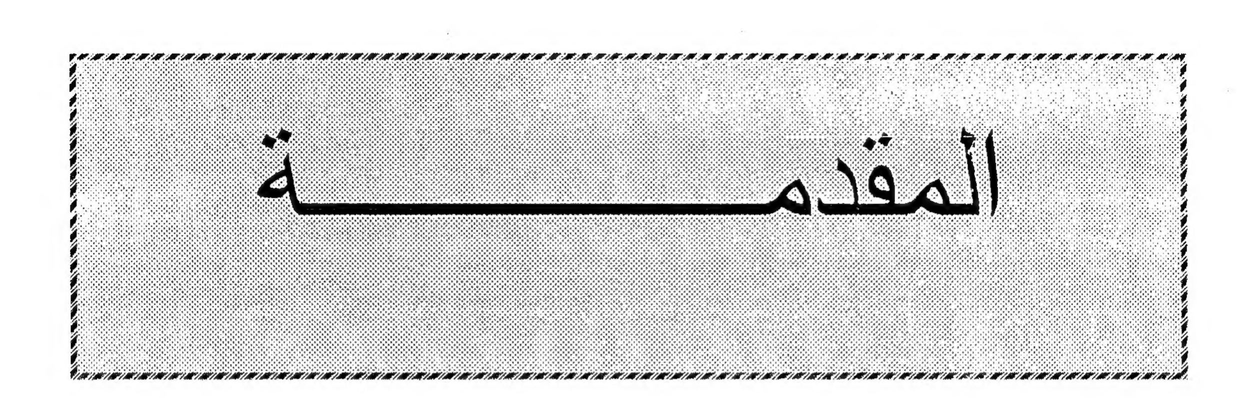
أتوجه بالشكر وعاطر الثناء للأستاذ الدكتور / **عبد الله بن سعيد الغامدي** المشرف على هذه الرسالة ، والذي أفادني بعلمه الجم، ولم يبخل علي بجهد أو وقت، وأمدني بكثير من المصادر والمراجع من مكتبته الخاصة وكان لتوجيهاته الأثر الكبير في ظهور هذه الرسالة بالصورة التي آمل أن تكون مشرفة مقبولة فهذه الرسالة وما فيها من جهد وتوفيق، فالفضل لله أولا ثم لأستاذي متعه الله بالصحة والعافية وجزاه الله عني خير الجزاء كما أشكر **جامعة أم القرى** التي أتاحت لي فرصة طلب العلم بين أروقتها **ومكتباتها** وعلى أيدي علمائها الأفاضل، والشكر موصول **لعمادة الكلية وقسم الدراسات العليا التاريخية** لما يبذلونه من خدمات جليلة لطلبة وطالبات العلم، ثم إن ذكر المعروف واجب وشكره أوجب ، فأشكر كل من أسدى إلى معروفا ، وسددني بنصح أو توجيه، أسأل الله أن يجزي الجميع عني أفضل الجزاء إنه ولي ذلك والقادر عليه، وأسأله كذلك أن يلهمني رشدي ويعيذني من شر نفسي ، ويجعل ما سطرته عملا متقبلا وعلما ينتفع به وخيرا لي في الدارين .

وصلي اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أمال رمضان عبد الحميد

---

(1) لفظ حديث رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.



أسباب اختيار الموضوع

أهمية الموضوع .

خطة البحث .

التعريف بأهم المصادر .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ... فتعتبر **مدينة الإسكندرية** ـ التي بناها الإسكندر المقدوني حين حط برحاله على أرض مصر في القرن الرابع قبل الميلاد ـ **من أهم المدن** الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، **فهي عبارة عن ميناء هام** اكتسب حماية طبيعية ضد التيارات البحرية التي تهب على الحوض الشرقي لهذا البحر ، هذا بالإضافة إلى وجود **جزيرة فاروس** التي تقع بالقرب من الإسكندرية والتي تشكل حاجزاً طبيعياً يحميها من العواصف العاتية التي كثيراً ما تهب على هذه الأماكن .

وهذا الموقع أهَّل الإسكندرية لأن تتحكم في **طرق الملاحة البحرية** التي تربط بين الشام وسواحل الشمال الأفريقي من ناحية وبين مصر وسواحل جنوب القارة الأوروبية من ناحية أخرى.

وهذه الأهمية الاقتصادية ساعدت الإسكندرية على أن تتألق في الميدان الفكري على مر العصور ففي عصر البطالمة ثم الرومان شهدت **الحياة الفكرية** نشاطاً ملحوظاً تُوج بإنشاء (**دار الحكمة museum**) والمكتبة الملكية بالإسكندرية (عام ٢٨٠ق.م.).

والمعروف أنه عندما خرج الفاتحون المسلمون الأوائل من جزيرة العرب تمكنوا في **عهد الخلافة الراشدة** من فتح بيت المقدس (١٥ هـ/٦٣٧م) ، ومدن جنوب فلسطين ، ثم واصلوا سيرهم جنوباً إلى الأراضي المصرية حيث نجح الصحابي الجليل عمرو بن العاص في فتح مصر عام (٢١هـ/٦٤٣م) وأصبحت مصر ومدنها بما فيها الإسكندرية التي كانت حاضرة الوجود البيزنطي جزءاً هاماً من كيان الدولة الإسلامية .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون ثم العباسيون بمدينة الإسكندرية اهتماماً كبيراً باعتبارها ثغراً بحرياً واجهوا من خلاله الأخطار التي كانت تهدد السواحل الشامية والمصرية من قبل البيزنطيين ، فضلاً عن أنهم اتخذوا من الإسكندرية قاعدة لانطلاق حركة الفتح الإسلامي لبعض جزر البحر المتوسط **كمالطة وكريت**

وغيرهما ، وبعد أن ضعفت الخلافة العباسية وقامت على إثر ذلك بعض الدويلات المستقلة في مصر اهتم حكام هذه الدويلات كالطولونيين(٢٥٤هـ-٢٦٢هـ/٨٦٩م-٩٠٤م)،والأخشيديين(٣٢٣هـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٤م-٩٦٨م) بثغر الإسكندرية أيما اهتمام ولم يقتصر ذلك الاهتمام على المجالات العسكرية لمواجهة أخطار الروم البيزنطيين على سواحل الشام ومصر ، بل تعداه إلى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

ورغم خضوع مصر لحكم الفاطميين الشيعة منذ سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م إلاّ أنهم لم ينجحوا في تثبيت وترسيخ مذهبهم الشيعي في الإسكندرية، ولاشك أنه كان للحياة الفكرية النشطة بها ــ آنذاك ــ دورٌ كبير في مقاومة هذا الترسيخ الشيعي ، ومن ثمَّ التمكين للمذهب السني بها .

وبعد أن نجح صلاح الدين الأيوبي في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م) كانت الإسكندرية سنداً قوياً له في التصدي لمؤامرات الشيعة في مصر ، ومن ثم غدت الإسكندرية طوال العهد الأيوبي مركزاً لحركة علمية نشطة شملت جميع مجالات النشاط العلمي ، وخاصة في مجال نشر المذهب السني .

وعندما انتقلت السلطة إلى المماليك ــ الذين امتد حكمهم في مصر من منتصف القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ــ شكل عصرهم أهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي ، ذلك لما واكبه من حوادث مثيرة وتيارات قوية بارزة في مختلف الأنشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وعليه يمكن القول إنه إذا كانت القاهرة تمثل ــ آنذاك ــ الثقل السياسي للعالم الإسلامي والمحور للعلاقات العالمية ، فإن الإسكندرية وقتها تفرغت بدرجة كبيرة للحياة العلمية ، وغدت محط أنظار الكثير من طلبة العلم لما حوته من نشاط فكرى شمل جميع مجالات الحياة العلمية ، وذلك لما توفر لهذه المدينة من اهتمام فائق في هذا المجال وبالأخص بعد إحياء الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م

حيث أولى الخلفاء العباسيون في مصر الحياة العلمية جلّ اهتمامهم ، وحذا حذوهم سلاطين الدولة المملوكية .

وإلى جانب ذلك حرص كبار رجال الدولة المملوكية وبعض البيوتات العلمية بها على إثراء الحياة العلمية وذلك بتوفير الدعم المادي والمعنوي لحركة التأليف وبناء المدارس والكتاتيب وخزانات الكتب ، فضلاً عن تشجيعهم للمناظرات والندوات العلمية والتي أسهم فيها الرحالة والحجيج القادمون لثغر الإسكندرية، والتي كانت تضم في ركابها بعضاً من صفوة العلماء والفقهاء والأدباء وغيرهم كما **اتخذها الكثير من علماء الأندلس** ملجأ ومأوىً لهم بعد اضطهاد الأسبان لهم ونجاحهم في استئصال شأفتهم من الأندلس .

ومما ساعد على تنشيط الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي تخصيصُ موارد للإنفاق عليها ،والتي تمثلت في الأوقاف والأحباس والهبات والصدقات بالإضافة إلى الإنفاق الحكومي المنظم .

كما حفل ثغر الإسكندرية خلال هذا العصر باتجاهات فكرية متباينة أدت إلى تفاعل المناظرات ،وهذا بدوره أدى بطبيعة الحال إلى إذكاء الحياة العلمية في المساجد والمدارس والمنتديات ، بل ومنازل الأسر المهتمة بالنواحي العلمية .

ولعل من أهم الجوافز التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع؛ هو الرغبة في إبراز الدور الذي قامت به **الخلافة العباسية** بعد إحيائها في مصر عامة، والإسكندرية خاصة في تنشيط الحياة العلمية، ودورها في التمكين للمذهب السني في الأراضي المصرية، ناهيك عن بيان **أهم مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية** ، والممثلة في حركة التأليف والترجمة ومنح الإجازات العلمية وعقد الندوات ،وحلقات الوعظ التي كانت سبباً مباشراً في إثراء الحياة العلمية في هذه المدينة، مع **توضيح أهمية دور العلم** في الإسكندرية ، والتي كان لها دور كبير في نشر الحياة العلمية ليس بين أبناء الإسكندرية فحسب ، بل شمل أعداداً وافرة من الوافدين عليها ، أضف إلى ذلك : الإشارة إلى **دور الرحالة وقوافل الحج** في إثراء الحياة العلمية، ودراسة لأهم النتاج العلمي بالمدينة خلال فترة البحث.

وقد اعتمدت الدراسة على مصادر أصلية، إذ المعروف أنه ظهرت في العصر المملوكي **مؤلفات عظيمة** كانت بمثابة (سجل التراث العلمي) لتلك الحقبة الزمنية المتألقة، ولقد كان لمصر النصيب الأوفر والحظ الأكبر من هذه المؤلفات لما كان لها من دور ريادي في العالم الإسلامي آنذاك، ولما كانت مدينة الإسكندرية القاعدة الثانية بالديار المصرية فقد لقيت عناية كبيرة من قبل الكتاب والمؤلفين، سواء كان ذلك في حولياتهم والتي تبدأ بسنة معينة، وتنتهي قبيل وفاة المؤلف، أو المؤلفات في التراجم والطبقات والوفيات لأعيان العلماء والأدباء ونحو ذلك، أو المؤلفات الموسوعية التي تشمل التاريخ والجغرافيا واللغة وغير ذلك، وقد شكل كل هذا نتاجا ضخما عن تأريخ مصر عامة ، وتأريخ الإسكندرية خاصة، ولا شك أنه يصعب في خلال هذه المقدمة الإلمام بدراسة كل هذه المصادر بالتفصيل، ولذا أتناول هنا أهمها وأبرزها، كما أشير إلى مصادر أخرى مرتبطة بالبحث ، كمعاجم المؤلفين وكتب اللغة ونحو ذلك(١).

وتسهيلا على القارئ الكريم رأيت أن أقسم هذه **الدراسة التحليلية لأهم مصادر البحث** إلى أقسام بحسب أنواع الكتب كما يلي:

أولا: كتب التراجم :

وهي تشكل القسم الأكبر من المصادر، لأنها حوت في بطونها معلومات عن جميع جزيئات البحث ومفرداته.

وعلم تراجم الرجال علم متشعب الفروع، تعددت أنواعه ومصادره، فمن العلماء من جعل كتبه في التراجم كتبا عامة، ومنهم من أفرد القراء والفقهاء والأدباء، ومنهم من ترجم لأهل زمانه ومن عاصره.

كما أن منهم من رتب كتابه على حروف المعجم، ومنهم من رتبه على الطبقات، ومنهم من التزم حوادث السنين بحسب الوفيات.

---

(١) يجدر هنا التنبيه على أن التراجم **للعلماء السكندريين** شملت العلماء الذين ولدوا بها، أو مكثوا فيها مستوطنينها متفرغين لطلب العلم أو مشتغلين بالمناصب العلمية أو الدينية، كما يشمل كذلك من رحل منها إلى أقطار العالم الإسلامي رحلة في طلب العلم، أو لتولية المناصب العلمية والدينية.

فمن كتب التراجم التي أفاد منها البحث في دراسة تراجم **قراء مدينة الإسكندرية** في هذه الحقبة كتاب: "معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" لشمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٢٧م)، وكتاب "غاية النهاية في طبقات القراء" لشمس الدين محمد ابن الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، وما كان من قراء بالثغر بعد هذه الفترة، استفدته من كتب التراجم الأخرى، كالدرر والضوء وغيرهما.

وأما كتب تراجم **المفسرين**، فقد اعتمدت على كتاب "طبقات المفسرين" للإمام السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، فقد أستوعبت مفسري الفترة، وإن كان لم يسهب في تراجم المفسرين ، وربما لأن كثيراً منهم كان يشتهر بالحديث أكثر منه مفسراً.

كذلك استفدت كثيراً من الكتب التي أفردت لحفاظ الحديث **في تراجم محدثي الإسكندرية** ، ولا سيما المجموعة التي افتتحها الإمام الذهبي بكتابه "تذكرة الحفاظ" وقد أطال فيه، فذيل عليه الحسيني (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م) في "ذيل تذكرة الحفاظ"، وذيل عليه ابن فهد محمد بن فهد المكي (ت٨٧١هـ/١٤٦٦م) في "لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ"، ثم السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) بذيله "ذيل طبقات الحفاظ، ثم ختم الموضوع بكتاب شامل أسماه "طبقات الحفاظ".

وقد ذخرت هذه الكتب بأسماء العديد من حفاظ الحديث بمدينة الإسكندرية وأسماء من زار الثغر لأخذ الحديث وروايته.

ومن الكتب التي أفادت البحث في تراجم الفقهاء ومصنفاتهم يأتي في مقدمتها كتاب ابن فرحون اليعمري (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) والمعروف بـ "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"، حيث جمع بين دفتيه تراجم الكثير من علماء الثغر المالكية، واشتمل على أسماء الكثير من المؤلفات التي صنفوها.

و"طبقات الشافعية الكبرى" للقاضي تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)، وقد أفدت منه التراجم المتأخرة عن كتاب القاضي ابن السبكي.

ولم يخل الأمر من الاستفادة من كتب التراجم العامة ولا سيما للفترة المتبقية بعد كتاب ابن شهبة والتي تخص الفقهاء الشافعية، رغم قلتهم بالإسكندرية.

وأفاد البحث من ذيل الحافظ ابن رجب البغدادي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) على طبقات الحنابلة لأبي يعلي، وكذلك من "المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد" للعليمي (ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، و"السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة" لمفتي الحنابلة في مكة المكرمة ابن حميد النجدي (ت١٢٩٥هـ/١٨٧٩م)، فقد أفادت الدراسة منها ولا سيما في تراجم شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه ممن نزل مدينة الإسكندرية.

كذلك اعتمدت الدراسة في **تراجم اللغويين والنحاة** على كتاب "بغية الوعلة في بطبقات اللغويين والنحاة" **للسيوطي** (ت٩١١هـ/١٥٠٤م).

واعتمدت الدراسة أيضاً في دراسة سير الخلفاء والملوك والولاة والقضاة على جملة كتب إما خاصة ببعض الملوك ، أو عامة، ولا سيما كتب من تولى المناصب في الدولة التركية كابن عبد الظاهر وشافع بن علي وهما ممن تولى ديوان الإنشاء، فبالنسبة **لابن عبد الظاهر** (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، فقد استفدت من كتابيه " الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر"، و"تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور " ، وذلك فيما يتعلق باهتمامات الظاهر بيبرس بالإسكندرية ، وكذلك سيرة عميد الأسرة القلاوونية بثغر الإسكندرية والإصلاحات الاقتصادية التي أقامها به.

أما **شافع بن علي** (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، فكتابه "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية"، يعد من أشهر الكتب التي تناولت سيرة ومناقب الظاهر بيبرس، وقد استفدنا منه كثيراً في معرفة مدى اهتمامات الظاهر بالنواحي العسكرية والحضارية والاجتماعية للثغر السكندري.

كذلك استفاد البحث من مؤلفات **بيبرس الدوادار** (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، فكتابه "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" يعتبر موسوعة ضخمة تضم (١١ مجلداً)، وقد طبع منها الجزء التاسع والذي يشمل حوادث مصر من سنة ٦٥٦هـ/١٢٨٥م إلى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد اعتمدنا عليه فيما ذكره عن مدينة الإسكندرية منذ

أحوال وإدارة ونحو ذلك، كما أمدنا بمعلومات في غاية الأهمية عن أحوال الثغر السياسية والعسكرية خاصة ما كان يتعلق بغارات الفرنج، كذلك أمدنا بمعلومات عن الثغر أثناء الكوارث الطبيعية التي أصابته ، كذلك لم تتعدم الفائدة من كتابيه "مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ" و "التحفة المملوكية في الدولة التركية".

ثم يلي ذلك من كتب التراجم التي أفاد منها البحث في هذا الجانب : ما كتبه ابن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) في سيرة المنصور قلاوون وبنيه "تذكرة النبيه في سيرة الملك المنصور وبنيه"، ثم جاء المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) فوضع كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك" ، ومن بعده السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، في ذيله المسمى "التبر المسبوك في ذيل السلوك"، كما أفاض ابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) القول في كتابه "رفع الإصر عن قضاة مصر" عن **قضاة الإسكندرية** ومن تولى قضاء الثغر و سيما وأن ابن حجر من كبار العلماء وكان يشغل منصب قاضي القضاة.

وأما كتب التراجم العامة والمتنوعة ، فقد أفاد البحث من عدة كتب على رأسها **الكتب المذيلة على كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان** (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م). وهي "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، وذيله الآخر "درة الحجال في أسماء الرجال" لابن القاضي المكناسي (ت١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، أما الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) فيعد كتابه "الوافي بالوفيات" من المصادر المهمة في هذه الفترة ولا سيما في تراجم أهل الأدب والشعر لاهتمامات الصفدي بذلك، ثم جاء ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) **فأتم هذه المجموعة** بكتابيه "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" والذي هو كالمستدرك على كتاب الصفدي جمع فيه نحوا من ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير العلماء والأمراء والسلاطين الذين عاشوا في مصر والشام في عصر دولتي سلاطين المماليك الأولى والثانية، فهو موسوعة تراجمية واسعة استفدت منها كثيرا في بيان العلماء والمشاهير في الثغر، وقد طبع منه سبع مجلدات فقط، وقد لخصه ابن تغري في كتابه الآخر "الدليل الشافي على المنهل

الصافي"، وقد استفادت الدراسة من هذا الأخير بعض التراجم التي كانت في الأجزاء التي لم تطبع من المنهل.

وأما "مرآة الجنان" لليافعي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، فقد كان من ضمن الكتب التي تمت الاستفادة منها أيضاً، إلا أنه يعيب اليافعي شدة تصوفه واعتقاده في أقطاب الصوفية حتى إنه ليكيل لهم المدح ، ويطعن في المؤرخين الذين لا يمدحونهم، مثلما طعن في الذهبي عند ترجمة أبي الحسن الشاذلي وغير ذلك.

وأما "المقفى الكبير" للمقريزي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م) ، فقد استفدت منه في دراسة التراجم التي لم أجدها في غيره .

كما استفاد البحث من "نكت الهميان في نكت العميان" للصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، و"نظم العقيان في أعيان الأعيان" للسيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، في بعض التراجم ولا سيما والكتابان حويا تراجم يعز علينا أن نجدها في غيرهما بهذا الإسهاب.

ثانياً: كتب التواريخ العامة والخاصة :

فبخصوص تاريخ الإسكندرية[١]، فقد أفاد البحث من كتاب (الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية) لمحمد بن قاسم بن محمد **النويري** المالكي **السكندري** (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وهو مؤرخ مشهور بالثغر، برع في عدد من العلوم كالأدب والشعر والجغرافيا والتاريخ، عمل ناسخاً للكتب لأغنياء الثغر، وقد وضع هذا الكتاب بسبب هجوم القبارصة على الإسكندرية عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وقد ضم الكتاب فوائد متنوعة ومختلفة ما

---

(١) لم أحصل على مصادر لتاريخ مدينة الإسكندرية سوى كتاب الإلمام ، وودت لو حصلت على مخطوطة لتاريخ الثغر، كتاريخ ابن عرام، ولكان ذلك أكثر إثراءً ومنفعة للبحث،وقد بحثت عن مخطوطته ومظنة مكان وجودها فيما أطلعت عليه من فهارس المخطوطات ؛وأيضاً بسؤال أساتذة التاريخ، فلم أجد إجابة، كما أن كبار أساتذة التاريخ المعاصرين ممن اشتغل بتاريخ الإسكندرية لم يشيروا إلى وجودها، غير أن حسبي أن مؤرخي العصر المملوكي ينقل بعضهم من الآخر ، وتتكرر نفس المعلومات من كتاب لآخر لكن بزاوية مختلفة حسب نظر المؤرخ ، فلعله لم يفت الكثير بفقد مثل هذه المخطوطات والله أعلم.

بين تاريخية وجغرافية وأدبية، وبرغم أن الكلام عن الإسكندرية في كتابه كانت لا تمثل العشر من الخضم الهائل من المعلومات المختلفة والمتنوعة والمتشعبة، إلا أنه أفادنا إفادة كبيرة في معرفة بنيانها الحضاري وشوارعها وفنادقها ومعالمها وأسوارها وأبوابها ومساجدها ومدارسها وأربطتها وغير ذلك كثير، كذلك استفدنا منه في معرفة الحوادث والقصص والعادات الاجتماعية التي كانت بالثغر في العهد المملوكي، ولقد صار هو المرجع الأساسي لكل من تناول مدينة الإسكندرية بالبحث والدراسة.

وأما بالنسبة لكتب التواريخ العامة، فقد استفادت الدراسة من عدد من التواريخ العامة التي أرخت لهذه الفترة موضع البحث ومن ذلك "ذيل مرآة الزمان" لليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، و "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) وذيله "تتمة المختصر" لابن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وقد اعتمدت كثيراً على المجموعة التاريخية الرائعة للذهبي(ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) "سير أعلام النبلاء" و"تاريخ الإسلام" و "دول الإسلام" والعبر في خبر من غبر" و" ذيله"، والذهبي مؤرخ منصف تعلو عباراته الدقة وليس مسفاً في انتقاده.

و استفاد البحث أيضاً من كتاب "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان" للصيرفي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م).

ومن التواريخ أيضاً التي اعتمدت عليها الدراسة : "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" للعيني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، وقد جعله موسوعة تاريخية وأسهب وأفاض الكلام فيه جداً، وهو معتمد على تاريخ ابن كثير وابن دقماق، وقد أفاد البحث منه في تأريخ بعض الحوادث السياسية والاجتماعية الخاصة بمدينة الإسكندرية وكذلك بعض تراجم العلماء من فقهاء ومحدثين ونحو ذلك.

ومن التواريخ العامة أيضاً التي اعتمد عليها البحث : كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن أياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، وهو المؤرخ الذي أرخ لسقوط الدولة، وقد غطى بتاريخه هذا جزءً كبيراً من تاريخ دولة المماليك مشاركاً غيره ومنفرداً بالعقود الأخيرة من عهدها، وقد استفدت منه في هذه الفترة أكثر ممن أرخ بعده ممن لم يحضرها، لأن عباراته كانت أكثر وضوحاً وصراحة.

وقد جاء ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فغطى هذه الفترة أيضاً، إلا أن عباراته جاءت مختصرة وتراجمه مقيدة.

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً التأريخ لفترات زمنية والتأريخ للمعاصرين، وقد استفدت من جملة من هذه الكتب التي غطت فترة المماليك، فمن ذلك كتاب للصفدي(ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وهو "أعيان العصر وأعوان النصر" قصره على ترجمة معاصريه ممن أدركهم أو لقيهم في حياته، أو أخذ عنهم، أو كانوا في زمنه في العالم الإسلامي، وتناول في ذلك ترجمة الشعراء والأدباء بالإضافة إلى العلماء والأمراء والكتاب والقضاة وحتى من يقوم على خدمة المساجد ودور العلم أي تراجم من كان في عصره ممن له شأن ما بين عام (٦٩٦هـ - ٧٦٤هـ/١٢٩٦م-١٣٦٢م).

وكتب الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) كتابين في ذلك، الأول: "إنباء الغمر بأنباء العمر" والذي أرخ فيه لمعاصريه، وذكر في أوله أنه تعليق جمع فيه حوادث الزمان الذي أدركه، متحدثاً عن وفيات الأعيان مستوعباً رواة الحديث، وقد وصف كتابه بأنه كالذيل على البداية والنهاية وعلى وفيات ابن رافع ، فإنه قال: (وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ ابن كثير، فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها تقي الدين ابن رافع ، فإنها انتهت إلى أوائل هذه السنة)، وقد استفدت كثيراً مما كتبه ابن حجر، ولا سيما في تراجم محدثي الإسكندرية الذين عاصرهم وأخذ عنهم ، وأما الكتاب الثاني فهو "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" وهو معجم ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري من سنة ٧٠١هـ - ٨٠٠هـ/١٣٠١م-١٣٩٧م من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء، وقد استقى كثيراً من معلوماته من أعيان العصر للصفدي وسير النبلاء للذهبي ووفيات ابن رافع وخطط المقريزي وغير ذلك كما جاء في مقدمته للكتاب، وبهذا يكون الكتاب قد غطى قرناً من الزمان أي ما يزيد عن ثلث الفترة موضوع البحث، وقد استفدنا

منه كثيراً فيما يخص الثغر سواء كان ذلك من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فضلاً عن الأوضاع العلمية.

وقد أكمل الشمس السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) هذا العمل بكتابه المطول "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" وهو تاريخ كبير جمع فيه مؤلفه الوفيات من سنة ٨٠١هـ إلى سنة ٩٠٠هـ(١٣٩٨م-١٤٩٤م) ، مرتباً إياها على حروف المعجم في الأدباء والعلماء والقضاة والرواة والشعراء والأدباء والخلفاء والملوك وغير ذلك، وقد استفدت منه كثيراً في نقل صورة تاريخية تحمل النقد الهادئ لكثير من علماء الثغر وفقهائه مع كثير من مؤلفاتهم التي حرص السخاوي على حشد الكثير منها في التراجم.

ومنها أيضاً: كتاب "إنباء الهصر بأبناء العصر" للخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، وقد وضعه على غرار إنباء الغمر لابن حجر، وترجم فيه لمعاصريه ، ولقد أفدت منه كذلك في تراجم علماء القرن التاسع بمدينة الإسكندرية.

ومن الكتب الشاملة أيضاً للتواريخ العامة : "نظم العقيان في أعيان الأعيان" للسيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، وضعه على نحو ما صنفه المتقدمون قبله من العلماء وذكر في ديباجته أنه لتراجم أعيان العصر على طريقة أهل العلم الراسخين لا عموم المؤرخين، والكتاب به (٢٠٠) ترجمة مختصرة، أفدت منه في تراجم علماء الثغر كالدماميني وغيره، ولا يخلوا في الجملة من فوائد جمة.

ولقد أفدت في بحثي هذا من كتاب الشوكاني محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" في كثير من التراجم ولا سيما التي كانت في آخر الدولة المملوكية لما لم يبلغه أصحاب الكتب المتقدمة.

ثالثا: كتب تواريخ البلدان والمدن:

فهذا اللون من كتب التاريخ يجمع فيه المصنف تاريخ البلد سياسيا وحضاريا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا، ولم أحصل على تاريخ للإسكندرية سوى كتاب "الإلمام" المتقدم الذكر، إلا أن البحث أفاد من **تواريخ مدن رحل بعض**

علمائها إلى الإسكندرية فمن ذلك كتاب "الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لأبي الفضل جمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وقد جمع في هذا الكتاب أسماء وأعلام صعيد مصر ممن كان لهم ذكر حتى منتصف القرن الثامن الهجري، وقد أفدت منه في ترجمة كثير من العلماء الذين نزلوا مدينة الإسكندرية وكان لهم نشاط مع علماء الثغر.

ومن هذه النوعية من الكتب أيضاً كتاب : "العقد الثمين في أخبار البلد الأمين" للتقي الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، واستفاد منه البحث كثيراً في تراجم المكيين الذي زاروا الإسكندرية طلباً للعلم أو الذين أخذوا الإجازات من علمائها، أو طلبوا الاستدعاء بالإجازة منهم، ولاسيما من النساء المحدثات ، وكذلك تراجم علماء من الإسكندرية جاوروا ببلاد الحرمين وكان لهم اشتغال بالعلوم الشرعية هناك.

ومن هذه الكتب أيضاً : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لأبي المحاسن ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، وهو أشهر كتبه وأجلها وهو تاريخ عام لمصر الإسلامية، كتبه بعد المنهل الصافي وحوادث الدهور كما تظهر من الإحالات في كتابه النجوم على كتابه المنهل والحوادث، وقد استمر تأريخه في النجوم حتى سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٨م)، أي قبل وفاته بعامين فقط، ولذا يعد أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية.

وكتاب آخر على هذا النمط هو كتاب السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" وهو كتاب في غاية الأهمية، يترجم فيه السيوطي لتاريخ مصر ويذكر عجائبها وفتحها زمن الصحابة، ومن كان بها من الفقهاء والعلماء ، ثم يتدرج حسب السنين حتى يقدم إلينا ثبتاً شاملاً للعلماء والمفكرين من تراجم ورجالات مصر الإسلامية، وبالكتاب تراجم مفيدة لعلماء يصعب العثور عليهم في مكان آخر، ولقد استفدت من هذا الكتاب التراجم التي حواها ولا سيما تراجم القراء الذين ظهروا بعد الذهبي وابن الجزري.

ومن أكثر الكتب التي استفدت منها على هذه الشاكلة في تاريخ مدن الأندلس كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" لابن المقري أحمد بن

محمد المغربي(ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)، فقد استفدت منه تراجم الكثير من الحجاج والرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين نزلوا مدينة الإسكندرية وكان لهم دور في الحياة العلمية بها.

رابعاً: كتب المشيخات والمعاجم والبرامج وكتب الرحلات:

فقد كثرت هذه الأنواع من المؤلفات في العصر المملوكي مما أتاح التعرف على كثير من الشيوخ والكتب المتداولة في هذا العصر ولعل من أبرزها: برنامج الرعيني وبرنامج التجيبي، وبرنامج الوادي آشي، وثبت البلوي، والمعجم المختص بالشيوخ للذهبي، والمجمع المؤسس من المعجم المفهرس لابن حجر العسقلاني، ومعجم شيوخ ابن فهد المكي، وقد أفاد البحث من هذه الكتب جميعها ولا سيما في الفصل الخامس في تراجم العلماء بالثغر وذكر مؤلفاتهم.

وأما كتب الرحلات : فقد اجتمع لي جملة من كتب الرحلات وأهمها: رحلة العبدري وابن رشيد والتجيبي ، وابن بطوطة والبلوي ، وقد قمت بالتعريف بها في الفصل الرابع من الرسالة، وقد استفدت من هذه الرحلات استفادة كبيرة جداً في التعرف على الإسكندرية ومدارسها ومساجدها وإجازات العلماء بها وطرق التدريس وأهم العلوم المتداولة بالإضافة إلى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية في الإسكندرية.

وقد أفادت الدراسة أيضاً في التعريف بالكثير من الكتب المصنفة ومؤلفيها من كتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم" لطاش كبرى زادة (ت٩٦٨هـ/١٥٦١م)، و"كشف الظنون" لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، وكتاب "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون" و"هدية العارفين" وكلاهما لإسماعيل بن محمد البغدادي (ت١٣٣٩هـ/١٩٢١م) ، وكذلك معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ،وقد استفدت من هذه الكتب في تعريفات العلوم، وتراجم المؤلفين ، وتراجم الكتب المختلفة التي كانت تتداول في الثغر أو هي من نتاج المؤلفات السكندرية في العصر المملوكي.

وأما تعريف البلدان والأماكن فأشهر ما أفادت منه الدراسة في هذا الباب موسوعة "معجم البلدان" لياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري .

وأما ما يتعلق بكتب اللغة والمصطلحات فقد اقتضى البحث الرجوع إلى كتب اللغة لتحديد التعريفات المختلفة لمفردات البحث، فرجعت في ذلك إلى "لسان العرب" لابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م)، و"تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، وغير ذلك من كتب اللغة.

وأما المصطلحات المملوكية، فقد أفدت من الموسوعة الكبيرة "صبح الأعشى في فنون الإنشاء" لأبي العباس القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، حيث احتوت على تعريف الكثير من ألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة، وكذلك سائر الصفات والألقاب في مختلف الفنون والعلوم،كذلك عثرنا في كتابه على سجل تدريس لأحد العلماء بالإسكندرية، كما أورد بعض الإجازات ومراسيم تنصيب قاضي وخطيب وناظر للثغر وناظر للصادر وغير ذلك من المهن والوظائف مدينة الإسكندرية وبالجملة فكتابه بمثابة التأريخ السياسي والإداري للدولة المملوكية.

وأما مباحث الرسالة :

فقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة اقتصرت **المقدمة** على بيان أسباب اختيار الموضوع ، وأهميته ، وعرض موجز لأهم مصادر البحث ، وناقش **التمهيد** ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل العصر المملوكي ، والمظاهر العلمية التي أولتها الدولة الصلاحية للعلماء من أهل السنة، ونشر الفقه السني والحديث النبوي في ربوع الدولة عامة والإسكندرية خاصة.

وأما الفصل الأول: فكان لبيان **(الأوضاع العامة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي)**، تناوله البحث في أربعة مباحث ، بدراسة الأوضاع **السياسية** من اهتمام السلاطين بالثغر وعمارته وتحصينه وما إلى ذلك، ثم الأوضاع **الاجتماعية** وبيان طبقات المجتمع المملوكي في الإسكندرية وأهم الاحتفالات التي كانت تجري دينية أو موسمية، وكذلك الملابس المملوكية بالإسكندرية وعادات

أهل الثغر والوافدين ،وكذلك تمت دراسة الأوضاع **الاقتصادية** من الحركة التجارية التي كانت في الثغر ولا سيما من التجار البنادقة والجنويين والقطلان، وأما الأوضاع **الدينية** فخصص الحديث فيها عن القضاء في الإسكندرية والمناصب الدينية ، ثم إظهار مركز التصوف بالثغر وأثره السيء على الإسكندرية.

وأما الفصل الثاني: فكان مخصصاً لبيان (**مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية في العهد المملوكي**) في عدد من المباحث، الأول لبيان **إحياء الخلافة العباسية** في القاهرة، وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم **اهتمام الخلفاء العباسيين والسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحياة العلمية** بالإسكندرية، ثم أفردت الدراسة عن **حركة التأليف** تناولت فيه طرق وأهم المؤلفات بالثغر في هذا العصر، ثم بينت الدراسة **خزائن الكتب العامة والخاصة**، ومن ثم تناولت الدراسة بعد ذلك **الأسر العلمية** بالثغر بالدراسة والتحليل، ثم تحدثت عن **موارد الإنفاق على التعليم** بالثغر من أوقاف وأحباس وهبات وصدقات وإنفاق حكومي وغيره، ثم تحدثت عن **العلاقات العلمية** بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة وكيف تخرج الإسكندريون من مدرسة العلم بالثغر ثم صاروا في المناصب الدينية في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وكان آخر مباحث هذا الفصل بيان **للاتجاه السني للحركة العلمية** في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

وأما الفصل الثالث: فناقش (**دور العلم في الإسكندرية ونظمه ووسائله خلال العصر المملوكي**)، تحدثت الدراسة فيه عن **المساجد** ودورها في الحياة العلمية بالإسكندرية، ثم **الكتاتيب والمدارس النظامية ودور العلماء والأربطة والخانقاوات وأثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية، والرحلات العلمية والإجازات العلمية والمناظرات والندوات ،والمدرسون وطرق** التدريس.

وأما الفصل الرابع : فخصصته لبيان (**دور الرحالة والحجاج في إثراء الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي**) ، وتناولت الدراسة في ذلك **دور الرحالة من مدن مصر الإسلامية ومن المشرق الإسلامي** ثم دور **الحجاج**

المغاربة والأندلسيين، ثم تحدثت عن دور **الرحالة المغاربة والأندلسيين**، وكان أخر المباحث دراسة **دور الرحالة الأوربيين**، وبيان الأسباب التي أدت إلى **ضعف** هذا التأثير في الإسكندرية في حين كان لهم دور في غير الإسكندرية من بلاد العالم الإسلامي.

وأما الفصل الخامس: فخصصته لدراسة **النشاط العلمي في الإسكندرية في العصر المملوكي** ، أوضحت الدراسة فيه النشاط العلمي من خلال **العلوم الشرعية**: القراءة والتفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول والفرائض، ثم **العلوم اللغوية والأدبية** والشعر، وكذلك **العلوم الاجتماعية** من تاريخ وجغرافيا وتربية ، ثم بيان النشاط من خلال **العلوم التطبيقية** من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء ، وفي ذلك كله تم إيضاح **أثر العلماء** في نشاطاتهم في التدريس والتأليف ، وكذلك **أهم الكتب المتداولة** في الثغر في هذه العلوم، وما كان من **المؤلفات** بالإسكندرية مما يتعلق بهذه العلوم .

وأما **الخاتمة** : فقد كانت لبيان أهم نتائج البحث وتوصياته، وجاء عقبها: **الملاحق** ثم **الفهارس** من جريدة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات .

وبعد .. فلا يسعني هنا إلا أن أنقل ما ذكره النويري السكندري[١] في مقدمة كتابه عن بعضهم قوله: (من صنف كتابا فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والريبة، وإن أساء فقد تعرض للشتم بكل لسان، ولو أني

---

(١) اختلفت النسبة إلى الإسكندرية فيما وقفت عليه من تراجم، (إسكندري،سكندري،إسكندراني)، وقد بحثت في لسان العرب، والقاموس المحيط، وشرحه تاج العروس، فلم ينصوا على النسبة إلى الإسكندرية، وإنما ذكروا أنها اسم لبضعة عشر موضعا ، وراجعت كتب الأنساب كالأنساب واللباب وغيرهما، فلم يذكروا إلا النسبة الأخيرة (إسكندراني)، وقد سألت المتخصصين في اللغة ، فأفادوا بأن النسبة (إسكندري) جاءت موافقة للقاعدة العربية في النسب، وكذلك فالنسبة (سكندري) موافقة للقاعدة مع حذف الأول ، وله شواهد، وقد يكون خاضعا لنظام اللغة اليونانية القديمة، وأما النسبة (إسكندراني) فهي سماعية شاذة كما قيل:(فوق،فوقاني)،(نفس، نفساني)، (روح،روحاني)، وفي هذا العصر(أمريكي، أمريكاني)،وعليه فلا إشكال في النسب الثلاثة والله أعلم.

كففت لساني ، ولم أذكر ما عاناني ، لكنت إذا مستورا، ولكن كان ذلك في الكتب مسطورا، وسأذكر هنا بلسان التقصير والخضوع ما قاله الشاعر:

يا من غدا ناظرا فيما جمعت ومن أضحى فيما قلته النظرا
ناشدتك الله إن عاينت لي خطأ فاستر على فخير الناس من سترا).[١]

وإن كنت أرى نفسي مقصرة لكن حسبي أني حاولت وجاهدت، وعزائي فيما قاله بعض الحكماء:

أسير خلف ركاب النجب ذا عرج مؤملا كشف ما لاقيت من عوج
فإن لحقت بهم من بعدما سبقوا فكم لرب الورى في ذاك من فرج
وإن بقيت بظهر الأرض منقطعا فما على عرج في ذاك من حرج.

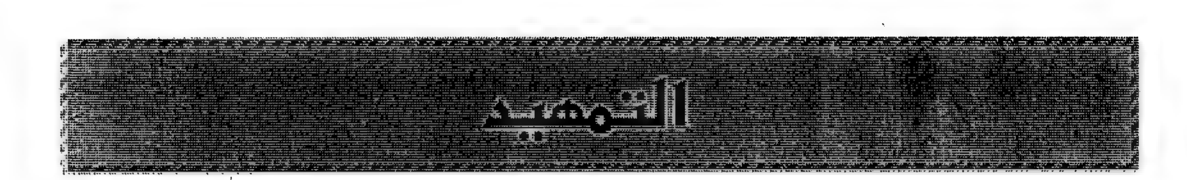
وفي النهاية أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وينفعني به في الدارين، وهو حسبي ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أمال رمضان عبد الحميد صديق

مكة المكرمة ـ ١٤٢١هـ

---

(١) النويري السكندري الإلمام، ج١، ص١٤.


التمهيد

التمهيد

ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل العصر المملوكي .

التمهيد:

ملامح الحياة العلمية في الإسكندرية قبيل العصر المملوكي

عاشت مصر الإسلامية عهودا كثيرة، اختلف فيها شروق شمس العلم والمعرفة بين بزوغ ظاهر، وأفول هادئ أحيانا، وحيث إن الحياة العلمية في عصر المماليك حلقة في سلسلة علمية متصلة بما قبله، لذا كان لزاما أن يتم إلقاء الضوء على الحالة العلمية السابقة لهذا العهد ، والواقع أن العهد الفاطمي العبيدي والذي حكم فيه الفاطميون مصر ما يزيد على قرنين من الزمان اندثر فيه كثير من العلم والهدي الصالح حتى إن المساجد عطلت فيها خطب الجمعة، كما أن المدارس معطلة والعلماء السنيون مقهورون [١].

وعندما بدأ نجم هذه الدولة في الأفول، ظهر وزراء ونواب **سنيون** تولوا مناصب عليا بالدولة، وضعفت قبضة الخلفاء الفاطميين ، وبدأت تظهر في الأفق حركة علمية صحيحة، بدأت تعلو شيئا فشيئا، وزادت قوة مع تولي أسد الدين شيركوه ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين الوزارة في مصر [٢]، وعليه يمكن ربط الحركة العلمية في مصر مع الحركة العلمية التي ظهرت مع أفول حكم الفاطميين وإقبال عهد الأيوبيين. حيث **نشطت الحركة العلمية في مصر كلها في عهد الأيوبيين،** ونالت الإسكندرية شهرة كبيرة وذلك لسبقها مدن مصر في النشاط العلمي السني في وقت كانت ترزح القاهرة تحت الحكم الشيعي والنشاط السني بها قليل لا يكاد يظهر له أثر آنذاك، وكانت الإسكندرية أول مدن مصر الفاطمية خروجا على المذهب الشيعي للدولة، وظهرت بوادر ذلك منذ أواخر عهد الفاطميين ، فقد أقام بها كثير من العلماء السنيين ، قادوا الحركة السنية بالثغر،

---

(١) النويري : نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٤٦.

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيل على تولي أسد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين الوزارة في مصر، ومن ثم انتقال الحكم من أيدي الفاطميين إلى الأيوبيين أنظر: الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٥ــ ٣٦، ٦٦ــ ٧٧.

ولعل من أشهرهم الإمام **أبو بكر الطرطوشي**[1]، الذي نزل الثغر واستقر به وتزوج من أهله وبنى مدرسة (أهلية) في عام (٤٩٠ هـ/١٠٩٦م م) درس بها المذهب المالكي، لما شاهده من إقفار المساجد والمدارس من طلاب العلم والعلماء بسبب ملاحقة العبيدية لعلماء السنة وتشريدهم وقتلهم وإيذائهم[2]، ونزل بها أيضاً الحافظ **السلفي** (ت٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) و أبو الطاهر إسماعيل **بن عوف**(ت٥٨١هـ/ ١١٨٥م) وقد عمّر الأخيران فجاوز كل منهما التسعين وطبقت شهرتهم الآفاق فكانت الرحلة إليهما لطلب الفقه والحديث [3].

كما كانت الإسكندرية أول مدن مصر الفاطمية تقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد[4] وتقيم الجمعة في شتى مساجدها باسم الخليفة المستنجد بالله

---

(١) هو أبو بكر **محمد بن الوليد، المالكي، الطرطوشي**، وطرطوشة: هي أخر حد لبلاد المسلمين في شمالي الأندلس، محاذة بأوروبا ،كان إماما عادلا، زاهدا، متقشفا، متقللا من الدنيا، تحول إلى الثغر وتخرج به أئمة، حدث عنه السلفي، وآخرون، توفي بثغر الإسكندرية سنة(٥٢٠هـ/ ١١٢٥م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج ٣، ص ٣٩٣؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٤٩٠.

(٣) سيأتي ذكر ترجمة هؤلاء الأعلام عند الكلام عن المدارس من الفصل الثالث بهذه الرسالة .

(٤) **العاضد لدين الله** : هو أبو محمد عبد الله يوسف بن الحافظ، بويع بالخلافة سنة (٥٥٥هـ/١١٥٩م)، تذكر المصادر التاريخية أنه كان شديد التشيع، متغاليا في سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى سنيا استحل دمه، في عهده حاصر الصليبيون القاهرة فطلب النجدة من نور الدين صاحب الشام فأرسل له جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فلما سمع الصليبيون بقدوم الجيش رحلوا، واستطاع الجيش دخول المدينة عام (٥٦٢هـ /١١٦٦م)، وخلع العاضد على شيركوه الوزارة، وبعد موته تولى الوزارة صلاح الدين الأيوبي، وفي عام (٥٦٧هـ /١١٧١م) خلع العاضد ، وأقام صلاح الدين الخطبة لبني العباس وأبطل اسم الفاطميين، وكانت وفاة العاضد في مطلع عام ٥٦٧هـ، ولم يدر ما تم، وبموته انتهت الدولة الفاطمية، وتسلم صلاح الدين أمر مصر كلها.

انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٨١؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢١٧ـ ٢١٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٤٣؛ حسن

العباسي[1] فقد سبقت بهذا مدينتي الفسطاط والقاهرة[2]،وهذا يدل علـــى أصالـة المذهب السني في الإسكندرية، فقد كان سكان الإسكندرية متمسكين بمذهب أهـل السنة ويدافعون عنه، ففي نهاية الدولة الفاطمية وبداية عهد الأيوبيين امتنـع أهـل الثغر بمنارة الإسكندرية بعد دخول (شاور) عدو الأيوبييـن إلـى المدينـة سـنة ٥٦٢هـ ، وكان ذلك تحت رعاية الفقيه أبي الطاهر بن عوف[3] .

ولما حاول أحد دعاة الشيعة ويدعى قديـد القفـاجي معـاودة الدعـوة للفاطميين بها، بادر أهل الإسكندرية بالكشف عنه والتصدي لدعوته، فتم القبـض عليه وقتل[4] مما يدل على أن المذهب الشيعي قد ولى عن الإسكندرية إلـى غيـر رجعة[5].

إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٠٠، ٢٠١. وفي اعتقادنا أن كره العاضد للسـنة وأهلها لم يمنعه من طلب النجدة منهم، خوفا على ضياع ملكه ومملكته في أيدي الصليبين.

(١)**المستنجد بالله**: هو المظفر يوسف، بن المقتفي لأمر الله، بويع له بالخلافة سنة ٥٥٥ هـــ ، وأظهر سيرة جميلة، وأسقط مكوسا، وورد الأموال إلى أهلها، وكان موصوفا بالفهم الثـاقب والرأي الصائب، والذكاء الغالب، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بآلات الفلك والاسطرلاب، وغير ذلك ، مات مسموما سنة (٥٦٦هـ /١١٧٠م)

ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٦، ابن دقماق: الجوهر الثميـــن، ص١٦٩، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٦، ص٢٩٩.

(٢)ابن العبري: مختصر الدول، ص٣٧٣ ـ ٣٧٤؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٥٠٤.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص٤٨٦، عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ،ص٢٣٧ .

(٤) أبو شامة: الروضتين،ج٢، ص٥٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص٢٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ق١٢، ص٢٩٦.

(٥) كان لصلاح الدين جهود كبيرة للتمكين للمذهب السني بدولته منها القضاء علـــى الثـورات المناصرة للمذهب الشيعي كثورة عماره اليمني وصاحب الكنز، كذلـك قـام صـلاح الديـن باستبدال القضاة الشيعة بقضاة سنة وأنشأ مدارس سنية في مصر والشام، ولمعرفة المزيد عن جهود صلاح الدين في محاربة التشيع بمصر وإحلال السنة انظر: ابن الأثير: الكامل ، ج١١، ص٣٦٦؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٤٦٥؛ عبد الله الغامدي: صلاح الدّين والصليبيون، ص٥١ ـ ٥٦.

وقد اهتم الأيوبيون بالإسكندرية بوجه خاص دون كثير من مدن القطرين المصري والشامي ولا شك أن اهتمام الدولة بمكان يضفي بظلاله على النواحي العامة فيها بما في ذلك الناحية العلمية(١)، أضف إلى ذلك اهتمام الأيوبيين بالناحية العلمية عامة وبالناحية العلمية بالثغر خاصة فقد اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله العلماء ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ، وربما شاركهم في أبحاثهم (٢) ، إذ وصفه ابن الأثير فقال: (كان عنده علم ومعرفة، و سمع الحديث وأسمعه)(٣).

وقد تردد سلاطين الأيوبيين على الإسكندرية للنظر في أمرها وكانت هذه الزيارات حافلة أيضا بزيارة العلماء وسماع الفقه والحديث، **فقد زارها صلاح الدين** في عام (٥٦٦هـ/١١٧٠م) أيام توليه منصب الوزارة في حياة الخليفة العاضد ، ثم زارها في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) غداة وفاة العاضد وإعادة مصر إلى حوزة الخلافة العباسية السنية(٤)، ثم زارها للمرة الثالثة عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) مصطحبا معه ولديه الأفضل والعزيز عثمان فصام بها قسما من شهر رمضان وسمع الحديث على الحافظ أبي الطاهر السلفي، وروى أحاديث كثيرة عنه(٥)، ويذكر ابن واصل أن تردد صلاح الدين إلى الحافظ السلفي في كل جمعة ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت(٦)، **كما زارها في عام** (٥٧٧هـ/١١٨١م) وقال: (نغتنم حياة الشيخ أبي الطاهر بن عوف)، فحضر عنده وسمع عليه موطأ

(١) سيأتي تفصيل ذلك في مبحث اهتمام المماليك بالإسكندرية من الفصل الثاني من الرسالة .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص ٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٩٧.

(٤) عن سقوط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة بمصر للخليفة العباسي، انظر: حامد غنيم أبو سعيد: الجبهة الإسلامية المتحدة، ج٢، ص٥٦؛ عبد الله سعيد الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، ص٢٥، ٣٥.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢، ص٥٦ .

مالك بن أنس برواية عن الطرطوشي وتم له ولأولاده السماع[١]، **كما كان صلاح الدين يعظم الفقيه ابن عوف** ويراسله، ويستفتيه في الأمور الشرعية التي تمس مصالح الدولة والرعية، فقد روى الصفدي في كتابه "نكت الهميان" أن القاضي ابن أبي عصرون أضر في آخر عمره أثناء توليته القضاء، وأصابه العمى، وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته، وكان ابن أبي عصرون حريصا على أن يظل في منصبه، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأي تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ولما كان صلاح الدين على ما يبدوا حريصا على علمائه وعلى ارضاء ابن أبي عصرون كتب بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: (إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف الإسكندراني، وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى)[٢]، **وبعد موت صلاح الدين**، زارها أبنه العزيز عثمان [٣] في علم (٥٨١هـ/١١٨٥م) وكان محبا للإسكندرية حتى إنه رفض ما بذله له ابن البيساني[٤] في تولي قضاء الثغر وكان مالا جزيلا وكان العزيز في حاجة للمال جدا وقتها قائلا للأمير الذي حمل إليه المال: (أعد المال إلى أصحابه، وقل له:

(١)البنداري: سنا البرق الشامي، ص١٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢، ص١١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ق ١٢، ص٣٢٩.

(٢) الصفدي: نكت الهميان، ص١٨٤، ١٨٥، وللوقوف على المزيد من سيرة ابن أبي عصرون انظر: صادق أحمد جودة: المدارس العصرونية في بلاد الشام، ص ١٥ـ ٤٤.

(٣) **العزيز عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي**، عينه والده واليا على الديار المصرية، واستقل بحكمها بعد وفاته سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)،كان ملكا عادلا، كريما، حسن الأخلاق، حسن العقيدة، شديد الخوف من الله، محبا إلى العلماء، سمع الحديث بالإسكندرية ، وحدث عن أبي طاهر السلفي، وابن عوف، توفي سنة (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج ٣، ص، ٢٥١ـ ٢٥٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٨٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٥٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ق ١٣، ص٢٠؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٣٠.

(٤) **هو عبد الكريم بن علي البساني، أخو القاضي الفاضل**، كان واليا على إقليم البحيرة، وجمع مالا عظيما، ثم صرف من عمله وسكن الإسكندرية، وفيها أساء العشرة مع زوجته الموسرة

إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا وعرفه أني إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت أهل الإسكندرية وهذا ما لا أفعله أبدا)[١] .

ولما تعرضت الإسكندرية للوباء في سنة (٥٩٢ هـ/١١٩٥م) **قصدها العزيز** لتفقد أحوال أهلها[٢] ، **كما زارها الملك العادل الأيوبي**[٣] سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) وكرر زيارتها في أعوام ٦٠٨،٦١٢، ٦١٣ لتفقد أحوالها [٤]، **وزارها ابنه الملك الكامل محمد**[٥] مرتين خلال عامي (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)،

لسوء خلق فيه فما كان من أبوها سوى الالتجاء إلى قاضيها، بعد أن أثبت الضرر الواقع على ابنته، وكان عبد الكريم قد أغلق عليها الدار من الداخل، فأمر القاضي بنقب أحد جدرانه وأخرج المرأة وسلمها إلى أبيها، وأعاد الثغرة، فغضب عبد الكريم لتصرف القاضي، وعزم على عزله من منصبه، وأن يظفر هو بنفسه بمنصب قاضي الإسكندرية مكانه، مهما كلفه ذلك من ثمن، نكاية بقاضي الإسكندرية، فعرض مبلغا كبيرا ثمنا للمنصب في وقت كان الملك العزيز في أمس الحاجة إليه، انظر ذلك في: ابن الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢)المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٣٨.

(٣) **هو الملك العادل: أبو بكر بن أيوب**، أخو السلطان صلاح الدين، ملك الديار المصرية سنة (٥٩٦هـ /١١٩٩م)، وكان ذا رأي سديد، حليما،راجح العقل، متمسكا بأوامر الشرع الشريف ونواهيه، منفذا لأحكام الشريعة، مات سنة(٦١٥هـ /١٢١٨م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ١٦٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٧٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص٨٤؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٣٢؛ الحنبلي : شفاء القلوب، ص٢٠٠.

(٤) يذكر النويري في أحداث سنة(٦١٣هـ/١٢١٦م)، أن نحو ثلاثة ألاف رجل من تجار الفرنج تجمعوا بالإسكندرية فخاف أهل الثغر جانبهم، فخرج العادل بعساكره إلى الثغر وقبض على تجار الفرنج، واستصفى أموالهم، واعتقلهم، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٧٧، ٧٨؛ وأنظر أيضا: المقريزي: السلوك، ج١، ق ١، ص ١٧٤، ١٨٥ .

(٥)**هو الملك الكامل: محمد بن العادل أبي بكر**، تولي السلطنة بالديار المصرية سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) ، كان ملكا مهابا، شجاعا، أديبا، محبا للعلماء، والعلم، يحضر مجلسه الفقهاء كل يوم، ويتحدث معهم ، و يشاركهم في فنونهم، مات سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان،ج ٤، ص١٧٢، النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٢٦، ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢٣٨، الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٠٠.

و(٦٣٤هـ/١٢٣٦م) [١] ، **فلاشك أن لهذه الزيارات المتكررة أثرها البالغ في النشاطات المتعددة بالثغر ومن ذلك الحركة العلمية .**

ومما ساعد على نشاط الحركة العلمية بالإسكندرية كثرة المساجد بها، فهو محل تجمع المسلمين للعبادة والتعليم فخطب الجمع والمواعظ، بل والقراءة الجهرية في الصلوات، كل هذا من أساليب بث العلم في العوام هذا بالإضافة إلى كون المساجد محل تجمع العلماء وإلقاء دروس العلوم الشرعية المتعددة، وقد اشتهرت الإسكندرية خلال العهد الأيوبي بكثرة مساجدها، فقد وصفها الرحالة ابن جبير خلال زياراته لها بأنها: (أكثر بلاد الله مساجدا حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقلل ، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقلل مادون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهي كثيرة جدا، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع)[٢]، ويذكر محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة أنه كان هناك مائة وتسعون مسجدا (١٩٠) للخطبة في الإسكندرية في سنة (٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م) حين قدمها[٣].

ويزودنا الهروي بعدد لا بأس به من مساجدها حين زارها في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، حيث قال: (وبها مسجد المواريث يزار، ومسجد سارية، والجامع القديم .. ..وبها مسجد التوبة والرحمة.. ..ومسجد

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ق١، ص٢٤١.

(٢)ابن جبير: الرحلة، ص ١٦. وأيا كان هذا الرقم صحيحا أو مبالغا فيه فإنه يدل على كثرة المساجد بها في الجملة.

(٣) نقلا عن السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٥٦.

النحاة..)[1]، كما أضاف بأن بالإسكندرية جامع منسوب لعمرو بن العاص وأنه مصلى الجمعة للمالكيين[2].

ولا شك أن كثرة هذه المساجد تعكس مدى ازدياد الوعي الديني والثقافي لدى أهل الثغر حتى شيدوا هذه المساجد الكثيرة[3].

أما عدد المدارس فسبق القول أن الإسكندرية تعد أول مدينة بنيت فيها مدرسة بمصر الفاطمية وهي مدرسة أبي بكر الطرطوشي وقد استطاع وزيران سنيان من وزراء الدولة الفاطمية أن يبنيا مدرستين سنيتين بالثغر، حظيتا بدعم وتوجيه حكومي، أولاهما **المدرسة العوفية** وتسمى أيضا بالعادلية وبالرضوانية[4] فقد استصدر الوزير رضوان بن ولخشي[5] سجلا من الخليفة الفاطمي الحافظ[6] بإنشائها سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)،والأخرى **المدرسة السلفية** أقامها الوزير علي

(١) الهروي: الإشارات، ص ٢٧، من الواضح من كلام الهروي أن كثيرا من المساجد اليي أورد ذكرها كانت تحتوي على قبور أو أنها اتخذت للتبرك والزيارة وهذا بالطبع فيه مخالفة شرعية من شد الرحال للمساجد والتبرك بها، إضافة إلى النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

(٢) الهروي:الإشارات: ص ٢٧.

(٣) ولا تزال الإسكندرية حتى يومنا هذا مليئة بالمساجد مختلفة الأحجام والعمران.

(٤) هكذا سماها المقريزي نسبة لبانيها رضوان بن ولخشي ، انظر:اتعاظ الحنفا:ج٣، ص١٦٧.

(٥) **ابن ولخشي: هو الوزير الفاطمي رضوان بن الولخشي**، التحق بخدمة الدولة وترقى في الخدم حتى أصبح أحد الأمراء المميزين في خلافة الأمر، ومن ثم أصبح على حجابة باب ابن الخليفة الحافظ ، عرف الشجاعة، والإقدام، وكان شوكة في جبين الوزير الفاطمي بهرام الذي كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله،مات مقتولا سنة (٥٤٢هـ/١١٤٧م)، ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٧٩-٨٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٤٥٨، ٤٥٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٦٧.

(٦) **الحافظ هو: الإمام أبو الميمون عبد المجيد، الحافظ لدين الله**، ولى مملكة الديار المصرية سنة (٥٢٤هـ/١١٢٩م)، كان موصوفا بالبطش والتيقظ، توفي سنة(٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، انظر: أبوا الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٥، ٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٢١٣.

بن السلار[1] سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، وظلت المدرستان تؤديان دورهما طوال العصر الأيوبي والمملوكي.

وكان العلم المدرس بهاتين المدرستين هو الحديث والفقه المالكي ، ولا شك أنهما علمان مغايران لخط الدولة الفاطمية، ومؤكدا لهوية الثغر السني ،فلما جاء العهد الأيوبي انتشرت المدارس جدا حتى أحصى، محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة عدد المدارس سنة (٦٠٥هـ/١٢٦٢م) فبلغت ١٨٠ مدرسة لطلب العلم[2].

وبالإضافة إلى المدارس التي أنشأها الأيوبيون في الثغر، والتي كانت تمثل نوعا من التعليم النظامي في ذلك الوقت، وجدت أيضا في هذا العصر كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن، ولم تكن هذه الكتاتيب قاصرة على أبناء الأغنياء فقط بل حرص الأيوبيون وعلى رأسهم صلاح الدين الذي أنشأ عددا من هذه الكتاتيب لتعليم الفقراء والأيتام خاصة، وقد اعتبر ابن جبير ذلك من (مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة)[3].

ونظرا لاحتياج هذه المنشآت التعليمية [من مساجد ومدارس، وكتاتيب] إلى مصادر ثابتة تضمن بقاءها ، وذلك للقيام بشؤونها والصرف عليها وعلى المعلمين والمتعلمين فيها ليتفرغوا إلى طلب العلم دون الانشغال بالكسب، لذا لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم هذه المنشآت بالأوقاف التي تكفي حاجات هذه المنشآت[4]، ويؤكد هذا **ابن جبير** عندما تحدث عن مدارس ومحارس[5]

(١) **ابن السلار هو: الوزير الملك العادل سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار**، وزير الظافر بالله العبيدي بمصر، تولى الثغر الإسكندراني قبل الوزارة، لقب بالملك العادل أمير الجيوش، كان بطلا شجاعا، سنيا، ليس على دين العبيدين، مات قتيلا في فراشه، سنة (٥٤٨هـ / ١١٥٢م)، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٣٠٠،ج ٢٠، ص ٢٨١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج٦، ق ١٢، ص ٢٤٨.

(٢) نقلا عن الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٨١.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٧.

(٤) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٢.

(٥) **المحارس والواحد محرس**: مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء، ابن جبير: الرحلة، الهامش ، ص١٥

الإسكندرية، فقد ذكر أن صلاح الدين عمل على ترتيب: (أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك،وأمر على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المحروسة شيء أن يرجعوا إلى صلب ماله، ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المعينة من قبله لهذه الوجوه،وجزية اليهود والنصارى وما يطرأ من زكاة العين خاصة، على وجوه الطلبة، وليس له فيها سوى ثلث أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة)(١).

وإلى جانب هذا كله فقد كان **لموقع الإسكندرية** الهام على سياحل البحر المتوسط دور بارز جعلها **ترتبط ارتباطا وثيقا ببلاد المغرب والأندلس**، فلقد تأثر الثغر بوفود الحجاج والرحالة من المغرب والأندلس، كما كان لوجود العوفي والسلفي بالإسكندرية الأثر البالغ في استقطاب الرحالة وطلاب العلم إليه ليغتنموا فرصة القراءة والسماع على علمائها(٢).

وقد تضافرت عدة **عوامل ساعدت** على هذا التفاعل الثقافي منها: **انتصار المذهب المالكي** على المذهب الإسماعيلي في إفريقية وانفصالها عن الخلافة الفاطمية بمصر على يد الأمير المعز بن باديس(٣) في سنة ٤٤٣هـ(٤) ، وهذا الحدث الكبير جعل كثيرا من الناس في مصر يحلمون بطرد الفاطميين ، حتى تحقق على يد صلاح الدين الذي أسقط الخلافة الشيعية وأعاد مصر للمذهب

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.
(٢) محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، ص ١٥٩.
(٣) **المعز بن باديس بن المنصور بن بلكتين** بن زيري الصنهاجي، صاحب افريقية وما ورائها، من بلاد المغرب، كان ملكا جليلا، عالي الهمة، محبا للعلم والعلماء، كثير العطاء، مدحه الشعراء والأدباء، كان مذهب أبي حنيفة أظهر المذاهب في أفريقيا، فحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الأمام مالك بن أنس، وحسم مادة الخلاف في المذاهب، وقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العبيدي المستنصر بالله، وخلع طاعته،وخطب للخليفة العباسي في بغداد القائم بأمر الله، توفي سنة (٤٥٤هـ /١٠٦١م)،ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج ٤، ص ٣٢١ــ ٣٢٢.
(٤) **لمزيد من التفاصيل انظر:** ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب،ج١، ص ٤١٥؛ ابن خلدون:العبر، ج ٦، ص ٣٢٣، السيد عبد العزيز السالم: المغرب الكبير، ج٢،ص٦٥٣.

السني[١]، **وإلى جانب ذلك كان أهل المغرب يولون الإسكندرية اهتماما كبيرا** جعلهم يتفاعلون مع حوادثها السياسية والحربية **وأدى هذا التفاعل إلى نشوء علاقات ودية** نشطت خلالها الحركة العلمية بين الطرفين، ومما يذكر في هذا أن صلاح الدين لما عين طعاما ورزقا لأبناء السبيل المغاربة ، استوطن كثير منهم الثغر للمرابطة وطالب العلم فيه، فيذكر ابن جبير في رحلته أن السلطان صلاح الدين (عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم)[٢]، **وظل المغاربة ينزلون الإسكندرية في طريقهم إلى الحج**، واستوطنها الكثير منهم، واتخذوها دار رباط حتى نهاية عصر المماليك[٣] .

ولقد كان للمغاربة دور بارز في تنشيط الحركة العلمية في الثغر ، فقد تخرج بالثغر كثير من العلماء كان معظمهم من الوافدين من بلاد المغرب والأندلس ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: **اليسع** بن حزم أبو يحي الغافقي الأندلسي (ت٥٧٥هـ/١١٧٩م) سكن الإسكندرية وأقرأ بها، أكرمه الناصر صلاح الدين، كان فقيها نسابه، له تاريخ في المغرب سماه "المغرب"[٤]، ومنهم: قاضي الإسكندرية **جمال الدين** أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد المالكي المغربي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)[٥]، وأبو القاسم بن فيرة **المعروف بالشاطبي** (ت٥٩٠هـ/١١٩٣م) مصنف "الشاطبية" في القراءات[٦]، و**محمد** بن أحمد بن موسى بن هزيل الأندلسي (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م)، رحل إلى المشرق وحج، وسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر السلفي وابن عوف وغيرهم[٧]، وأبو **بكر** محمد بن

(١) لمزيد من التفصيل انظر: عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون؛ مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين حتى قيام الدولة الأيوبية.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.
(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٢٣٦ .
(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص٢٣٦.
(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص٢١٣-٢١٤ .
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق ١٣، ص١١.
(٧)المراكشي: الذيل على التكملة، ج ٦، ٦٩.

خلف التجيبي الاشبيلي(ت٥٩٦هـ /١١٩٩م)،رحل إلى المشرق وحج، أخذ الحديث عن جماعة منهم أبو الحكم مروان بن مخلوف بن هشام الطرابلسي نزيل الإسكندرية الفقيه المحدث،الطبيب[١]، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف، المقرئ الفقيه القرطبي المالكي(ت٦٣١هـ/ ١٢٣٣م)، قرأ القراءات على الشاطبي، و سمع وحدث، جلس للإقراء بعد موت الشاطبي[٢]، ومنهم: جمال الدين أبو محمد **عبد الله بن إبراهيم الريغي**، المغربي المالكي (ت٦٤٥هـ/١٢٤٧م) قاضي الإسكندرية وخطيبها، له مصنف جليل في علم اللغة[٣].

ولقد بلغ من اهتمام الأيوبيين بالنشاط العلمي في الإسكندرية أنهم حرصوا على تأمين مساكن وحمامات وبمارستانات لخدمة العلماء والمتعلمين بها، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن جبير من أن صلاح الدين أنشأ أثناء زيارته للإسكندرية سنة (٥٥٧هـ/ ١١٨٢م) مدرسة جامعة يدرس بها عدد كبير من الغرباء الذين كانوا يفدون على المدينة من أصقاع متعددة ، مختلف العلوم والفنون، وألحق بها عددا من المساكن للطلبة، والحمامات لخدمة منسوبيها، ومارستانا لعلاج من يمرض منهم، وقد عبر ابن جبير عند زيارته للإسكندرية عن ذلك بقوله: (ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائد في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى ما احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء ، وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم

(١)المراكشي: الذيل على التكمله، ص ٤٤٤.

(٢) ابن قاضي شهبة: طبقات النحاة، ص ٢٢٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص٢٧٢.

الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم)[١].

هذا بالإضافة إلى أن الأيوبيين انشأوا بهذه المدارس مكتبات خاصة ، فضلا عما كان بالمدينة من مكتبات عامة للاطلاع عليها وتأكيدا لسنية الدولة، ودفعا لمسيرة العلم في المدينة في ذلك الوقت، فيذكر ياقوت الحموي أنه كان بالإسكندرية في عصر الأيوبيين دار كتب كبيرة تسمى (دار كتب الحكيم ارسطاليس)[٢].

ولقد كان من نتائج هذا الاهتمام الذي أبداه الأيوبيون أن شهدت الإسكندرية في عصرهم حركة علمية دؤوبة كان قوامها كوكبة من علماء أجلاء لهم باع في كافة فنون المعرفة والعلم، منهم على سبيل المثال ظافر بن القاسم بن منصور الإسكندراني المعروف **بابن الحداد**، (ت٥٢٩هـ/١١٩٥م) كان من شعراء الإسكندرية المشهورين، له ديوان شعر[٣]، ونصر الله بن عبد البر بن مخلوف **ابن قلاقس** الإسكندراني، (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) له تصانيف عديدة منها " الزاهر الباسم في أوصاف أبي القاسم" وقد صنفه لقائد صقلية أبي القاسم بن الحجر حين كان بها، وله أيضا "روضة الأزهار في الأدب"[٤]، **وأبو** طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني، **السلفي** (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م)، كان علما في الحديث، استوطن ثغر الإسكندرية بضعا وستين سنة ينشر العلم ويحصل الكتب[٥]، وأبو القاسم عبد الرحمن بن مكي بن حمزة **بن موقا** الأنصاري (ت٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) كان يعد من أشهر علماء الحديث بها[٦]، **وإسماعيل** بن مكي، بن إسماعيل **بن**

(١)ابن جبير: الرحلة، ص ١٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٢، ص ٣٦٤.

(٣) الذهبي: السير، ج١٩، ص ٥٩٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ٣٥٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٩، ص ٢٢٦، ٢٢٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٦، ص ٣٨١.

(٥) الذهبي:سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٥.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٩٢.

عوف المالكي الإسكندراني (ت٥٨٢هـ/ ١١٨٥م)، برع في الفقه على المذهب المالكي وصنف تذكرة في الأصول[١] ، و**عبد الكريم** بن عطاء الله أبو محمد الإسكندراني(ت٦١٢هـ/١٢١٥م)، كان إماما في الفقه والأصول والعربية، من تصانيفه، "شرح التهذيب"، "مختصر التهذيب"، "مختصر المفصل"[٢]، ومنهم: علي بن إسماعيل بن علي، أبي الحسن **الأبياري** (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م)، برع في علوم شتى منها: الفقه، وأصوله، وعلم الكلام، واللغة، له تصانيف حسنة منها: "شرح البرهان"، "سفينة النجاة"[٣]، ومنهم: عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل **الصفراوي**، (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، شيخ المقرئين بالثغر، برع في القراءات، يقول عنه السيوطي: (انتهت إليه رياسة الإقراء والإفتاء ببلده)[٤]، وله مصنفات عده منها "التقريب والبيان في القراءات" و"الإعلان"[٥]، و**شرف الدين** أبو المكارم محمد بن عبد الله بن الحسن الإسكندراني المعروف **بابن عين الدولة** (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م) الشافعي، قاضي الإسكندرية، له مشاركة في الفقه والأدب[٦]، و**رشيد الدين ابن عوف الفقيه**، عبد العزيز بن عبد الوهاب ابن أبي الطاهر بن عوف (ت٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، سمع من جده الموطأ،كان ورعا زاهدا[٧]، و عثمان بن أبي بكر بن يونس المصري المعروف **بابن الحاجب** (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات، وبرع فيها وأتقنها غاية الإتقان، كان محبا للعلم وأهله ناشرا له ، صنف تصانيف عديدة منها: "أمالي الإيضاح في شرح المفصل"، "جامع الأمهات في الفقه"، "جمال العرب في علم

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص١٢٢؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ٥، ص ١٧٤؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص٢٩٧.
(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦.
(٣) ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ١٢١.
(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٥٦.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء،ج٢٣،ص٤١؛ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص١٨٠.
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص١٠٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ١٩٢.
(٧) السيوطي:حسن المحاضرة،ج١، ص ٤٥٦؛ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب،ج٥،ص٢٣٨.

الأدب"، شافية في التصريف"، "كافية ذوي الأرب في معرفة كلام العرب"، "الوافية في نظم الكافية"، وغير ذلك من التصانيف[1].

وفي مجال الطب كان هناك الشيخ الموفق شمس الرياسة، أبو العشائر هبة الله (ت٥٩٤هـ/١١٩٨م)، من الأطباء المشهورين، يقول عنه ابن أبي أصيبعة: (كان كثير الاجتهاد في صناعة الطب، حسن المعالجة، جيد التصانيف)[2]، كان له مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب، من مصنفاته: "الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد"، "التصريح بالمكنون في تنقيح القانون"، " مقالة في الليمون"، وأخرى في " علاج القولون" أيضا له " رسالة في طبع الإسكندرية، وحال هوائها، ومياهها، ونحو ذلك من أحوالها، وأحوال أهله"[3].

أيضا كان للمرأة دورا في كثير من مجالات الحركة العلمية سواء ميدان علوم الدين أو اللغة والأدب فعلى سبيل المثال كانت هناك: **ظبية، معتقة المحدث عبد الوهاب بن رواح**، سمعت وروت، وماتت بالإسكندرية سنة (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)[4].

وفي مجال الأدب فقد برزت الشاعرة الإسكندرانية ، تقية بنت المحدث غيث بن علي الصوري (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣)، قال عنها السلفي في معجمه: (ولم تر عيني شاعرة قط سواها)[5]، ومن شعرها في وصف إحدى رياض الإسكندرية

والورد يحكي وجنة محمرة   انحل من فرط الحياء لثامها[6].

(١) عبد الباقي اليماني: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، ص ٢٠٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٦٤؛ ابن فرحون: الديباج، ج ٢، ص ٨٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص ٤٥٦؛ البغدادي: إيضاح المكنون، ج ٥، ص ٥٢٦.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢، ص ١١٥.

(٣)حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ١١٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص ١٢١.

(٥) السلفي: معجم السفر، ص ٢٢٠.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص ٩٤.

ولقد شهدت مدينة الإسكندرية في العصر الأيوبي وفود الكثير من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين قصدا ومرورا ، إلا أنهم لم ينسوا أن يمدوننا بالكثير من المعلومات الهامة عنها في ما دونوه في كتبهم ورحلاتهم، ولقد كان للكثير منهم دور بارز في إثراء الحياة العلمية بالمدينة وحلقة وصل لعلوم الشرق بالغرب كذلك نقل الكثير من العلوم التي اشتهرت بالثغر كالفقه والحديث إلى البلدان المختلفة، فمن هؤلاء: **الرحالة** أبي الحسن علي ين أبي بكر **الهروي** (ت٦١١هـ/١٢١٤م)، صاحب كتاب "الإشارات إلى معرفة الزيارات"[١]، فقد كانت الإسكندرية واحدة من البلاد التي ساح فيها الهروي، ووصفها في كتابه، حيث بهرته بآثارها القديمة مثل عمود السواري والمنار ومقبرة وعلة، ونال إعجابه اتساع شوارعها ونظافتها، واهتم أيضا بذكر مساجدها والتي بهرته، فقال: (وبها من المساجد والمعابد ما لا رأيته بغيرها)[٢]. ومنهم الرحالة الأندلسي **ابن جبير** أبو الحسن محمد ابن أحمد الشاطبي البلنسي، كان شاعرا مجيدا، كريم الأخلاق مشهور بالصلاح، قال عنه ابن الأبار: (عني بالآداب فبلغ فيها الغاية، وبرع في النظم والنثر، ودون شعره، ونال دنيا عريضة)[٣] ، رحل ثلاث رحلات إلى المشرق الأولى كانت لأداء فريضة الحج، وقد سجل ابن جبير تفاصيل هذه الرحلة والتي كانت سنة (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، أما الرحلة الثانية فكانت عقب وصول أخبار فتح صلاح الدين لبيت المقدس له، وكانت لمدة سنتين من عام (٥٨٥هـ/١١٨٩م) وحتى عام (٥٨٧هـ/١١٩١م) ، وقد أدى فيها فريضة الحج أيضا ورجع إلى غرناطة لينشغل بتدريس الحديث منقطعا عن الكتابة، وأما الثالثة فهي التي عقبت وفاة زوجته عام (٦٠١هـ/١٢٠٣م)[٤]، فجاء لمكة طلبا للسلوان وجاورها مدة ثم انتقل إلى بيت المقدس، ثم تجول بمصر وقرر الاستقرار بمدينة الإسكندرية وهناك أخذ يعمل

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: ج ١، ص ١٣٣؛ بروكلمان، ج٥، ص٢٢٠.
(٢) الهروي: الإشارات، ص ٤٧، ٤٨.
(٣) ابن الأبار: التكملة ، ص٣١٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص ٣٨٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ٤٥، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٥، ص٢١٤.
(٤) انظر: المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٤٨٩.

بالتدريس إلى أن توفاه الله[1] وقد حفلت رحلته "تذكرة بالأخبار عن انفاق الأسفار" بالكثير من القصص والأخبار وأسماء العلماء والأمراء والمشايخ. **ومنهم ياقوت الحموي**، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، السفار النحوي الإخباري،له تصانيف عديدة منها "معجم البلدان"[2]، الذي نص فيه على رؤيته لمدينة الإسكندرية ومشاهدته لكثير من معالمها، كالمنار، وعمود السواري، فيقول وقد أخذه العجب: (ولقد دخلت الإسكندرية وطوفتها، فلم أر فيها ما يعجب منه إلا عمودا واحدا يعرف الآن بعمود السواري، تجاه باب من أبوابها يعرف بباب الشجرة..)[3]، **ومنهم: الرحالة عبد اللطيف البغدادي** (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، فقد زار مصر مرتين، وطاف بمدنها، ومن بينها الإسكندرية، وألف كتابه " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"[4]، الذي ضمنه مشاهداته عن الإسكندرية، حيث قام بوصف منارها وعمود السواري بها فيقول: (رأيت بالإسكندرية عمود السواري، عمود أحمر منقط، من الحجر الصوان، عظيم الغلظ، شاهق الطول)[5] أيضا نراه يتحدث في مكان أخر من كتابه عن المجاعة التي أصابت مصر سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، وعن مدى الأثر الذي تركته في مدينة الإسكندريه، حيث يقول: (وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة)[6]. **ومن المؤرخين** المؤرخ **عماد الدين** أبو عبد

(١)المنذر: التكملة، ج٢، ص٤٠٧؛ التجيبي: مستفاد الرحلة ص٢٤٣؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٢٨٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة ج٢، ص٢٣٠؛ ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج٥، ص٦٠؛ الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٧٤، وسيأتي في الفصل الرابع زيادة بيان لرحلة ابن جبير في معرض الحديث عن الرحلات.

(٢) لمعرفة المزيد عن ترجمته ومصنفاته انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص٣٠٨؛ البغدادي: هدية العارفين، ج٦، ص٣٩٩؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٥، ص٢١٧ـ ٢٢٠.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ١٨٤.

(٤) البغدادي: هدية العارفين، ج٥، ص٤٤٩؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٥، ص٢٢٠.

(٥) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة، ص ٥١.

(٦) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة، ص ٩٨.

الله محمد بن محمد **الأصبهاني** (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، تولى وزارة صلاح الدين الأيوبي، وكانت له مشاركات في فنون عديدة من فقه وأدب وشعر، له مصنفات عدة منها "خريدة القصر ودمية العصر"، و"البرق الشامي" [١]، زار الإسكندرية حين كان في معية السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذهب معه إلى عالمها أبي الطاهر بن عوف ، وقد دون ذلك في كتابه وقال: (نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه بروايته عن الطرطوشي، وتم له ولأولاده وكتابه السمع والرواية)[٢]. ومنهم: **المؤرخ**، عثمان بن إبراهيم **النابلسي**(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، ولي رئاسة الدواوين في عهد الصالح نجم الدين الأيوبي، وألف كتاب "لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية"[٣]، وهو من الكتب الهامة لدراسة النظم الإدارية بمصر في العصر الأيوبي، و في أحد أبواب الكتاب يتحدث عن إهمال الموظفين لخليج الإسكندرية والحالة السيئة التي وصل إليها والحلول الجادة لإصلاحه[٤]. ومنهم **المؤرخ** شمس الدين، يوسف أبو المظفر **سبط ابن الجوزي**، صاحب كتاب "تاريخ مرآة الزمان"، الذي ذكر فيه أنه دخل الإسكندرية سنة(٦٤١هـ/١٢٤٣م) وقال: (وجدتها كما قال الله تعالى: {ذات قرار ومعين}[٥]، مغمورة بالعلماء والأولياء، كالشيخ محمد القباري، والشاطبي، وابن أبي شامة، ووعظت مرتين)[٦]، ثم يقول: (ووجدتها كما قال القيسراني في وصف دمشق:

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٣٤٥.

(٢) البنداري: سنا البرق الشامي ، ص١٨٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٤.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، ج٥، ص٥٢٥.

(٤) النابلسي: لمع القوانين، ص ٥٥ــ ٥٦.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٦) وقد ذكر الذهبي أن سبط ابن الجوزي جلس مجلسين في الإسكندرية فتاب فيها نحو ألفين، فلما عزم عل العودة إلى القاهرة قام بعض أفاضلها وأنشد أبياتا، قال في أخرها

فنحن ضيوف والقرا ثلاثة وجودك يا مولى الأنام شفيعي

فكان البيت الأخير باعث إلى أن عزز لهم بمجلس ثالث، انظر: الذهبي:تاريخ الإسلام،ص ٦.

أرض تحل الأماني في أماكنـــــها بحيث تجتمـــع الدنيا وتفتـــرق
إذا شدا الطير في أغصانها وقفت على حدائقها الأســـماع والحدق

فعقب عليه صاحب "النجوم" الذي روى خبر هذه الزيارة بقوله: (وأين قـول أبي المظفر من قول مجير الدين بن تميم في وصف الإسكندرية:

لما قصدت الإسكندرية زائرا ملأت فؤادي بهجة وسرورا
ما زرت فيها جانبـــا إلا رأت عيناي فيها جنة وحــــريرا [١].

هذه أهم ملامح الحياة العلمية في الإســــكندرية فــي العصــر الأيوبـــي، وسيتضح من خلال فصول الدراسة أن هناك تشابها كبيرا بيـــن العـــهد الأيوبـــي، وعهد المماليك، ولا سيما عهد المماليك البحرية، مما يؤكد علـــى ثبـــات الحركـــة العلمية في الإسكندرية لعدة قرون من الزمان، وهذا بدوره يؤكد أصالتها، ورســوخ المبادئ التي قامت عليها وبالأخص أن الدولتين أسهمتا بشكل ملحوظ فـــي دعـــم المذهب السني في مصر والشام وغيرها من البلاد التي خضعت لهما.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٤٦.

الفصل الأول

الحيئة العامة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي

وأثر ذلك على الحياة العلمية

. الأوضاع السياسية .

. الأوضاع الاقتصادية .

. الأوضاع الاجتماعية .

. الأوضاع الدينية .

الأوضاع السياسية

تميز عصر المماليك[١] بتقلبات سياسية كثيرة نشأت عن الوضع السياسي المضطرب في العالم الإسلامي، بدءاً بالحملات الصليبية التي واكبت مطلع العصر متوافدة على الشام ومصر، واستمرت إلى ما بعد قيام دولة المماليك[٢]، وكذلك الهجمة المغولية الشرسة التي اكتسحت دول المشرق الإسلامي، والتي انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٩٨م)، وما نتج عن هذه الأحداث من فوضى واضطراب، ولقد ألقت هذه الأحداث بظلالها على مدينة الإسكندرية،ولا سيما وهي ثغر جهادي له ارتباطه بصد الحملات الصليبية خاصة القادمة من القبارصة.

---

(١) **لقد قسم المؤرخون دولة المماليك إلى قسمين بحرية** وهي التي حكم سلاطينها البلاد من عام (٦٤٨هـ ـ ٧٨٤هـ) /(١٢٥٠م ـ١٣٨٢م)، وسمو بالمماليك البحرية، نسبة لجزيرة الروضة التي سكنوا بها، بعد أن كثر عددهم أيام سيدهم نجم الدين أيوب، كذلك سموا بالنجمية والصالحية نسبة لاسم ولقب سيدهم، وقد حكموا مصر والشام والحجاز مدة أربع وأربعين ومائة سنة، ولمعرفة المزيد عن المماليك البحرية، انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٤٠؛ الخطط، ج٢، ص١٨٣، ١٨٥؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٩٩؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ، ج٧ ، ص ٣٥-٣٩، وانظر في أسماء سلاطين المماليك البرجية ومدة حكم كل منهم بالملحق ص ٥٩٨.

أما القسم الثاني: فهم المماليك الجراكسة "البرجية" ، وقد حكموا البلاد من سنة(٧٨٤هـ ـ٩٢٣هـ)/(١٣٨٢م ـ ١٥١٧م)، وقد سموا **بالبرجية** نسبة إلى أبراج القلعة التي سكنوها، **وبالجراكسة** نسبة إلى موطنهم الأصلي، وقد حكموا مصر والشام والحجاز قرابة مائة وثمانية وثلاثين سنة، ولمعرفة المزيد عنهم انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢١؛ محمد مصطفى زيادة: الدولة المملوكية الثانية(ضمن كتاب "تاريخ الحضارة المصرية"، ج ٢، ص٥٠٨؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٤٢، وانظر في أسماء السلاطين البرجية ومدة حكم كل منهم بالملحق ص ٦٠٠.

(٢) لمعرفة المزيد عن حملات الصليبيين على مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، انظر: سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك؛ جوزيف نسيم يوسف: حملة لويس التاسع على مصر.

لقد اهتم المماليك[1] بالأمور السياسية في الإسكندرية، بحكم موقعها المتميز فتكررت زيارات السلاطين للثغر وأهمهم السلطان الظاهر بيبرس[2] المؤسس الفعلي للدولة، فقد أولى الإسكندرية جل اهتمامه ورعايته، خاصة بما يتعلق بالمنشآت العسكرية وتوفير وسائل الدفاع عن المدينة من خلال ما قام به من تحصينات وعناية بدار صناعة الأسطول [3]، ففي العام الثاني لتوليه السلطنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) أصدر مرسوما بعمارة أسوار مدينة الإسكندرية، ورتب لذلك جملة من المال كل شهر ينفق على هذه العمارة، وأمر بحفر خنادقها، و إصلاح ما

(١) كلمة مماليك جمع ومفردها: مملوك، ويقصد بها ما يملك بقصد تربيته، والاستعانة به في الجندية وحكم الدولة، وكان المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم في مصر خليط من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد، وكانوا يتلقون تعليمهم الديني والحربي، الذي يؤهلهم لتولي المناصب والوظائف في الدولة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢١٤؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج١، ص١١؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٢٧ــ ٣٥.

(٢) هو بيبرس بن عبد الله، من بلاد القفجاق، من مماليك الصالح نجم الدين أيوب،كان شهما شجاعا، قضى وقته مدافعا عن الإسلام وبلاد المسلمين من خلال الحملات الجهادية التي قام بها في بلاد الشام وأثمرت باسترداد عدد من المدن التي كانت بيد الصليبيين وفي مقدمتها أنطاكية،وشهدت البلاد المصرية والشامية في عهده عدة إصلاحات حربية وعمرانية، توفي مسموما ودفن بدمشق، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٦، ابن دقماق: الجوهر الثمين: ص٢٧١، العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٧٤، المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٣٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٤٤٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٠.

(٣) لم يقتصر اهتمام الظاهر بيبرس على العناية بثغر الإسكندرية بل تعداه إلى جميع الثغور الإسلامية بدولته، فلقد بنى برشيد مرقبا، وأمر بردم فم بحر دمياط خوفا من هجمة صليبية مباغتة، انظر: عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٩١؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٤٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٢، ص٨٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٢٤؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٢٧٥.

وهن منها، والعناية بأسطولها[1]،وحرص على الإشراف على ذلك بنفسه، فقد زارها مرات عدة، أشرف خلالها على كثير من الأعمال الإنشائية والإصلاحات الحربية والعمرانية في المدينة، فقد زارها للمرة الأولى عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، واستُقبِلَ من قبل أهلها بالحفاوة والترحيب[2]، وما إن استقر به المقام بالثغر حتى أمر برد مال السهمين[3]، ونظر بنفسه إلى المظالم والشكايات المقدمة من أهالي الثغر، فأسقط المكس المفروض على تجارة البهار[4]، كذلك أصدر أوامره بإصلاح أبراج المدينة وترميمها، وزودها بالرجال، وشحنها بالسلاح، وطاف بنفسه على الأسوار وتفقد ما وهن منها [5]،وزار دار العدل، وجلس لسماع المظالم والشكاوي[6]، ثم زارها مرة ثانية سنة(٦٦٢هـ/١٢٦٣م) للنزهة والصيد، وأكد

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٩١؛ بيبرس الدوادار: مختار الإخبار، ص٢٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٤٦؛ سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص١٥٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٧٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٦٤؛ المقريزي:السلوك،ج١، ق٢، ص٤٩٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٧٨.

(٣) **مال السهمين**: يعود إلى عهد السلطان الأيوبي الكامل محمد، الذي أخر من زكاة المال مقدار سهمين خصصهما للفقراء والمساكين، وما لبث أن توقف ذلك الأمر من بعده، حتى عهد الظاهر بيبرس الذي أمر برده بناءاً على رغبة أهالي الثغر السكندري، انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٨٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٢٦٠،

(٤) كان يفرض على كل قنطار من البهار بباع ما قيمته ربع دينار، فاستجاب الظاهر بيبرس لمطلب أهل الثغر بإلغاء المكس وأمر بإبطاله عن الثغر وسائر الرعية، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص١٧٥؛ بيبرس الدوادار: مختار الإخبار، ص٣٤٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٠؛ حماد: الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك، ص٣٥.

(٥) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٦٣، ٣٦٤؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٧٨؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٥٢.

(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٦؛ ابن شاكر الكتبي: الوافي في الوفيات، ج١، ص١٦٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص١٢٥؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٨١.

على استتباب الأمن بها[1]، وفي الزيارة الثالثة التي قام بها الظاهر بيبرس للإسكندرية سنة(٦٦٤هـ/١٢٦٥م) أصدر أوامره بتطهير خليج الإسكندرية من الرواسب الطينية التي تجمعت في مجرى فم الخليج وقامت بسده، وذلك بناءا على شكوى من أهالي الثغر[2]، وفي سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٨م) قام بزيارة رابعة للإسكندرية، وذلك لتفقد تحصيناتها بعد أن بلغت مسامعه تحركات صليبية نحو الإسكندرية، وذلك إبان حصاره لحصن الأكراد[3]، فبادر بالعودة إلى مصر، وهناك علم أن اثني عشر مركبا للصليبيين تسللت إلى الإسكندرية وقام رجالها بالاعتداء على مركب للتجار وأخذوا ما فيه ثم أحرقوه، فخشي بيبرس أن يكون ذلك مقدمة حملة صليبية كبيرة، خاصة وقد بلغه أن عددا من ملوك الصليبيين اجتمعوا بصقلية، و شرعوا في تجهيز الأساطيل دون أن يحددوا وجهتهم[4]،

---

(١) ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر، ص٢١٨؛المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٢٠،هذا وقد أغفل عبد العزيز سالم ذكر هذه الزيارة واعتبر زيارة بيبرس للثغر سنة(٦٢٤هـ/١٢٦٥م) هي الزيارة الثانية له، انظر: عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٢٨٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٤٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٥٨؛ ؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٤٢٨؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص١٧١؛ والسلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٣، وانظر الملحق ص ٦٢١.

(٣) ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر، ص٣٦١، و**حصن الأكراد أو قلعة الحصن**، قلعة تقع على مقربة من نهر العاص، فيما بين حمص وطرابلس، تمتاز بالقوة والمنعة، واتخذت اسمها من الأكراد الذين سكنوها عام (٤٢٢هـ)واستولى عليها الاستبارية سنة(٥٠٣هـ/١١١٠م)، واستعادها بيبرس منهم عام (٦٦٩هـ/١٢٧١م)،انظر:ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج١،ص٥٨٦ ؛أبو الفدا: تقويم البلدان،ص٢٥٨؛جوزيف نسيم:العدوان الصليبي على الشام،ج١،ص٣٥.

(٤) اتجهت هذه الحملة إلى تونس بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا علة يجد استمالة من المتنصر محمد الحفصي، صاحب تونس، أو الاستيلاء على بلاده، ومن ثم الزحف إلى مصر للقضاء على العقبة الكؤود في سبيل الوصول إلى بيت المقدس، ولكنه فشل في تحقيق مطامعه وهلك على أبواب قرطاجنة اثر مرض أصابه سنة(٦٦٩هـ/١٢٧٠م). لمعرفة المزيد عن هذه

فتدرز بيبرس على الإسكندرية، فأمر بقتل الكلاب الموجودة بها، ومنع الناس من فتح حوانيتهم بعد المغرب، ومنع إيقاد النار أثناء الليل، وأمر بعمل جسرين على مراكب أحدهما يصل بين مصر وجزيرة الروضة،والآخر بين الجزيرة والجيزة[1]، وذلك لتسهيل عبور عساكره نحو الإسكندرية إذا داهمها العدو[2].

وفي سنة(٦٧٣هـ/١٢٧٤م) قام الظاهر بزيارته الأخيرة للإسكندرية فاطلع على شؤونها، ونظم أحوالها، وأمر بترميم المنارة بعد أن تداعت أركانها، ووقع جانب كبير من بنائها[3]، كما اطلع على الشكاوي المقدمة من أهل الثغر في حق واليها شمس الدين بن باخل الهكاري، حيث كثر ظلمه ونمى ماله من خلال استيلائه على أموال الخمس والديوان، فقام بيبرس بضربه وتغريمه خمسين ألف دينار، وهدم بستان كبير له[4]، وعاد بيبرس إلى القاهرة ولم يزر الإسكندرية مرة أخرى، حيث وافته المنية سنة(٦٧٦هـ/١٢٧٧م)[5]، وخلفه ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي، الذي لم يمهله أعداؤه ليظهر حنكته أو سياسته في تدبير

الحملة انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٠، ٣٧٣؛ ابن خلدون: العبر، ج١٠، ص٨٤١؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٧٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٩؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، ص٢٨١؛ حسن الكناني: حملة لويس التاسع، ص١٨٧.

(١) **جزيرة الروضة هي**: محلة من محال الفسطاط يحيط بها النيل إذا فاض فتنقطع عن الفسطاط وهي من متنزهات مصر وفيها بساتين كثيرة، وتنسب إلى الوزير الفاطمي الأفضل بين أمير الجيوش بدر الجمالي الذي شيد بها بستان الروضة الكبير، فأصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بجزيرة الروضة، انظر: صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع، ج١، ص٣٣٣، **أما الجيزة**: فتقع غربي الفسطاط وهي منطقة واسعة من أفضل مناطق مصر، انظر : مراصد الاطلاع، ج١، ص٣٦٧؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة الزاهرة، ج٧، ص١٤٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٨٤.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٤٨.

(٤) انظر: ابن شاكر كتبي: عيون التواريخ، ج٢١،ص٣٥٠.

(٥) ابن تغري: المنهل الصافي،ج٢، ص٤٤٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٠.

الدولة، فقد قتل سنة(٦٧٨هـ/١٢٧٩م)[١]، وجاء من بعده أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش، الذي حال صغر سنه وقصر فترة حكمه دون تقديم أي شيء يذكر من أعمال للدولة[٢]، ولما تسلطن المنصور قلاوون[٣]، اكتفى بما قام به الظاهر بيبرس من تحصينات وترميمات في الإسكندرية، وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه خرج بنفسه وصحبته العسكر المصري سنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) لحفر خليج الإسكندرية من جهة (الطيرية)[٤] من أعمال البحيرة، حيث بدأت الرواسب الطينية تترسب فيه من جديد مما أدى إلى انقطاع الماء عن الإسكندرية، وتعطيل

---

(١) **هو الملك السعيد** ناصر الدين أبو المعالي تولي السلطنة بعد وفاة أبيه، واستمر في الحكم حتى سنة(٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، حيث خرج الأمراء عن طاعته، واختلفوا حول إبقائه أو قتله، فخلع نفسه من السلطنة، وتوفي من نفس العام مخلوعا، انظر: ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٢٢٥؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٥٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٨٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٥٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٥.

(٢) **هو السلطان الملك العادل سلامش**، تولى السلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد، وعمره سبع سنين وشهر، وخطب له على المنابر، ولكن ما لبث أن تآمر عليه الأمير المنصور قلاوون، فقام بخلعه، وتولى السلطنة بعده، انظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٤٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٩٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٢٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٦.

(٣) **هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي**، كان ملكا حليما، مهيبا، كثير العفو حسن السياسة، وافر الوقار، فتح الفتوحات الجليلة، وكسر التتار، كانت مدة حكمه أحد عشر عاما وشهرين، توفي سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م)، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٢٦٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٧٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٩٥؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٢٩.

(٤) **الطيرية**: ترعة تخرج من النيل قرب قرية تعرف بهذا الاسم، من أعمال البحيرة، وهي من البلاد القديمة بمركز كوم حمادة، انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧١٣؛ ابن الجيعان: التحفة السنية، ص١٢٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج٢، ق٢، ص٣٣٣.

حركة الملاحة فيها[1]، ونظرا لأهمية الثغر الجهادي، فقد أوصى المنصور قلاوون قبيل وفاته أبنه الأشرف خليل[2] بالاهتمام والعناية بـه، ولكـن نظـرا لانشـغال الاشرف بمحاربة الصليبيين في بلاد الشام، وقصر فترة حكمه فلم تجد الإسكندرية العناية الكافية في عهده ، غير أنها بلغت أوج ازدهارها في عهد الناصر محمـد[3] بن المنصور قلاوون الذي أولى المدينة عنايتـه واهتمامـه، فعندمـا تعرضـت الإسكندرية لزلزال سنة(٧٠٢هـ/١٣٠٣م) والذي ألحق بها أضرارا بالغة خاصـة في المجال العمراني ،فندب الناصر الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار إلى الثغـر لمباشرة جميع الإصلاحات فيه، فقام بتفقد الدمار الذي لحق بالمنشآت المعمارية، و أمر بترميمها، ومنها على سبيل المثال منارتها والتي انشقت وتصدعـت أجـزاء كبيرة منها من أثر الزلزال، كما قام بإعادة إعمـار مـا تـهدم مـن أسـوارها

---

(١) أبو الفداء: المختصر ، ج٤، ص١٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٤٨.

(٢) **هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل**، ابن المنصور قلاوون، كان ملكا مهيبا عـالي الهمة، أبطل الكثير من المكوس، واستعاد عكا ونال شرف تصفية الوجود الصليبي مـن بـلاد الشام، وقتل غدرا وهو يتصيد على يد نائبه بيدرا سنة(٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، انظر: النويـري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٩٥ـ ٢١٣؛ الذهبي: العبر، ج٥، ص٢٢٧؛ ابـن حبيـب، تذكـرة النبيه، ج١، ص١٣٧، ١٧٠؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملـوك، ج١، ق٣، ص١٦٨، ابـن دقماق: الجوهر الثمين،ص٣١٠.

(٣) **هو الناصر محمد بن المنصور قلاوون**، تولى عرش السلطنة المملوكية ثلاث مرات الأولـى واستمرت سنة واحدة من (٦٩٣ـ ٦٩٤هـ)/ (١٢٩٣ـ ١٢٩٤م)، والثانية بدأت فـي سـنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)ن وانتهت في سنة (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، والثالثة وهي أطول فترات حكمـه وبدأت من سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وانتهت بوفاته سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وبذلـك يكـون صاحب أطول فترة حكم عاشها عاهل مملوكي، وكان الناصر ملكا جليـلا، خبـيرا بسياسـة الملك، طالت مدة وعظم شأنه، فقد تولى السلطنة ثلاث مرات، كسر جيش التتار فـي وقعـة شقحب، وفتحت في أيامه الحصون والقلاع، أبطل الكثير من المكوس والمظالم، انظر ترجمتـه في: ابن حبيب: تذكـرة النبيـه، ج٢، ص٣٢٥، ص٢٣٠؛ المقريـزي: السـلوك، ج٢، ق٢، ص٤٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١٠؛ ابن العمـاد الحنبلـي: شـذرات الذهب، ج٦، ص١٣٤.

وأبراجها[١]، وقد أمر السلطان بإصلاح وإعمار جميع ما تهدم من ماله الخاص[٢]، ومن اهتمامات الناصر بالثغر إعادة حفر خليج الإسكندرية، الذي تعطل بسبب تراكم الرواسب الطينية في مجراه، حيث بدأ العمل فيه عام(٧١٠هـ/١٣١٠م)، وقد حصل النفع به على أهالي الإسكندرية حيث استخدمت مياهه للشرب والسقيا، وزراعة الأراضي والبساتين على ضفتيه[٣]، وفي عهد السلطان الأشرف شعبان[٤] حول ولاية الإسكندرية إلى نيابة[٥]، وذلك بعد واقعة القبارصة، ثم زارها سنة(٧٧٠هـ/١٣٦٨م) حيث أشرف بنفسه على التحصينات والأسوار والخنادق، وإعادة تعمير ما هدمه القبارصة[٦].

أما في عهد دولة المماليك البرجية فقد زارها السلطان فرج بن برقوق[٧]

---

(١) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص٢٨، ٣٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج٩، ص١٠٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٥٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٤٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١٦.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٥.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٣، ص٢٤٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص١٧١؛ حماد: الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك، ص١٠٩.

(٤) **هو الملك الأشرف علاء الدين كجك** بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون، تولى أمر السلطنة بعد عزل أخيه المنصور ولكن لم يدم له الملك طويلا حيث خلع بعد خمسة أشهر من توليته أمور السلطنة سنة(٧٤٢هـ/١٣٤١م)، لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص، ج٢، ص٢٦، ص٣٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٧٧.

(٥) انظر خريطة لمدينة الإسكندرية في عهد الأشرف شعبان بالملاحق ص ٦٢٠.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٢.

(٧) **هو السلطان الناصر أبو السعادات**، فرج ابن السلطان برقوق، تولى السلطنة سنة(٨٠١هـ/١٣٩٨م)وكان ملكا كريما، إلا أنه كانت فيه حدة وميل لسفك الدماء، قتل من قبل المؤيد شيخ الذي تولى السلطنة من بعده، وذلك في سنة(٨١٥هـ/١٤١٢م)، ولم يتجاوز عمره

سنة(٨١٤هـ/١٤١١م)، وأبطل بعض المكوس، وخفف بعض الضرائب[١]، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة (٨١٤ هـ/١٤١١م) أن السلطان الناصر فرج: (في حال إقامته بالإسكندرية شكا إليه المغاربة أنه يؤخذ منهم ثلث أموالهم في المكس، ويؤخذ من الفرنج العشر، فغضب من ذلك، وأمر أن لا يؤخذ من المغاربة إلا العشر، فشكر المسلمون له ذلك، فكانت حسنة من حسناته النادرة)[٢]، وقد شهدت الإسكندرية أحداثا سياسية وعسكرية هامة في عهدي السلطان المؤيد شيخ[٣] والأشرف برسباي[٤]، من خلال هجمات القبارصة والكتيلان[٥] على سواحل مصر والشام، وخاصة الإسكندرية، وقد وضع برسباي حدا لذلك بمهاجمة قبرص واستردادها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله،كما اهتم برسباي بإعادة حفر خليج الإسكندرية في زمن قياسي، فقد تم حفره في نحو تسعين يوما، وكان ذلك في سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م)[٦].

الخامسة والعشرين، انظر في ترجمته: الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٣٠٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٢٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٦٨؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٢٦.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤،ص٤٣٦؛السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية،ص٣٨٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٤٨٧.

(٣) **هو أبو النصر الملك المؤيد شيخ المحمودي**، كان ملكا مهابا، شجاعا، كثير الصدقات على الفقراء وأهل العلم، له الكثير من المنشآت الجليلة، توفي سنة(٨٢٤هـ/١٤٢١م)،انظر ترجمته في: الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٤٨٨؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٢٨٣.

(٤) **هو السلطان الأشرف برسباي، أبو النصر**، ساس الملك، ونالته السعادة ودانت له البلاد وأهلها، كانت أيامه هدوءا وسكونا، وصف بالبخل والشح، له مآثر عظيمة كالمدارس وغيرها، مات سنة(٨٤١هـ/١٤٣٧م)، انظر ترجمته في: الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٤٢١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٦١.

(٥) **الكتيلان** نسبة إلى كاتلونيا وهي منطقة شمالي أسبانيا عاصمتها برشلونة، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٠٩؛ الموسوعة العربية الميسرة، ص١٣٨٧.

(٦)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٢٨٩؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٢٠ : ٣٢١؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٩٠.

وقد زار الأشرف قايتباي[1] الإسكندرية مرتين الأولى سنة (٨٨٢هـ/١٤٧٧م)، والثانية في سنة(٨٨٤هـ/١٤٧٩م)، وقد أقام بها مدرسة وقلعة محل المنار القديم[2]، و لعل خوف قايتباي من الدولة العثمانية كان السبب وراء إنشاء هذه التحصينات التي استخدمها وأنفق عليها ما يزيد على المائة ألف دينار، وبوفاة الأشرف قايتباي، كان طريق رأس الرجاء الصالح قد تم اكتشافه، و بدأ الخطر البرتغالي يهدد مدخل البحر الأحمر بهدف ضرب اقتصاد دولة المماليك بالحد من تجارتها مع موانئ الهند وجنوب شرق أسيا، وقد أثر هذا على مكانة الإسكندرية وازدهارها[3].

وقد زارها السلطان قانصوه الغوري[4] سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وكانت في غاية التزحل والخراب فاهتم بتحصينها ودخل قلعة قايتباي، وأقيمت بين يديه

---

(١) **هو السلطان الأشرف قايتباي المحمودي**، كان في أول أمره مملوكا ثم ترقى في الخدم حتى ثبت قدمه وتسلطن، كان محبا للعلم والعلماء، مقبلا على أفعال الخير، توفي سنة(٩٠١هـ/١٤٩٥م)، انظر ترجمته في ، الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٥٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٠٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣١، ٧١، ١٥٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٠٠، وانظر صور للقلعة بالملحق ص ٦١٥.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر في عهد دولة الجراكسة، ص١٦٨، ٣٠٢؛ أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج، ص١٣٢، ١٥٠.

(٤) **هو السلطان قانصوه الغوري**، أحد مماليك السلطان قايتباي، كان أميا لا يعرف شيئا،لأنه جلب من بلاده وهو كبير، وصار السلطان قايتباي يرقيه لكونه أخا لزوجته، كان قوي التدبير، شجاعا ، قتل تحت سنابك خيل ابن عثمان، سنة(٩٢٣هـ/١٥١٧م)، انظر في ترجمته: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٥٦؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج٢، ص٢٩٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٥٤.

بعض الاستعراضات العسكرية[١]، ثم زارها مرة ثانية سنة(٩٢١هـ/١٥١٥م) لتفقد تحصيناتها[٢]،ورمم أبراجها، حيث أرسل البنائين والحجارين لإعادة إعمار ما خرب منها، وذلك تحسبا لأي خطر قد يهددها من جهة البحر من أي قوة خارجية خاصة بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الدولة العثمانية[٣]، وفي العام التالي قام بتجديد أبراجها، زيادة لتحصين الإسكندرية، وأرسل مائتين من المدافع الحديد بالإضافة إلى مدافع صوان، وذلك حين بلغ مسامعه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب لمهاجمة السواحل المصرية[٤]، ولما استولى العثمانيون على مصر المملوكية دخل السلطان سليم الأول عام(٩٢٣هـ/١٥١٦م) الإسكندرية وصلى بها الجمعة، وكانت بها بعض الدور قائمة وما سواها خراب وأطلال[٥].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٢٩٦؛ إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك،ص٣١٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٧٥.

(٣) رأى السلطان العثماني سليم الأول (ت٩٢٦هـ/١٥٢٠م) أنه لا بد من توحيد المسلمين أمام البرتغاليين، فطلب من المماليك مساعدته على قتال الصفويين الشيعة الذين حرضهم الأوربيون على الدولة العثمانية تخفيفا من التوغل العثماني في أوروبا ، فما كان من المماليك إلا أن وقفوا على الحياد أولا ، ثم تحالفوا مع الصفويين بسبب الخلاف على إمارة (ذو قادر) عندما عين العثمانيون بالقوة حاكما مواليا لهم بدلا من الحاكم الموالي للمماليك، كل هذا أدى إلى توتر العلاقة بين المماليك والعثمانيين، والتي انتهت بإخضاع دولة المماليك للدولة العثمانية بدخول السلطان سليم الأول مصر وإعدام آخر سلاطين المماليك طومان باي في عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م). انظر في الخلاف بين المماليك والعثمانيين وأسبابه : محمود شاكر: التاريخ الإسلامي،ج٧،ص٨٨ – ٩١،ج٨،ص١٠٠– ١٠٣؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبندقية في عصر دولة المماليك الثانية، ص١٥٥.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٤، ٩٤.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ص١٦٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤١٥، **ويذكر المؤرخون** أن سليم الأول العثماني انتصر على السلطان الغوري في موقعة مرج دابق سنة(٩٢٢هـ/١٥١٦م) ببلاد الشام، ثم واصل زحفه إلى الديار المصرية وانتصر على طومان باي، آخر سلاطين المماليك الجراكسة، في معركة الريدانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتبه، انظر:

هذا ولم يكن اهتمام المماليك بالثغر السكندري قاصرا على الزيارات التفقدية أو التحصينات الحربية والعمرانية بل تعداه إلى وضع التنظيمات الإدارية الخاصة بالثغر، ولعله من المناسب قبل الخوض في النظام الإداري لمدينة الإسكندرية إعطاء لمحة موجزة عن نظام الحكم في الدولة المملوكية عامة.

فقد كان النظام السائد في الدولة المملوكية هو نظام يعتمد على قوة السلطان، والذي هو أحد المماليك الذين بايعهم كبار الأمراء والمماليك ليكون سلطانا عليهم، ومع إحياء الخلافة العباسية في القاهرة صار الخليفة هو الذي يقلد السلطنة للسلطان، ويفوض له الصلاحيات[1]، ونادرا ما كان السلطان هو الخليفة[2]، وإن كان قد نعى بعض المؤلفين على هذا العصر أن الخلافة فيه صورية، إلا أنه حتى السلطنة كانت أحيانا صورية لأن السلطان إنما يحتفظ بمنصبه من خلال قوة مماليكه ومقدار إخضاعه لغيرهم من المماليك،

وكان السلطان يعتمد في إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الإداريين، وكان بمصر في ذلك العصر **عدة دواوين**[3] حكومية يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة، وأهم هذه الدواوين: **ديوان الإنشاء**،الذي يتولى أمر العلاقات الخارجية وتحرير الرسائل إلى خلفاء السلطان[4]، **وديوان الخاص**، ويدير الشئون المالية المتعلقة بالسلطان[5]، **وديوان**

ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص٩٤ــ ١٠٥؛ عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ص١٩؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٩، ص٩٩.

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٧.

(٢) وذلك كما حدث سنة(٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، حيث تولى السلطنة الخليفة المتوكل على الله، بأمر من المماليك، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣٤.

(٣) **الدواوين**: جمع ديوان، وهي كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر، وقد أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان، والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، انظر: الماوردي :الأحكام السلطانية، ص١٩١.

(٤) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف،ص١٥١؛ القلقشندي: صبح الأعشى،ج١، ص٩٥، ١١٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ٣٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج٢، ص٨٤.

النظر، ويشبه وزارة المالية، حيث يشرف على حسابات الدولة وعلى أرزاق الموظفين[١].

وكانت المناصب الإدارية الكبرى هي: نيابة السلطنة[٢]، **والأتابكية**[٣]، **والوزارة**[٤]، وولاية القاهرة وولاية الأقاليم، وقد كانت الإسكندرية ولاية من ولايات الوجه البحري، يعين عليها والي من أمراء **الطبلخانات**[٥]، وذلك قبل أن تتحول إلى نيابة سنة(٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، ويعود تحويلها إلى نيابة لعدة أسباب لعل من أهمها، وقعة القبارصة على المدينة، وأيضا لما وصلت إليه المدينة من مكانة اقتصادية، حيث أصبحت في العصر المملوكي من أهم مراكز التجارة على البحر الأبيض، وعين لها نائب اختير من **الأمراء المقدمين**[٦]، وتمتع بما كان يتمتع به نواب السلطنة في طرابلس وحماة وصفد من نفوذ وعظمة، **ثم ما لبث** أن أصبحت مرتبته توازي مرتبة نائب السلطنة بمصر[٧]، وكان أول من تولى وظيفة نائب

---

(١) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٢٢٤.

(٢) **كان يتولاها نائب السلطنة**، ومن أعماله توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين، وتعيين الموظفين، انظر: السبكي: معيد النعم، ص٣٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٧.

(٣) **كان يتولاها الأتابك**، وهو القائد العام للعساكر،انظر: القلقشندي: صبح الأعشى،ج٤، ص١٨.

(٤) **كان يتولى منصب الوزارة؛ الوزير أو الصاحب** وهو الذي ينظر في شئون الدولة ويقوم بتصريف أمورها، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨.

(٥) **الطبلخاناه**: (كرتبة) هي درجة من درجات الإمارة، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف وأكابر الولاه، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارسا، وتطلع الطبلخانة على بيت الطبل ويشمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص، ١٣، ١٥.

(٦) **يقصد بذلك أمير مائة مقدم ألف**، وهي أكبر رتب الأمراء في عصر سلاطين المماليك، ولصاحبها الحق في أن يمتلك مائة مملوك ويقود ألفا في حالة الحرب، انظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٤١٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٤، ج٤، ص٢٤.

الإسكندرية، **الأمير بكتمر الشريف**[١]، وقد أنعم عليه السلطان **بإمرة مائة وتقدمة ألف**،وعظم قدر نائبها وصار يسمى **ملك الأمراء**[٢]، وقد كان هناك سياسيون وإداريون يعاونون النائب، منهم ناظر الثغر[٣]،وحاجب أمير عشرة[٤]، وحاجب جندي، وأجناد حلقة[٥] والوالي[٦]، وناظر الصادر[٧]، وناظر الخاص[٨]،

---

(١) **هو بكتمر بن عبد الله المؤمني**، الأمير سيف الدين، كان ذا مهابة ومعرفة وتدبير ودهاء، تدرج في الوظائف،حتى ولي نيابة الإسكندرية، ثم ولي نيابة حلب، ثم صار بعد ذلك أمير آخور بالديار المصرية إلى أن توفي سنة(٧٧١هـ/١٣٦٩م)، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢١؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٣، ص٣٩٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج١١، ص٣٠؛ السيد سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٤.

(٣) **ناظر الإسكندرية**: وظيفته موضوعها التحدث في الأموال السلطانية بالإسكندرية مما يتحصل من المأخوذ من تجار الفرنج، وسائر المتاجر الواصلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٩.

(٤) **الحجوبية**: موضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠، **وأمير عشرة** : مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة فوارس ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٤، ص١٥، ٢٢.

(٥) **هم طائفة من الجنود النظامية**، تتكون من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهي جيش الدولة الذي لا يتغير بتغير السلطان، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٦؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢١٥.

(٦) **الوالي**: وظيفته نشر العدل بين الرعية، ومعاملتهم معاملة حسنة، والعمل على استتباب الأمن وإقامة الحدود، والحث على الجهاد، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٥٩.

(٣) **ناظر الصادر**: وظيفة موضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية، وعليه مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح ينفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٦.

(٨) **ناظر الخاص**: هو لقب من يتولى وظيفة نظر الخاص، وهي وظيفة محدثة، أحدثها السلطان الناصر محمد حين أبطل الوزارة، وصاحبها ينظر في خاص أموال السلطان، و قد صار كالوزير لقربه من السلطان، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠، ج٥، ص٤٦٥.

والقضاة، والمحتسب، وناظر دار الطراز[1] ونائب وكيل بيت المال[2]، وغير ذلك.

ويصف لنا القلقشندي موكب نائب الإسكندرية، فيقول: (وعادة الخدمة السلطانية بها في أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفي خدمته مماليكه، وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسير في موكبه والشبابة السلطانية بين يديه، حتى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء المركزون على حدتهم أيضا، ويجتمعون في الموكب، ويسيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلى دار النيابة في مماليكه وأجناد المائتين، وقد فارقه الأمراء المركزون، وتوجه كل منهم إلى منزله، فإذا صار إلى دار النيابة، فإن كان في ذلك الموكب سماطا، وضع الكرسي في صدر الإيوان مغشي بالأطلس الأصفر، ووضع عليه سيف بنمجاه، سلطانية[3]، ومد السماط تحته، وأكل مماليك النائب وأجناد المائتين، وجلس النائب بجنبة من الإيوان، والشباك مطل على ميناء البلد، ويجلس القاضي المالكي عن يمينه والقاضي الحنفي عن يساره، والناظر تحته، والموقع بين يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع القصص فيقرؤها الموقع، على النائب فيفصلها بحضرة القضاة، ثم ينصرف الموكب)[4]

---

(١) **ناظر دار الطراز:** وظيفة موضوعها كسوة الكعبة والأقمشة السلطانية والتفاصيل المنقوشة والخلع والتشاريف ، ومن مهام صاحبها أن يصون ذهبها عند صرفه وقبضه، وأن يستجلب رجالها وصناعها ويستجد أصنافها وأنواعها ويتفقد أحوالها وأماكنها، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٢٥،ج١٢، ص٣٩٤.

(٢) **بيت المال:** وظيفة دينية موضوعها مبيعات بيت المال ومشترواته من أرض ودور وغير ذلك ولا يليها إلا أهل العلم و الديانة ومجلسه بدار العدل، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧، ص٦٣، ج١١، ص٤٠، ٥٧، ٤٢٥.

(٣) **النمجاة السلطانية:** خنجر مقوس شبه السيف القصير، وهو معرب من اللفظ الفارسي (نيمجة) ، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٦٣ــ ٦٤.

ويلي **وظيفة نائب الإسكندرية من حيث الأهمية** ، **ناظر الثغر**، فهو يباشر تحصيل أموال الثغر، وتنمية متاجره، والنظر في أحوال التجار،و كان للناظر مجلس يعقده لبحث القضايا والمشكلات المتعلقة بمجال اختصاصه[١]، وكان يساعده في المجلس **متولي الثغر** الذي تعتبر وظيفته من الدرجة الثانية من حيث التسلسل الإداري الوظيفي، ومهمته العمل على استتباب الأمن ، و الاهتمام بشؤون جنده ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي خطر قد يهدد المدينة، و كذلك من مهامه إقامة الحدود ونشر العدل بين الناس، والمحافظة على أنفس وبضائع التجار[٢].

ولقد شهدت الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك أحداثا سياسية هامة **واتصالات دبلوماسية** شتى، كما شهدت أيضا **معارك بحرية ضارية**، وغارات وحشية مستهدفة.

أما فيما يختص بالأحداث السياسية والاتصالات الدبلوماسية، فقد كان على سلطنة المماليك وهي إحدى قوى البحر المتوسط ذات السيطرة على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب، أن يكون لها اتصالات سياسية بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية في البحر المتوسط، وقد لعبت الإسكندرية دورا مهما ورئيسيا في رسم السياسات الخارجية وتوقيع المعاهدات الدولية والإتفاقات التجارية بين دولة المماليك والدول الأخرى، من ذلك أن قام المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل قاما بإعطاء امتيازات وتوقيع معاهدات مع المدن التجارية الأوربية[٣].

وبرغم المصالح التجارية التي كانت تحكم سير العلاقات بين المماليك والمدن التجارية الأوروبية، فقد ظل الصراع واضحا بين المماليك والصليبيين طيلة حكم المماليك البحرية نتيجة للحملات الصليبية على الشرق الأدنى، وقيام الإمارات الصليبية في فلسطين وساحل بلاد الشام، في الفترة الزمنية السابقة لدولة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٥٧.

(٣) ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر ، ص ٢١١.

المماليك أي في (الدولة الأيوبية)، ولقد مني الصليبيون بكثير من الهزائم الساحقة كانت معركة حطين بدايتها[١] ، ثم توالت تلك الهزائم في خلال عهد المماليك البحرية حتى تم تصفية الإمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين[٢].

وقد قطعت الكنسية شوطا كبيرا في إذكاء نار الكراهية ضد دولة المماليك في مصر والشام مهددة بتوقيع قرارات الحرمان على كل من يقوم بالاتجار مع الدولة المملوكية، وعملت على إعداد بعض السفن وتسليحها لمراقبة تنفيذ الحظر الاقتصادي الذي فرضته على الاتجار مع موانئ دولة المماليك في مصر والشام.

وقد بدا هذا **انحظر الاقتصادي** واضحا، ولاسيما بعد سقوط عكا على يد السلطان خليل بن قلاوون في عام (٦٩١هـ/١٢٩١م) حيث سارع البابا نيقولا الرابع بإصدار قرار تحريم التجارة مع البلدان الخاضعة للسلطان، وتأييد هذا القرار من قبل مجلس الشيوخ بالبندقية (السناتو)، وساند ذلك الملك هنري لوزينان (HENERY LOZJENAN) الثاني ملك قبرص بالمشروع الذي تقدم به للبابا كلمنت الخامس والذي ينص على أن يكون الأسطول الصليبي المكلف بالحصار مستقلا عن نفوذ ملك الجمهوريات التجارية الإيطالية، والتي تشكك هنري في ولائها للحركة الصليبية [٣].

---

(١) لمعرفة التفاصيل عن انتصارات صلاح الدين في معركة **حطين** انظر: الاصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسي، ص٧٧؛ ابن الاثير: الكامل في التاريخ؛ ج١١، ص٥٣٣ـ٥٣٧.

(٢) **لمعرفة المزيد عن جهود صلاح الدين** في طرد الصليبين من بلاد الشام وفلسطين انظر: العماد الاصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسي، ص ٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢، ص١٨٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٩١؛ عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيين، الفصل الثالث والرابع والخامس.

(٣) سعيد عاشور:الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية،ضمن بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص١٥٥؛عفاف صبره: العلاقات بين الشرق والغرب،ص٩٩.

ولكن هذا الحصار لم يدم طويلا، لأن مصالح الجمهوريات الإيطالية (كالبندقية، وجنوة)، والممالك الأسبانية (كأرغون وقشتاله) تعارضت مع هذا الحصار فعملوا على إلغائه، أو عدم تطبيقه[1].

كما أن الدولة المملوكية من جانبها أعطت تسهيلات ومنحت امتيازات للتجار الفرنج ورحبت بهم في بلادها كما أوضحنا سابقا، كل ذلك دفع الكنيسة إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكريا لكن الظروف لم تساعدهم لقوة المماليك، والروح الجهادية العالية التي تمتع بها المسلمون والذين ضربوا أروع الأمثلة في الجهاد مع الصليبيين.

ومن هنا قام الفرنج بتحويل النظر إلى الضربات الخاطفة والقرصنة البحرية وتخريب الموانئ المملوكية[2]، فتوالت غارات القراصنة الكتلان والاسبتارية[3] ورودوس وقبرص وغيرهم على السواحل والثغور الشامية والمصرية، وكانت الإسكندرية في كثير من الأحيان مسرحا لتلكم الهجمات الشرسة، خاصة من قبل القبارصة، حيث كانت المشكلة القبرصية من كبريات المشاكل السياسية والعسكرية التي واجهت الإسكندرية خلال عقود من دولة المماليك، وكانت لها التأثيرات السلبية على النواحي الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٣؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج ، ص٧؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية، ص٣٥٤.

(٢) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص١٥٧.

(٣) الاسبتارية: من الطوائف الدينية العسكرية ففي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٠م) أنشأت جماعة من الأمالقيين اشتهروا بالتقوى والصلاح دارا ببيت المقدس لينزل بها الحجاج والفقراء بعد أن أخذوا إذنا بذلك من والي الخليفة الفاطمي على بيت المقدس، وكان القائم عليهم رجل يدعى (جيرار)، استطاع أن يجمع من حوله الاتباع خاصة الحجاج الصليبين، وكانت هذه الطائفة لا تخضع سوى للبابا في روما والذي وهبها الهبات الكثيرة، وتطورت هذه الطائفة مع الوقت والإمكانيات إلى أن أصبحت من أهم واجباتها إعداد الفرسان الذين وهبوا أنفسهم للقتال، وجعلوا شارتهم قطعة من النسيج الأبيض برسم الصليب فوق سترتهم التي يختفي تحتها السلاح. انظر عن هذه الطائفة، العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، ص٣٥٧ـ ٣٥٩.

بالمدينة، ومن ثم انعكس ذلك على الحياة العلمية بها، ولم تنته هذه المشكلة إلا بعد فتح قبرص في عهد السلطان برسباي، في أواخر دولة المماليك الجراكسة.

فلقد كانت قبرص قبل سقوط عكا[1] في أيدي المسلمين معقلا هاما للصليبيين الغربيين، توجه منها الحملات على الشرق الإسلامي، وكان يتولى حكمها أسرة لوزينان الفرنسية، وظلت مناوشات القبارصة للإسكندرية مستمرة[2] حتى كانت الواقعة المشهورة عام(٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، حيث كان السلطان الأشرف شعبان وقت وصول الحملة ما زال صبيا عمره (١٣) سنة[3]، وكانت السلطنة في يد الأتابك يلبغا العمري الخاصكي[4]، والذي لم يأل جهدا في الاستبداد بشئون الدولة، وارتكب من الفظائع وضروب العسف والاستبداد ما أشاع الفوضى في البلاد[5]، وكانت البلاد لا تزال تعاني من أثار الطاعون الذي أصابها في سني (٧٤٩، ٧٥٤، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٤)، ومات بسببه عدد كبير من السكان[6]، كما كان متولي الثغر **صلاح الدين خليل بن عرام** وقتها يؤدي فريضة الحج[7]، وكان

---

(١) سقطت **عكا** في أيدي المسلمين عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م)، وكانت أخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام، انظر: المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٦٥؛ رنسمان كتاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٩٧.

(٢) مثال ذلك ما حدث سنة(٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، حيث أتت مراكب قبرص إلى ميناء الإسكندرية واستولت على مركبين من مراكب المسلمين، كما تكرر هذا الاعتداء عندما أغارت أثنا عشر مركبا للقبارصة على الإسكندرية فما كان من الظاهر بيبرس سوى أن استدعى بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتابا شديدا لغدر صاحب قبرص، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية،ج٧، ق١٣، ص٢٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٩.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٠٩.

(٤) انظر: حامد غانم: الأزمات والأوبئة في عصر المماليك.

(٥) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٢؛ الشيال: الإسكندرية في العصريين الأيوبي والمملوكي، ص١٠٠؛ وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص١٠٦.

(٦) انظر: حامد غانم: الأزمات والأوبئة في عصر المماليك، ص٤٦.

(٧) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٣٢

ينوب عنه الأمير جنفرا، ولم يكن على الأهلية التي كانت لابن عرام، فاغتر بصور الحراس الذين كانوا يحرسون الثغر، وكانوا يهتمون بمظاهرهم وأناقتهم، واشتغلوا بذلك عن أداء دورهم على الوجه المطلوب، إضافة إلى ضعف دفاعات المدينة من الجهة الشرقية، فالأسوار لم يكن بها مدافعون أكفاء ولا يحيط بها خنادق، تمنع العدو من التسلق[١].

وعندما ظهرت مراكب القبارصة في صباح الخميس من المحرم سنة(٧٦٧هـ/١٣٦٥م) أمام سواحل الإسكندرية، بدأ أهل الثغر بالاستعداد لمواجهة القبارصة، غير مكترثين بهم، فقد خدعتهم دعاية أن قوتهم لا تقهر، أما القبارصة فقد أرسلوا الجواسيس لمعرفة مدى تحصينات المدينة، فاطلعوا عن قرب عن مدى ضعف تحصينات المدينة واستخفاف الأهالي بسفنهم[٢]، كما أنهم لم يصغوا لنصيحة أحد تجار المغاربة بالتحصين بالأسوار حتى وصول النجدة من القاهرة، بل نزلوا إلى الساحل بغير عدة كافيه، وبدنو أول سفن القبارصة من المدينة تصدى لها المغاربة، ولم يكن ثم تنسيق بينهم وبين رماة النفط، فسرعان ما قضي عليهم وتقدم القبارصة وهم كما يقول النويري: (يلبسون الحديد من المفرق إلى القدم والمسلمين كلحم على وضم فكيف يقاتل اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد)[٣]، وقد أدى تدافع الناس نحو أبواب المدينة إلى هلاك الكثير منهم، بينما آثر البعض منهم القتال والاستشهاد، ولما رأى جنفرا الهزيمة المحققة وكان قد أصيب بسهم فدخل المدينة من باب الخوخة وأتى إلى بيت المال وحمل ما فيه من الذهب والفضة خشية أن يقع غنيمة في أيدي

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج١، ص١١٢، ١٣٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٩١.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج١، ص٣٢٥: ٣٣٥؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣١٢.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص ١٤٣.

القبارصة، ثم أمر باعتقال تجار الصليبيين وقناصلتهم بالمدينة، وكان عددهم خمسين رجلا[١].

وعندما دخل القبارصة الإسكندرية نهبوا متاجرها وخاناتها وأسواقها حتى امتلئت سفنهم بالبضائع والمتاع والذخيرة[٢]، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بحرق المساجد والمدارس[٣]، وقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات بحيث بلغ عدد القتلى نحو من أربعة آلاف شخص، ثم حملوا معهم الغنائم واستاقوا نحوا من خمسة آلاف أسير، وخرجوا من المدينة بعد ثمانية أيام[٤]، ويصور لنا النويري السكندري جزءا من هذه المأساة بقوله: (إن الفرنج كانوا يذبحون المرأة ويذبحون ولدها على صدرها، وقيل إنهم كانوا يجذبون الصبي الصغير بين اثنين فينقطع ويتمزق ، وقيل : يضربون الصغار في الحيطان فيهلكون)[٥]، كما ذكر أن عددا من المتطوعة بلغ الثلاثين رجلا، لما حوصروا في رباط ابن سلام ونفذت سهامهم صعد إليهم الصليبيون، وذبحوهم عن أخرهم بخناجرهم، فصارت أدميتهم تجري من ميازيب الرباط كجري الأمطار حين نزولها[٦].

ولما وصلت النجدة من القاهرة، واستقبلها متولي الإسكندرية **ابن عرام** ومعه **يلبغا الخاصكي** الذي بكى من هول ما رآه، فحمله الألم على الثأر من

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٥٤ــ ١٥٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٥٤ــ ٤٥٥.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٣٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٩

(٥) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص٣٠٧.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٥٠ــ ١٥١. **ويبدوا أن ما ذكره النويري ليس بالأمر المستغرب على مثل هؤلاء الصليبيين** الحاقدين على الإسلام وأهله، فهذا هو دأبهم ونهجهم ضد المسلمين في كل مكان وزمان، وفضائحهم في البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان، وبلدان شتى كثيرة تؤكد على ذلك.

العدو، فتهيأ لعمارة المراكب وجمع الأسلحة، وآلات الحرب، ومصادرة جميع أموال النصارى والرهبان بالديار المصرية، وجمع من ذلك أموالا طائلة[1].

ونستطيع أن نؤكد من مجريات هذه الحوادث، أن بطرس لوزينان (PIETRO LOZJNAN) لم يكن هدفه تملك مصر أو الإسكندرية لأنه يعلم أن القبارصة مهما بلغت درجة انتصارهم في الإسكندرية، ومهما حققوا من مكاسب، فإنهم لن يستطيعوا الصمود أمام العساكر المصرية.

وإنما استهدف من ذلك: إرهاب سلاطين المماليك، وإشعارهم بالخزي والعار أمام الرأي العام الإسلامي، وإضعاف هيبة مصر في الداخل والخارج، وبث روح الهزيمة في قلوب المسلمين، وممارسة نوع من الضغط على حكام دولة المماليك عن طريق المساومة بالأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم إلى قبرص، كما أن من أهدافهم الإطاحة بالاقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع المكدسة بالثغر وبإيقاع الفتنة بين المماليك والبنادقة[2].

وعليه يمكن القول إن ما قام به القبارصة لا يعدو كونه مجرد قرصنة بحرية استهدفت سواحل الإسكندرية، وهذا ما أكده النويري السكندري والذي ذكر أن ملوك أوروبا وجهوا اللوم لملك قبرص قائلين له: (أن الذي فعلته هو فعل اللصوص، لا فعل الملوك كنت لما ملكتها أقمت بها، وناضلت عنها، كما فعلت الجنوية بطرابلس الغرب، ولكنك دخلتها لصا وخرجت منها لصا، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة جيش مصر)[3].

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص٢٠٨؛ سعيد عشور: العصر المماليكي، ص١٣٣؛ قبرص والحروب الصليبية، ص٦٩.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣١٨.

(٣) النويري السكندري:الإلمام، ج ؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٣٣؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢١.

أما على المستوى الداخلي، فقد تحولت الإسكندرية **من ولاية إلى نيابة**، وقام ابن عرام بتحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد[1]، وإن كان ذلك أفادها من الناحية العسكرية ، **إلا أن ذلك لم يرجع لها نشاطها التجاري ولا مكانتها الاقتصادية**، فمنذ ذلك الوقت أخذ نجم الإسكندرية التجاري في الأفول، وقد علق المقريزي على هذه الحالة بقوله: (وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أصلها، وقلت أموالهم وزالت نعمهم)[2].

أما من الناحية الاجتماعية، فقد خلفت هذه الوقعة الكثير من الأرامل والأيتام والعجزة بالإضافة إلى آلاف الأسرى[3]، **وقد أدى هذا إلى تعاطف المسلمين في المغرب مع اخوانهم في المشرق الإسلامي، من ذلك أن الغني بالله محمد بن إسماعيل سلطان مملكة غرناطة** بالأندلس قام بالهجوم على بعض مدن الأندلس ومنها مدينة جيان[4] وطاف المسلمون في شوارع غرناطة يهتفون بعبارة **(يا لثارات أهل الإسكندرية)**[5].

وفي المشرق صادر الخان المغولي أويس بن الشيخ حسن ببغداد، منسوجات حملها طائفة من الصليبيين إلى مدينة توزين[6] في سنة(٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وكان من جملتها أقمشة مخيطة وغير مخيطة مما نهبه

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٥.

(٣) لقد كان من ضمن الأسرى حرائر، منهن من عاد من الأسر، ومنهن من بيع في سوق الرقيق، ويؤكد ذلك الجبرتي بقوله: (إن الفرنساوي الذي يكون في أذنه قرط أمه أصلها من النساء المأسورات في تلك الواقعة)، انظر: تاريخ عجائب الآثار، ج١، ص٣٥.

(٤) **جيان** : مدينة مشهورة بالأندلس ، في شرقي قرطبة، وتجمع قرى كثيرة، ينسب لها عدد من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣،ص١٨٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٨٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦،ص٥٥١؛ العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٤٥.

(٦) **توزين** أو **تيزين**:بلدة من أرض حلب، صفي الدين البغدادي: مراصد الاطلاع،ج١،ص٢٨١.

القبارصة من الإسكندرية، وباعوها لتجار صليبين، ثم أمر بالحوطة على أموالهم وقتالهم عن أخرهم وكانوا نحو ثمانمائة شخص(١).

وتحدث إمام جامع دمشق في خطبة الجمعة عما اقترفه القبارصة من الجرائم في الإسكندرية فتباكى الناس كثيرا، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والفرنج دفعة واحدة، وإيداعهم في الحبوس بالقلعة وأن يصادر ربع أموالهم لعمارة ما خرب من عمران الإسكندرية، ولعمارة مراكب لغزو الفرنج، ونودي بالبلاد ألا يعامل الفرنج البنادقة والجنويين والكتيلان(٢).

وأما على مستوى الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من ابتهاج أهله لهذه الواقعة ومبادرة البابوية بتهنئة صاحب قبرص، ومطالبة دول أوروبا بتقديم العون والمساعدة إلى (الأسد الشجاع) ملك قبرص على حد تعبيرها، إلا أن الجمهوريات الإيطالية لم تكن على نفس الموقف، بل استنكرت هذه الواقعة أشد استنكار خوفا على مصالحها التجارية وحدث بالفعل أن أرسلت البندقية وفدا إلى السلطان الملك الأشرف شعبان تؤكد أن السفن التي هاجمت الإسكندرية ليس لها علاقة بالبندقية، إلا أن السلطان أمر بإيقاف التعامل مع البنادقة أو غيرهم حتى يتم الثأر من القبارصة، وتوجه التجار البنادقة إلى قبرص يطلبون من ملكها وقف الغارات على مصر والشام وتعهدوا لبطرس بدفع الأموال التي أنفقها على حملة جديدة، كان يريد تسيرها إلى بيروت على أن يقوم بالصلح مع المماليك، ولكن مفاوضات الصلح تعثرت مرارا، رغم وساطة البنادقة وغيرهم بسبب غارات القبارضة على سواحل الشام التي لم تأت بنتائج لأن المسلمين كانوا علىأهبة الاستعداد في جميع الثغور(٣).

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ؛ السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية، ص٣٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٣٣٨.

(٣) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٧٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٤٨؛ تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٣٠٤.

وفي عام (٧٧٠هـ/١٣٦٩م) أغار القبارصة مرة ثانية على الإسكندرية، ولكن هيهات فالمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين، فإن المدينة كانت قد استعدت استعدادا حربيا، وكان من بين قوادها البحريين **(إبراهيم التازي)**، رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، وكان ماهرا في الحروب البحرية مما أفسد على القبارصة خطتهم وأصابتهم سهام المسلمين، فرجعوا خائبين يرمون قتلاهم في البحر، ويداوون جرحاهم[١].

وعندما سيطر الجنويون على قبرص سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) بعد صراع مرير مع حكامها[٢]، استمرت القرصنة الصليبية على ثغر الإسكندرية، ولما زاد التنافس بينهم وبين البنادقة بدأوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ومعهم الكتيلان وأهل رودوس والقبارصة[٣]، ومع أنهم بادروا بمصالحة السلطان برقوق[٤] سنة(٧٨٨هـ/١٣٨٤م)، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في أعمال القرصنة، فقاموا بمهاجمة سفن جماعة من التجار كانوا قادمين من بلاد الشام ومعهم أخت الملك الظاهر برقوق وبعض أقاربه، وأخذوا المراكب وأسروا من فيها. فأمر السلطان جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من عندهم من تجار الصليبيين وغيرهم، **ونفذ نائب الإسكندرية** ذلك بدقة حتى أضطره الجنويون إلى إطلاق سراح الأسرى ورد والأمتعة وما نفق منها فلس واحد[٥].

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٥، ص ١٩١، ١٩٦، ٢٨٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٩٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٦٥ـ ٣٦٦.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٩.

(٤) اسمه الطنبغا، ولكن سمي **ببرقوق**، لنتوء في عينيه كأنهما البرقوق، تولى السلطنة سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٠م)، اتصف بالشجاعة والحزم والصرامة، له باع وخبرة في السياسة وتدبير الحكم وكان يتصدى للأحكام بنفسه، توفي سنة(٨٠١هـ/١٣٩٨م)، انظر في ترجمته: ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٤٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ٢٨٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٦٢.

(٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٨٥.

وعاث **القبارصة ومعهم الكتيلان فسادا في البحر** وكثرت غاراتهم على الإسكندرية وغيرها في عهد كل من السلطان المؤيد شيخ، والأشرف برسباي، ففي سنة (٨٢٥هـ/١٤٢١م) في بداية عهد الأشرف برسباي هجم القبارصة على ميناء الإسكندرية وبه مركب تجاري تصل شحنته إلى نحو مائة ألف دينار، فقرر برسباي على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة، فسير **ثلاث حملات** إلى قبرص، **الأولى** سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)، حيث هاجمت سفن المسلمين على الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة وعادت إلى السواحل المصرية سالمة(١)، **والثانية في سنة** (٨٢٨هـ/١٤٢٤م) **حيث وصلت** سفن المماليك إلى سواحل جزيرة قبرص، ودخلت ميناء الماغوصة، فاستولى رجالها على قلعتها(٢)، **أما الثالثة** فقد خرجت في صيف سنة(٨٢٩هـ/١٤٢٥م)بقيادة الأمير **إينال الحكمي** والأمير **تغري بردي المحمودي** ووصلت إلى سواحل قبرص، واستولى رجالها على ليماسول(٣)، وفي تلك الأثناء كان ملك قبرص قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين، فدارت بين الطرفين معركة عند (خيروكتيا) الواقعة إلى الشمال الشرقي من ميناء ليماسول، هزم فيها **القبارصة** شر هزيمة، ووقع ملكهم أسيرا في قبضة المماليك(٤)، وقد استمر زحف الحملة المسلمة حتى وصلت إلى نيقوسيا عاصمة قبرص(٥)، ثم عادت الحملة إلى القاهرة ومعها مئات **الأسرى من ضمنهم ملك قبرص جالينوس،** والذي ظل أسيرا حتى عام (٨٣٠هـ/١٤٢٦م)، حتى أفرج عنه برسباي بعد دفع

---

(١) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٧٧؛ سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك، ص٣٠٧.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ٧٨ـ ٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(٣)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٧٨ـ ٨٨؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص٧٢٢؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٣٤.

(٤)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٧٨ـ ٨٨؛ ابن حجر إنباء الغمر، ج٢، ص١١٢؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ١٠٨؛ العبادي: تاريخ البحرية، ص٣٣٤.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١١٢؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١١٣.

فدية كبيرة والاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على قبرص، حيث **ظلت بعدها قبرص من جملة (بلاد السلطان) حتى نهاية العهد المملوكي**[1].

وبهذا توقف خطر قبرص على ثغر الإسكندرية باستثناء بعض أعمال القرصنة الخاطفة والتي قام بها حاكم جنوة بالاشتراك مع ملك قبرص وفرسان الاسبتارية في جزيرة ردوس سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) بشن غارة خاطفة على ميناء الإسكندرية ، **ثم تلا ذلك عبث القراصنة الكتلان** بسفن المماليك ، **مما دفع السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسؤلية الجماعية إزاء جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية** ، وتحديدا تجار الكتيلان وقنصلهم، فقد أمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة[2]، فسارعت البندقية بإرسال سفير من قبلها يؤكد له براءة البنادقة من هذه الأعمال، وقد نجح السفير البندقي في مهمته، وعقد معه معاهدة مؤرخة في سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م)[3].

وعندما اعتلى الفونسو (Alfonso) **الخامس عرش مملكة أرغون** عام (٨١٩هـ/١٤١٦م) بدأت هذه المملكة تدخل الصراع بقوة مع المماليك، متذرعة بما قام به المؤيد ضد الكتيلان، فقد استدعى المؤيد قنصل الكتيلان بالإسكندرية وحاكمه على تدخله في محاولة منع الكتيلان بدمشق من دفع التعويض المالي الذي كان حكم عليهم بسبب بيع التجار التونسيين كرقيق في برشلونة غدرا، وقد قام المؤيد بجلده بالسياط حتى أدمى ظهره ثم سجنه بالإسكندرية، فغادر الكتيلان الإسكندرية تاركين أموالهم وبضائعهم والتي صادرتها السلطات المملوكية وفاء

---

(١) ابن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص١٤٤؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٩٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٢٧٦؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١٢٦؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٣٦. هذا وقد ظلت قبرص خاضعة لحكم المصريين حتى بعد سقوط دولة المماليك سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، حيث استمرت الجزيرة تدفع الجزية إلى السلطان العثماني، حتى سنة (٩٨٥هـ/١٥٧٧م) حيث حكمها الأتراك حكما مباشرا عن طريق ولاتهم الأتراك، انظر: العبادي: تاريخ البحرية، ص٣٣٦.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية بين البندقية ومصر،ص٢٣٦.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٢٣.

بالتعويض المذكور[١]، **فأمر الفونسوا الخامس القراصنة الكتيلان بشن الغارات** على السواحل المملوكية، ومن ضمنها الإسكندرية ، ففي عام (٨١٩هـ/١٤١٦م) هاجم الكتيلان ميناء الإسكندرية واستولوا على إحدى سفن المغاربة، ولم ينج من ركابها سوى نفر قليل، ألقوا بأنفسهم في البحر حتى وصلوا إلى الشاطئ سباحة[٢]، **وفي السنة ذاتها رست ثلاثة سفن لهم** بميناء الإسكندرية متظاهرين بقدوم وفد للتفاوض وعقد الصلح معهم، فرحبت السلطات المملوكية بهم وسمحت لمن معهم من التجار بإنزال سلعهم وبيعها وشراء التوابل ، فانتهز الكتيلان هذه الفرصة فقاموا في إحدى الليالي بتخليص قنصلهم من سجن الإسكندرية ثم أغاروا على الميناء وأشعلوا النار بكل ما كان فيه من السفن واشتبكوا في قتال دموي مع قوات الميناء، ومن كان بها وقتئذ من التجار فقتلوا منهم وأسروا نحو ستين من الرجال والنساء، كما استولوا على سفينتين للجنوية وأخرى للبنادقة، وسفينة أخرى للمسلمين كانت راسية بالميناء وأبحروا بها وبمن عليها من تجار إلى رودس[٣].

وقد **أصدر السلطان ططر**[٤]مرسوما **حدد** بمقتضاه **مدة إقامة** جميع طوائف **الفرنج** في أراضي الدولة المملوكية **بأربعة أشهر** على أكثر تقدير، وهي المدة التي رآها كافية لإنهاء عملياتهم التجارية، وقصد بذلك منعهم من الإقامة الدائمة بالبلاد تجنبا لتآمرهم مع القراصنة، حيث كانوا يمدون القراصنة بالمعلومات عن التحصينات بالسواحل والموانئ وعن أخبار وصول التجار المسلمين ومغادرتهم للموانئ وعن استعدادات المسلمين لمواجهة غاراتهم وغير ذلك[٥].

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص٢٤؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٨٧.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ٣٧٠.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ٣٨٨.

(٤) **هو السلطان الظاهر ططر**، تولى الحكم سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)، كان ملكا عارفا فطنا، عنده أقدام وجرأة وكرم مفرط، توفي من نفس العام الذي تسلطن فيه، فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يوما، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٣٩٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٣٠٢.

(٥) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٢٨.

وقد تتابعت **غارات الكتيلان** وقرصنتهم على سفن المماليك ففي عهد السلطان الأشرف برسباي شن الكتيلان هجوما على ميناء الإسكندرية في سنة(٨٢٥هـ/١٤٢٢م)، وقد كانت هذه الغارة من الشدة والعنف بحيث تعذر تقدير الخسائر في الأنفس والأموال، فيذكر ابن تغري بردي أن من ضمن الخسائر التي لحقت بتجار الإسكندرية أن: (الفرنج أخذوا مركبا للتجار من ميناء الإسكندرية بها بضائع بنحو مائة ألف دينار، فشق ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية)[١].مما اضطر برسباي إلى التخطيط للسيطرة على قبرص وإنهاء هذه الاعتداءات.

ومع بزوغ نجم السلطان جقمق[٢] بدأت تراوده فكرة السيطرة على جزيرة رودوس ليضيف انتصارا جديدا للمماليك على الصليبيين، وبدأ بإنشاء سلسلة من الإجراءات الدفاعية، وعلى الرغم من استئناف العلاقات التجارية مع الصليبيين في عهده **إلا أنه جدد المرسوم الططري** فأعلن في سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، بأنه لن يسمح لتجار الصليبيين بأن يقيموا بدمشق والإسكندرية أكثر من ستة شهور، وأنه لين يسمح لقناصلهم الإقامة في هاتين المدينتين أكثر من عام واحد[٣]، **وقد كان دخول رودس حلما لسلفه برسباي الذي قام بفتح قبرص**، لكن توتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول المجاورة بالمشرق من التيموريين[٤] والعثمانيين صرفه

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٤٩ــ ٢٥٠.

(٢) **هو السلطان الظاهر أبو سعيد الجركسي**، تولى الحكم سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، اتصف بالعدل والشجاعة والعفة مع التدين وحب الخير، تنازل عن الحكم لولده الملك المنصور بعد مرض طويل ألم به، ثم ما لبث أن توفي بعد تنازله بإثنى عشر يوما سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م)، انظر ترجمته في ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص٢٧٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٧١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٨٤.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٥٥؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية و ص٣٣٦.

(٤) لقد ساءت العلاقة بين الدولة المملوكية وتيمورلنك بسبب توسعاته على حساب المماليك فقد دخل حلب ودمشق وبغداد وارتحل إلى تبريز وجعلها قاعدته الحربية، وفي أثناء وجوده ببلاد الشام عام (٨٠٤هـ/١٤٠١م) انقاد له السلطان المملوكي فرج بن الظاهر برقوق، فدفع له أتاوة وخطب باسمه، وقد ظلت بغداد وتبريز في أيدي أسرة تيمورلنك حتى سنة

مرغما إلى قبول ما عرضه فرسان الاسبتارية من صلح عام (٨٣١هـ/١٤٢٧م)، والذي بموجبه تعهدوا بعدم حماية قراصنة الكتيلان بجزيرتهم، وقد قدم وفد إلى القاهرة للتوقيع على هذه المعاهدة(١).

إلا أن معاودة **الصليبين بتهديد** سواحل **الإسكندرية** سنة (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)(٢)، دفع السلطان **جقمق إلى القيام بثلاث حملات محاولا** فتح جزيرة رودس، **كانت أولاها** سنة(٨٤٥هـ/١٤٤١م)، وقد قام الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون وبيت لحم بنقل أخبارها إلى فرسان الاسبتارية ، فاستعدوا للحملة، ومن هنا أصدر جقمق أوامره بمنع التجار الصليبيين من شحن بضائعهم التي في ميناء الإسكندرية، وفرض عليهم شراء البهار بأثمان مرتفعة، ولما رفضوا ذلك أمر بالقبض عليهم وترحيلهم من الإسكندرية ليسجنوا بالقاهرة، كل تلك الإجراءات الصارمة من قبل جقمق جعلت البنادقة يخافون على مصالحهم التجارية، فأعلنوا حيادهم في الصراع بين المماليك والاستبارية في رودوس، حيث أصدرت تعليمات بعدم تعرضهم لسفن السلطان، وتجنب الإبحار إلى رودس، وهددوا من يخالف هذه الأوامر بتوقيع عقوبة الموت عليه(٣).

ورغم فشل الحملة الثانية التي سيرها جقمق إلى الجزيرة سنة(٨٤٦هـ/١٤٤٣م)، إلا أنه أرسل **حملة ثالثة** لغزو الجزيرة، وكان ذلك سنة

(٨٧٤هـ/١٤٦٩م) ثم وقعت في أيدي الاقيونيون التركمان ومن بعدهم الصفويين سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، ولقد كان لوجود التيمورلنكيين ببغداد وتبريز خطر بالغ على بلاد الشام مما أدى إلى سوء العلاقات ما بين الدولتين، الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٦٧، ٩٧، ج٤، ص٥٧؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٢٠٥.

(١) طرخان: مصر في عصر دولة المماليك والجراكسة، ص١٠٥؛ إبراهيم حسن: البحرية في عهد سلاطين المماليك، ص٢٦٨.

(٢)العيني: عقد الجمان، ص٣٣٦، ٣٦٠؛ ابن حجر : إنباء الغمر، ج٣، ص٤٢٠، ٤٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٩.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٥٧؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والممباليك الأسبانية، ص٣٥٧.

(٨٤٨هـ/١٤٤٤م)[١]. إلا أن الحملة لم تحقق الآمال المرجوة منها، ويعلق السخاوي على ذلك بقوله: (أنه لم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، ولله عاقبة الأمور)[٢].

وفي أواخر عهد السلطان الأشرف إينال[٣] أغار الصليبيون على سواحل مصر سنة(٨٦٣هـ/١٤٥٩م)، فتصدت لهم قواته، وتعقبتهم في عرض البحر وأعقب ذلك معاقبة تجار جنوة الذين حامت حولهم الشبهات، فقبض عل تجارهم وعلى قناصلهم بالإسكندرية[٤].

وفي عهد الأشرف قايتباي كرر الصليبيون غاراتهم على سواحل الإسكندرية وأسروا تسعة أنفار وعبثوا بالميناء، فأمر السلطان بخروج تجريدة لتتبعهم[٥]، **وفي سنة(٨٨٠هـ/١٤٧٠م)، شن القراصنة الصليبيون غارة** على ميناء الإسكندرية، وقاموا بأسر بعض تجارها منهم **تاجر السلطان ابن عليبة**[٦]، ثم عادوا إلى ديارهم؛ مما دفع السلطان إلى القبض على جميع التجار المقيمين بالإسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم، وإلزامهم بمكاتبة ملوك الصليبيون

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٦٠.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٩؛ ابراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤.

(٣) **هو السلطان الأشرف إينال بن عبد الله** ، تولى الحكم سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م)، كان ملكا جليلا، عادلا، معظما في دولته ، توفي سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م)، انظر في ترجمته : ابن تغري بردي: الدليل الصافي، ج١، ص١٧٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص٣٢٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٦٦.

(٤) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٩٠.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٨٩

(٦) **ابن عليبة هو**: بدر الدين حسن بن إبراهيم بن عليبة السكندري أحد رؤساء الكارم بالثغر، وتاجر السلطان قايتباي، وقع في أسر قراصنة الصليبيين أثناء غارتهم على المدينة سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، وظل في الأسر لمدة عام حتى أطلق سراحه نظير فدية من المال، غير أنه ظل يعاني من المرض الذي أصابه نتيجة الأسر حتى وافته المنية عام (٨٨٩هـ/١٤٨٤م)، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٤٤، ١١٩، ٢٠٧.

لإطلاق سراح التجار المسلمين، وتحت التهديدات المملوكية أطلق القراصنة الصليبيون أسرى المسلمين[١].

وفي عهد السلطان قانصوه الغوري استمرت غارات القراصنة الصليبيين تهدد السواحل المملوكية، **ففي سنة** (٩١٥هـ/١٥٠٥م) **هاجم فرسان الاسبتارية** على خمس سفن قادمة من ميناء الإسكندرية، و كانت تحمل عددا من المغاربة فأسروهم، واستولوا على متاجرهم، وقيل إن هذا كان بالاتفاق مع بحارة السفن الفرنسية، فقام الغوري بالقبض على القنصل الفرنسي بالإسكندرية وعلى جميع تجارهم بها مع مصادرة متاجرهم[٢]، **ثم كرر الاسبتارية في سنة** (٩١٦هـ/١٥١٠م) الهجوم على عدد من السفن المصرية في عرض البحر والتي كانت محملة بالأخشاب لبناء أسطول جديد، فقام السلطان الغوري بالقبض على جميع تجار الصليبيين المقيمين بالإسكندرية ومصادرة أموالهم والتحفظ على متاجرهم[٣].

ولم تقتصر دائرة الصراع وتهديد الموانئ المملوكية على الصليبيين بل ضمت الشاه إسماعيل الصفوي[٤] الذي اتفق مع الفرنج على أن يهاجم مصر من البر وهم من البحر[٥]، فلما علم الغوري بذلك سارع بالقبض على قناصلة البندقية

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١١٤.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص٢٣٩.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٣.

(٤)**هو إسماعيل بن حيدر بن الجنيد** حفيد صفي الدين الأردبيلي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، والذي ينسب إليه الصفويون، وقد تمكن إسماعيل من الاستيلاء على عدد من المدن منها **تبريز** والتي جعلها قاعدة ملكه، واتخذ **المذهب الشيعي** منطلقا لفكرته، وقد توسع بدولته حتى وصل نهر جيحون وساحل الخليج العربي، وعمل مع البرتغاليين ضد العثمانيين رغم أن البرتغاليين كانوا يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين، ولكنه هزم أمام العثمانيين بقيادة سليم الأول في معركة **جالديران عام** (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وفر هاربا حتى توفي سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، انظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٨، ص٣٨٦

(٥) **يعود سبب تحالف البنادقة مع الصفويين** ضد المماليك إلى ما قام به الغوري من رفع أسعار التوابل لمواجهة نفقات الجيش وبناء الأسطول، وإجبار البنادقة على شرائها بالأسعار التي

بالإسكندرية ودمشق وطرابلس واحتد عليهم وهددهم بالشنق، ورسم بالتحقيق معهم والقبض على جميع تجارهم والتحفظ على أموالهم وبضائعهم[1].

ولما كان الغوري قد ضاق ذرعا بالبندقية وبسياستها ذات الوجهين، وفقد الأمل في تقديم المساعدة له في استرجاع السفن التي استولى عليه الفرسان الاسبتارية في خليج إياس، تحول إلى القنصل الفرنسي في الإسكندرية وطلب منه مساعدة ملك فرنسا للضغط على الاسبتارية لإعادة سفنه والكف عن أعمال القرصنة ضد دولته، غير أن محاولاته باءت بالفشل، حيث رفض الاسبتارية مساعي ملك فرنسا في هذا الصدد[2]، فما كان من الغوري سوى أن بني أسطولا جديدا لمواجهة الخطر البرتغالي الذي بدأ يهدد نفوذ دولة المماليك في مياه المحيط الهندي والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ومدخلي البحر الأحمر والخليج العربي.

حددها هو، ولكنهم رفضوا الشراء بتلك الأسعار، وأبحروا دون إذن سلطات ميناء الإسكندرية، فتعرضت سفنهم للهجوم في عرض البحر، ولكنها أفلتت ومن ثم ساءت العلاقة بين الطرفين، انظر في ذلك: نجلا محمد: العلاقات السياسية والتجارية بين البندقية ومصر، ص٢٣٨.

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٩١، ١٩٩؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٧ـ١٤٨.

(٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج، ص١٥١.

الأوضاع الاقتصادية

شهدت الإسكندرية خلال عصر المماليك نشاطًا **اقتصادياً** ملحوظاً حتى صارت تضاهي كبريات العواصم الإسلامية، ويمكن أن نعزو هذا الازدهار الاقتصادي إلى عوامل عدة، يأتي في طليعتها :

تميز موقعها، فقد احتلت الإسكندرية موقعاً ممتازاً من الناحية الاقتصادية، إذ تشغل شريطا ساحليا ضيقا يقع بين البحر المتوسط في الشمال وبحيرة مريوط في الجنوب، ويبرز من هذا الشريط الساحلي في البحر المتوسط بروز يابس يمثل جزيرة فاروس التي شكلت حاجزاً طبيعياً للحماية من هذه الأعاصير، ويربط بين الشريط الساحلي والجزيرة لسان أعطى الفرصة بإقامة ميناءين، الميناء الشرقي والميناء الغربي[١].

كما أن موقعها هذا أهلها أن تكون حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وقد عبر عن ذلك ابن بطوطة حين نزل بها بقوله:(..وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان، بها ما شئت من التحسين والتحصين، ومآثر دنيا ودين.. ..الجامعة لمقرن المحاسن، لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فإليها انتهاؤها)[٢].

كما أن **هجمات المغول** المدمرة على دول المشرق الإسلامي منذ بداية القرن (٧هـ/١٣م) **والإضطرابات السياسية** التي نجمت عن ذلك، أدت إلى تدمير طرق التجارة الرئيسة المألوفة بين الشرق والغرب[٣]، وخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق البري المار بسمرقند، والذي كان يعترف بطريق الحرير[٤] الأمر الذي تحول معه طريق التجارة إلى البحر الأحمر ومصر، فكانت تنتقل البضائع القادمة من بلاد المشرق بحراً عبر البحر الأحمر ومنها إلى ميناء (عيذاب) الواقع على سواحل البلاد المصرية ومنه إلى الإسكندرية ، ومنها

(١) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص٣.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٠.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٧.

(٤) شوقي شعث: طريق الحرير، بحث منشور في مجلة التاريخ العربي، الصادر عن جمعية المؤرخين المغاربة،ص ٢٣٩ـ ٢٤٩.

(عيذاب) الواقع على سواحل البلاد المصرية ومنه إلى الإسكندرية ، ومنها تحمل إلى المغرب ودول أوربا، بأثمان باهظة، حيث كانت التوابل تباع في أوروبا الغربية بثمن يفوق أربعين مرة ثمنها في بلدان جنوب شرق آسيا، فكان مردود ذلك كبيراً على ازدهار التجارة بالإسكندرية وانتعاش الحركة الاقتصادية بها، بل وعلى جميع مناحي الحياة بها [١].

كما غدت الإسكندرية ميناء الأراضي المصرية الأول بعد أن فقدت دمياط أهميتها الحربية والاقتصادية، نتيجة غزو الصليبيين لها سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)[٢]، فيذكر المقريزي حين يؤرخ لحوادث سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) أن المماليك البحرية قاموا بتخريب مدينة دمياط، بعد جلاء الفرنج عنها خوفاً من عودتهم إلى المدينة مرة أخرى، فقاموا بهدم أسوارها، ولم يبقوا فيها سوى مسجدها، وفي سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) قام الظاهر بيبرس بردم فم بحر دمياط لمنع دخول المراكب إليه[٣].

كما كانت الإسكندرية **محلا للإقامة الجبرية** لبعض الخلفاء والسلاطين، وهؤلاء كانوا أثرياء وكانت معهم أموالهم بالثغر فأدى وجودهم فيه وعدم خروجهم منه إلى إنفاق قسم من هذه الثروات بالثغر، بل وساهم بعضهم في تنشيط الحركة التجارية بها من خلال اشتغاله بالتجارة، فعلى سبيل المثال سكنها السلطان فرج ابن الناصر فرج ومات مطعونا بها سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)[٤]

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، ص٥٢٦ ـ ٥٢٨؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص١٤٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٣٣٤، ولمعرفة المزيد عن هذه الحملة والتي عرفت في التاريخ باسم (**حملة لويس التاسع**) انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٠٠٨؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٤٣٩ ـ ٤٧٤؛ جوزيف نسيم يوسف : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، ص.

(٣) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٣.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر: ج ٣، ص ١٣٩.

وسكنها الخليفة العباسي المستعين بالله ومات مطعوناً بها سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[١]، فتذكر المصادر التي بين أيدينا أنه استطاب السكنى بالإسكندرية واشتغل بالتجارة وحصل منها أموال كثيرة[٢]، ومما لا شك فيه أن ذلك عامل مساعد لأزدهار النشاط الاقتصادي بها.

وكان سلاطين المماليك يهتمون بزيارة الثغر زيارات كثيرة متعددة للنظر في أحواله السياسية والاقتصادية، ولعل من ضمنها حرص السلطان الظاهر بيبرس على توسعة خليج الإسكندرية **(ترعة المحمودية الآن)** والذي كان يمد الثغر بالمياه العذبة من النيل كما كان له دور في الإبحار ، فقد كان من العوض والاتساع الكافيين للإبحار فيه دون مخاطر[٣].

وإلى جانب هذا تميزت الإسكندرية **بتطور عمراني** كبير تمثل في متانة بنائها وكثرت أعمدتها الرخامية الجميلة، وعلو مبانيها واتساع شوارعها ورصفها، مما جعل هذا التقدم العمراني جاذباً لرؤوس الأموال للاستثمار، وذلك لأن الصورة الجميلة التي كانت تبعثها هذه المباني تنعكس على إقدام الناس على الشراء[٤]، فحين نزل بها **ابن جبير** وأبصرها نالت إعجابه ولفت نظره (حسن وضع البلد، واتساع مبانيه..)[٥]، ووصفها **صاحب كتاب الاستبصار** بأنها كانت: (تعجب كل من رأها لبهجتها، وحسن منظرها، وارتفاع مبانيها، وإتقانها، وسعة شوارعها وطرقاتها..)[٦]، كما وصفها **ابن دقماق** بقوله: (وهذه المدينة بنيت على ضفة البحر الشامي، وبها آثار عجيبة ورسوم قديمة قائمة، تشهد لبانيها بالملك والقدرة، وهي.. كثير العمارة رابحة التجارة عالية البناء، رائقة المعنى،

---

(١) القرماني: أخبار الدول، ج ٢، ص ٢١٧.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣، ص ٤٤٦؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٥٣.

(٣)انظر ما سبق، ص ٤٨.

(٤) ويتضح ذلك الآن في تنافس المحلات التجارية في عمل الزخارف (الديكورات) لترغيب الناس في الشراء، فالعين مفتاح المال كما يقال.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص ١٤.

(٦) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٠٠.

والقدرة، وهي.. كثير العمارة رابحة التجارة عالية البناء، رائقة المعنى، شوارعها فساح، وعضائد بنيانها صحاح..)[١].

وبما أن مدينة الإسكندرية كانت ثغرا يرابط فبه المجاهدون في سبيل الله ، فقد أدى ذلك إلى ازدهار الحياة الاقتصادية بها، فالثغر **محل رباط دائم**، يتقاطر عليه المجاهدون من كل مكان، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا ورابطوا }[٢]، وكذلك عامة الناس على اختلاف شرائحهم يسعون إلى الإنفاق على من يحضر الثغر امتثالا لقول الحق تبارك وتعالى: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا ..}[٣] وقوله صلى الله عليه وسلم: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)) [٤] وقوله صلى الله عليه وسلم: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفُتّان)) [٥] وغير ذلك من النصوص الدالة على فضل الإنفاق في سبيل الله، فكان أصحاب الأموال يوقفون الأوقاف الكثيرة على المنشآت التعليمية والاجتماعية بالإسكندرية[٦].

أيضا كان لنزول **الأسر التجارية** واستيطانهم الإسكندرية أثر بالغ في تنشيط الحركة التجارية بها[٧].

وأيضا مما كان له الأثر في انتعاش الحياة الاقتصادية كون الإسكندرية **ممرا لحجاج المغرب والأندلس**، بل للرحالة إلى المشرق مطلقا [٨].

---

(١) هذا وقد ذكر ابن دقماق الكثير من معالمها القديمة مثل المسلتين والملعب، انظر: ابن دقماق: الانتصار، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٣) البقرة، آية ١٩٥.

(٤) البخاري : الجامع الصحيح ، في كتاب الجهاد ، ص٥٨٦، (ح٢٨٩٢).

(٥) مسلم : الجامع الصحيح، في كتاب الإمارة ، ج٣،ص ١٥٢٠، (ح١٩١٣).

(٦) انظر مبحث الأوقاف من الفصل الثاني، ص٢٢٩.

(٧) انظر مبحث الأسر الجالبة من الفصل الثاني، ص ٢٠٥.

(٨) انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة الخاص بالحجاج والرحالة، ص٣٦٨.

ومما زاد من تطور الحياة الاقتصادية في الإسكندرية ما اشتهرت به **من كثرة المنشآت التجارية** من الفنادق والوكالات والقيساريات والخانات[١]، إضافة إلى **تعدد الأوامر السلطانية بحسن معاملة طائفة التجار** وعدم إرهاقهم بالجبايات، حتى إن السلطان قلاوون أمر نوابه بالثغور ألا يجبوا من التجار سوى الحقوق السلطانية[٢]، وكتب منشوراً إلى التجار الوافدين من الشرق والغرب إلى مصر يحثهم على القدوم ويعهد لهم بحسن المعاملة[٣]، كما أقام السلاطين محتسبي الأسواق لمنع التلاعب في الأسعار والأرزاق، وأصناف البضاعة، وقد أحكموا الرقابة عليها في الجملة[٤]، وكان المحتسبون بالإسكندرية من أولي الدين والصلاح كما سأذكره في الكلام عن الوظائف الدينية [٥].

أما **في العهد المملوكي الثاني**، وإثر فتوحات العثمانيين في أوروبا، وسقوط القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ /١٤٥٣م) فقد **انتقلت كثير من مراكز**

---

(١) **فالفندق:** هو المبنى الذي تقع في أسفله مخازن ومحلات لعرض السلعة، وفي أعلاه حجرات لسكنى الغرباء.

والوكالة: هي المكان الذي يقضي فيه التجار الغرباء ليلتهم مع بضائعهم وأمتعتهم.

والقيسارية: شبيهة بالفندق والوكالة، تتكون من فناء مركزي محيط به أروقة بها حوانيت ومساكن لسكنى التجار.

والخانات : قريب من الفندق، وهو اللفظ المستعمل في المشرق مقابلاً للفظ الفندق في المغرب.

انظر في تعريفات هذه الألفاظ : نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ١٩٨؛ سعيد عاشور: مصر والشام ، ص ٢٦٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٩٨، انظر الفتنة التي حدثت بين المسلمين والصليبيين سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) والتي جاء الحديث عنها بالتفصيل في مبحث الحياة الاجتماعية بالمدينة (ص ١١٨) وانتهى البحث إلى عدة نتائج ؛ منها : حرص الناصر على حسن التعامل مع الفرنج من أجل تحقيق مكاسب تجارية.

(٤) ابن الأخوة : معالم القربة، ص ٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٤١٤؛ المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٩٢.

(٥) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ١٣٨.

التجارة الأوروبية إلى الإسكندرية، بحيث أصبحت الإسكندرية مركزاً تجارياً أكثر أمناً عن أوروبا بالنسبة للتجار[١].

وعلاوة على ذلك فقد اتبع سلاطين المماليك طرقاً أخرى لدفع عجلة النشاط الاقتصادي بالإسكندرية، منها اهتمامهم **بإصلاح المرافق الخاصة بخليج الإسكندرية**، فلقد كان لخليج الإسكندرية أثر اقتصادي كبير فإنه إلى جانب أنه كان يمد الثغر بالمياه العذبة من النيل، فقد كان لعرضه وحجم مياهه ما يسمح بإبحار السفن فيه دون مخاطر تذكر فقد توالت أيدي سلاطين دولة المماليك على **الاهتمام به** طيلة العهد المملوكي، بدءاً بالظاهر **بيبرس**، الذي أمر بحفر الخليج سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، بعد أن طمرته الرمال وسده الطين[٢]، وفي سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) باشر الظاهر بنفسه هو والأمراء حفر الخليج[٣]، وفي عهد **الناصر محمد** بن قلاوون سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م)، حسن له متولى الثغر تعميقه، وذكر له جملة من المنافع منها حمل الغلال وأصناف السلع إلى الإسكندرية في المراكب توفيراً للكلف، فضلاً عن عمارة ما على حافتي الخليج وبناء الضيع والسواقي فينموا الخراج، وأخيراً انتفاع الناس بعمارة بساتينهم وشرب مائه[٤]، فقام بحفره، وعم نفعه واغتبطت به الرعية[٥]، وفي عهد الملك الأشرف **برسباي** ندب لحفره سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، ومشى الماء فيه وسر الناس لذلك[٦].

<u>أما بالنسبة لمظاهر التقدم الاقتصادي بالإسكندرية فتشمل ما يلي:</u>

---

(١) نجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر، ص١٥٥.

(٢) بيبرس الدوادار: مختار الأخيار، ص ٢٨؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص٣٧٥.

(٣) المقريزي:السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٣.

(٤) المقريزي: الخطط، ج ١، ص٣٢٠.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص١٧٨.

(٦)ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١، لم تشر المصادر التي بين أيدينا عن أعمال حفر لخليج الإسكندرية بعد عهد برسباي، فقد إنعدمت صلاحيته في أخريات عهد المماليك الجراكسة، وبعد سنوات قليلة من آخر تطهير له في عهد برسباى.

أولا: الزراعة : والتي تقوم على النيل وتزدهر بزيادته، وتضعف بنقصه، وشح مياهه، وتنمو بالاهتمام بوسائل الري، والترع والجسور لتنظيم الحصول على الماء وضمان وصوله إلى كل الأراضي الزراعية المتاحة، وكانت مياه النيل تصل إلى الإسكندرية عن طريق (خليج الإسكندرية) والذي اعتنى السلاطين المماليك بأمره وأولوه الرعاية والاهتمام من حفره تارة وتوسيعه تارة أخرى وعدم ترك الرواسب الطينية تسد مجراه[١]، كذلك اعتمد أهالي الإسكندرية على الآبار والأمطار لسقي أراضيهم الزراعية[٢]، ولقد كثرت البساتين بالإسكندرية لدرجة أن الفواكه بها أرخص من غيرها من البلاد[٣] وكان يزرع بها أنواع عديدة من الزروع مثل السمسم والقصب السكر والقلقاس والعنب والنيلة والنخيل[٤]، وقد انتشرت غابات النخيل حول عمود السواري وبين ضفتي خليج الإسكندرية[٥]، وكان من ضمن الفواكه التي تزرع بالثغر التفاح، الذي نال استحسان عبد اللطيف البغدادي، فقال عنه: (..إنه يوجد بالإسكندرية صنف من التفاح في بستان واحد يسمى بستان القطعة، وهو صغار جدا، قاني الحمرة، وأما رائحته فتفوق الوصف، وتعلو المسك..)[٦] أما بالنسبة للحنطة فنظرا لأن أرض الإسكندرية سبخة فقد كانت تجلب إليها من أقاليم مصر[٧].

ثانيا: التجارة : اكتسبت الإسكندرية من خلال موقعها علاقات تجارية بينها وبين مدن مصر من جهة وبلاد الشام وسائر دول المشرق والبحر المتوسط

---

(١) انظر ما سبق ، ص٤٨-٥٤.

(٢) فقد كان الشيخ أبو منصور القباري يعتمد على الآبار في ري مزرعته دون مياه الخليج، محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص١٥٠؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص١٨٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٨٦.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٠١؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص١٧٨.

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢١.

(٦) البغدادي: الاعتبار، ص٣١.

(٧) أبي الفداء: تقويم البلدان، ص١١٣.

وأوروبا والهند والفرس والتتار والفرنجة من جهة أخرى، وعاشت بعض الجاليات الفرنجية المشتغلة بالتجارة في ثغر الإسكندرية مثل الجنويين والبنادقة[١].

وقد أدى هذا النشاط إلى وجود أجهزة إدارية تنظم حركة التجارة بها فسمح سلاطين المماليك بإقامة **القنصليات والمنشآت التجارية** كالفنادق والوكالات،والقيسأريات، والخانات داخل المدينة لخدمة التجار الأجانب،وإيوائهم وتسهيل الحركة التجارية لهم وعمليات البيع والشراء، وخزن بضائعهم وسلعهم[٢]، وقد تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل فنادقهم، فقد كان يعيشون فيه على النمط الذي تحيا عليه شعوبهم في بلدانهم، وقد توفرت في هذه المنشآت الاقتصادية الحمامات والمخابز وغير ذلك من الخدمات[٣].

ويمكن أن نلحظ من خلال المصادر أن الفنادق تنقسم إلى قسمين : قسم للتجار المحليين ، وآخر للأجانب، وهي قريبة من البحر المطل على الميناء الشرقي، حيث مكان رسو السفن التجارية القادمة من خارج المدينة[٤].

كما حرص المماليك على توفير الأمن اللازم في هذه الفنادق، فكانت أبوابها تقفل مع غروب الشمس بواسطة وكيل خاص يوصد أبوابه من الخارج، كما يمنع النزلاء الأجانب من مغادرة فنادقهم وقت صلاة الجمعة، وذلك خشية أن يداهم الصليبيون المدينة وأهلها في المساجد، وقد استحدث هذا الإجراء بعد حملة القبارصة على المدينة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[٥].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٠٢، ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبندقية، ص١٤٥.

(٢) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٨٦ـ ٩٢؛ نعيم زكي ، طرق التجارة ص ٢٨٧.

(٣) عاشور: مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن بحوث في تاريخ العصور الوسطى، ص١٣٨.

(٤) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٥٠٦.

(٥) نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٩٠ـ ٢٩١.

وقد تعددت فنادق الجاليات، وكان أكثرها للإيطاليين ولا سيما جمهورية البندقية وجنوة[١]، أما الفنادق المحلية، فقد خصصت بعضها لأنواع معينة من التجارة كفندق الموز في شارع المرجانيين بحي العطارين[٢]، وفندق البيض والقصب، وفندق الحرير بشارع المحجة العظمى[٣].

وخصصت بعض أنواع الفنادق المحلية لإيواء الغرباء وتخزين أمتعتهم كفندق الدماميني بسوق الجوار[٤]،وفندق الجمالي بشارع المحجة العظمى[٥]، وذكر النويري أن القبارصة حرقوا فنادق الكتيلان والجنويين والمرسيلين مما يدل على كثرة فنادق الإسكندرية لأبناء الجاليات[٦].

وعرف من الوكالات : وكالة الكتان أمام جامع الجيوشي بالقرب من سوق العطارين[٧]،وقد تكون هذه الوكالة (وكالة الكتان) أهم سوق لبيع الأقمشة بالمدينة[٨].

وأما القيساريات: فقد تركز معظمها في قلب المدينة، في حي العطارين وبعضها في باب البحر في محل الفنادق التجارية الأجنبية[٩]، ومن أشهرها قيسارية البزازين والتي كان بها العسل والسمن والزيت[١٠]، والقيسارية الجوكندارية ، المختصة بتجارة الصوف، وقيسارية النشا المختصة بتجارة النشا

---

(١) عفاف صبره: العلاقات بين الشرق الغرب، ص٢٢٢.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧١، ج٤، ص٤٢.

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٢٨، ٤٣٣.

(٤) النويري السكندري: الإلمام ج٢، ص١٦٦.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه ج٢، ص٤٣٢.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧١.

(٧) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٦٦.

(٨) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص١٢٢، ١٢٣.

(٩) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٥٠٩.

(١٠) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧١.

على ما يبدو[١]، وأيضاً قيسارية الأعاجم التي ذكرها النويري مما أحرقه القبارصة[٢].

وعرف من الخانات : خان قجماس نسبة للنائب الذي تولى نيابة الإسكندرية في زمن الأشرف قايتباي، وكان يقع خارج باب رشيد، بغرض إيواء التجار والمسافرين الذين يصلون للثغر ليلاً بعد غلق أبوابه حتى تفتح الأبواب صباحاً، أو يبيت فيه الراحلون قبل مواصلة السير[٣].

أما بالنسبة للأسواق التجارية: فقد انتشرت بكثرة في مصر في العصر المملوكي، وهي عبارة عن شارع طويل يمتد على جانبيه صفان من الحوانيت، وهي على قسمين: داخلي لخزن البضائع، وخارجي لعرضها[٤].

ولقد تنوعت هذه الأسواق وتخصصت، فمنها للأجناد لبيع الفراء والسلاح وأسواق لباعة التبن والقماحين، وفي محل آخر: الصباغون والخراطون والقصارون، والفحامون والمنخليون، والسراجون، والشماعون، وسوق الحرير وسوق الحلاويين والكعكعيين والعطارين، وسوق الطيوريين والوزازين والدجاجيين، وسوق المرّحلين، وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج إليه في ترحيل الجمال ، وبها سوق الأواني النحاسية بمختلف النقوش المحفورة، والمطعمة، وكانت حالهم رائجة، وسوق الكتبيين، وكان به ربع تباع فيه الكتب، وبها سوق الرقيق ويسمى (دكة المماليك) وهو موضع لجلوس من يعرض من مماليك الترك والروم ونحوهم للبيع[٥].

وفي الغالب أنه لم تكن الأسواق بالإسكندرية مختلفة عن سائر أسواق مصر المملوكية، فقد حفظت لنا المصادر أسماء بعض الأسواق بالإسكندرية فيذكر النويري في الإلمام أسماء عدد من الأسواق التي نهبها القبارصة منها:

---

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٧١، ابن حبيب: التذكرة، ج ٢، ٤٣٢، ٤٣٥.

(٢) النويري: الإلمام، ج٢، ص١٦٦.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٦، ق٣،ص١٣، نعيم زكي: طرق التجارة، ص٢٩٤.

(٤) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص١٢٢،١٢٣.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٣ـ٩٣ـ١٠٦؛ قاسم عبده قاسم:عصر سلاطين المماليك، ص٥٧ـ ٧٣.

سوق القشاشين بالمعاريج، وسوق الخشابين[١]، وكانت سوق العطارين من أهم الأسواق، وكانت به تجارة التوابل، التي تصدر إلى المغرب ودول أوروبا وتحمل إليها من المشرق[٢].

كما كانت **الشوارع الرئيسة** بالإسكندرية مشهورة بحوانيتها وبائعيها وأسواقها، فقد ذكر النويري مما نهبه القبارصة : حوانيت الصاغة وحوانيت الصرف وحوانيت الشماعين[٣]، وحوانيت شارع المرجانين الذي يختص بصناعة المرجان وتجارته، وحوانيت شارع المحجة[٤].

وبالإضافة إلى كثرة أسواق الإسكندرية واتساعها[٥]، فقد تميزت عن غيرها من مدن مصر، بأنها كانت **مقنطرة (أي مغطاة)**، فيذكر المقريزي: (أن أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر)[٦]

وأما **أهم البضائع** التي كانت تعرض في أسواق الإسكندرية فيأتي في مقدمتها **الحرير**: فكان يمثل الهدية القيمة التي يتبادلها السلاطين مع الملوك، ويقدمه كبار الأمراء للسلاطين، وينعم به السلاطين كهدية قيمة على بعض الأمراء، فقد ذكر أبو المحاسن في أحداث سنة(٧٨٤هـ/١٣٨٠م) لما نزل السلطان لعيادة الطنبغا الجوباني، فرش له الجوباني شقائق الحرير السكندري[٧]، أيضاً لما اصطلح السلطان الظاهر برقوق مع الخليفة المتوكل على الله سنة

---

(١) النويري: الإلمام، ج٢، ص١٦٦.

(٢) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية ، ص١٢٢، ١٢٣.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧١؛ محمد صبحي: مدينة الإسكندرية ، ص ١٢٢،١٢٣.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٦٦.

(٥) الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج١، ص٣١٩.

(٦) المقريزي: الخطط، ج١، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٧) ابن تغري: النجوم، ج١١، ص٢٣٨.

(٧٨٤هـ/ ١٣٨٠م) بعث السلطان إليه عشرة آلاف درهم وعدة بقج فيها أثواب صوف وقماش سكندري[١].

وذكر ابن تغري بردي أن النشو[٢] وهو أحد الوزراء للناصر وقد تم توقيع عقوبة المصادرة على ممتلكاته في سنة (٧١٠هـ/١٣١٠م) فوجدت في بيته صناديق كثيرة فيها قماش سكندري قد اختلسه، وهذا يدل على قيمته الكبيرة، للتنصيص عليه دون غيره[٣]، ولما تسلطن الملك المنصور عثمان على مصر(٨٥٧هـ/١٤٧٠م)، خلع في يوم مبايعته على الخليفة القائم بأمر الله حمزة، و على الأمير الكبير إينال، على كل منهما أطلسين متمرا، والمتمر شاش حرير مموج بالذهب، من صنع الإسكندرية[٤].

كما كانت الإسكندرية سوقا عالميا للحرير يأتي إليها تجار الحرير الأعاجم وتصدر الأقمشة منها لمصر والشام[٥].

كذلك شهدت أسواق الإسكندرية أنواعا جيدة من **الزجاج** ، فقد ذكر ابن سعيد أنه يجلب الصافي منه من بلاد الجريد إلى الإسكندرية[٦]، كذلك كان

---

(١) ابن تغري: النجوم ، ج١١، ص٢٦٢.

(٢) هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو(ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م)كان أبوه كاتبا عند الأمير بكتمر الحاجب، وهو ينوب عنه، ثم انتقل لمباشرة ديوان الأمير بكتمر الجمدار، ثم تدرج في الخدمة السلطانية حتى تولى نظر الخاص، فبلغ شأنا عظيما، غير أن مظالمه أدت إلى كساد حال الدولة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، مما أدى إلى تغير الناصر عليه وأمر بقتله، وقد فرح الناس بهلاكه، وقد قيل فيه:

النشو لا عدل ولا معرفة — قد آن لأقدار أن تصرفه
من أتلف الناس وأموالهم — فحق للسلطان أن يتلفه

انظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٣١؛ سرور: دولة بني قلاوون ، ص١١٢.

(٣) ابن تغري: النجوم ،ج ٩، ص١٣٩.

(٤) ابن تغري: النجوم، ج١٦، ص٢٣.

(٥) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧١، ويذكر أنه قد نهبت مخازن الحرير الذي قدم به تجار الأعاجم وقماش التجار المصريين والشاميين المخزونة للسفر بها لمصر والشام من قبل القبارصة.

(٦) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٢٧؛ كما ذكر ذلك القلقشندي في صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٨.

يستخرج **النطرون** من البحيرة والفاقوسية، ويحمل إلى الإسكندرية، وقد بلغ من قيمته الاقتصادية أن احتكره السلطان مدة حتى بلغ القنطار منه مبلغ ٣٠٠ درهم وهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك العصر، وما ذلك إلا لدخوله في عدة استخدامات فقد كان يحتاجه الأطباء والكحالون وغيرهم، ولقد كان يحمل من موطنه إلى أسواق الإسكندرية والقاهرة تحت نظر الاستادار، ثم يخزن ويباع[١]، ووضعه تحت نظر الاستادار يدل على أهميته أيضاً، ثم التنصيص على كونه يجلب إلى أسواق الإسكندرية والقاهرة يدل على كون المدينتين مركزي توزيع له، أيضاً اعتبر **الشب** من السلع المرغوب فيها لاستخدامه في الصبغ الأحمر، ولكون الروم آنذاك يرغبون فيه رغبة شديدة لفوائده عندهم[٢]، وعلى الرغم من أن موطنه في بلاد الصعيد والواحات إلا أن الإسكندرية كانت سوقه الرئيسية ، فكان أكثر ما يباع منه في المتجر بالإسكندرية خمسة آلاف قنطار، لأنه لا يشتريه سوى الديوان السلطاني[٣]، كذلك كانت الإسكندرية مركز التوزيع الرئيسي للمرجان، فقد كان يحمل إلى أسواقها فيباع بضعفي ثمنه الأصلي أو ثلاثة أضعافه، ومنها يحمل إلى سائر البلاد، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها[٤]، وقد خصص بالإسكندرية شارع سمي باسم شارع المرجانيين[٥]، هذا بالإضافة إلى **الأحجار الكريمة** كالزمرد واللازورد والزبرجد وهو فستقي اللون شفاف، وكان يستخرج بالنبش من الآثار القديمة بالإسكندرية، ولأنه من أجود الأحجار الكريمة لا يكاد البصر يقلع عنه، لرقة مائه وحسن صفائه ولا سيما الأخضر المعتدل إلى الخضرة، لذا كان الأثرياء حريصون على اقتنائه[٦].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٦ ــ ٤٥٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص١٥٥، ٤٥٦.

(٣)القلقشندي: صبح الأعشى،ج٣، ١٥٥.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١١٦.

(٥) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص١٢٢،١٢٣.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١١٠.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت أسوق الإسكندرية مليئة **بالفواكه** التي كانت تزرع في بساتين مريوط، وحول ضفتي خليج الإسكندرية، ثم تحمل إليها لتباع هناك[1]، كذلك **الرياحين والورود** والبنفسج والنرجس، والياسمين واللبان والنيللوفر (دوار الشمس)، وأزهار الحمضيات، والريحان الفارسي والذي كان يكثر بالإسكندرية[2].

وهذا يدل على الحالة الاقتصادية العالية لأهل الثغر لأن اقتناء وشراء مثل هذا يدل على حالة اقتصادية مستقرة لأنها تعد من الكماليات لا من الأساسيات الضرورية، ولكثرة أسواق الإسكندرية وتنوع سلعها ذكر **ابن دقماق** أنها لما زارها وجدها **رابحة التجارة**[3].

ومما كان يرد على الإسكندرية من تجارة المشرق :**التوابل والأحجار الكريمة والبهار، والبذور، ومواد الصباغة والعقاقير الطبية**، ومن الغرب الأوروبي كانت تأتيها سلع وبضائع مختلفة من أهمها **الأخشاب** وهي ضرورية لبناء الأساطيل التي طالما احتاج إليها المماليك في بناء أساطيلهم وسفنهم الحربية بالإضافة إلى معدن **الحديد والنحاس، والفضة والذهب، والزيت والعسل والزبيب واللوز والفراء** وبعض **المنسوجات المذهبة**[4].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٨٦، لقد انتشرت آلاف الأفدنة والغيطان المزروعة حول ضفتي خليج الإسكندرية، لكن لم يلبث أن سدت الرمال الخليج وتلفت الحقول والبساتين وتلاشت القرى من حوله، ولما أعاد برسباى حفر الخليج، لم تعد البساتين كما كانت من ذي قبل إذ أخذت الإسكندرية تسير نحوا الاضمحلال شيئا فشيئا، راجع: المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٠١

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٠٨.

(٣) ابن دقماق: الانتصار، ص١٢٥ــ ١٢٦.

(٤) محمد صبحي: مدينة الإسكندرية، ص١٢٢، ١٢٣؛ ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبندقية، ص١٦٠؛ عفاف صبره: العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٦.

وساعد على ذلك وجود ثلاث موانيء بها، الميناء الشرقي لاستقبال السفن الأوروبية، والغربي لاستقبال سفن المغاربة وميناء أبي قير لاستقبال سفن قبرص والشام [١].

وقد عمل سلاطين المماليك على توفير كافة السبل الكفيلة براحة التجار من توفير الأمن لهم ولبضائعهم و تسهيل الأجراءات التجارية الخاصة بهم فعلى سبيل المثال في عام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) جاءت جماعة من تجار الإسكندرية يشكون من نائبها بأنه جار عليهم في الظلم والمصادرات، فأرسل إليه السلطان يحذره من ذلك[٢] إلا أنه لا يمنع أن يستولي الأمراء على المتاجر، كما كان من شأن الأمير بيدرا ، حيث استولى نوابه على المتاجر بالإسكندرية، فلما اقترب السلطان الأشرف من الإسكندرية أرسل وزيره ابن سلعوس لتجهيز الأقمشة، فلم يجد بها شيئا، فاستشاط السلطان غضبا عليه[٣]، وقد كان للتجار نقابة خاصة بهم عرفت بالكارميين[٤] لحمايتهم وحماية تجارتهم، وقد كثر ثراءهم وعظم نفوذهم وأقرضوا السلاطين في أوقات الأزمات[٥]، وأصبحت تلك الثروة التي جمعوها من تجارتهم مطمع السلاطين الجراكسة، فاحتكر سلاطين المماليك تجارة الكارم واصبح لهم تجار يعملون لحسابهم مثل علي الكيلاني تاجر السلطان المؤيد شيخ، وابن علبية السكندري (ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م) تاجر السلطان قايتباى [٦]، فوجود (تاجر السلطان) بالإسكندرية يؤكد أن كثيرا من أمراء

---

(١) نجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين البندقية ومصر ، ص١٥٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٣، ص٢٦٧.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٢٠١.

(٤) أخذت إسمها من الكارمية هم فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الواردة إلى مصر من الهند عن طريق اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية، الواقعة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي ، فنسبوا إلى موطنهم بعد تحريف اللفظ، ثم صار هذا الاسم يطلق على الذين يمارسون هذه التجارة بمصر، انظر:القلقشندي: صبح الأعشى،ج١، ص٢٥٣، ج٣، ص٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ج٤،٣٢، ج٥، ٢٨٠ـ ٢٨١.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٥٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٢٢١.

وسلاطين المماليك كانوا يستثمرون أموالهم في المجال التجاري إما بتوظيف تجار لحسابهم أو عقد مشاركات مع تجار ليتاجروا بالنيابة عنهم(١).

ومما تميزت به الإسكندرية في بعض العهود أيضا اشتغال النساء بالتجارة، حتى صارت(ست التجار) بالإسكندرية، فقد ماتت ست التجار فاطمة بنت محمد بن أبي القاسم ابن عبد الله الصقلي بها في طاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)(٢).

ثالثا الصناعة : فلم يقتصر النشاط الاقتصادي في الاسكندرية على الأنشطة التجارية وحدها، فقد اشتهرت الإسكندرية بأنواع من الأنشطة الصناعية ميزتها عن باقي بلدان القطر المصري المملوكي، وشاركت بعض البلدان الأخرى في بعض الصناعات، **كصناعة الأقمشة والمنسوجات** حيث وجد بالإسكندرية مصنع النسيج المملوكي، والذي أطلق عليه في ذلك العصر بـ (دار الطراز)، وكانت هذه الدار قريبة من باب البحر كما ذكر النويري(٣) وكانت دار الطراز على نوعين، الخاصة وهي المصانع التي تقوم بإعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة، والعامة وهي المصانع التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب(٤).

وقد تكلم المؤرخون عن هذه الصناعة الفريدة في الإسكندرية، مما جعل القماش السكندري تحفة الأقمشة في العالم وجعل الإسكندرية المصدر له لكل أقطار الأرض، ويذكر الصفدي في ترجمته لأحد علماء الشام أنه كان يلبس

---

(١) إيرا لابدوس: مدن إسلامية، ص٢٠١، أيضا لما عزل الناصر محمد والي الثغر ركن الدين بيبيرس سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) اثر شكوى من بعض أهالي الثغر، ثبت أن حصيلة أرباحه في السنة من جراء متاجرته في أصناف الخمر، بلغت ٣٠ ألف دينار، غير ما كان عنده من عقارات وبساتين، بلغ ثمن أقل بستان ألف دينار،انظر: المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٠٩، ٥٠٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٣٢٥.

(٢) ابن فهد: لحظ الألحاظ، ص١٢٠.

(٣) النويري: الإلمام، ج٦، ص٤٠٣.

(٤) حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون، ج٢، ص١٣٧.

القماش المنسوج المخطط على هيئة القفص، والذي يعرف (بالمقفص)، وهو مما اشتهرت الإسكندرية بصناعته (١).

يقول القلقشندي: (وفيها نسيج القماش الفائق، الذي ليس له نظير في الدنيا.. وتمير قماشها جميع أقطار الأرض)(٢)، ويقول المقريزي: (والثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها وتحمل إلي أقطار الأرض)(٣).

والظاهر أن دار الطراز أو صناعة المنسوجات تميزت به الإسكندرية قبل العصر المملوكي فقد ذكروا أنها وجدت أيام الفتح الإسلامي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت لما بعده من العصور الإسلامية(٤)، بل يمكننا القول بأنها كانت قبل ذلك، فقد أهدى المقوقس (جريج بن مينا) صاحب الإسكندرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدايا من ضمنها جاريتين (مارية وأختها سيرين) و حلة حرير من عمل الإسكندرية (٥)، ولقد ازدهرت (دار الطراز) في العصر المملوكي، واشتهرت اشتهارا كبيرا، ويرجع السبب في ذلك إلى عدة عوامل، لعل على رأسها أنها كانت محل نسج كسوة الكعبة، و الملابس السلطانية، والخلع والتشريفات(٦)، ومنها تحمل هذه المنسوجات إلى خزانة كسوة الكعبة، أو الخزانة الظاهرية الكبرى التي تحفل بهذه المنسوجات من أنواع القماش الفاخر مما يدل على عظم المملكة (٧).

ومن الجدير بالذكر أن **كسوة الكعبة** كانت تصنع في دور الطراز بتنيس وشطا ودمياط، إلا أن الإسكندرية دور الطراز بها بدأت تشارك في هذا بعد

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٢٣٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٨.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٠١، ٣٠٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٧٦، ج٤، ص٧؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٤١٣.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، م٤ ، ج٧ / ص ٧٦ .

(٦)أبو الفدا:المختصر،ج٤، ص٩٨؛ النويري:الإلمام،ج٦، ص٤؛ المقريزي:السلوك،ج٣، ق١،ص٤١.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٧٢.

ذلك، كما أشار إليه المقريزي في حوادث سنة (٧١٩هـ/١٣١٩م)، فقد ذكر أن السلطان الناسر محمد حج في هذه السنة وأمر بتجهيز ثياب أطلس برسم كسوة الكعبة(١).

ولقد كان نسج الثياب في دار الطراز من المكرمات والتشريفات السلطانية، فقد ذكر القلقشندي أن من أراد أن يشرفه السلطان عند ولاية وظيفة أو إنعام فإنه يخلع عليه من هذه المنسوجات التي كانت لها دارة مقيررة بعمله بالإسكندرية، تعرف بدار الطراز(٢)، ويذكر اليونيني أن الملك الظاهر لما أراد أن يكرم الملك المنصور صاحب حماه ـ وكان قد سأل التوجه للإسكندرية ـ أمر متولي الثغر أن يحمل إليه في كل يوم من بيت المال مائة دينار، وأن ينسج له في **دار الطراز**(٣).

وذكر القلقشندي أنه كان يحمل إلى خزانة الخاص: (الأقمشة المختلفة الصفات؛ من الحرير والمقترح المخوص بالذهب، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة، وغير ذلك من رقيق الكتان وغيره مما لا يوجد مثله في قطر من أقطار الأرض، ومنه تتخذ الأقمشة التي يلبسها السلطان وأهل دوره، ومنه تعمل الخلع والتشاريف التي يلبسها أكابر الأمراء وأعيان الدولة وسائر أهل المملكة، ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار) (٤)

ولم تقتصر دار الطراز على نسج الكسوة والملابس الخاصة فحسب، بل ربما كانت تختص بالكسوة التي تحتاج إليها بعض الاحتفالات العامة، فقد ذكر ابن المأمون في تاريخه في أحداث سنة (٥١٧هـ/١١١٢م) أنه كانت هناك

---

(١) المقريزي: التبر المسبوك، ص١٠٠،١٠١، السلوك، ج٢، ق١، ص١٩٥، ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٥٨. ولمعرفة المزيد عن كسوة الكعبة وتطور صناعتها، والمراحل التي تمر بها منذ تصنيعها وحتى إرسالها إلى مكة المكرمة، انظر: عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص١٤٤

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٧.

(٣) اليونيني: الذيل، ج٢، ص٣٦١.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١١، ص٤٢٦.

كسوة مختصة بالنيروز من دار الطراز بالإسكندرية[١]، ويذكر لنا المؤرخون أنه اقترح بالإسكندرية قماشا سموه (جر العامود)، للبس النساء من الحرير[٢].

أيضا من أنواع المنسوجات التي كانت تقوم بنسجها دار الطراز، المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية [٣]، أما المنسوجات الصوفية فكانت تحمل إلى الإسكندرية من بلاد الجريد[٤].

واستمرت دار الطراز تؤدي عملها كمنشأة اقتصادية هامة في العهد المملوكي، وقد عرف السلاطين أهميتها فأولوها عناية كبيرة، فوكلوا إدارتها إلى أحد أعيان الثغر، والذي كان يسمى بـ **(ناظر الطراز)**، وكان يتبع في أدارته السلطان، واستمر هذا الوضع حتى العصر الجركسي للدولة، فصارت دار الطراز تتبع ناظر الإسكندرية، الذي تولى النظر في شؤونها[٥]، وقد اهتم السلاطين بدار الطراز فعلى سبيل المثال حين تعرضت للحريق الذي أشعله القبارصة في عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) سرعان ما أعيد تعمير الدار وزارها الأشرف شعبان بنفسه، وجعل يطوف على الأنوال[٦] يبصرها، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها، وينظر على الصناع كيف ينسجون وإلى مكائنهم كيف

---

(١) **ابن المأمون البطائحي:** من أخبار مصر، ص ٦٥. ولم أعثر في المصادر المملوكية على توقف هذه العادة أو استمرارها، في العهد المملوكي، والله أعلم.

(٢) انظر تفاصيل وقعة العامود التي حدثت بالقاهرة في كلا من: المقريزي: السلوك، ج٣،ق١، ص٢٥١، ٢٥٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص٦٧، ٧٠.

(٣) وقد كانت هذه الأقمشة محل إعجاب الغرب الأوربي، حيث إن البابوية كانت تستورد القماش السكندري لكسوة جدران وأعمدة الكنائس كذلك كانت سيدات الطبقة الراقية يرتدين ملابس مصنوعة من القماش السكندري، انظر: ناجلا محمد: العلاقات السياسية والاقتصادية بين مصر والبندقية، ص١٦٢.

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٢٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٩٤، ج١١، ص٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٦) النول: أو (المنوال) وجمعه (أنوال)، وهو الخشب الذي يلف عليه الحائك الثوب. الرازي: مختار الصحاح، ص٦٠٣.

يرمونها[1] وكان العاملون بدار الطراز من الفنيين المهرة، وربما كان يأتي إليها من خارج الثغر، فقد ذكر النويري أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن يوسف البغدادي كان من هؤلاء الطرازين[2]، والظاهر أنه من النساجين البغاددة الذين استوطنوا الثغر.

واستمرت صناعة النسيج قائمة طيلة العهد المملوكي الأول (المماليك البحرية) ،ولم يذكر المؤرخون لها توقفا إلا مدة الفناء الكبير الذي ضرب مصر المملوكية عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[3] ، وكذا في وقعة القبارصة عام (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[4]، أما في العهد الثاني للدولة (المماليك الجركسية) فقد تدهورت صناعة النسيج جدا، حتى تناقصت عدد الأنوال من ١٤٠٠٠ ألف نول إلى ٨٠٠ نول فقط في عام (٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[5]، واستمر هذا التدهور في عهد **برسباي** وما بعده وطال دار الطراز، واستقر الأمر على المصانع الأهلية، التي تدهورت هي الأخرى بسبب الضرائب التي كانت تفرض على أصحابها[6].

صناعة السفن والشواني: اشتهرت الإسكندرية قديما بصناعة السفن، فكان بها دار للصناعة في شرقيها كانت قائمة إبان الفتح الإسلامي لمصر، وقام بتجديدها عبد الله ابن سعد بن أبي سرح رضى الله عنه[7].

وقد اهتم المماليك بهذه الصناعة، فانشأوا دارا أخرى والتي عرفت بدار الصناعة الغربية، تمييزا لها عن الشرقية، وقد ذكر النويري السكندري هذه الدار في تأريخه لواقعة القبارصة، مما يمكننا أن نعرف أنها كانت تحمى بمجانيق ،

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤ ــ ٥.

(٢) النويري السكندري: الإلمام ، ج١، ص٨٣، ٨٤، ج٤،٢٩٥ ــ ٢٩٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٧٧.

(٤) النويري السكندري: الإلمام،ج٦، ص١٧٧.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٥١٦.

(٦) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩.

(٧) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٩٤.

وكانت السفن تصنع بداخلها[1]، حيث تعددت أنواعها وأصنافها، فمنها الشواني[2]،
والأغربة[3] والطرائد[4].

وبانتهاء واقعة القبارصة، قام ابن عرام نائب الإسكندرية بتجديد أبواب دار الصناعة الشرقية بعدما أحرق القبارصة أبوابها، وقام بتحصين دار الصناعة الغربية بمشط حربي ضخم يرفع ويخفض على لوالب الأتراس[5].

وقد اهتم السلاطين بهذه الدور، فزارها الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، (ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه)[6] ثم قام الأشرف شعبان سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) بزيارة دار الصناعة الشرقية للاطمئنان على سير العمل بها ورأى ما فيها من الشواني الغزوانية، والمجانيق[7] الشيطانية، والتي رموا بها أمامه فاستحسن رميها[8].

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٧.

(٢) **الشيني**: هي سفن كبيرة لحمل المقاتلة للجهاد، وكان يقام بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا، انظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص٣٥٢.

(٣) **غراب**: والجمع أغربة وغربان، وهي نوع من المراكب الحربية التي تستخدم في عمليات الاستطلاع والتجسس، انظر: إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٢

(٤) هي سفن حربية مفتوحة المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق، معدة لحمل الخيل، المرجع السابق، ص٢٣٠. فقد ذكر النويري أن الأمير يلبغا الخاشكي، حين دخل الإسكندرية عقيب وقعة القبارصة أمر بعسارة المراكب الغربان والطرائد للثأر من الفرنج ، انظر: الإلمام، ج٢، ص٢٠٨.

(٥) السابق، ج٦، ص١٠ ــ ١١.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٦ ــ ٤٤٧.

(٧) **المنجنيق**: أداة ترمى بها الحجارة أو كتل الحديد أو القدور الفخارية أو الزجاجية التي تملأ بالنفط على الأعداء، إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك،٢٤٢.

(٨) النويري السكندري: الإلمام ، ج٦، ص١٠ ــ ١١.

واشتهر من رؤساء دار الصناعة (إبراهيم التازي) لما له من بلاء حسن في الجهاد وبطولات حربية مشهورة أرخها النويري في غير ما موضع من كتابه[1].

كذلك صاحب صناعة السفن صناعة حربية أخرى هي صناعة السلاح، فقد وجد بالإسكندرية (قصر السلاح)، وهو مخصوص للأسلحة وأدوات الحروب، ويشمل سبع قاعات، في كل قاعة عدة بيوت وفي كل بيت آلاف مؤلفة من السهام والسيوف والرماح وغيرها من آلات الحرب[2]، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه في واقعة الإسكندرية لم يحرق القبارصة هذه الدار خوفا من أن يكون كمينا للمسلمين أو يكون مسجدا، فإذا هدموه هدمت بمصر كنائسهم وذلك أن الملك المنصور قلاوون رسم في أيام دولته بهدم كنائس النصارى[3]، وكان قصر السلاح وقت الواقعة ممتلئا حتى قال ابن شاهين الظاهري عنه: (لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم في اللبوس)[4].

ومعلوم أن مثل هذا العدد الكبير يجعل (قصر السلاح) ليس مجرد مخزنا للأسلحة، بل نتوقع أن يكون قسم منه لتصنيع الأسلحة وصيانتها، ويدل على ذلك أيضا أن الأشرف شعبان إبان زيارته للمدينة عام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) تفقد قصر السلاح وذلك بعد واقعة القبارصة بثلاث سنوات، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة من عهد الملوك السابقين، فأمر ببناء قاعة سلاح جديدة ملأها بأسلحة جديدة تسمى باسمه ليذكر بذلك كما ذكروا[5]، ومن اهتمامات سلاطين المماليك

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٥، ص١٩١، ١٩٦، ٢٧٧ ــ ٢٨٠، ٢٨٩ ــ ٢٩١؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٩٥.

(٢) النويري السكندري:الإلمام، ج٢، ص١٧٥، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية،ص٤٨٦.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص١١ ــ ١٢؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٧.

(٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص٤.

(٥) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص١٧٠، ج٦، ص١١، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية،ص ٤٨٧.

بدار السلاح تجديدها كلما دعت الحاجة لذلك، فتذكر لنا المصادر أنه في عـــهد الظاهر برقوق عام (٧٩١هـ/١٣٨٨م)قام بتجديد خزائن السلاح[١].

وقد تنوعت الأسلحة والآلات الحربية التي كانت تصنع في الإسـكندرية، فيذكر النويري عدداً منها والتي كانت موجودة في قاعة القرافة، فيقـول: (... إن فيها آلافا مؤلفة من السهام والرماح والمزاريق والأتــراس والخـوذ والعنــابر والزرد والزرديات والأطوق والقراقلات والسواعد والركب والساقات والأقــدام الحديد والقسي السلولبة الجرخ والركاب والأعلام .. والحجارة والمدافع والنفــط والبارود وحيل الحروب ومكايدها كثير)[٢].

وقد كانت هذه الأسلحة يقام لها عرضا في الميدان عندما يراد تجربتـــها يشهده الناس جميعاً، فمن ذلك ما ذكره القلقشندي عندما رأى عرض لأحد هــذه المدافع في عهد الدولة الأشرفية، حيث قال: (وقد رأيت في الدولـــة الأشــرفية شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله، بــها مدفعــا صنع من نحاس ورصاص، وقيد بإطراف الحديد، رمى عنه من الميدان ببندقـــةٍ من حديد مُحماه، فوقعت في بحر السلسلة خارج بـــاب البحــر، وهــي مســافة بعيدة)[٣].

ضرب السكة : اشتهرت الإسكندرية بأنها صنو القاهرة في سك العمــلات بالعصر المملوكي، وقد أقيمت هناك داراً سميت بـ (دار الضــــرب)، ويذكــر المقريزي أن دور الضرب في مصر ثلاثة، القاهرة والإســكندرية وقــوص[٤]، والظاهر أنها كانت منذ عهد الأيوبيين بل والفاطميين، حيث ذكر ابن الممــاتي أن بالإسكندرية دار تقوم بصهر الذهب والفضة وضرب الدنانير[٥]، وذكر القلقشندي

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٣٤١.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٥، ولمعرفة معاني هذه المصطلحات من الأســلحة الحربية انظر: إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٩ وما بعدها.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى،ج٢، ص١٤٤ ــ ١٤٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩٥.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص٣٣١.

أيضاً أنه في عهد النائب صلاح الدين خليل بن عرام سكت دنانير عام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وكانت تحمل في أحد وجهيها عبارة (محمد رسول الله)، وعلى الوجه الآخر (ضرب بالإسكندرية في الدولة الأشرفية: شعبان ابن حسن عز نصره)، ثم أمسك ابن عرام عن ذلك فلم تكثر هذه الدنانير ولم تشتهر[١].

وتم العثور على بعض الدنانير والدراهم المملوكية مما ضرب بالإسكندرية مما يؤكد استمرار دار الضرب بالإسكندرية في أداء عملها طيلة عهد المماليك الجراكسة أيضاً[٢].

وأنشئت في عهد الجراكسة داراً لضرب النقود النحاسية والتي عرفت بالفلوس، واستورد الظاهر برقوق كميات من النحاس الأحمر من بلاد الفرنج لذلك، إلا أن الغش والتدليس في أوزانها أدى بالأمير يشبك الدوادار إلى إبطال ضرب هذه الفلوس بالإسكندرية فيما بعد[٣].

ولقد وجد في الإسكندرية في العصر المملوكي كل **الحرف** التي انتشرت في البلاد، لأنها العاصمة الثانية، إلا أننا يمكن أن نجد الإسكندرية قد تميزت في هذا العصر ببعض الحرف دون غيرها من البلاد ومن ذلك حرفة **صيد السمك**، فلقد كان أهالي الإسكندرية يخرجون بمراكبهم في عرض البحر المتوسط لصيد أسماكه والتي اشتهر منها (الرعاد) و(السرب)[٤]، أيضاً كانت هناك بحيرة إتكوا، المعروفة ببحيرة (أبوقير)،وهي بحيرة ماء مالح يخرج من البحر بين الإسكندرية ورشيد ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية، وكان يصطاد منها سمك البوري، الذي يحمل منها إلى سائر الأقاليم[٥]، وكانت هذه الحرفة تدر مالاً

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٣٦ ــ ٤٣٧.

(٢) سامح عبد الرحمن فهمي: الوحدات النقدية المملوكية في عصر المماليك البحرية، ص٢٢٧ ــ ٢٢٨، ٢٣١ ٢٣٤، حيث نشر صور مسكوكات دار الضرب بالإسكندرية في عهد برقوق والمنصور حاجي بن شعبان التي في حدود (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، في عهد الجراكسة.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ق ٣، ص١٣٢ ــ ١٣٣.

(٤) البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٤٢ ــ ٤٣.

(٥) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص١٢١.

وفيراً، ولا سيما وقد تربى على البحيرة أنواع من الطير، وبجوانبها أنشئت الملاحات التي يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها[١].

وقد ترتب على حرفة صيد السمك حرفة أخرى وهي تجفيفه وتمليحه[٢] واستخراج البطارخ منه[٣] لتصديرها، أو بيعها بالثغر، كذلك اشتهرت حرفة **التطريز والحياكة** **فكثر عدد** الحياكين المهرة والقزازين والطرازين بالثغر، وكان القزازون على فئتين، فئة تأخذ الغزل من الناس لكي تنسجه لهم لقاء أجر معلوم، وهي العملية التي عرفت آنذاك باسم(القبالة)، وفئة تشتري الغزل وتنسجه وتبعه أنواع جاهزة، وهم (الحاكة)[٤]، وقد كانت الإسكندرية مليئة بهؤلاء الحاكة، فقد بلغ عدتهم كما يقول صاحب النجوم الزاهرة في سنة: (سبع وتسعين وسبعمائة أربعة عشر ألف نول ونيفا)[٥]، ثم قل ذلك العدد فيما بعد، وأما صناع الحرير فقد عرفوا باسم (الحريريين) وهم الذين يصنعون الحرير ويصبغونه، وكان بعضهم يبيع الحرير غزلاً لمن يطرز به، وبعضهم ينسجه ويبيعه ملابس، أو يصنعه مع الغزل وثوب الطرح لاستخدامها غطاء للرأس والكتفين[٦]،وقد مهر صناع القماش في حياكته وتطريزه، لدرجة أنهم حاكوا في صنعتهم البلدان المتقدمة فيه، فقد ذكر السيوطي أنه يعمل بالإسكندرية (الوشي[٧] الذي يقوم مقام وشي الكوفة)[٨]، وكان ثمن الثوب يرتفع بارتفاع نوع وطريقة حياكته وأيضاً ما يكون فيه من المشغولات والمطرزات.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٢٣.

(٢) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩١.

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص١٠٩.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٢٤٣.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٣٨.

(٦) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٢٣٩ــ ٢٤٠.

(٧) **الوشي**: انوع من أنواع الثياب المصنوعة من الحرير والمحلاة بخيوط الذهب، انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص٦٣٨.

(٨) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٢٦.

يقول المقريزي: (..وفي ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثيابا يقال لها الشرب، كل زنة درهم بدرهم فضة، وما يدخل في الطرز يباع بنظير وزنه مرات عديدة)(١).

إلا أن حال الحاكة والطرازين لم يدم بسبب تغلب الدولة عليها ، فقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه في حوادث سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) أحصى في الإسكندرية (٨٠٠) نول فيما كان عددهم في سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) (١٤٠٠٠) نول(٢)، كذلك اشتهرت الإسكندرية بصناعة الأواني **الزجاجية و الخزفية** ، لقدم هذه الصناعة بها، فقد كانت مركزاً من مراكزها قبل الفتح الإسلامي لمصر، فقد عرفت الإسكندرية بصناعة التحف الفخارية الصغيرة كالكؤوس ذات الألوان الخضراء، المتخذة اللون الأصفر من الداخل، أما الزجاج فكان يصنع منه الأواني والقارورات والأختام، وقد ذكر سفير غرناطة حين أقام بالإسكندرية في ضيافة نائبها أنهم قدموا له شراب السكر المذاب في أواني زجاج رائقة نالت استحسانه(٣).

*** العوامل التي أدت إلى تدهور النشاط الاقتصادي آخر العهد المملوكي:**

ورغم اهتمام سلاطين المماليك بالنشاط الاقتصادي في الإسكندرية، فقد شهدت تدهوراً اقتصادياً في بعض الأوقات، وخاصة في العهد المملوكي الثاني، ويرجع هذا التدهور بالدرجة الأولى إلى عوامل طبيعية تعرضت لها المدينة خاصة، ومصر المملوكية عامة، من نكسات اقتصادية بسبب الجفاف الناجم عن نقصان ماء النيل، أو الأوبئة ولا سيما الطاعون، أو الزلازل، وكانت هذه الكوارث تسبب المجاعات والتدهور الاقتصادي ولقد كان للثغر نصيب كبير في ذلك، لأنه جزء من مصر، ثم إن المجاعات إذا اجتاحت الريف المصري نزح الفلاحون والعربان إلى كبريات المدن المصرية بحثاً عن الطعام، يذكر صاحب زبدة الفكرة في حوادث سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) أنه: (قصر النيل بالديار

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٠٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٥١٦.

(٣) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٥٢٩، ٥٣١، ٥٩٤.

المصرية تقصيراً قلق له الناس وحصل منه البأس .. وابتدأ الغلاء في الغلال والفناء في النساء والرجال.. وأجدب الوجه الغربي من برقة وأعمالها.. فهلك أهلها جوعاً وعطشاً ، فساقهم القحط والحر إلى اتجاه ديار مصر فورد منهم إلى الإسكندرية والبحيرة أمم تتجاوز الإحصار..) [١] ثم ذكر كثرة الموتى والفناء الذي حل بالناس حتى تواترت الغلال إلى الإسكندرية من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجة[٢]، كما كان للزلزال الكبير الذي ضرب الإسكندرية سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، والأوبئة التي اجتاحتها على مدى العصير المملوكي كله[٣]؛ أثره البالغ على تدهور النشاط الاقتصادي بها[٤].

ومما ساعد أيضاً على تدهور الحالة الاقتصادية، حدوث بعض **الاضطرابات السياسية** بين طوائف المماليك واندلاع نار الفتن بينهم، حيث تولد عن ذلك حالة من عدم الاستقرار الداخلي أدت إلى هزات اقتصادية كبيرة انعكست آثارها على البلاد[٥]، بما فيها ثغر الإسكندرية، ففي سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) جاءت الأنباء بمقتل السلطان **الأشرف خليل**: وخلت الطرقات والأسواق من روادها، واختفى الخبز من الأسواق، وقاسى الناس شدة عظيمة[٦]، وكان وزير الأشرف، ابن السعلوس[٧] في الإسكندرية في ذلك الوقت قد طلب سائر التجار وأرباب الأموال والمكارم وشرع في مصادرتهم وإهانتهم، فكثر الظلم والعسف عليهم، (وطلب والي الإسكندرية بدر الدين الجاكي، وكان

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٨٧.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٨٧.

(٣) انظر الأوضاع الاجتماعية من الفصل الأول ص ١٠١ من هذا البحث.

(٤) انظر ص ١٠٨ من هذا البحث.

(٥) انظر: المقريزي: السلوك، ج٣،ق١، ص١٦٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص٤٠١.

(٦) أيبك الدوادار: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ج٨، ص٢٧٣، عن قاسم عبده قاسم ص ١٦٢.

(٧) **ابن السلعوس** هو : شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الرجاء التنوخي الدمشقي، مات بعد مقتل الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥٤.

رجلا ذا دين ومروءة فرسم عليه وأخذ منه مبلغ ألفي دينار وبقيت الإسـكندرية في بكاء وعزاء) [1].

ويصور ابن إياس أثر الاضطرابات السياسية على الناحية الاقتصادية في حوادث سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) بقوله: (خرجت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب، وكانت الأسعار مرتفعة في سائر البضائع، والإشاعات قائمة برجوع عسكر (ابن عثمان) وزحفهم علىالبلاد الحلبية، وإشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان، والأحوال واقفة، والسلطان ناظر إلى الظلم، وأخذ أموال الناس، والأمر إلى الله)[2].

ومما زاد في سوء الأحوال الاقتصادية في الإسكندرية خاصة، ومصر عامة، تعاقب عدد من سلاطين المماليك على حكم دولة المماليك الجراكسة خلال مدة وجيزة، فقد ذكر ابن إياس أنه تعاقب على عرش السلطنة عام (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) حكم فيها أربعة سلاطين منهم (خاير بك) الذي يقال له: (سلطان ليلة)، لأنه لم يحكم إلا ليلة واحدة، وأنه وقع بمصر من الفتن والشرور ما يصعب حصره [3]، كما يذكر أيضاً في حوادث سنة(٩٢٢هـ/١٥١٦م) ونتيجة لاضطراب البلاد بسبب اعتراض المماليك على السلطان قانصوة الغوري الذي تسرع في إعداد العسكر المملوكي في أربعة أيام بدون تجهيز كامل لمقاتلة الجيش العثماني أن : (اضطرب أحوال العسكر وارتجت القاهرة، وعز وجود الخيل والبغال وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة، وامتنع الخبز من الأسواق، وكذلك الدقيق، ووقع القحط وقع بين الناس وضج العوام، وكثر الدعاء على السلطان،

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٢٢٨ ، والترسيم : الإقامة الجبرية ، وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، انظر الماجد : نظم دولة المماليك، ص١٣٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٤٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨.

وغلقت الأسواق والطواحين، ....واختفى الصنايعية والخياطون، ....وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول: روحى روحى)[١].

ويضاف إلى الاضطرابات السياسية مشكلة أخرى قريبة منها، وهي انعدام الأمن بسبب هجمات العربان، فقد قام عرب هوارة وغيرها من قبائل العرب[٢] بنهب الإسكندرية أثناء موقعة القبارصة عليها، ووصف النويري ذلك بقوله: (.. فتدخل العرب في الليل الدور، وتأخذ ما فضل عن الإفرنج ، فلو سلمت البلد من العرب والمشارقة ، كان قد بقي لغالب أهلها متاعهم وأثاثهم، فاستغني من العرب من كان فقيراً، وافتقر من أهل البلد من كان غنيا)[٣]، كما أدت غارات العربان المتكررة على الإسكندرية وغيرها من مدن مصر إلى إفساد الزروع ونزل بالفلاحين البلاء والظلم مما يمنع توافر الميرة لأهل المدن[٤] هذا بالإضافة إلى ما ترتب على غارات القبارصة على المدينة، وخاصة على الجانب الاقتصادي كما سبق الإشارة إليه [٥].

كذلك كانت المصادرات أو الاحتكارات التي انتهجها بعض أمراء وسلاطين المماليك أحد أسباب كساد أحوال التجارة بالإسكندرية، فعلى سبيل المثال ما قام به النشو ناظر الخاص عام (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) من مصادرة أهلها، وطلب عشرة آلاف دينار من الصيارفة قرضاً في ذمته، وطلب من ثلاث تجار عشرة آلاف دينار، وغرم ابن الربعي المحتسب بها خمسة آلاف دينار، علاوة على إيقاع الحوطة على بعض ممتلكاته وسجنه، حتى توفي في سجنه من أثر

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٥، ص٢٨.

(٢) لقد سكن الكثير من العرب المنطقة الواقعة ما بين الإسكندرية والعقبة الكبيرة ببرقة، فكان منهم عرب زنادة، وهوارة، وغيرهم، انظر للمعرفة المزيد عن ذلك: القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب زمان، ص١٧٥.

(٣) النويري: الإلمام، ج٢، ص٢٧٠.

(٤) الصيرفي:إنباء الهصر، ص ١٤٤،١٧ــ ١٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص١٢، ١٣، ٤٣، وغيرهما، **والميرة**: هي الطعام ، انظر : الرازي : مختار الصحاح: ص٥٦٣.

(٥) انظر ما سبق في (الأوضاع السياسية) ، ص ٦٢.

التعذيب[١]، كما أدى احتكار بعض السلاطين والأمراء الغلال أو بعض الصناعات إلى حدوث هزات اقتصادية عنيفة، يدلنا على ذلك ما يذكره بعض المؤرخين أن بعض السلاطين وكبار الأمراء كانوا يشترون الغلال حين يكون سعرها منخفضاً ويخزنونها إلى حين حدوث الأزمات فيبيعونها بسعر يحقق لهم المكاسب الكبيرة[٢]، غير أن بعض السلاطين قاموا بالتدخل لفرض تسعيرة محددة على كبار الأمراء لئلا يتضرر الناس، فقد أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمراء أن يبيعوا القمح والغلال التي لديهم بأسعار حددها بنفسه [٣].

ومن أبرز ما ذكره المؤرخون عن الاحتكارات في الأطعمة في الإسكندرية، ما كان من مرسوم في أعوام (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، (٨٣٥هـ/١٤٣١م) على تجار الفلفل بالقاهرة والإسكندرية يقضي بأن لا يباع الفلفل والتوابل إلا للسلطان الذي كان يشتريه بحساب دون ما يباع على التجار حتى وقع التجار المسلمون والفرنج في بلاء شديد بسبب ذلك[٤].

ومن أبرز نتائج الظلم ما ذكره المؤرخون من أنه صار عدة القزازين[٥] في عام (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) في الإسكندرية بلغ ٨٠٠ بعد أن كان أحصى عدتهم في (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) فكان ١٤٠٠٠، ويعلق ابن الصيرفي في سبب ذلك الظلم بقوله: (ففشا الظلم فيهم من الحكام وكثرة الجور وشؤم السيرة، فتشتتوا في البلاد شذر مذر)[٦]، ويؤيده في رأيه أبو المحاسن الذي علق على ذلك بقوله: (فانظر

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٥٢.

(٢) ابن الصرفي: انباء الهصر، ص١٦٢؛ نزهة النفوس، ج٣، ص١٤٨، ١٨١، ٢٣٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤١ـ ٤٣.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٣٣.

(٤)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص١٨٥،٢٣٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٢٣.

(٥) أي من يبيع الحرير ، نسبة إلى القز وهو الإبريسم (الحرير)، انظر مختار الصحاح:ص٤٦٨.

(٦) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٢٧٩.

إلى هذا التفاوت في هذه السنين القليلة، وذلك لظلم كثير من ولاة الأمور وسوء سيرتهم، وعدم معرفتهم ، لكونهم يطمعون في النزر اليسير بالظلم، فيفوتهم أحوال كثيرة من العدل، والفرق بين العامر والخراب ظاهر)(١).

فجميع هذه العوامل وعوامل أخرى أدت إلى تدهور اقتصاد المدينة وجعلها شبه خربه، فيذكر ابن إياس تعليقاً عن خراب الإسكندرية حين دخلها السلطان الغوري سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) بقوله: (فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ في غاية التزحّل والخراب، .. .. ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب، حتى قيل طُلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجُد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح)(٢).

وفي أواخر القرن (٩هـ/١٥م) وبالتحديد في سنة (٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م)، وقع حدث خطير كان له صدى عميق في زلزلة اقتصاد مصر عامة والإسكندرية خاصة، فقد سار برتلميو دياز بحذاء الساحل الغربي لإفريقيا واستمر بإبحاره حتى وصل إلى الطرف الجنوبي للقارة وأطلق عليه راس الرجاء الصالح، وبدأ منذ تلك اللحظة عصر جديد في تاريخ تجارة الشرق فتحولت جميع دول العالم التي كانت تتعامل مع مصر إلى الأسواق الجديدة التي تميزت عن السوق المصرية برخص منتجاتها، فأصاب ذلك الاقتصاد المصري بخسائر فادحة، فقد قام الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك بالمرابطة أما البحر الأحمر ليحول دون خروج السفن المصرية نحو المحيط الهندي، وبذلك تحكم بالطريق التجاري الذي كان يربط مصر بالهند، وضمن لنفسه السيادة على

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٣٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٢٤.

أسواق التوابل[1]، وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى، وفي المقابل تكدست التوابل وكافة البضائع بالثغر السكندري وغيره من الثغور المصرية حتى لا تجد من يشتريها من التجار الأوروبيين، وذبلت تجارة الإسكندرية وقضي على اقتصادها تماماً[2]، والظاهر أن هذا الخراب والدمار استمر حتى بعد استيلاء الدولة العثمانية عليها ، يصور ذلك ما كتبه صاحب رحلة الشتاء والصيف إذ يقول مؤرخاً لزيارته للإسكندرية في القرن العاشر : (ومازلت في الإسكندرية بلا نديم ، ولا صديق حميم، مقيماً على الوحشة والأسى، متفكراً في حكم الباري صبحاً ومسا، فلا أجد بها من ذوي الكمال جليساً، ولا ألتقي ممن تحكي من محاسن الجمال أنيساً، فلا صديق إليه مشتكى حزني، ولا أنيس إليه منتهى جزعي ... ... وكان فيه الرؤساء والتجار والعدد الذي لا يحصى ولكنه بلا مدد، على أنها كانت دار الكرم ، ومدار بلوغ المرام .

فتغيرت تلك البلاد وأهلها وغدت حديثاً مثل أمس قد مضى)[3]

---

(١) أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج، ص١٣٢ــ ١٣٥، على إبراهيم طرخان: مصر في عهد المماليك الجراكسة، ص ٢٩٣ــ ٣٠٢.

(٢) وقد حاول الغوري جاهداً من خلال الأسطول المصري القضاء على البرتغاليين و استطاع هزيمتهم قرب الشواطئ الغربية للهند سنة (٩١٤هـ/١٥٠٨)، لكنهم حطموا الأسطول المصري في العام التالي(٩١٥هـ/١٥٠٩)، في موقعة ديو البحرية، والتي كانت من أهم نتائجها القضاء على الاقتصاد المصري نهائياً، انظر في ذلك: عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٥٠٢، آ.أشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص٤٢٤.

(٣) كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص١١٣، ١٢٠.

الأوضاع الاجتماعية

دراسة الأوضاع الاجتماعية تعني تفاعلات البشر مع البشر ومع البيئة فكل منهما يتأثر ويؤثر بالأخر[1]، وبمعني أخر دراسة السلوك الإنساني لأي عصر من العصور.

ولقد **تميزت الحياة الاجتماعية** في مدينة **الإسكندرية** خلا العصر المملوكي بعدة **ظواهر** لعل من أهمها **النمو السكاني والهجرات**، فلقد كانت الحقبة التي سبقت العصر المملوكي والتي تعرض خلالها المشرق الإسلامي لحملات المغول المدمرة والتي ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من المسلمين في كل من إيران والعراق وبلاد الشام[2] فظهرت حركة طرد سكانية من إيران والعراق والشام باتجاه الأراضي المصرية التي كانت تنعم آنذاك برخاء نسبي قياساً بغيرها، وذلك نظراً لظهور دولة المماليك الفتية بها، بالإضافة إلى أن الوجود الصليبي كان ما يزال ماثلاً في سواحل بلاد الشام والذي دفع بالكثير من سكانه في الانتقال إلى الأراضي المصرية [3].

ولما تولى السلطنة في مصر السلطان سيف الدين قطز[4]، وتوالت الأحداث، وكسر التتار في موقعة عين جالوت، ونجت مصر من الاجتياح

---

(١) فؤاد الصقار: دراسات في الجغرافيا البشرية، ص٤٦.

(٢)ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٣، ص٢١٣؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٤٩ـ٢٨٢.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٠٨.

(٤) هو الملك المظفر قطز المعزي ، تولى السلطنة سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨) ، كسر التتار في موقعة عين جالوت، مات مقتولاً بمؤامرة دبرها له الظاهر بيبرس البندقداري، وكان ذلك سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩)، انظر في ترجمته: ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٦٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٦.

المغولي الذي كان يخلف وراءه الدمار والمذابح الجماعية[1]، احتفظت مصر بمعدل ثابت للنمو السكاني[2].

كما أدت الانتصارات المتتالية على المغول إلى بداية عصر جديد للمماليك له قوته، وشدة بأسه،صار عامل جذب لكثير من المسلين في العالم الذين يبحثون عن الأمن في فترة ساد فيها الرعب والفزع والهلع للجميع، فهاجر إلى مصر عدد من مسلمي الأندلس هرباً من حروب النصارى للمسلمين في الأندلس، إضافة إلى مسلمي المشرق بعد استيلاء المغول على بغداد، وكذا الكثير من سكان القبيلة الذهبية (القفجاق) بعد أن أسلم أهلها وارتبط حكامها بعلاقات طيبة مع سلاطين دولة المماليك في مصر والشام[3].

وقد أدى هذا كله إلى وجود (تركيبة سكانية) متميزة اختلفت فيها الأجناس، ونعم الناس فيها بالرخاء في ظل الأمن والأمان الذي توفر في مصر المملوكية، ولم تكن الإسكندرية بمنأى عن ذلك، فقد اجتمع فيها الكثير من المهاجرين من المغرب الإسلامي ولاسيما بعد سقوط الأندلس ممن هاجر خوفاً على نفسه من القتل، وكان الأمر شديداً فقد ذكر صاحب بدائع الزهور في حوادث سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) أنه وصلت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ووضعوا في المسلمين السيف، وقالوا :

---

(١) عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص١٣٥.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٥٧.

(٣) يذكر النويري في حوداث سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) أنه كثرت الأراجيف بحركة التتار نحو الشام فخاف الناس وجفلوا والتجأوا إلى الحصون، وأكثرهم وصلوا إلى الديار المصرية، فامتلأت بهم القاهرة ومصر، انظر: نهاية الأرب ج٣١، ص٤١٢، ٤١٣، ٤١٤؛ وانظر أيضاً: جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، ص١٩٤، ـ ١٩٩، حيث أورد فيه تفصيل لهجرات المسلمين المغول إلى مصر؛ أنظر كذلك قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك، ص٥٨، حيث ذكر أن السلطان العادل كتبغا استقدم عدداً كبيراً من أبناء القبيلة الذهبية وأسكنهم بمصر.

(من دخل في ديننا تركناه، ومن لم يدخل في ديننا قتلناه، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل)[1].

ونتيجة لهذه الهجرات التي جاءت إلى مصر المملوكية اجتمع في مدن مصر أجناس مختلفة من العرب والأتراك والمغاربة ومن المسلمين ومن غير المسلمين، ولا سيما مع وجود الحركة التجارية النشطة مع جنوة والبندقية وغيرهما، كذلك ما كان من سبي الحروب من الفرنج وغيرهم،وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية[2].

وقد قسم المقريزي المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك إلى سبع طبقات، إذ يقول: (اعلم حرسك الله بعينيه التي لا تنام، أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام، القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، ، ويلحق بهم أصحاب المعايش، وهم السوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث، وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذووالحاجة والمسكنة،وهم السؤال، الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم)[3].

ولم تشر المصادر ــ كما يبدوا لي ــ عن اختلاف في هذه الطبقات في الإسكندرية عن سائر مدن مصر المملوكية، بل هناك من الآثار ما يدل على أن هذه الطبقية كانت سائدة في الإسكندرية أيضا، فقد وجد بها أصحاب الطبقة الأولى من الأمراء المماليك الذين تولوا نيابة الثغر، كذلك ولاة الثغر ونظاره، بالإضافة لقضاته، وقد نعموا جميعا بخيرات الإسكندرية وكونوا ثروات طائلة لا حصر لها، وتمتعوا بعيش رغد ورفاهية لا حد لها، فمن مظاهر ثراء ساكني الثغر ما ذكره البعض من أن أحد ولاة الإسكندرية وهو الأمير ركن الدين بيبيرس الجمدار، حين

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤٤٨.

(٢) ناجلا محمد: العلاقات السياسية بن البندقية ومصر، ص ٢٢١.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٢ــ ٧٣.

صادره الناصر محمد أخذ منه جملة مستكثرة منها ٢٠ ألف دينار، عدا ما وجد له من دور وحوانيت وبساتين بلغت قيمتها عند بيعها حوالي ٥٦٠ ألف درهم[١]، وأيضا حين صادر الناصر ناظر الخاص القاضي كريم الدين وجد له أشياء كثيرة من بينها ٥٠ ألف دينار، ومن أصناف المتجر شيء كثير جدا [٢]

أما أصحاب الطبقة الثانية وهم أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية، وقد تشبهوا بأرباب الدولة والحكام في سكنى القصور الفارهة، والتمتع بالعيش الرغد، وجرت بأيديهم الأموال، وكانت تخدمهم الجواري والغلمان، **وعرف كبار التجار منهم باسم (بياض الناس)، وكان أكثرهم من الكارمية**، وقد بلغ ثراء هذه الطبقة أن طلب السلطان الاقتراض منهم لضيق ذات اليد، فعلى سبيل المثال رغب الناصر محمد حينما خرج متصيدا عام (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) ووصل قرب الإسكندرية إلى شراء هدايا لزوجاته، فلما لم يجد ما يكفي لذلك أرسل وكيل جباية أمواله للاقتراض من تجار الإسكندرية[٣]، **كما امتلك بعض مياسير التجار وأثرياء البلد خزانات للسلاح**، تفتح وقت الحاجة ويزود بها الرجال، فقد ذكر ابن بطوطة أنه كانت لأحد أثرياء الإسكندرية ويدعى ابن رواحة قاعة مملوءة بالسلاح، وهذا الرجل عرض على السلطان الناصر محمد ابن قلاوون استعداده للتكفل بمرتبات عساكره [٤] ، **وأيضا ما ذكر عن تاج الدين أبي بكر الدماميني** رئيس التجار الكارمية بالثغر، أنه وجد له حين توفي ١٠٠ ألف دينار عينيا[٥].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٨٧ـ٤٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٣٢٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٤٨ـ ٢٤٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٥٥.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٤٠. هذا وتعتبر أسرة الدماميني من الأسر التجارية الغنية والتي كانت لها اهتمامات كبيرة بالحياة العلمية بالثغر والنشاطات المتعددة في ذلك المجال، والتي سوف نبحثها في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله.

وقد سكنت **هاتان الطبقتان** القصور الفارهة، والدور الفخمة، فقد **ذكر القلقشندي** أن ثغر الإسكندرية كان يعج بعدد من القصور (الدقيقة البناء المحكمة الجدران والأبواب)[١]، **فمن هذه القصور دار السلطان:** التي يسكنها السلاطين عند نزولهم بالإسكندرية، ولم يسكنها من النواب إلا الأمير غرس الدين خليل بن شاهين إذ كان زوجاً لشقيقة زوجة السلطان الأشرف برسباي، وقد وصفها غرس الدين وصفاً دقيقاً بما فيها من الرخام الملون والأماكن المزخرفة، والبساتين الحسنة وأنها على البحر لا يسكنها إلا السلاطين خاصة، وجعلها عجيبة من عجائب الدنيا[٢]، **وأما دور النيابة** فقد كانت من الفخامة والأبهة ما يجعلها تكاد توازي دور السلطان، حتى جعلها بعض المؤرخين داراً واحدة[٣] **ويصف النويري** داراً لأحد الأثرياء بالإسكندرية بأن (مجالسها منقوشة، وأصحنها بأنواع الرخام مفروشة [٤]، **ويحسن القلقشندي العرض بقول:** (وهي مع ذلك مدينة رائقة المنظر، حسنة الترصيف، مبنية بالحجر والكلس، مبيضة البيوت ظاهرها وباطنها كأنها حمامة بيضاء)[٥]، **كما تميزت مباني الإسكندرية بوجود المشربيات الخشبية** على النوافذ حجباً للنساء، وكانت تتميز بالجمال ودقة الصنع، فقد ذكر النويري الطاقات التي على الأبواب حتى لا يتمكن أحد من بالخارج من رؤية ما يجري بداخل المنزل تستراً وحشمة[٦]، **وكانت بعض هذه الدور من المتانة بحيث سلمت من الاعتداءات** إبان الغارات الخارجية على الإسكندرية، كدار عبد الله بن نخالة، الذي قام يقذف القبارصة مع غلمانه من أعلى دور المحجة، فسلمت هذه الدور من النهب، ولم يجرؤ القبارصة على الاقتراب منها[٧].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ،ج٣، ص ٤٠٨.

(٢) غرس الدين خليل: زبدة كشف المملك، ص ٤٠.

(٣) جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ١٤٠.

(٤) النويري السكندري: الإلمام ، ج٤، ص ٣٠٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشي، ج٣، ص٤٠٧.

(٦) النويري السكندري: الإلمام ، ج٤، ص٢٨٧، ٣٠٣.

(٧) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٦٢،

أيضا وجد في المجتمع السكندري خلال العهد المملوكي طبقة متوسطة من التجار وأصحاب المهن والحرف، والتي صنفها المقريزي في القسم الثالث من طبقات مجتمعه، فقال: (والقسم الثالث : الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، فإنهم في هذه المهن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح، فإن أحدهم لا يقنع من الفوائد إلا بالكثير جدا، وهو يعد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته)[١]، ويندرج ضمن هؤلاء أصحاب المهن والحرف والعطارين والوراقين والحاكة والجزارين .

كما شهدت الإسكندرية خلال هذا العصر الطبقة الرابعة وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة والحرث، بدليل كثرة المتنزهات والبساتين التي بالإسكندرية والتي كانت في حاجة لمثل هؤلاء، ليقوموا برعايتها من زراعة وفلاحة وغرس وسقيا، إضافة إلى خليج الإسكندرية المخضر الجانبين من البساتين والغيطان المزروعة بمختلف أنواع الخضر والفاكهة، والتي كانت بحاجة لهؤلاء الفلاحين الذين أقاموا قراهم وبيوتهم على ضفتي الخليج[٢].

ومن طبقات المجتمع في الإسكندرية أرباب المهن الصغيرة والأجراء من عمال الصناعة والخدم، وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئا من المال ولا يشغلون وظيفة، ولا يحسنون عملا أو يمتهنون مهنة، **أمثال العتالين والعمال**[٣] **والصعاليك والفقراء، وقد أشار صاحب زبدة الفكرة** إلى وجود عدد من الصعاليك والفقراء بالإسكندرية، حيث ذكر في حوادث سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) المجاعة والوباء الذي حل بالبلاد في هذه السنة ثم تكلم عن الإسكندرية فقال: (وأما ثغر الإسكندرية فإن الصعاليك الذين فيه والواردين إليه وزعوا على الأولياء، والفقراء على الأغنياء)[٤].

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١٨.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٩٣.

(٤) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ص٢٨٧.

أما بالنسبة للطوائف غير المسلمة في الإسكندرية، فمن الملاحظ أن المقريزي لم يشر لتقسيم خاص بهم، مما يؤكد أن التقسيم كان يعم جميع الناس بما فيهم طائفة اليهود وطائفة النصارى، اللهم إلا فيما ألزموا به من الشروط العمرية التي أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليهم في الملابس والمساكن وإخفاء شعائرهم، وكان السلاطين من آن لأخر يجددون أخذ ذلك عليهم[1]، **وقد أثرت هاتان الطائفتان في المجتمع المصري وتأثروا به**، فيذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، وكذلك ابن إياس في حوادث سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، أن مع نقصان مياه الفيضان والخوف من المجاعة؛ خرج السلمون للاستسقاء وخرج اليهود والمسيحيون معهم[2].

ومن تأثير اليهود على تقاليد وعادات المجتمع المصري ما أشارت إليه بعض المصادر من أن بعض نساء المسلمين اعتدن عدم شراء السمك أو أكله أو إدخاله البيوت يوم السبت، كذلك بالنسبة لدخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب، فإن بعض النسوة حرمن فعل ذلك يوم السبت[3]، وكل هذا من المحرمات.

أما بالنسبة للنصارى فقد كان لهم تأثير كبير على كثير من عادات وتقاليد المجتمع المصري فعلي سبيل المثال اعتادت بعض النسوة على عمل عصيدة موافقة للنصارى في مولد عيسى عليه السلام، واعتقادهم أن من لا يفعلها أو يأكل منها في ذلك اليوم يشتد عليه البرد طيلة السنة[4].

---

(١) كما ذكر ذلك والقلقشندي في صبح الأعشى، ج١٣، ص ٢٦٣، ؛ والمقريزي في السلوك، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٨، ٩٢٤، ٩٢٥؛ السيوطي في حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢١١، ٢١٢؛ وانظر قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٧، ص ٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج١، ص٢٢٩.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٠١.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٢٧٠.

وقد عمل اليهود في المهن التي تدر عليهم أموالا طائلة كصياغة الذهب والتجارة والطب[1]، **وأما النصارى** : فلم يختلفوا كثيرا عنهم بل كانت تأتيهم المساعدات المالية والعينية من الدول الصليبية والمسيحية من جميع أرجاء العالم![2]

وقد مارس اليهود والنصارى شعائرهم الدينية في حرية تامة داخل كنائسهم ومعابدهم في كافة أقاليم مصر، فيذكر **المقريزي** أنه في حين كثرت **كنائس النصارى** في الصعيد، حيث أحصى منها ٨٢ كنيسة، إلا أنه لم يكن لهم بالإسكندرية إلا أربع كنائس فقط[3].

وأما اليهود فكانوا أقل من النصارى بكثير، حيث لم يشر المقريزي سوى إلى أحد عشر معبدا يهوديا في القاهرة والفسطاط والأقاليم كلها[4].

وبرغم ذلك فقد كان أهالي الإسكندرية يتأثرون بما يقع في القاهرة وغيرها من مدن مصر المملوكية من أحداث طائفية، ففي وقعتي أهل الذمة[5]

---

(١) قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر، ص٣٣.

(٢) فايز نجيب إسكندر: مصر في كتابات الحجاج الروس، ص ٥٦ــ ٥٧.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٥١٠ــ ٥١٨.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٦٣. أما بالنسبة للوجود اليهودي في الإسكندرية فقد أشار إليه الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي، والذي زار الإسكندرية في بداية عهد صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧هــ /١١٧١م)، فقد تحدث هذا الرحالة عن أبناء دينه اليهود المقيمين في الإسكندرية وقدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف ــ إن صحت الرواية ــ فهذا يدل على أمرين الأول على الازدهار المالي والاقتصادي الذي نعمت به الإسكندرية ، والثاني العدد الكبير لليهود في هذه المدينة والذي نتوقع أن يكون قد زاد أضعافه في عهد الدولة المملوكية، والله أعلم. انظر: العبادي: تاريخ الإسكندرية عبر العصور، ص ١٢٢.

(٥) **لقد تفاوتت معاملة سلاطين المماليك لأهل الذمة في مصر** بين الشدة والتسامح، وتعود أسباب القسوة إلى عدة عوامل لعل من أهمها الحروب الصليبية التي دارت رحاها في الشرق الأدنى الإسلامي في القرنيين (٦،٧هــ) الموافق (١٢، ١٣م)، فتولد لدى المسلمين نوع من عدم الثقة والارتياح تجاه أهل الذمة، خاصة وأنه ثبت طبقا لأقوال بعض المؤرخين أمثال النويري وغيره تورط بعض الذميين في الاتصال بالقوى الصليبية والقيام بالتجسس لحسابهم

الأولى عام (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، والتي بدأت إرهاصاتها حينما حضر أحد وزراء سلطان المغرب أبي عنان في طريقه للحجاز لأداء فريضة الحج،فاسترعى انتباهه ما يتمتع به أهل الذمة في الديار المصرية، من حرية وتسامح وجاه ونفوذ، فأنكر ذلك على السلطان الناصر، وكيف أنهم يعاملون في المغرب بذلة وهوان[1]، فتأثر الناصر بذلك، وأصدر مرسوما سلطانيا نص على أن لا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا الأمراء إلا من أسلم منهم، وألا يركبوا خيلا ولا بغالا،....وغير ذلك من الشروط التي أوجبوا عليهم التزامها، وهدد من خالف المرسوم بسفك دمه[2] **وتأثر أهل الإسكندرية بهذا القرار**، فهدموا كنيستين للنصارى واتجهوا إلى دور أهل الذمة وهدموا كافة الدور التي تعلو على دور جيرانهم من مسلمي الثغر وغير ذلك من أشياء كثيرة تنفيذا للمرسوم السلطاني[3].

وفي أواخر عام (٧٢١هـ/١٣٢١م) قام النصارى بإشعال الحرائق في بعض مساجد ودور المسلمين بالقاهرة، فكان نتاج ذلك ثورة عارمة ضدهم من قبل المسلمين الذين أعملوا الهدم والنهب في كنائسهم وكنوزهم، وامتدت الفتنة إلى الإسكندرية، حيث قام العامة بعد الفراغ من صلاة الجمعة وهاجموا كنائس النصارى في المدينة وقاموا بهدمها[4].

أما بالنسبة للأقليات أو الجماعات الأجنبية، فقد وجد في العصر المملوكي بمصر مجموعة كبيرة من هذه الأقليات التي جاءت إليها، واختارت الإقامة بصفة خاصة في المدن والثغور التجارية كالإسكندرية،وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية، واتخذت كل جالية فندقا

ومساعدتهم في حركاتهم ،مثل وقعة القبارصة، انظر في ذلك: النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٠٧؛ العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، ص٥٩٣.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٢ــ ١٣٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١١ــ ٩١٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٨، ص١٣٤؛ الحريري: منتخب الزمان، ص٣٧٧ــ ٣٧٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢١٩ــ ٢٢٠.

خاصا بها، ومن هذه الجاليات الجنويين والكتلان والبنادقة والنابليين والفرنسيين والقبارصة والمرسيليين والكرواتيين والروس والألمان والهنود والأحباش وغيرهم كثير[1].

وقد كانت هذه الجماعات تتأثر بالمجتمع السكندري وتؤثر فيه، بحكم الاحتكاك اليومي فيما بينها، وقد يبلغ الأمر إلى قيام فتن فيما بينها وبين أهالي المدينة، والتي عادة ما يذهب ضحيتها أرواح كثيرة، كما حدث عام (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، حيث اختصم مسلم وفرنجي فضربه بالمداس، فعظمت الفتنة، وركب النائب وأغلق أبواب البلد، فتزاحم الناس وأحرقوا باب السلطان ويسمى باب اليهود، وأخرجوا المسجونين، ووقع النهب في بعض الدور، ووصل الخبر للسلطان محمد الناصر الذي اعتقد أن الحبس الذي فتح هو حبس الأمراء، فأمر بالسيف في الإسكندرية وهدها إلى البحر، ووسط[2] نحو ثلاثين رجلاً وقت صلاة الجمعة، وجعل كل رجل قطعتين وصلبوهم، وعزل النائب، وقبض على أعيان التجار، وأخذ منهم أموالاً عظيمة، وقتل ناساً من الفقهاء والمدرسين الصالحين لأن بعضهم خرج وقت الفتنة يستغيثون في الشوارع ويستنكرون[3].

ولعل هذه الواقعة لها أثر بالغ على الحياة العلمية، فكما سبق أن الفتن السياسية في المشرق والمغرب كانت سببا في نزوح العلماء إلى مصر المملوكية حيث الأمان، فإن مثل هذه الواقعة تؤثر بالتالي على بقاء العلماء، فالعالم إذا لم يجد الاحترام والتقدير من الدولة بمصر، فإنه يرحل إلى بلد آخر حيث يجد الهدوء والاستقرار.

---

(١)السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٥٨.

(٢) **التوسيط** هو ضرب المحكوم عليه بواسطة السيّاف، على أن تكون الضربة قوية تحت السرة، فتقسم الجسم نصفين. انظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص١٣٣، السخاوي: الذيل على دول الإسلام، ج٢،ص١٨٣.

وقد عم الحزن معظم أصقاع العالم الإسلامي آنذاك جراء هذه الواقعة، فقد كتب أبو يحيى الطرابلسي[1] كتابا من الإسكندرية يقول فيه: (إنا لله وإنا إليه راجعون فيما أصاب المسلمين بثغر الإسكندرية من الإحراق والضرب وأخذ الأموال، و سفك الدماء، فالله يعظم لنا ولكم الأجر)، وعقب على قوله ابن الوردي بشعر قال فيه:

تبارك الله ذو الجلال لقد ... أدهش عقلي زماننا الفاسد

مصادرات جرت وسفك دما ... وأصلها ضرب كافر واحد [2]

وحزن ابن بطوطة على ما حدث للمسلمين في الإسكندرية، وقام ودون الحادثة في "رحلته" وكان وقت حدوثها بمكة المكرمة[3].

كما حدثت فتنة عام (٨١٤هـ/١٤١١م)، وأخرى عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م) وكان سبب الأولى قتال بين طائفتي الكتلان والجنويين، وأما الثانية فكان سببها سرقة الفرنج رأس مرقص(مرقس)[4]، وقد ذهب ضحية هاتين الفتنتين أرواح الكثير من أهالي الثغر[5]، **ونتيجة لهذه الحوادث فقد اهتم سلاطين المماليك بأمن الثغر وتوفير الطمأنينة** لسكانه، فكانوا يرسلون بالأمراء والولاه والنظار كلما

---

(١) هو القائم بأمر الله أبو يحيى بن عبد الواحد الحفصي اللحياني (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، صاحب تونس، فر من بلاده بسبب الفتن وتوجه إلى الإسكندرية وسكنها حتى وافته المنية بها، انظر في ترجمته: ابن تغري بردي: النهل، ج٥، ص٣٦٤، وقد أجهدنا البحث في معرفة لمن أرسل أبو يحيى الكتاب ولكن لم نعثر على شيء.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٤٠٢.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢٨.

(٤) **مرقص** (مرقس): هو أحد من كتب الأناجيل، وإنجيله من أقدم الأناجيل المعتمدة عند النصارى، ولم يكن من تلامذة المسيح، إلا أنه صحب بطرس كبير الحواريين، وقد قتله قيصر روما سنة(٦٧م)، وقد نزل الإسكندرية وأسس بها أول كنيسة أرثوذكسية، وقد قتله المصريون الوثنيون سنة (٦٨م) ثم حمل جثمانه بعد ذلك إلى البندقية، ودفن بكتدرائيتها سان ماركو، أحمد عبد الغفور عطار: الديانات، ص٣٤٠.

(٥) الصيرفي: نزهة النفوس،ج٢، ص٤٥٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٤٩١.

تجددت الفتن لتهدئة الأوضاع وتسكين العامة[1]، مثال ذلك ما فعله الناصر محمد حين أرسل كريم الدين ناظر الخاص إلى الإسكندرية لاستتباب الأمن فيها، عقب الفتنة التي حدثت بين المسلمين وأهل الذمة في الثغر عام (٧٢١هـ/١٣٢١م)، بل تعدى الأمر إلى الاهتمام بالنواحي والسلوكيات الاجتماعية، فقد اهتم السلاطين بالطبقات الفقيرة في المجتمع السكندري فنراهم في وقت الأزمات الاقتصادية كالقحط والغلاء يأمرون أمراءهم بحل المشكلات الاجتماعية التي تنشأ عن هذه الكوارث كتوزيع الفقراء على الأغنياء،كما حدث في وباء ومجاعة عام(٦٩٤هـ/١٢٩٤م) حيث قام الأمير ركن الدين بيبرس بتوجيه من السلطان الناصر محمد بتوزيع الفقراء والصعاليك على الولاة والأغنياء، وقد استمر هذا الحال حتى انقضت المجاعة وتواصلت الغلال إلى الإسكندرية[2]، **ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالنواحي الاجتماعية بالثغر وقت الأزمات** : توزيع المعونات الغذائية والأموال على المتضررين من القحط والمجاعة، كما حدث في الغلاء المفرط الذي حدث عام (٨١٩هـ/١٤١٦م)، حيث أمر السلطان المؤيد بإرسال الأموال والخبز المصنوع من الدقيق الأبيض وتوزيعها على المدرسين في المدارس، والمشايخ في الخوانق والزوايا،وغيرهم من الفقراء والمساكين والغرباء القادمين والقاطنين في الجوامع والمدارس والخوانق والزوايا[3].

أما بالنسبة لسلوكيات المجتمع السكندري، فقد حرص السلاطين على إصدار العديد من المراسيم الإصلاحية، للتأكيد على تطبيق الشرع وتهذيب أخلاق الرعايا، ومحاولة الحد من المساوئ الاجتماعية ، ومن ذلك ما فعله الظاهر بيبرس

---

(١)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٧٢ ــ٧٣؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١،ص٢٢٨.

(٢) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ص٢٨٧.

(٣) العيني: السيف المهند، ص٢٢٦ ــ ٢٢٧.

حين زار الثغر عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) حيث أمر بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات[1]، **ومن ذلك أيضا المرسوم الذي أصدره عام** (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) بإبطال الخمور، وإغلاق حوانيتها وكسر أوانيها، وإبطال ما يؤخذ عليها من ضرائب[2]،فاستبشر به أهالي الثغر، وانشد ابن المنير شعرا فقال:

ليس لإبليس عندنا أرب   غير بلاد الأمير مأواه

حرمته الخمر والحشيش معا   حرمته ماءه ومرعاه[3]

وكان لفشو الترف في المتنزهات وظهور الخمر مدعاة لقيام العلماء بالشكوى إلى السلاطين والنواب لمنع ذلك، ففي عام (٨٣١هـ/١٤٢٧م) كتب السلطان الأشرف برسباي إلى والي الإسكندرية بإلزام الفرنج بإعادة ما جلبوه من الخمر إلى بلادهم[4].

ولم يقتصر الأمر على ما كان يقوم به السلاطين والولاة بل شارك أهل الإسكندرية في محاربة هذه المنكرات وكل ما يؤدي إلى مساوئ اجتماعية ففي عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م) اقتحم أهالي الإسكندرية أماكن تواجد الصليبيين بها وكسروا لهم ثلاثمائة بنية[5] خمر، ثمنها عندهم أربعة آلاف دينار، وأراقوا ما

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٨ـ ٥٠٠، ونعتهن بالفرنجيات يجعلنا نرجح أنهن من الأوروبيات اللاتي وفدن إلى الثغر عبر السفن التجارية، وأقمن في المدينة واحترفن هذه المهنة للترفيه عن التجار الأجانب، ولحماية أهل الإسكندرية من الوقوع في هذه الفواحش قام بيبرس بإصدار مرسوم يقضي عليها.

(٢) عن جهود الظاهر بيبرس في سبيل القضاء على المساوئ الاجتماعية المنتشرة بالديار المصرية والشامية انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٢٨، ٢٢٩، ٣٥٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٣.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٠٥ـ ٤٠٦.

(٥) **البنية** : مأخوذة من (ابتنى) دارا، والبنيان هو الحائط، والبني بالضم، مقصور البناء، والبذية،على وزن شعبة، يقال: لا ورب هذه البنية، أي الكعبة، الرازي: مختار الصحاح، ص٥٦، و **البنية المراد بها هنا** :هي أماكن مبنية تخزن فيها الحمولة من الخمور.

وجدوا فيها من الخمور[١].

المتنزهات: **اشتهرت مصر عبر العصور بمناظرها الخلابة وبساتينها الغناء، حيث كثرت بها** القناطر والجسور المشيدة على الجنات والرياض في أماكن متفرقة، وقد قام المؤرخون بتدوين أماكن النزهة من برك وخلجان وبساتين في كتبهم ومؤلفاتهم فعلى سبيل المثال ما كتبه المقريزي عن الروضة قائلا: (وسأورد من أخبار الروضة هنا ما لا تجده مجتمعا في غير هذا الكتاب)[٢]، وقام السيوطي بكتابة مقالة خاصة عن الروضة سماها "بلبل الروضة" ضمنها كتابه "كوكب الروض"[٣] وقد بدأ مقالته بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: {وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين}[٤])[٥]،**ويستطرد في وصفها بأنها:** (روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن،وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن،وأطيار ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن..)[٦].

ولم تكن الإسكندرية أقل شأنا منها، فلقد اشتهرت أيضا بكثرة متنزهاتها، وبساتينها، وأماكن اللهو بها والصيد، و كذلك بآثارها القديمة التي كانت محل إعجاب الوافدين عليها وأهلها الذين كانوا يقضون عندها أوقاتا ممتعة، **فقد اشتهرت بالرياض العطرة** التي وصفها القلقشندي بقوله: (وأما رياضها ففيها الآس، والورد والبنفسج، والنرجس والياسمين، والنسرين، والبان، واللينوفر، وأزهار الحمضيات، وقد عجت بساتينها بمختلف أنواع الورود والرياحين خاصة

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٥٣.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٧٦.

(٣) يعتبر كتاب "كوكب الروض" من الكتب المفقودة للسيوطي، وقد تضمنه الكثير من المقالات التي لم يصلنا منها سوى المقالة الخاصة عن الروضة فقط. انظر في ذلك مقدمة المحقق لكتاب "بلبل الروضة".

(٤) المؤمنون، آية ٥٠ .

(٥) السيوطي : بلبل الروضة، ص٢٣.

(٦) السيوطي: بلبل الروضة، ص٢٤.

الريحان الفارسي)[١]، أما السيوطي فقد ذكر عن بعضهم أنه قال: (رأيـــت بثغـر الإسكندرية الورد الأصفر كثيرا وعددت ورقة ورده فكانت ألف ورقة)[٢].

وقد تغنى الشعراء بكثرة رياضها وبساتينها ، من ذلك ما أنشده الشـــاعر مجير الدين بن تميم[٣] حيث قال فيها:

لما قصدت الإسكندرية زائرا   ملأت فؤادي بهجة وسرورا
ما زرت فيها جانبا إلا رأت   عينـــاي فيها جنة وحريرا[٤].

وقد اهتم بعض سلاطين المماليك بهذه المتنزهات وخاصة تلك التي كـــانت تطل على خليجها حيث يعتبر من احسن المتنـــزهات لأنـــه مخضـــر الجـــانبين بالبساتين، وقد امتدح الشعراء بساتينه الغناء من ذلك قول أحدهم:

وعشية أهدت لعينك منظـــــرا   جاء الســـرور به لقلبك وافدا
روض، كمخصر العذار وجدول   نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحســـان تزينت   ولبســـن من أثمارهن قـــلائدا[٥]

ومن متنـــزهاتهم ما هو بظاهر المدينة، حيث اعتاد أهـــل الثغـــر علـــى الخروج إلى ظاهر باب البحر لقضاء اليوم بأكمله في الفرجـــة علـــى المراكـــب ومراقبة حركة التجار والصيد، وربما كانوا يتناولون طعام الغـــذاء مـــن الباعـــة المتجولين، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، **و كان ظاهر المدينة عامرا بالقصور الفخمة**، والدور الحسنة والتي اعتاد أثرياء الثغر وأغنياؤه الإقامة بـــها، وذلك لحسن جمال بساتينها ومياه أبارها، يؤكد ذلك الشاعر ، الجمال أبو الحســـين الجزار (ت٦٧٩هـــ/١٢٨٠م) بقوله:

حللت بظاهر منها كأني   حللت هناك جنات الخلود

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٠٨.

(٢) السيوطي:حسن المحاضرة، ج٢، ص٤٠٢.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) ابن دقماق: الانتصار، ج٢، ص ١٢٥ــ١٢٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشي، ج٣، ص٣٠٠ ــ٣٠١.

فلا بئر معطلة وكم قد   رأيت هناك من قصر مشيد(١)

ومن متنزهات الإسكندرية : جزيرة رأس التين التي تميزت بلطف بهوائها في أيام القيظ، وكذلك بكثرة متنزهاتها وبساتينها، التي حوت جميع الفواكه، خاصة التين والذي اشتق اسمها منه، وكان يهاجر إليها في فصل الخريف من كل سنة طير السمان، فيصطاد الناس منه الكثير إما لأكله أو إشباعا لهواية الصيد عندهم(٢)

وإلى جانب ذلك فقد كانت آثارها القديمة عامل جذب مثل منار الإسكندرية وعمود السواري، والمسلتان(٣)، والمقابر الرومانية، وغيرها من الآثار والمباني والأطلال القديمة(٤)، التي بهرت الكثير من الرحالة المغاربة والأوروبيين الذين وفدوا إلى الثغر، فقاموا بتدوين مشاهداتهم في رحلاتهم أمثال ابن بطوطة الذي دخل المنار ووصفه وصفا دقيقا، ومن قبله ابن جبير، والعبدري(٥)، وغيرهم،كما

---

(١) انظر: النويري السكندري: الإلمام ج ٢، ص١٣٢ ــ ١٣٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى،ج٦، ص٧٧؛ أحمد النجار: الانتاج الأدبي في مدينة الإسكندرية في العصريين الفاطمي والأيوبي،ص ١٣٨، **والجزار هو**: أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم (ت٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، كان والده وجميع أقاريه كانوا يعملون بالجزارة أكثر الذهاب إلى الإسكندرية للقاء بعض ممدوحيه ،انظر ترجمته، الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث سنة (٦٧٩هـ)، ص٣٣٢، ابن حبيب: التذكرة، ج١، ص٦٠.

(٢) علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٧، ص١٠٠.

(٣) لقد ذكر علي مبارك هاتين المسلتين وأنهما كانتا موجودتين في عهده بالإسكندرية وهما لكيلوباترة ملكة مصر، وكانت إحدى هاتين المسلتين قائمة، والأخرى مطروحة بجوارها، انظر: الخطط، ج٧، ص٨٦، وقد ظلت هاتان المسلتان قائمتان في الثغر السكندري في الميدان المعروف بميدان محطة الرمل حتى أواخر (ق١٣هـ/ ١٩م) ثم نقلت الأولى إلى لندن عام (١٨٧٧م)حيث أقيمت على ضفاف نهر التايمز، ولحقتها المسلة الأخرى عام(١٨٧٩م) إلى الولايات المتحدة حيث استقرت في ولاية نيويورك، في ميدان سنترال بارك، انظر: هنري ريادن: دليل أثار الإسكندرية، ص٥٧.

(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الآثار انظر: عزت زكي حامد قادوس: آثار الإسكندرية القديمة.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١٤؛ العبدري: الرحلة ، ص٨٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص٢١.

وصف ابن بطوطة عمود السواري بقوله: (وقد رأيت عمود السواري (الرخام) الهائل،.. وهو متوسط غابة النخل، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا، وهو قطعة واحدة محكمة النحت..)[1]، **وكان بظاهر باب البحر"ظاهر المدينة"** قصر قديم يعود للعصر الروماني، اعتاد أهالي الإسكندرية على الخروج والاجتماع هناك للنزهة في أيام الصيف[2].

وبشرق المدينة أطلال قصرين في منطقة الرمل كان الناس يخرجون في ليالي الصيف إلى هذا الموضع للسمر والتنزه[3]،**ومن ذلك أيضا ضاحية (نيكروبوليس):** أي مدينة الأموات، وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، وبها محل لدفن الأموات، بينه وبين سور المدينة بساتين ومنازل تنتهي إلى خليج يوصل ماء النيل إلى البحر، وكان الكثير من الناس يجتمعون في هذا المكان حيث تكثر محلات البيع والشراء، والمنازل العامرة والبساتين الجميلة[4].

ومن ضواحيها أيضا (بوكليس) حيث كانت بعض منازلها تطل على البحر والبعض الآخر على الخليج الحلو، وكانت محل تنزه، ومن ذلك أيضا ضاحية **(شيديا)** الواقعة على خليج الإسكندرية، والتي كانت تمتلئ ليلا ونهارا بأهالي الإسكندرية، وكان يقام فيها العديد من الأسواق ويقصدها خلق كثيرون من جميع الجهات[5].

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ص٢١.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ٣٧٦.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٣٧٦، هذا وقد قال شاعر الإسكندرية ظافر الحداد في هذا الموضع شعرا:

وكم يوم لنا بالرمل فيه ... حديث مثل ما نثر السحاب
به القصران كالرجلين لاحا ... على بعد يقلهما السراب
أقاما صاحبين مع الليالي ... ولم ينعي بينهما الغراب
ولكن سوف يفترقان قسرا ... وهل يبقى مع الدهر أصحاب؟

انظر: حسين نصار: ديوان ظافر الحداد، ص٢٩.

(٤) علي مبارك: الخطط، ج٧، ص١١٩.

(٥) على مبارك: الخطط، ج٧، ص١٢٠.

ومن الأماكن التي اتخذها أهالي الإسكندرية للسمر فيها وتبادل الأراء وقضاء الحاجات دار الملعب[1]، والذي يقول عنه الحميري: (وكان بالإسكندرية أيضا دار الملعب وهي التي كانوا يجلسون فيها لقضاء حوائجهم وأخذ آرائهم، فكان كل جالس فيها إنما جلوسه تلقاء وجه صاحبه لا يخفى على أحد منهم شيء من حال غيره)[2].

كما حوت الإسكندرية أماكن كثيرة للصيد، كظاهر المدينة، ومنطقة تروجه ومريوط والحمامات، وكلها مناطق تابعة لمدينة الإسكندرية، وقد نالت أماكن الصيد هذه إعجاب السلاطين الذين حرصوا على الخروج إليها والاصطياد، أمثال الظاهر بيبرس، والأشرف شعبان والأشرف قايتباي،وغيرهم كثير[3].

أيضا وجد بالإسكندرية ميدان فسيح يقع بظاهر المدينة، يقال له الملعب ويقع ما بين باب البحر والمنار اعتاد الناس على ممارسة ألعابهم المفضلة فيه، بل إن سلاطين المماليك وأمراءهم كانوا حرصين على ممارسة رياضاتهم المفضلة ركوب الخيل ولعب الكرة [4] في هذا الميدان كلما سنحت لهم الفرصة بزيارة ثغر الإسكندرية[5].

---

(١) لعله يقصد به المدرج الروماني، حيث تشابه وصف الحميري له وصف المدرج الروماني، والله أعلم، انظر: آثار الإسكندرية القديمة: زكي حامد قادوس، ص١٧٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٦٠.

(٣) انظر على التوالي كلا من ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر،ص١٧٦، ٢٤٥،٣٦٠؛ اليونيني: مرآة الزمان، ج٢، ص١٩٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠؛ ابن اياس: بدائع الزهور: ج٣،ص١٣١.

(٤) وتعرف الآن بلعبة **البولو**، وكان يمارسها السلاطين والأمراء من فوق ظهور الخيل، وكان يخرج ضمن معية السلطان أثناء ممارسة هذه اللعبة أمير يعرف بالجوكندار، أي حامل الجوكان أو الصلجان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويتمثل في عصا طويلة مدهونة، برأسها خشبة مخروطية، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى،ج٥، ص٤٥٨؛ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٢٣٧.

(٥) لقد شهد هذا الميدان لعب أمثال الظاهر بيبرس، والأشرف قايتباى وغيرهما كثر، انظر ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٤٩.

وقد كانت الإسكندرية ميدانا لإقامة الاحتفالات ببعض المناسبات السعيدة كالاحتفال بتدشين سفن وقطع من الأسطول البحري، أو عرض بعض الأسلحة وآلات الحرب[(١)]، كذلك الاحتفال بدخول السلاطين المدينة،من ذلك ما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس، فقد زينت له المدينة حين قام بزيارتها عام(٦٦١هـ/١٢٦٣م)، وخرج أعيان الثغر على اختلاف حرفهم للقاء السلطان فأكرمهم وأحسن إليهم، واستقبله الأهالي بالفرح والدعاء بدوام دولته، وأخرج الأهالي ما عندهم من عدة الجهاد من القسى والزرد والخوذ والطوارق، وغيرها وزينوا بها الشوارع[(٢)]، ومما يدل على ضخامة هذا الاحتفال وما قدمه الأهالي من حفاوة وتكريم للسلطان، أنه حين زارها في العام التالي(٦٢٢هـ/١٢٦٤م)، أمر أن لا تتكلف الرعية في الزينة[(٣)]، وكان يشارك في حفلات الاستقبال هذه طبقات مجتمع الإسكندرية بما في ذلك الجاليات الأجنبية، فقد وصف النويري السكندري واصفا موكب السلطان الأشرف شعبان حين دخل الإسكندرية بقوله: (..دخل الأشرف من باب رشيد[(٤)]، فسار بالمحجة العظمى[(٥)]، وقد اجتمعت الرجال والنساء والعبيد والإماء لرؤيته، فصاروا يدعون له، والنساء صرن يزغرتن فرحا به لشبابه وحسنه وجماله)[(٦)]، ويذكر ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى حين زار الإسكندرية عام (٨٨٢هـ/١٤٧٧م)، اصطف الناس في شارع المدينة الرئيسي وهو شارع المحجة، لرؤية السلطان والاحتفال بقدومه،وأنه في أثناء سير الموكب

---

(١)انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ص١٤٤-١٤٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر،ص١٧٥؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص٦٤.

(٣) شافع بن علي: حسن المناقب، ص٨٦.

(٤) **باب رشيد:** يقع في السور الشرقي للمدينة، وهو الباب الرئيسي الذي يدخل منه القادم من القاهرة والفسطاط ، وكان يعبر منه السلاطين المماليك عند زيارتهم للمدينة، وقد ظل هذا الباب قائما حتى القرن (١٤هـ/١٩م)، انظر : الشيال: الإسكندرية طبغرافية المدينة، ص٢٣٧؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٤٥.

(٥) **المحجة العظمى:** هو أشهر وأعظم شوارع مدينة الإسكندرية بالعصر المملوكي، وكان يشقها طوليا من الشرق إلى الغرب. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٢٥.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص١ــ ٢.

السلطاني نثر بعض تجار الفرنج ألف بندقي ذهب على رأسه[1]، **ومن ذلك أيضا الاحتفال برؤية الهلال**، حيث يخرج الفقهاء ووجهاء البلد من بعد العصر من يوم ٢٩ شعبان لرؤية الهلال في احتفال مشهور وصفه ابن بطوطة في رحلته في مدينة أبيار (بالقرب من الإسكندرية)[2]، **وفي ليالي شهر رمضان** تزدهر سوق الحلاويين وسوق الشماعين، أما سوق الحلاويين فهو السوق الذي تباع فيه السكريات على هيئة القطط والسباع التي يحرص الناس على شرائها لأطفالهم.

وأما **سوق الشماعين** فكانت تستمر الحركة فيه إلى ما بعد منتصف الليل، تباع فيها الشموع والفوانيس، و ينطلق بها الصبيان يغنون حتى موعد صلاة العشاء والتراويح، وكانوا يدقون على الأبواب وقت السحور وينادون على أهل البيوت (قوموا كلوا)[3].

وفي العيد يتبادلون التهنئة وأطباق الكعك، وفشت فيهم بدعة تخصيص العيد لزيارة القبور مع الاختلاط وقراءة القرآن[4].

كما كانت لهم أعياد أخر، كالاحتفال بأول السنة الهجرية في أول شهر محرم، وارتبطت به بدعة أخرى وهي شراء النساء اللبن حتى تكون السنة بيضاء لا شر فيها[5]، ومن البدع التي فشت في مدينة الإسكندرية خلال هذا العصر **الاحتفال بالليلة الأولى من شهر رجب وليلة الإسراء، والنصف من شعبان،وغير ذلك من الأعياد البدعية** كمولد المرسي أبو العباس، حيث اعتاد الناس في كل سنة عمل مولد له يستمر لمدة ثمانية أيام، وذلك بعد الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضا كان يعمل له مولدا آخر في ليلة منتصف شهر رمضان[6]، **كما**

---

(١) راجع تفاصيل هذه الزيارة في: ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٣، ص١٣٠ ــ ١٣٢.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٢٦ــ٢٧.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٢٥٥.

(٤)ابن الحاج: المدخل، ج ٢، ص٢٦٨، ٢٩٠.

(٥)ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٢٧٧، ٢٨٨.

(٦) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج ٧،ص١٨٩.

اعتاد أهالي الإسكندرية بعد امتلاء الصهاريج بمياه النيل القيام بفتحها ويعملون لذلك موسما مشهورا[(١)].

وقد شارك المسلمون النصارى واليهود في الاحتفال بأعيادهم، فمن ذلك (عيد العدس) حيث تخرج فيه النساء والرجال إلى الأسواق لشراء البخور والخواتم وما إلى ذلك، وكان أهالي الإسكندرية يخرجون في هذا العيد ويجتمعون حول منار الإسكندرية، ولا يتخلف عن الخروج في ذلك اليوم أحد، وقد عملوا لذلك الأطعمة والأشربة، والتي لا بد فيها من العدس[(٢)]، ويفتح في هذا اليوم باب المنار ويدخل الناس فيه، فمنهم من يصلي ويذكر الله، ومنهم من يلهو ويلعب فيقيمون إلى منتصف النهار ثم ينصرفون إلى بيوتهم[(٣)].

وقد حرص أهل الإسكندرية عند خروجهم في هذه الاحتفالات على الظهور بأفخر الثياب وأجودها، فقد كانت الأعياد والمتنزهات بمثابة السوق الاجتماعية لمختلف أنواع المنسوجات، وقد كان لكل فئة في المجتمع ملابس خاصة بها إما من حيث الشكل أو النوع أو اللون، فقد كانت هناك ملابس خاصة للأمراء والولاة، وملابس خاصة للجند، فعلي سبيل المثال كان الجند يلبسون الكلوتات[(٤)]، ذات اللون الأصفر دون عمامة، وفي عهد السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش على الكلوتة، وفي عهد ابنه السلطان خليل تغير لون الكلوتة من الأصفر إلى الأحمر، وفي عهد الناصر محمد استخدمت العمائم الناصرية والتي تميزت بصغر حجمها

---

(١) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج٧، ص ٩٨.

(٢) أيضا من ضمن الأطعمة التي كانوا يأكلونها في ذلك اليوم (البيض المسلوق) حيث يقومون بصبغه بألوان مختلفة لإدخال البهجة في النفوس خاصة في الصغار، وقد **أنكر ابن الحاج** عليهم ذلك العيد وما فيه من عادات بعيدة كل البعد عن نهج الشرع الحكيم أمثال شراءهم للبخور لصرف العين كما يزعمون، وكذلك شرائهم للسلاحف لطرد الشياطين، وغير ذلك **من الأمور البدعية المنكرة**، انظر في ذلك : ابن الحاج ، المدخل ج٢،ص٢٦٨.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص٥٥، علي مبارك: الخطط، ج٧، ص١٠٣.

(٤) الكلوتات: جمع كلوتة، بتشديد اللام، وهي كلمة فارسية بمعنى الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالفضة، انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧،٣٣.

الناصر محمد استخدمت العمائم الناصرية والتي تميزت بصغر حجمها حتى لا تعوق الجندي أثناء تأدية عمله[1].

وأما القضاة والعلماء وطلاب العلم فكانت لهم لباس مميز،فكان العمامة والشاشة للقاضي من اللون الأسود، وتختلف في حجمها بقدر منزلته، وقد وصف القلقشندي أزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء في ذلك العصر وصفا دقيقا، حيث قال: (ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم : فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق، ويلبس فوقه دلقا متسع الأكمام طويلها، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج، سابلا على ظهره، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي، ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه، ومن أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير، ولا ما غلب فيه الحرير، وإن كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض المطلي، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات..)[2].

كما اعتاد البعض على لبس ثياب واسعة طويلة الأكمام، وكانوا يضعون على عمائمهم الطيلسانات المصنوعة من أجود أنواع القماش كالحرير، وقام بعضهم بتثبيت العمامة مع الطيلسان بالإبر ليبقى الجميع ثابتا محافظة على مظهرهم، وكانوا يلبسون الثياب المطرزة على الأكتاف ومناطق أخرى، بخيوط من الذهب والفضة والحرير بل بالغ بعضهم في تحسين الخياطة والتفنن في إظهار شعورهم، وأما من تحت الثياب كانوا يلبسون سراويل طويلة تستخدم من قماش رقيق[3]، **ولقد أنكر ابن الحاج عليهم** تكلفهم في كثير من هذه الملابس المخالفة للسلف[4]، وكان بعضهم يلبس في الصيف ثيابا بيض مصنوعة من قماش خفيف،

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٤٧١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤١،٥٢.

(٣)لمعرفة المزيد عن ملابس العصر المملوكي انظر: ماير: الملابس المملوكية.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في: ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٩٦ـ ١٠٨.

يسمى(الشامي)، وفي الشتاء يلبسون ثيابا من الصوف وعادة ما تكون بيضاء اللون وتسمى(الملطى)(١).

كما اهتمت النساء بزخرفة ملابسهن،وتطريزها، وقصرها وطولها وسعتها وضيقها حتى خرجن عن الشيء المسموح به شرعا مما حدا بالعلماء في عهد الناصر حسن بن قلاوون برفع الشكاية إليه فأصدر مرسوما سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) بإبطال ارتداء الملابس ذات الأكمام الواسعة، التي كن يتبرجن بها، وكذلك منع لبس العصابة القصيرة التي تبرز مفاتنهن، وأبطل لبس البرد الحرير والملابس القصيرة، وما أخرجوه من الأزر(٢) الحرير، وأرسل المحتسب لمتابعة تطبيق المرسوم(٣)،ولعل من أسباب تفنن النساء لهذه الملابس والحلي هو الرخاء الذي عم البلاد، خاصة في عهد الناصر محمد، وقد أكد ابن تغري بردي هذا بقوله: (واستجد النساء في زمانه الطرحة، كل طرحة بعشرة آلاف دينار، وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، والفرجيات بمثل ذلك، واستجد النساء في زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة، والقباقيب الذهب المرصعة، والأزر الحرير، وغير ذلك)(٤).

ولم تكن الثياب وحدها هي مظهر الترف الاجتماعي في العصر المملوكي بل وجدت **الحمامات، وهي** من المنشآت الاجتماعية التي كثرت في العهد

---

(١) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٩٥.

(٢) الإزر أو الإزار هي ملاءة متسعة فضفاضة تلتف بها المرأة جميعا، ماير: الملابس المملوكية، ص١٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٩٣، والظاهر إن هذا الاهتمام بالملابس من قبل النساء المتبرجات كان في خارج بيوتهن فقط، فقد نعى ابن الحاج عليهن في ذلك إذ يقول في المدخل، ج١، ص١٧٦: (.. فتقعد المرأة في بيتها على ما هو معلوم من عادتهن بعفش ثيابها وترك زينتها وبحملها وبعض شعرها نازل على جبهتها إلى غير ذلك .. .. حتى لو رآها رجل أجنبي لنفر بطبعه منها غالبا، فكيف بالزوج الملاصق لها، فإذا أرادت إحداهن الخروج تنظفت وتزينت ونظرت إلى أحسن ما عندها من الثياب والحلي فلبسته، وتخرج إلى الطريق كأنها عروس تجلى).أ.هـ، **وهذا شأن النساء المتبرجات في كل زمان ومكان!!**، والله أعلم.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٩، ص١٧٦.

المملوكي، فقد كانت بيوت المصريين في ذلك العصر تفتقر إلى الحمامات التي كانت قاصرة على بيوت السلاطين والأمراء، فكثرت الحمامات العامة، وغدت مظهر ترف اجتماعي في مدينة الإسكندرية، **وقد اشتهرت حماماتها** باتساعها ونظافتها، وكانت أرضيتها مكسوة بالرخام، وبها متخصصون في إزالة الوسخ والشعر ونحو ذلك[1]، **ولم تقتصر وظيفتها على النظافة العامة** بل كانت أيضا منتديات لتبادل الأخبار والآراء كما كانت منتدى لإظهار الملابس الأنيقة ولا سيما في الحمامات الخاصة بالنساء[2].

وقد اشتهرت الإسكندرية بمطاعمها ومشاربها والتي دلت على ما بلغه أهلها من الترف، فقد كانوا يرسلون بالطعام المراد طبخه إلى طباخين أقاموا لهم في الأسواق دكاكين خاصة لهذا الغرض[3] وقد تفنن المصريون ومنهم أهل الإسكندرية في أطعمتهم فمنها المشوي ومنها المقلي والمحمر ومنها المسلوق، فقد عرفوا مرقة الحمص، والأرز، والقلقاس، والبازنجان، ومرقة اللفت والجزر والكرنب، والعدس البسلة والسلق[4]، وقد أطلقوا على كل طبخة اسما خاصا بها تعرف به مثل الدميس والصير والصحناه والبطراخ، ومن مآكلهم في الحلوى القطايف بشراب التفاح، ومن أشربتهم شراب الليمون وشراب السكر[5]، وكانوا يتناولون الطعام وهم جلوس على الأرض، وكانوا يراعون الآداب الإسلامية في تناول طعامهم، فيبدأون بالتسمية وينتهون بالحمد، ومنها الإتكاء عند الجلوس للأكل على الفخذ الأيسر، وأكل الطعام بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغة وعدم الكلام حين الأكل، وكانوا حريصين على غسل الأيدي قبل وبعد

---

(١) ابن الأخوة: معالم القربة، ص ٢٤٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص١٦٦؛ السيد عبد العزيز سالم: التخطيط ومظاهر العمران، ص٦١.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٤٦.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٨٠.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ٣٦٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٧٤؛ محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، ج١، ص٨٥.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٨٢ــ ٣٨٣.

تناول الطعام، وعادة ما يكون بالماء، وأحيانا بماء الورد، ثم يقومون بتنشيف أيديهم بالمناديل والفوط الحرير(١).

وفي المناسبات السعيدة كالزواج والولادة والختان وبناء دار جديدة أو الاحتفال بعودة مسافر أو حاج، يقوم أهل الفرح بصنع وليمة يدعى إليها الأهل والأصدقاء(٢).

وعلى الرغم من **حياة الترف** التي عاشها أهل الإسكندرية في ظل دولة المماليك، إلا أن **الكوارث الطبيعية، كالزلازل، والجفاف والقحط**، وما يصاحب ذلك من أمراض كالطواعين، والأوبئة، وما ينتج عنها من مجاعات وفناء، أثرت على مختلف مناحي الحياة بها ولا سيما الاجتماعية، فمن اشهر تلك الكوارث، الزلزال الذي ضرب الديار المصرية عام (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)، وكانت أضراره على الثغر أعظم من غيره من البلدان، حيث خربت الكثير من أعلامها ومبانيها الشهيرة، فانهدم أكثر منارها، وأجزاء عدة من سورها، وعدد كبير من الأبراج التي تكتنفه وتساقط عدد كبير من المآذن، وتحطم الكثير من المراكب، وتلفت المتاجر وما بها من البضائع ، ومات على أثرها خلق كثير لا يعد ولا يحصى(٣)، وبالتالي أثرت هذه الزلزلة على التعداد السكاني بالثغر، وقد عبر الذهبي عن ذلك بقوله: (كانت زلزلة عظمى بمصر والشام، وكان تأثيرها بالإسكندرية أعظم من غيرها، وذهب

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص٢١٧؛ ابن الحاج: المدخل، ج١، ص١٦٨؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١١٧.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٥، ص٢٦٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٤.

(٣) انظر عن أثار هذا الزلزال المدمر وما خلفه من دمار في شتى المجالات بالثغر السكندري كلا من بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص١٧٣؛ ابن ايبك: كنز الدرر،ج٨، ص١٠٠؛ ابن التجيبي: الرحلة، ص١١؛ شافع بن علي: حسن المناقب، ص١٥٨؛ حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٥٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٠١؛ العامري: غربال الزمان، ص٥٧٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٩٨.

تحت الردم بها خلق كثير وطلع البحر إلى نصف البلد، وأخذ الجمـــال والرجـــال وغرقت المراكب، وسقطت بمصر دور لا تحصى)[1].

ويشير ابن إياس إلى أنه في العام التالي وهو سنة (٧٠٣هـــــ/١٢٠٣م): (توجه الأمير بيبرس الدوادار لعمارة ما تهدم من الأبراج والسور بثغر الإسكندرية بسبب الزلزلة، فكان عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشـــر برجـــا ونحـــو ســـت وأربعين بدنة)[2].

كمـــا أدى وبـــاء الطـــاعون الــــذي أصــــاب مصـــــر المملوكيـــــة عام(٧٤٩هـــ/١٣٤٨م) واستمر لسنوات عدة، والذي انتقل إلى الإســـكندرية مـــع الوافدين عليها من تجار وغيرهم إلى حدوث تأثيرات اجتماعية سيئة بسبب ما ينتج عنه من فناء وغلاء و مجاعة[3] وتكاثر أعداد الموتى حتى صلى في يوم واحـــد على سبع مائة جنازة، وتعطلت بسببه دار الوكالة ودار الطراز وانعـــدم الصنـــاع وأغلقت الأسواق[4]، وقد عبر ابن الوردي عن ذلك بقوله

---

(١) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٦٣؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ص٤١٦.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ص٤١٧.

(٣) **لقد اجتاح هذا الوباء سائر أقاليم الأرض** وشملت أثاره المدمرة الإنسان والحيـــوان والنباتـــ وسبب خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، وكان بداية ظهوره في شرق آسيا، ثم أخذ ينتقـل حتى وصل إلى القسطنطينية، وغيرها من أقطار أوربا، وبلاد الأندلس وجزر البحر المتوسـط، ثم انتقل إلى بلاد الشام، ثم إلى مصرفي سلطنة الناصر حسن بن محمد، وقد عرف هذا الوبـــاء باسم الموت الأسود أو الفناء العظيم، ونعت أحيانا باسم طاعون الأنساب، لآن ما من شـــخص مات، إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه وذوى رحمه، انظـــر: أبـــو الفـــداء: المختصـــر ج٤، ص١٥٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١١؛ المقريزي: إغاثة الأمة، ص٤٠، الســـلوك، ج٢، ٣٠٣؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٠١ــ ٣٠٢.
لقد انتقل الوباء إلى الإسكندرية عن طريق السفن التجارية القادمة من غرب البحـــر المتوســـط إلى سواحل الثغر، ويؤكد ذلك ما أكده المؤرخون الذين دونوا لذلك الحدث فـــي ذلـــك الوقـــت أمثال ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ١٠، ص٢٠٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٧٧ــ ٧٧٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهـــرة، ج١٠، ص٢٠٠؛ حامد زيان غانم: الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر، ص٤٦ــ ٤٧.

إسكندرية ذا الوبا   سبع يمد إليك ضبعه
صبرا لقسمته التي   تركت من السبعين سبعه [1]

ثم تكرر حدوث هذا الوباء بالإسكندرية عامي (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ومات على إثره أعداد كبيرة من سكان الإسكندرية وصاحبه غلاء فاحش حيث زاد ثمن القمح والدقيق والخبز حتى افتقر غالب الناس وانكشفت احوالهم، وضاقت أسبابهم، ورخصت أقمشتهم،وأمتعتهم، فباعوها بأبخس الأثمان ليشتروا به الخبز الذي ارتفع ثمنه وصغر حجمه[2].

وتعرضت الإسكندرية في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي لمرات عديدة لهذا الوباء الخطير ففي عام (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) إنتشر وباء الطاعون بمصر وكثر بالإسكندرية[2] وفي طاعون عام(٨٣٣هـ/١٤٢٩م) كان يموت بالإسكندرية في كل يوم (١٥٠)، وقيل بل أكثر من ذلك[3]وفي عام (٨٤١هـ/١٤٣٧م) انتشر الطاعون مرة أخرى بثغر الإسكندرية مخلفا وراءه الموتى[4]، وقد ذكر الصيرفي أنه في عام(٨٧٣هـ/١٤٦٨م) قد وصلت الأخبار من الثغر السكندري أن معظم أهلها ذهبوا بموت الطاعون[5]، وفي طاعون عام(٨٩٧هـ/١٤٩١م)، مات فيه خلق كثير بالإسكندرية وقد وصف بأنه (مهول)[6]، كما تكرر إصابة الإسكندرية بهذا المرض خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، حيث **انتشر مرض الطاعون في أخريات الدولة**

---

(١) قد أورد ابن حبيب هذه الأبيات وغيرها مما قاله ابن الوردي عن هذا الوباء المدمر، انظر تذكرة النبيه، ج٣، ص١١٢ـ ١١٣.

(٢) لمعرفة المزيد عن أضرار هذا الوباء انظر: النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ٤٢٣ـ ٤٢٤؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٠٣.

(٣)الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٤٧٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٤٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٣٨.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٤٢٥.

(٥) الصيرفي: إنباء الهصر، ص٣١.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٦ـ ٢٨٧.

المملوكية عامي (٩١٨هـ ــ ٩١٩هـ)/(١٥١٣م ــ١٥١٤م)[١]، وقد خلف ورائه الدمار والكثير من الموتى في كل مكان بل نستطيع القول بأن هذا الطاعون كان أحد الأسباب التي عجلت بخراب الإسكندرية، واضمحلالها، وما صاحب هذا الطاعون وغيره من مجاعات وغلاء ، فيذكر ابن حجر في حوادث سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م) أنه وقع الغلاء في كل شيء، وخرج من الإسكندرية خمسة سفن ملأى بالناس هاربين من الغلاء فغرقوا أجمعين[٢]، **وصفوة القول فإنه كان لهذه الكوارث أثرها السلبي** على الحركة **العلمية** بالإسكندرية، فقد أفنى الطاعون الكثير من العلماء ممن مات بسببه، فعلى سبيل المثال مات فقط في طاعون (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الشاعر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن مسعود الضرير ومسند الثغر شهاب الدين أحمد بن محمد التيجيبي[٣]، وقاضي القضاة عز الدين بن كمال الريغي المالكي[٤] ، كذلك مات من طلاب العلم الكثير فإذا علمنا أن أكثر طلاب العلم كانون من الفقراء، وأن الطاعون أكثر ما يصيب الفقراء ندرك أنهم كانوا أقرب للفناء من غيرهم[٥]، إلا أنه له جانب إيجابي من جهة حث العلماء وطلاب العلم الناس على الصبر وترك المنكرات والتقرب إلى الله بالطاعات[٦]،كما أن ذلك انعكس على سهولة اقتناء الكتب والتي أضحت تباع رخيصة لحاجة الناس إلى الطعام، فقد ذكر أنه في طاعون (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) صارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال فيباع الحمل منها بأرخص الأثمان[٧].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص٢٩٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٢٨٩.

(٣) ابن فهد:لحظ الألحاظ، ص١٨٨.

(٤) النويري: الإلمام، ج٦، ص٤٢٤. وسيأتي ذكر كثير ممن مات بالطاعون في ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١١.

(٦) يذكر ابن تغري بردي أنه في طاعون ٧٤٩هـ أريقت الخمر في الأسواق، انظر: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١٠.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١٠.

الأوضاع الدينية

من الضرورة بمكان قبل أن نشرع في دراسة الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي أن نتعرف على الحالة الدينية بها، والحديث عن هذا الموضوع يتناول جوانب عدة نبدؤها بالحديث عن الوظائف الدينية (القضاء، المظالم، الحسبة، الخطابة، التدريس...) [1]، والاتجاهات العقدية والتصوف، وأود بداية أن أبين أن الحياة الدينية لها اتصال وثيق بالحياة العلمية في الإسكندرية أكثر من غيرها، ولهذا فإن الحياة العلمية والأوضاع الدينية اشتركتا في كثير من الأمور ، فمثلاً عند النظر إلى العوامل التي أدت إلى تنشيط الحياة الدينية في الإسكندرية في العهد المملوكي نجدها لا تختلف في مجملها عن العوامل التي أدت إلى تنشيط الحياة العلمية، ومن ذلك مثلاً إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، ورعاية السلاطين للعلم، ونزول الأسر العلمية بالثغر، وكثرة موارد الإنفاق على التعليم والاتجاه السني بالثغر، ويضاف إلى ذلك أيضاً كثرة دور العلم، من المساجد والكتاتيب، والمدارس النظامية، ودور العلماء والأربطة والخانقاوات، والرحلات العلمية والمناظرات ورحلات الحج حيث إن الإسكندرية طريق للحاج المغربي، وممر للرحالة المغاربة والأندلسيين، وسيأتي بحث ذلك في موضعه من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

ونظراً لهذا الارتباط فسأبدأ حديثي عن الوظائف الدينية

الوظائف الدينية:

اهتم المماليك بتنظيم الوظائف الدينية بالإسكندرية، والتي تشمل القضاء والمظالم والحسبة، وكذلك تشمل الخطابة والوعظ والتدريس، ووظائف المدارس وخزائن الكتب وغير ذلك، و سأكتفي هنا بعرض الوظائف الأولى (القضاء ــ المظالم ــ الحسبة).

---

(١) أقوم ببحث القضاء والمظالم والحسبة في الإسكندرية في العهد المملوكي هنا، وأما الخطابة والتدريس ونحوهما فسيكون محل بحثه في الفصلين الثاني والثالث من هذه الرسالة إن شاء الله لتعلقه بالحالة العلمية.

القضاء والنظر في المظالم:

القضاء هو: الفصل في المنازعات، وهو أمر دل على مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله}[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر))[2]، وأجمع المسلمون على مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس وأنه من فروض الكفايات، لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فكان واجباً عليهم كالإمامة، وفضله عظيم لمن قوى على القيام به، لأن فيه أداء الحق والأمر بالمعروف ونصرة المظلوم، وهذه كلها من أبواب القربات، ولذلك تولاه النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله، فكانوا يحكمون لأممهم[3]،قال تعالى:{يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله}[4].

والقضاء له تأثير كبير على الحركة العلمية، وذلك لأن العلماء ذكروا أنه يشترط في القاضي الكمال أي كمال الأحكام وكمال الخلقة[5]، والعدالة، وأن يكون من أهل الاجتهاد في الدين وهذا يلزم أن يكون عالماً بالكتاب والسنة والإجماع والاختلاف والقياس ولسان العرب[6]، وبذلك يكون تأثيره كبيراً على الحركة العلمية.

وقد تم تنظيم القضاء في العصر المملوكي على القضاء السني تبعاً لما كان عليه في العصر الأيوبي إلا أن السلطان بيبرس أدخل نظاماً جديداً، فلم يشأ أن

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٦.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ص١٥٣٩(ح٧٣٥٢)، ومسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الأقضية، ج٣، ص١٣٤٣(ح١٧١٦).

(٣) انظر في ذلك كله: ابن قدامة : المغني ج١٤، ص٥،٦.

(٤) سورة ص، آية: ٢٦.

(٥) كمال الأحكام: أن يكون بالغاً عاقلاً حراً ذكراً، وكمال الخلقة: بأن يكون متكلماً سميعاً بصيراً، وفي بعض ذلك خلاف وقيود، انظر: ابن قدامة: المغني ، ج١٤، ص١٢، ١٣.

(٦) ابن قدامة: المغني ، ج١٤، ص١٥.

ينفرد قاضي القضاة الشافعية، وكان هو تاج الدين أبو محمد بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز[١] بقضاء مصر كلها، بل أشرك معه آخر، ثم رأى أن يولي من كل مذهب قاضيا، وبذلك صار لكل مذهب قاضي قضاة، وعهد لكل واحد منهم أمورا، كما عهد إلى قاضي الشافعية بالنظر في أموال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال، وسمح لكل قاضي من هؤلاء أن ينيب عنه في سائر الأقاليم، ولم يكن عمل قاضي القضاة في ذلك الوقت مقصورا على النظر في الخصومات فحسب، بل كان له أيضا النظر في جميع قضايا الوقف والإمامة في الصلاة والإشراف على دار الضرب والإشراف على نوابه في الأقاليم، ثم زيد في ذلك النظر في دعاوى إثبات الحقوق والأموال التي ليس لها وارث، والنظر في أوصياء اليتامى وأموال المحجور عليهم، وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن، والنظر في الأوقاف وغير ذلك[٢].

ولم يكن قضاء ثغر الإسكندرية يختلف عن غيره في مصر، وقد حفظ لنا القلقشندي بعض المراسيم التي صدرت لتنصيب القضاة يمكن أن نستخلص منها صورة واضحة عن القضاء في الثغر، فقد ذكر أن القضاء في الإسكندرية مختص بالمالكية، وقاضيها يتحدث في نفس المدينة وظاهرها ليس له ولاية فيما هو خارج عنها[٣]، وذكر أنه قد وليها أيضا قاض شافعي[٤]، وأنه أستحدث بها قاض حنفي في عهد الأشرف برسباي يولى من الأبواب السلطانية رفيقا للقاضي المالكي بها يتحدث في الأحكام والقضايا المتعلقة بمذهبه خاصة، وأمر مودع الأيتام، ثم

---

(١) اشتهر باسم (ابن بنت الأعز) نسبة إلى جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٦٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤، ٣٥؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٠١؛ عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١١٢، ١١٣، ١١٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤٠٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١١.

صارت بعد ذلك تارة يولى بها حنفي، وتارة تشغر منه، وأنه ليس بها شافعي إلا نائباً عن المالكي، وليس بها حنبلي أصلاً(١).

وفي مرسوم تولية أحد قضاة الإسكندرية المالكيين القضاء بها نجد مدى اهتمام السلاطين بالثغر في قوله في ذلك المرسوم: (وكان ثغر الإسكندرية المحروس من المعاقل التي يفتر عن شنب النصر ثغرها، ومن أركان الدين التي يغص بأبطالها بحرها، وهي مأوى صلحاء الجهاد الذين سهام ليلهم أسبق إلى العدا من سهامهم، وموطن العلماء من أهل الاجتهاد الذين يعدل دم الشهداء مداد أقلامهم، وهي داره التي تزهى به نواصيها، وموطن رباطه الذي يوم ولليلة منه في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها..)(٢).

وفي مرسوم آخر لتولية علم الدين الإخنائي الشافعي القضاء في سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) جاء فيه أن الثغر: (لا يزال به عَلم مرفوع، وعِلم مصون حجابه الممنوع ، عمل يمشى به أئمة الأمة على طريقة المشروع، ثغر الإسكندرية ـ حماها الله تعالى ـ فإنها من دار الملك في أعز مقام، ومن مجاورة البحر في موطن جهاد تخثق به الأعلام، وغالب من فيها إما فقيه يتمسك بالشريعة الشريفة في علو علومه، أو رب مال له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصف من خصام)(٣).

ويتضح من المراسيم وظائف القاضي وآداب القضاء، ومما جاء فيه النظر أو الشهود والاحتراز من الوكلاء وتدليسهم والتفويض بالنظر في أموال الأيتام وإقامة الحدود على مقتضى المذاهب، مع الأمر بتقوى الله تعالى(٤).

ونلاحظ فيما سبق من المراسيم أن كلاً منهما ينبه على حالة الثغر الجهادية والعلمية وصلاح أهله ونحو ذلك، كما يحدد آداب القاضي، وأن القاضي المالكي

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٠

(٣)ابن حبيب: التذكرة، ج٢، ص٢٢٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٨١ـ٨٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ٤١٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٣.

هو المقدم دائما بالثغر ولا يكاد يخلو منه، وأن الدولة آنذاك حرصت على عدم مخالفة المذهب السائد في المدينة، فمن المعلوم أن القاضي الشافعي هو المقدم في عموم الدولة المملوكية، وهو الذي يولي القضاة على سائر البلاد، وهو الذي يفصل في المسائل المتعلقة بالميراث والأوقاف(١)، فتخصيص الإسكندرية بقاض مالكي وآخر شافعي يكون نائبا عنه يدل على مكانة الثغر المتميزة بين أقاليم مصر واهتمام السلاطين به وبما يصلحه.

وكان يعاون القاضي عدد من الموظفين منهم: الجلواز (٢)، وهو الذي يحفظ النظام وترتيب الخصوم بحسب حضورهم ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم، ويلزمهم مراعاة الآداب في مجلس القضاء، وكان يحمل بين يديه سوطا، يقرع به كل من يحاول الخروج على النظام، ويشترط فيه الأمانة والقدوة(٣)، **وحاجب القاضي**: وهو الحارس الذي يحرس باب القاضي ويطلب الإذن للدخول عليه من الزائرين سواء كانوا من أصحاب القضايا أو غيرهم(٤) **والعدول**: وهم الذين يقومون بالشهادة ويراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي ، ويشترط فيهم أن يكونوا ملمين بأحكام الفقه نزهاء(٥)، **وكاتب المجلس**: وهو الذي يكتب الدعاوى وأقوال الخصوم، ويجب أن يكون عالما بالفقه متصفا بالعفة والأمانة والصلاح ، حتى لا يحذف أو يختصر في كلام الخصوم، كما لا بد أن يكون عالما بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وتشترط هذه الشروط أيضا على الترجمان الذي يستعين به القاضي إذا كانت ثمة خصومة فيها غير ناطق بالعربية(٦)، **ونقيب القاضي**،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩٢.

(٢) **الجلوزة**: الشدة في السعي ، وأطلق عليهم هكذا لشدة سعيهم بين الأمير، والجلواز بمعني الشرطي، انظر علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٧٧، هامش، ٤.

(٣) عرنوس: تاريخ القضاة، ص١٢٨ــ ١٢٩.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص٦١.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص٦٢.

(٦) السبكي: معيد النعم، ص٦٠؛ عرنوس: تاريخ القضاة، ص١٣٩.

والذي يقوم بتنبيه القاضي على الشهود[1]، والذين كانت لهم حوانيت يعرفون بها،

وكانوا يتعرفون أحوال الناس ويشهدون في القضايا بما لهم وما عليهم، وكان منهم من يشهد بالزور من أجل المال، وقيل فيهم:

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم   بث الشهادة بين الناس بالزور
هم السلاطين إلا أن حكمهم   على السجلات والأملاك والدور[2]

وقد حوت كتب التراجم بعض ممن تولى هذه الوظائف الدينية بالإسكندرية منهم على سبيل المثال: محمد بن الحسين **السفاقسي** (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، تولى قضاء الإسكندرية مدة طويلة، بالإضافة إلى الخطابة بأحد مساجدها[3]، ومنهم **تاج الدين** يحي بن عبد الوهاب بن عطية بن محمود بن عطية الإسكندراني (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كان فقيهاً أصولياً، وصف في ترجمته بأنه (المعدل)[4] وهو الذي يعدل الشهود أو يجرحهم كما سبق، ومن ترجمته يتضح أنه كان فقيهاً سمع الحديث، وهذا له دلالة على أن المعدل كانت له منزلة في ذلك العصر لا يبلغها إلا من له شأن في العلم والفقه، ومنهم **مظفر بن عبد الملك** بن عتيق بن مكي الفهري الإسكندراني، المالكي (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م) (الشاهد)، سمع وحدث[5]، ومنهم **عتيق بن عبد الجبار** بن عتيق العدل الشاهد روى الكثير من الأحاديث، توفي سنة ٦٧٦هـ[6]، وهذا يعطينا دلالة على أن الشاهد كان من أهل العلم، وبهذا نستطيع القول أن ثغر الإسكندرية لم يكن يختلف في الجملة عن بقية مصر المملوكية في القضاء وما يلتحق به والله أعلم.

---

(١) السبكي: معيد النعم، ص٦٢.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص٦٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص٤٠١.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص٣٢٨.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام. حوادث الفترة،، ص٤٠٤ـ ٤٠٥.

(٦) الذهبي ، تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص ٢٣٤.

وأما النظر في المظالم :

فقد كانت عادة أحدثها السلاطين المماليك، فكان **الظاهر بيبرس** أول من تولى ذلك وأنشأ لذلك دار العدل سنة(٦٦١هـ/١٢٦٢م)، وكان يجلس بها للفصل في القضايا في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وكبار موظفي الدولة الماليين والإداريين، وكاتب السر، وكان السلطان بيبرس لا ينقطع عن الجلوس في دار العدل إلا في شهر رمضان فقط[(١)]، وكانت القضايا التي تعرض على نظر المظالم تنظر في شكاوى الأفراد والشعب عامة والمشكلات والنوازل ونحو ذلك، واستمر الأمر على ذلك في طُوال عهد المماليك، وأقام كذلك السلطان الظاهر بيبرس بالإسكندرية دارا للعدل أيضا، يقوم فيها نواب الثغر بما يقوم به السلطان في القاهرة، ويجلس فيها النائب يومي الاثنين والخميس في موكب جليل يفصل القضايا بين الناس[(٢)].

ولم يغفل سلاطين المماليك النزول بدار العدل بالإسكندرية وقت زيارتهم لها، فقد نزل فيها السلطان بيبرس ونظر في شكاوى المظلومين، وكان من نتيجة ذلك أنه أمر بتطهير الثغر من الخواطي الإفرنجيات[(٣)] مما يدل على أهمية هذه الدار في رفع المظالم عن الثغر.

وكانت القضايا التي تعرض بهذه الدار غالبا تكون إما من القضايا العامة كما سبق، أو من القضايا التي يعجز القضاء العادي عن حلها، كأن يكون المتعدي من أصحاب النفوذ والجاه بالمدينة فلا يستطيع القضاء العادي تنفيذ الأحكام عليهم فتعرض القضية بمجلس دار العدل برئاسة النائب ليفصل فيها، وقد يكون النائب هو المعتدي الظالم للرعية، فتعرض القضية على السلطان بدار العدل تحقيقا للحق وإنصافا للمظلومين[(٤)].

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٠٨ـ ٢٠٩؛ علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٩٣.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٥، ص١٩٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص١٩٤ـ ١٩٦.

أما الحسبة:

فهي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي وظيفة دينية تتعلق بالنظام العام والآداب وفي الجنايات أحيانا إذا احتاج الأمر إلى سرعة الفصل وأساسها قوله تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}(١).

وقد حدد ابن خلدون اختصاصات المحتسب بقوله: (إنه يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقات في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط لهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على المارة وغير ذلك)(٢)، وتشترك الحسبة مع القضاء ونظر المظالم في مهمة القضاء بالمعنى العام، لكن النظر في المظالم أعلاها ثم رتبة القضاء العادي ثم ولاية الحسبة(٣).

وكانت الحسبة نظاما دينيا عاما في كل البلدان المملوكية، ولم تكن الإسكندرية خالية من هذا النظام، بل كان ثغر الإسكندرية أحوج ما يكون إليه لكثرة أسواقه، وحركته التجارية الكبيرة التي يشترك فيها الكثير من المسلمين وغير المسلمين، من جنسيات مختلفة ومشارب متفرقة.

وقد حفظ لنا القلقشندي مرسوما للحسبة بالثغر يوضح اختصاصات المحتسب والوصية إلية فمن ذلك: (وليزد في التحذير والتحقيق ما استطاع ويناقش حتى يستقر على الصحة فيما يباع أو يبتاع، ويقابل على الغش بما يروع متعاطيه ويزجر صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها، ومن يوافقه يمنع ذلك ويواطيه، ويثمر أموال الأحباس بملاحظة أصولها، والمحافظة على ريعها ومحصولها، وإمضاء مصاريفها على شروط واقفيها، إن علمت، ومزية ما قدم من

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٠ــ ٢٤٩؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص٦؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٧.

(٢)ابن خلدون: المقدمة، ص٥٧٦.

(٣) وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ج٦، ص٧٦٩.

أوصافه، والرفق بالرعايا وأنه من أحسن حلى معرفته وإنصافه والخير يكون إن شاء الله تعالى)[1].

وممن تولى الحسبة بالإسكندرية على سبيل المثال: **عماد الدين** يوسف بن عرفة السكندري المحتسب كان من رواة الحديث (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م)[2]، ومنهم الشيخ أبو علي الحسن بن أبي عمرو عثمان بن علي القابسي المالكي، المحتسب بالإسكندرية، وكان معروفا بالخير والصلاح، توفي عن سن قريب من مائة سنة عام٦٧٠هـ/١٢٧١م[3]،ومنهم **ناصر الدين** محمد بن أحمد السكندري المحتسب (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م)، كان من رواة الحديث بالثغر سمع منه عدد كبير من الفضلاء أمثال ابن حجر العسقلاني وغيره[4].

وبهذا تكون الوظائف الدينية الثلاث (القضاء ـ المظالم ـ الحسبة) قد ضمنت تطبيق الشرع في الثغر السكندري وأصلحت أحوال الناس، وبهذا العدل يسود الأمن و تعلو الأمم.

الاتجاهات العقدية والتصوف:

كان الاتجاه العقدي في الإسكندرية يحمل سمة المذهب الأشعري[5] عامة فقد كانت الإسكندرية حافلة بهذا المذهب العقدي في فترة الأيوبيين، ولما جاء

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشي، ج١١، ص٤١٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص١٤٠.

(٣) اليافعي، حسن بن إبراهيم: جامع التواريخ المصرية في ذكر الخلفاء والسلاطين الإسلامية، لوحة ٢٠٨، في حوادث سنة ٦٧٠هـ ، مخطوط تحت رقم ١١٤٢ـ تاريخ، بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج١، ص٥٣٩.

(٥) المذهب الأشعري نسبة إلى **مؤسسه** أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المتوفى سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م)، وكان معتزليا، ثم تاب من الاعتزال وخرج منه، **والمذهب الأشعري** بعد تطوره خالف مذهب السلف في العديد من المسائل كالتأويل في الإلهيات لصفات الأفعال، وتفويض الصفات الخبرية، أو تأويلها أيضا، واقترب من القول بالجبر في مسألة أفعال العباد، بما يسمى عندهم بالكسب، وورث من المعتزلة ما يسمى بدليل الجواهر والأعراض، وهي طريقة مبتدعة في إثبات حدوث العالم، كما التزم كثير من كبار الأشاعرة مسألة القول بتقديم

المماليك، لم يتغير الأمر كثيراً على ما كان عليه، فقد حمل الأيوبيون في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام دولتهم، ثم في أيام مواليهم من الأتراك المماليك(١)، وهذا لا يعني أن مذهب السلف كان مندثراً في عهد الدولة المملوكية أو الأيوبية من قبلها، لكن كان يدعوا إليه أفراد معدودون غالبهم من الحنابلة ، ولم يكن له الاتساع كالمذهب الذي تدعمه الدولة(٢).

ومع مجيء الحركة السلفية(٣) التي رفع رايتها شيخ الإسلام ابن تيمية في مصر بدأ مذهب السلف ينتشر بين الناس، وبدأ النقاش والمناظرات حوله. ولما سجن شيخ الإسلام بالإسكندرية بدأ ينشره بين أهالي الثغر ويناظر عليه(٤)، وأما التشيع فقد كان قليلاً في الإسكندرية في أواخر العهد الفاطمي، ولم يكن له إلا الوظائف الرسمية فقط، بل حتى القضاة صاروا مالكية في أواخر العهد الفاطمي وأضف إلى ذلك أن الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك حرصت على أن لا يتولى وظيفة القضاء إلا سني، فها هو الظاهر بيبرس يأمر في سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) باتباع المذاهب السنية، وتحريم ما عداها، وأن لا يولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى الوظائف من خطابة أو إمامة أو تدريس إلا

العقل على النقل، وبأن خبر الواحد لا يفيد العلم ولو احتف بالقرائن، وغير ذلك مما بينه العلماء وردوا عليهم فيه، وللدكتور **عبد الرحمن المحمود** رسالة قيمة في ذلك، يبحث فيها عن موقف ابن تيمية من الأشاعرة، وانظر أيضاً : ابن تيمية: منهاج السنة، ج٢، ص٢٢٧-٢٢٩.

(١) المقريزي: الخطط: ج٢، ص٣٥٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٩٤.

(٢) ولا سيما مع مجيء الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٠٠هـ) إلى مصر سنة ٥٦٠هـ ومناظرته على مذهب السلف، وانظر في ذلك: ابن رجب: ذيل الطبقات،ج٢، ص٦.

(٣) السلف لغة: بمعنى مضى، والقوم السلاف: المتقدمون، ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة: سلف، ج٣، ص٩٥، أما اصطلاحاً، فله مدلولان: مدلول خاص: وهو الذي ينطبق على مذهب الصحابة والتابعين ، والتابعين لهم بإحسان، ممن لم يبتدعوا، ومدلول أعم: ويشمل ما بعد هذه القرون المفضلة ، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون، والتزم النصوص والفهم الذي فهموه. انظر: مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي، ص٢٣.

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

من كان مقلدا لأحد المذاهب الأربعة[١]، ومع ذلك فإننا نجد في ثنايا تراجم بعض السكندريين ، وصفهم بالتشيع، فمن ذلك ما ترجم به ابن حجر لبعض معاصريه من أهل الإسكندرية، منهم علي بن المظفر الإسكندراني، حيث وصفه بأنه☹ شديد في مذهب التشيع من غير سب ولا رفض)[٢]ومعنى قوله من غير سب ولا رفض، أي بغير سب الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا رفض لولايتهما، أي كان تشيعه من باب المفاضلة والتقديم، أي تقديم علي رضى الله عنه عن على الشيخين، ولم يكن كتشيع الرافضة الذين يبالغون في سب بل ربما تكفير بعض الصحابة أو الشيخين رضي الله عنهم أجمعين، وهذا إن دل فإنما يدل على قوة مذهب أهل السنة بالإسكندرية لدرجة أن من ابتلي بالتشيع فإن تشيعه يكون دون الرفض الذي كانت تعج به مصر في الدولة الفاطمية[٣].

كما أصبح التشيع ممقوتا بمصر المملوكية، لدرجة أنه أصبح مكيدة تدس على بعض الأشخاص لكي تحل عليه العقوبات (حتى يظهر التوبة من الرفض)[٤]، وفي الجملة يمكن القول بأن الإسكندرية خلت من التشيع والرفض، وأن ما يقال عن بعض أفراد بها أنهم من الشيعة فهو تشيع لا يصل إلى الغلو، بل قد لا يتجاوز التفضيل والتقديم كما أسلفنا.

أما التصوف : فهو **طريقة مبتدعة** انتسب إليها كثير من الزهاد واختلف في أصل اشتقاقها فقيل نسبة إلى الصفة، وهي الموضع الذي بني لإيواء فقراء المسلمين بالمسجد النبوي، وقيل نسبة إلى الصف الأول في الصلاة، وقيل نسبة

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٦١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٣٠.

(٣) ويمكن أن نقول بأنه عم كل بلاد مصر، فقد ذكر السيوطي: (أن مصر منذ أصبحت دارا للخلافة علت فيها السنة، وعفت منها البدعة)، انظر: حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٦، وذكر الإدفوي أن (إسنا) ــ بلده من بلاد صعيد مصر ــ كان بها التشيع (فاشيا والرفض ماشيا فجف حتى خف)، وقال عن (أصفون) ــ بلدة أخرى من بلاد الصعيد ــ أنها كانت مغرقة (بالتشيع البشع ، لكنه خف بها وقل)، انظر: الطالع السعيد، ص١٧.

(٤) مثل ما كان لجلال الدين حسن بن منصور ، انظر ترجمته في ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٥٥.

إلى الصفاء، أو إلى قبيلة عربية جاهلية يقال لها صوفة، والصحيح أنها نسبة إلى لباس الصوف فيقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص، وتبرقعت المرأة إذا لبست البرقع، وإنما نسبت الصوفية إلى لباس الصوف لكثرة لبسها للصوف زهدا وتورعا من لبس فاخر الثياب[١].

وقد نبه ابن الجوزي على الفرق بين الزهد والتصوف بقوله: (فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف)[٢].

والتصوف بكونه طريقة عبادية تميز بها الزهاد ظهر في بداية القرن الثاني الهجري، حيث كثر لبس الصوف من زهاد هذا العصر، ويلاحظ بعض الباحثين أن ثمة ارتباطا قديما بين نشأة الصوفية والتشيع و لاسيما وأن أبا الهاشم الصوفي عثمان بن شريك (ت ١٥٠هـ/٧٦٦م) رمي بالتشيع، وتسميه الشيعة (مخترع الصوفية)[٣].

وأيا كان صحة هذا الأمر في مبدأ ظهور الصوفية، إلا أنه من الثابت عند العلماء أن الصوفية فيما بعد نقلوا كثيرا من نظامهم عن التشيع، وبالتالي فإننا ندرك أسباب انتشار التصوف في مصر الفاطمية، وسماح العبيديين للصوفية بالانتشار في بلادهم، هذا بالإضافة إلى أن الصوفية مذهب أخلاقي يمكن استغلاله، فقد استغل العبيديون التصوف لمنع الثورات عليهم من جهة، ولنشر مذهبهم من جهة أخرى، إذ يلتقي التصوف والتشيع في كثير من الأصول والمبادئ والتصورات المخالفة للواقع، كما أن التصوف شابهه نزعات فلسفية قوية [٤].

---

(١) انظر في اشتقاق كلمة التصوف: القشيري: الرسالة، ص٢١٧، ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١٠، ص٣٦٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص٣٣٤؛ أحمد بناني: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، ص٦٧ـ ٧٠؛ فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص٢٢١.

(٢) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٦٥.

(٣) الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ج٢، ص٢٩١.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ١٦٤.

وكان للصوفية طقوس كثيرة أشبه بطقوس النصارى مع قساوستهم فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم أن المريد لا يبقى له تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه، يقول الشيخ أبو العباس المرسي الإسكندراني: (ينبغي للمشايخ تفقد حال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذ بما في بواطنهم، إن الأستاذ كالطبيب، وحال المريد كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي)[١].

وظاهر حياة الصوفية كانت قائمة على الزهد والتقشف حتى إنهم يجعلون (الخانقاه) وهو البيت الذي يسكنه الصوفية من (الخنق) لتضيقهم على أنفسهم [٢].

وحيث إن مخالفة الشريعة أول طريق الانحلال، والصوفية قد انتشرت عقائدهم وعباداتهم لذا تحولت الصوفية من مطلب اجتماعي للزهد في الدنيا إلى فلسفات خطيرة، وبدعة ضالة وفسق ظاهر، فقد انتشر بين الصوفية معاشرة المردان وتعاطي المخدرات التي هي الحشيشة، ويزعمون أنها (تحرك العزم الساكن إلى أشرف الأماكن)[٣]، كما صار هم غلاة المتصوفة الوصول إلى الغاية في الفناء في توحيد الربوبية، وهو درب الاتحاد بحيث يرى أنه لا يوجد خالق ومخلوق، وأن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله ،حلّ فيه، وما إلى ذلك من الترهات الكفرية، حتى إن أحدهم ليتفوه بالعظائم بسبب هذه العقائد كأن يقول: (ما في الجبة إلا الله)، وما أشبه ذلك تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا[٤].

---

(١) الشعراني: لواقح الأنوار، ج٢، ص٢١، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٨٠.

(٢) الشعراني: لواقح الأنوار، ج٢، ص٤٢،

(٣) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٤، ص٢١٠.

(٤) انظر في الرد على هذه العقيدة الباطلة: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٢، ص٢٨٦ـ ٢٩٣، ٣٧٧؛ غالب عواجي: فرق معاصرة،ج٢، ص٨٣٩ـ ٨٤٨، وعلى سبيل المثال على إلحادهم وقولهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد قول ابن عربي:

العبد رب والرب عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب فأنى يكلف

انظر العواجي: فرق معاصرة، ج٢ ص٨٤٩.

والمطلع على الفتاوى التي صدرت عن **شيخ الإسلام ابن تيمية** في شأن هؤلاء الصوفية في هذا العصر يمكن أن يحدد بعض ملامح التصوف آنذاك، ومنها:

العبادات البدعية، كالوقوف في الشمس أو على السطح دائما، وحمل الحيات ولباس الفتوة والخرقة وإحداث أذكار وأدعية مبتدعة والسماع الملحن[(١)].

مخالفات عقدية، ومن ذلك الخطأ في فهم الزهد بترك الواجبات أو المستحبات، كمن ترك اللحم والنساء والخبز.

الخروج عن الطريقة الشرعية اعتمادا على الحقيقة البدعية أو الحقيقة الكونية، ومن ذلك اتباع أوامر المشايخ وترك الأمر الشرعي.

انحرافات عقدية خطيرة، مثل ما تقدم من القول بوحدة الوجود وإسقاط التكليف ونحو ذلك[(٢)].

وكانت الإسكندرية شأنها شأن بقية البلاد المملوكية تعج بهؤلاء الصوفية، فقد نزل بالإسكندرية رموز التصوف في هذا العصر.

فمنهم: أبو الحسن الشاذلي تقي الدين على بن عبد الله ابن عبد الجبار بن يوسف الحسني (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وهو من (شاذلة) بتونس، استقر فيها قبل رحيله النهائي إلى الإسكندرية[(٣)]، نشأ الشاذلي بالمغرب وبه بدأ دراسته ثم رحل إلى الشرق للحج ونزل الإسكندرية ، فصحبه المرسي واستقر بالإسكندرية، وبدأ يلقي دروسه في التفسير والوعظ والدعوة إلى طريقته التي سميت باسم الشاذلية، في مسجد العطارين[(٤)]، وصار يحج عاما، ويقيم في الإسكندرية عاما، حتى توفي في طريقه للحج عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[(٥)]، ولم يكن الشاذلي مصنفا، وإنما وصل

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٦، ص١٩٤ـ ٢٠١.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٦، ص٢٠١ـ ٢١٢.

(٣) ابن منقذ: الوفيات، ص٣٢٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٥٨؛ يحيى العامري: غربال الزمان، ٥٣٥.

(٤) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص١٧٩.

(٥) النويري السكندري: الإلمام ، ج٥، ص٢٢١.

إلينا من تعاليمه وأقواله (حزب البحر وحزب البر وحزب النصر)[١]، وكلها أوراد مبتدعة بكيفيات غير شرعية، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الكثير مما قاله الشاذلي في حزبه [٢].

قال الذهبي لما ترجم له في تاريخه وذكر نسبه : (هذا نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، وكان الأولى به تركه، وترك كثير مما قاله في تواليفه في الحقيقة، وهو رجل كبير القدر، كثير الكلام على المقام، له شعر ونثر فيه متشابهات وعبارات يتكلف له في الاعتذار عنها، ورأيت شيخنا عماد الدين قد فتر عنه في الآخر، وبقي واقفا في هذه العبارات، حائرا في الرجل)[٣] ، ونقله الصفدي عن الذهبي ثم قال: (وللشيخ تقي الدين بن تيمية مصنف في الرد على ما قاله الشاذلي وحزبه)[٤].

ومن رموز التصوف بمدينة الإسكندرية: أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخوارزمي الأنصاري **المرسي (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م)**، ولد بمرسية[٥] بالأندلس، وإليها ينسب وتلقى بها علومه الأولى واشتغل في شبابه بالتجارة، وفي سن الرابعة والعشرين خرج للحج، فغرقت السفينة، ونجا هو وأخوه من الغرق، و نزل بتونس حيث التقى بأبي الحسن الشاذلي، فلازمه وأظهر نجابة في ذلك، وتزوج بابنة الشاذلي[٦]، ولما عزم الشاذلي على الرحيل إلى الإسكندرية لازمه أبو العباس وأقبل على دروسه وفي عام (٦٤٧هـ/١٢٤٨م) أعلن الشاذلي استخلافه

---

(١) انظر في مؤلفاته: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥١٠.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، ج١٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ج٨٢٣١، ٢٣٢.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٢٧٣،٢٧٤، الصفدي : نكت العميان، ص ٢١٣.

(٤) الصفدي : نكت العميان، ص ٢١٣.

(٥) **مرسية**:بضم أوله، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطها عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وينسب لها جماعة من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٨، ص٢٥، الحميري: الروض المعطار، ص٥٣٩.

(٦) وقد أنجب منها ثلاثة أبناء وابنة، زوجها فيما بعد من تلميذه ياقوت العرشي.انظر في ترجمة المرسي، المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٩٢؛ الدسباوي: الإمام أبو العباس المرسي، ص١٥٦.

لأبي العباس في الطريقة، وجدد هذا الاستخلاف عند وفاته في طريق الحج عـام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، واستقر المرسي بالثغر السكندري يلقى دروسه في التصوف، و لم يخلف تراثا علميا، وليس له كتب شأن أستاذه، ولم نجد من تراثه إلا أقـوالا نقلها تلاميذه وبعض أشعار تدور حول التصوف بما فيه من مخالفات عقدية وقـد استمر أبو العباس بعد وفاة شيخه الشاذلي ثلاثين عاما يدعوا إلى طريقتـه حتـى توفي عام (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، ودفن بالإسكندرية[١] وبني علـى قـبره ضريـح مشـهور، يزوره أهل الإسكندرية وغيرهم، من المترددين عليها، ولهم فيه اعتقـاد زائد ولا سيما المغاربة [٢].

ومن رموز التصوف بالإسكندرية: ابن عطاء الله تاج الدين أبـو الفضـل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن **السكندري**، يعد أحد أركان الطريقـة الشـاذلية، فهو تلميذ أبي العباس المرسي، ولد ابن عطاء بالإسكندرية، وينتمـي إلـى قبيلـة جذام[٣] التي شهدت فتح الإسكندرية أيام عمرو بن العاص، واستقر بعض أفرادهـا في الثغر وقد اشتغل ابن عطاء الله في صغـره بمذهـب مـالك علـى علمـاء الإسكندرية، حتى التقى بأبي العباس المرسي عام (٦٧٢هـ/١٢٧٥م)، واسـتمع إليه فجذبه إليه وصار تلميذا له[٤]، ومن ثم خليفة له على زعامة الطريقة الشاذلية.

وقد ترك ابن عطاء الله كتبا كثيرة بخلاف الشاذلي والمرسي، ومـن كتبـه "الحكم العطائية"، وهو أشهرها، و"لطائف المنن في منـاقب العبـاس المرسـي،

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٣١٨؛ ابن إياس: بدائع الذهور، ج١، ص٣٥٦.

(٢) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج٧، ص١٨٩، ولازال هذا الضريح يشكل فتنـة للنـاس حتـى زماننا هذا ، حيث يقام له مولد لمدة ثمانية أيام ، وليلة في نصف رمضان، ومن عادة الجهلـة من العوام في أيامنا هذه الذهاب بالسيارات في ليلة الزفاف ويطوفون بالضريح مـن الخـارج تبركا لحياة سعيدة .

(٣) بنو جذام قبيلة عربية تعود إلى عدي بن الحارث بن مرة، وهم من مضر من العرب العاربـة، أحد أحياء قبيلة كهلان، لمعرفة المزيد عن هذه القبيلة انظر: القلقشندي: صبح الأعشـى، ج٤، ص٣٨٣ـ ٣٨٧

(٤) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤٦، ٢٤٧.

وشيخه أبي الحسن" ، الذي ترجم فيه لقطبي الطريقة. و"القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد"، ضمنه مذهبه في التوحيد، و"تاج العروس الحادي لتهذيب النفوس"، في الوعظ ، وله "مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح"، في الرياضات الصوفية كالذكر والعزلة والخلوة، وله أيضا "التنوير في إسقاط التدبير"، وهو كما يظهر من اسمه يقرر مذهب الجبرية[١] في إسقاط العبد تدبيره مع الرب، و"الحكم العطائية"[٢] وغير ذلك.

وتوفي ابن عطاء بالمدرسة المنصورية بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) ودفن بتربة الإمام الشافعي[٣].

والظاهر أن ابن عطاء كان قد بلغ في التصوف غاية كبيرة، وله عبارات كثيرة تشير إلى اعتقاده مذهب (أهل وحدة الوجود)، وكان من كبار المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، لما علم عن الأخير من فضح حال الصوفية، وبيان خطرهم على الاعتقاد.

---

(١) **الجبرية**: هم القائلون بأن العبد لا فعل له ، وأن فعله بمنزلة طوله ولونه، فهو مجبور على أفعاله ، ورئيسم الجهم بن صفوان السمرقندي ، قتله سالم بن أحوز أمير خراسان سنة١٢٨هـ، انظر: خالد حمزة: تقريب الطحاوية، ج٢، ص٨٥٠.

(٢) لمعرفة المزيد عن مؤلفاته انظر: ابن فرحون: الديباج، ج١٢، ص٢٤٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ٥٤٢؛ الشعراني: لواقح الأنوار، ج٢، ص٢٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠؛ على مبارك: الخطط التوفيقية، ج٧، ص١٩٠؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص١٢١.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤٧؛ ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٢٨٠؛ المنهل، ج٢، ص١٢٠، ١٢١؛ لدليل الشافي، ج١، ص٧٨؛ العامري: غربال الزمان، ص٨٥٠ـ ٨٥١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص١٢؛ علي مبارك:مبارك: الخطط التوفيقية، ج٧، ص١٩٠. ولابن عطاء مسجد بالإسكندرية يعتقد الكثير من العامة أنه دفن به، فيقومون بزيارته للتبرك، وقضاء النذور عنده، وطلب الحاجات، وللأسف لم ينكر عليهم أحد من أهل الدين، بل تركوهم في غيهم وتيههم.

(٤) الصفدي: الوافي، ج٨، ص٥٧؛ أعيان العصر، ج١، ص٣٤٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٧٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٢٠ـ ١٢١.

ومن رموز التصوف بالإسكندرية: أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الملك المعافري الشاطبي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٤م) ، ولد بشاطبة[١] من مدن شرق الأندلس، وتفقه بها وقرأ القرآن بالقراءات السبع، ثم سافر إلى دمشق حيث سمع بها الحديث، وحج ثم رجع إلى دمشق وانتهي به الأمر إلى الإسكندرية والانقطاع للعبادة والتعليم بها، وكان معاصرا لشيخ الشاذلية بالإسكندرية أبي العباس المرسي، ولزاهد الإسكندرية القباري، له عدة مؤلفات منها : "اللمعة الجامعة في العلوم النافعة"، وهو في تفسير القرآن وكتاب "المراتب والمنازل في معرفة العالي من القراءات والنازل"، و"الحرقة في إلباس الخرقة"، و"المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد"، و "النبذ الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية"[٢].

ومن رموز التصوف بمدينة الإسكندرية : ياقوت بن عبد الله الحبشي الملقب بالعرشي، شاذلي الطريقة، وقد حضر عند الشيخ المرسي فزوجه بابنته، ثم غلا صيته وصار له مريدون، منهم شمس الدين بن اللبان الذي تزوج بابنة ياقوت، وتوفي بالإسكندرية ودفن بمسجده وقد جاوز الثمانين في سنة (٧٣٢هـ/١٣٣١م)[٣]، ولم يخلف رسائل أو كتبا، ومن أشهر أقواله: (أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله)[٤]، وهذه مبالغة واضحة، فأعلم الخلق بلا إله إلا الله محمد

---

(١) **شاطبة**: ميناء يطل على البحر المتوسط على مقربة من مدينة دانية، بنى المسلمون بها قلعة حربية، وكانت مركزا علميا متألقا، وإليها ينسب عدد من العلماء، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥ ص ٤١٤.

(٢) انظر ترجمته في: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٣٤؛ الصفدي: الوافي: ج٣، ص١٢٨؛ ابن شاكر كتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٥٠؛ المقريزي : السلوك، ج١، ق٢، ص٦١٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٢١٥؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٤٠ــ ٣٤١.

(٣)اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٨٤؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٩٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٨٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٠٣.

صلى الله عليه وسلم، وإن أراد أهل عصره أو بلده، فهي تزكية للنفس عليهم وقد قال تعالى: {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}[١].

وقد وجد بالثغر في العهد المملوكي عدد آخر من الصوفية، منهم من ولد بالإسكندرية أو نزل بها أو مر بها، **فمن هؤلاء**: عمر بن أحمد بن عمر بن عبد الحميد السكندري، المعروف **بابن المراوحي**، سبط أبي الحسن الشاذلي (ت٦٧٠هـ/١٢٧١م)[٢]، **ومنهم** أبو محمد عبد الله **المرجاني**، شيخ المغرب، قدم الإسكندرية ووعظ بها، وله قدم في التصوف، توفي سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)[٣]،**ومنهم** أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود **الواسطي، الخزامي**، عماد الدين أبو العباس (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، ابن شيخ الحزاميين، كان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية، سافر إلى الإسكندرية واجتمع بالطوائف الشاذلية، فاقتفى طريقهم وهديهم، حتى التقى في دمشق بشيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه، فأمره الشيخ بمطالعة السيرة النبوية، فأقبل عليها واقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وطرائقه، وأحواله وأذواقه وسلوكه واعتنى بأمر السنة أصولا وفروعا، وشرع في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم من الاتحادية وغيرهم، وبين عوراتهم وكشف أستارهم، وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد وألف في الطرقة النبوية والسلوك الأثري والفقر المحمدي[٤]**ومنهم محمد** بن محمد بن محمد المعروف **بمحمد وفا** (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م) والد بني وفا المشهورين بالإسكندرية، كان مالكيا شاذليا، نشأ بالثغر ورحل إلى أخميم وتزوج بها واشتهر هناك وصار له أتباع ومريدون، ثم قدم مصر وتوفي بها ودفن بالقرافة[٥].

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٢.

(٢) ابن حجر: الدرر، ج٣، ص ١٥٢ــ ١٥٣.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٠٧.

(٤) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص٣٥٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٣ــ ٢٥.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠٦.

وأما من أعلام الزهاد بالإسكندرية: **أبي القاسم محمد بن منصور بن يحي القباري**[1]، وهو من المخضرمين الذين أدركوا الدولتين الأيوبية والمملوكية، فقد ولد سنة (٥٨٧هـ/١١٩٩م)، وأقام بالإسكندرية طيلة حياته، ولم يغادرها إلا للحج، وقد أقام في مطلع شبابه في بستان له ورثه عن أبيه، بمنطقة الرمل الغنية بالبساتين بشرق الإسكندرية، ويذكر أبو شامة أنه اجتمع به أواخر سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) مع جماعة، حيث يقول عنه: (صادفناه وهو يسقي في جرار ماء من الخليج على حمار له يسقي به غيطه، وكان الماء في الخليج حينئذ قليلا فأجلسنا إلى أن أتم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه..)[2]، وظل مقيما بهذا البستان حتى عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) حينما أمر الصالح نجم الدين بن أيوب بتطهير الخليج السكندري، رأى القباري ما ينال الناس من ظلم في كري الخليج، فأعرض عن مائه، وحفر بئرا كان يستقي بها ويحمل على الدواب الماء في جرار ليسقى بستانه ـ وهذا يدل على مبلغ ورعه رحمه الله ـ وقد كان الكثير من الأمراء والوجهاء يحرصون عند زيارة الإسكندرية على الاجتماع به، رغم أنه كان لا ينبسط لهم بالقول، فقد رفض مقابلة الملك الكامل محمد الأيوبي عند زيارته للمدينة سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، بعد أن وصل إلى باب بستانه، حتى لا يسمعه من النصح ما يغضبه[3]، كما رفض عطية الملك العادل بن الكامل، ومقدارها ألف دينار، وقال للرسول الذي جاء بها: (لا يغرنكم هذا بمواعيده وأطماعه، رد الدنانير إلى صاحبك، وقال له: لو عرفت أصحابها لأشار عليك أن تعيدها إليهم، ولكن هذا

---

(١) القباري نسبة إلى القبار أو الكبار، وهو أحد الثمار التي كان يزرعها أبو القاسم في بستانه بقرب الإسكندرية، ويقوم ببيعها، وقيل نسبة إلى حفر القبور، وهذا مستبعد لأنه لا يعرف عنه الاشتغال بهذه المهنة.انظر: محمد زيتون: القباري، زاهد الإسكندرية، ص٢٩ـ ٣٠.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٣١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٦٢؛ محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص١٤٩ـ ١٥٠.

فات، وأنا لا أتقلد وسخا لا آخذا ولا معطيا)[1]، ولما أراد السلطان بيبرس لقاءه عندما زار الإسكندرية سنة (٦٦١هـ/١٢٦٣م)، اشترط القباري أن يكلمه من علية[2] بالبستان ويظل السلطان في أسفل البستان، وقد نزل السلطان بيبرس على شرطه وقال: (أنا رايح لله تعالى، فمن أي مكان شاء يكلمني)[3]، وفي اللقاء نصح القباري السلطان بعمارة ثغر الإسكندرية وتحصينه، ويقال أنه أشار على السلطان بتولية ابن المنير قضاءها[4].

وقد ترجم ابن المنير للقباري ترجمة موسعة في كتاب سماه بالمقامات القبارية، مدحه في كتابه هذا وذكر مناقبه، ومما جاء فيه أنه كان: (لا يأذن لأحد من أهل الدنيا وأرباب الولايات في الدخول عليه متى شاء، فكان يري في إطالة الجلوس معهم مضيعة للوقت عن العبادة والعمل فيما يجدي، ويرى الخضوع لله وحده لا للإنسان)[5]، واستمر القباري على زهده وورعه حتى وافته المنية سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٤م)، عن خمس وسبعين سنة، ودفن في بستانه[6].

---

(١) محمد زيتون: القباري زاهد الإسكندرية، ص١٥٠؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص١٨٦.

(٢) العلية: غرفة عايا بارزة عن سمت جدار الدار تطل على الطريق بواسطة نافذة مشبكة، انظر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٧٩، حاشية ٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٥ــ ١٧٦؛ الخزرجي: سير الأولياء، ص١٠٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣١١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٩.

(٤) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٢٨٠.

(٥) محمد زيتون: القباري زاهد ا لإسكندرية، ص١٦٦ــ ١٦٧.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص ١٢٣؛ دول الإسلام ، ج٢، ص١٢٩؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٦٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٥٢٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣١٢؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص٢٣٠، وانظر صورة للضريح بالملاحق ص ٦١٧.

وكثير من الباحثين يعد القباري من كبار الصوفية[1]، ولكن الذي يظهر لي بعد التأمل في سيرته، أنه لم يكن من المتصوفة، بل كان من الزهاد والمتورعين وهناك فرق بين الزهد والتصوف، كما سبق أن أشرت إليه في بداية الكلام عن التصوف [2]، ولعل هذا الذي توصلت إليه يمكن أن ينبني على أمور:

أولا: لم يذكر في سيرة القباري شيوخه الذين أخذ عنهم، وعادة المتصوفة أن يذكروا شيوخهم الذين أخذوا منهم الطريقة، وانتهجوا منهجهم فيها.

ثانيا: جاء في ترجمته أن بعض أصحابه عرض عليه كثيرا من حكايات مشايخ الرسالة للقشيري، فقال له: ما أحب أسمع شيئا خارجا عن الكتاب والسنة وكلام الفقهاء[3]، ومعلوم أن هذا ليس مذهب الصوفية.

ثالثا: أكثر ما نقل عنه إنما كان في باب الورع، وكان شديدا فيه، حتى إنه كان لا يتناول ما يسقط من الثمار لاحتمال أن الطيور نقلته[4]، ولما بنى بينه وبين جيرانه حائطا احتاط فأخرج من أرضه قطعة لهم، وقطع نخلة فوقع سقفها على حائط الجار، فقال علم الله أنها لم تضرهم، إلا أنها نفضت الغبار على الجدار، فعده تصرفا في ملك الغير، و أوجب على نفسه شيئا وأعطاه أطفالهم، وكان يقول: (إن كان هذا واجبا فقد خلصنا منه، وإن كان غير واجب فهو صدقة مستورة باسم الحق)[5].

---

(١) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص٢٢٥؛ سامح كريم: أعلام في التاريخ الإسلام، ص٢٥٨،بل جل من ترجم له من المعاصرين يعده صوفيا حتى الدكتور المحمود في دراسته عن ابن تيمية وموقفه من الأشاعرة على الرغم من تحقيقاته المفيدة فيها.

(٢) راجع ما سبق ص ١٤٩.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص١٢٨.

(٤) اليونيني: مرآة الجنان، ج٢، ص٣١٦.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص ١٢٨ـــ ١٢٩.

رابعا: أنه كان لا يرى الاقتيات من الوقف المخصص على الصوفية، بل رأى أنه من المسألة، فقد قال: (من قعد في خانقاة فقد سأل، ومن لبس مرقعة فقد سأل ، ومن لبس سبحة فقد سأل، ومن فتح مصحفا في مسجد فقد سأل)(١).

خامسا: أنه كان يكره ترك الأسباب بخلاف المتصوفة الذين كان بعضهم يتعبد بترك الأسباب أو ما يسمونه (إسقاط التدبير)، ومما يؤثر عنه في ذلك قوله: (من زعم أنه ترك السبب اعتمادا على الفتوح إنما هو النقل من سبب لطيف إلى سبب وسخ، وذلك أن الاحتراف بسبب شرعي لا عيب فيه، لا في الدنيا ولا في الدين، وبسط اليد للكدية، أي (التسول) سبب مذموم، وليته أي المتسول يبسط به للكدية خاصة، ولكنه يقول لهم : أنا رجل صالح فأعطوني، ترى ماذا يبيعهم، إن باعهم عملا، فيبيع الدين بالدنيا، كبيع الثمرة قبل بدو صلاحها يخشى عليها جائحة الخاتمة، حيث يطالب بالثمن، فيوجد مفلسا، فالحبس أولى به، وما هنالك حبس إلا جهنم)، ويقول أيضا عن الدنيا: (هي دار أسباب ومن زعم أن التوكل ترك السبب بالكلية فهو غالط)(٢).

وقال القباري: (قال لي صوفي: نحن ما نرى الأسباب، فقلت له : ما صدقت في لو صفع الأبعد إنسان، أكنت لا تراه ألبتة ولا يؤثر فعله فيك، فسكت، فقلت: أما أنا فأرى الأسباب لكن ما أقف عندها)(٣).

وذكر الذهبي عنه أيضا أنه كان يتكلم في أبي الحسن الشاذلي.(٤)

سادسا: أنه كان مقبلا على علوم الشريعة، فقد نقل الذهبي عنه أنه إذا سأل عن مسألة قد ذكر فيها نص مالك، سأل عن دليله إلى أن يمعن في الكشف ، فيقف على موضع حجته من الكتاب والسنة، فإن لم يقدر رجع إلى الاحتياط بالترك أو

---

(١) الشيال، أعلام الإسكندرية، ص٢٢٨؛ محمد زيتون: القباري، ص١٩٣.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص ١٣٥ـ ١٣٦؛ محمد زيتون: القباري، ص١٩٢، ١٩٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص ١٣٥، وقوله: (قال لي صوفي) ولم يقل (من أصحابنا) مثلا يدل على أنه ليس منهم، والله أعلم.

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٢٧٤.

بالتشديد على النفس، وكان كثيرا ما يطلب مذهب أحمد ويقول: (كـــان صـــاحب حديث)، ويذكر أنه سمع مسنده بمكة، فيقال له: أفلا نسمعه منك؟ فيقول: هذا مـــا نقلته ولا سمعته إلا لنفسي خاصة، وكان إذا عجز عن الطواف والتعبـــد فجعـــل عوض ذلك الجلوس للسماع، قال (القباري): فجعلت مجلسي إلى جنب القارئ لثقل سمعي فسمعت منه جملة،وكان يحفظ الجمع بين الصحيحين[1] منذ زمان الصبا[2].

وكان يقول: (قوله: {كل من عند الله}، هذه حقيقة، ثم ينتهي إلى قوله: {مـا أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، هذه شريعة، ويقـــول: الحجة في الشريعة، ولا حجة لنا بالحقيقة، ويقول: أكثر ما تؤتى المتصوفـــة مـــن ملاحظة الحقيقة مع الإعراض عن الشريعة، وهذه ضلالة)[3].

سابعا: أن القباري تتلمذ عليه عالم الإسكندرية (ابن المنير) وهو من هـــو، هو الذي قال فيه ابن عبد السلام: (الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيـــها: ابن دقيق العيد بقوص وابن المنير بالإسكندرية)[4]، ومعلـــوم انصـــراف العلمـــاء الفقهاء عن طريقة الصوفية ورسومها، فتتلمذ ابن المنير عليه يدل على أنه لم يجـد منه شطحات الصوفية التي ينكرها الشرع.

كما أن إماما فقيها محدثا كالذهبي يثني على القباري، ويدافع عنه، فقد قـــال في تاريخه: (وبعض العلماء أنكر غلوه في الورع وقال: هذا نوع من الوســـواس.. قلت والجواب عنه أنه مأمور بما كان عليه من الوسوسة في الورع بقوله صلـــى الله عليه وسلم : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)[5]، ولولا ارتيابه لما بـــالغ فـــي

---

(١) وهو الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم تصنيـــف الحـــافظ محمـــد بـــن فتـــوح الحميـــدي (ت٤٨٨هـ) ، وكتابه هذا أثنى عليه العلماء كابن الأثير، وشرحه جماعة منهم الوزيـــر ابـــن هبيرة، انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١،ص٤٧٠-٤٧١.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٣٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٣٨، وأما تفسير الآية فالراجح فيها أن الحســـنة والسيئة هي النعمة والبلية، لا ما قال القباري، وانظر ابن تيمية مجمـــوع الفتـــاوى ج١٤، ص ٢٣٤-٢٣٩.

(٤) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٥.

(٥) الطبراني: المعجم الكبير، ج٢٢، ص١٤٧.

شيء ..وهذا الرجل فكان كبير القدر، له أجران على موافقة السنة وأجر واحد على ما خالف ذلك، لأنه حريص على ابتغاء مرضاة الله..)(١).

بل حتى القباري نفسه ذكر هذا عن نفسه فيقول: (لا أحرم غير الحرام لكن لي أن أترك ما شئت تركه من المباحات عندهم والمشتبهات عندي، فنحن على وفاق)(٢).

فثبت من هذا أن القباري كان زاهدا ورعا ولم يكن متصوفا.

وقفة مع التصوف السكندري

قد يعجب الباحث من انتشار التصوف بما هو عليه من بدع وخرافات ومخالفات عقدية بين أهل الإسكندرية رغم أنها مركز إشعاع العلم الشرعي الصحيح في العصر المملوكي، إذ تعتبر مدرستا السلفي وأبي عوف أولى المدارس السنية في مصر الفاطمية، والتي امتد تأثير كل منهما إلى الدولتين الأيوبية والمملوكية، ومعلوم أن التصوف له اتجاه يخالف الخط العام لهاتين المدرستين، ولكن بالنظر إلى أهم المذاهب الصوفية ، وإلى رموز التصوف بالثغر ، فإننا يمكن أن نلمح أن الإسكندرية تأثرت في الجملة بالتصوف المغربي، والصوفية من المغاربة عندما نزلوا مصر تفرقوا في البلاد، فمن نزل منهم بالقرى وبالصعيد راج مذهبهم عند الناس ببعض الخوارق، وما ادعوه من كرامات فحسب(٣)، أما الذين نزلوا الإسكندري فلم يكن ليروج مذهبهم بهذا الشكل الذي راج في قرى

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) الذهبي: السابق، ١٣٢.

(٣) ومن هؤلاء على سبيل المثال : عبد الرحيم القناوي، وأصله مغربي من (سبتة) نزل بقنا بالصعيد ، وأظهر صلاحا وراج حاله على الناس، وصار الاعتقاد فيه وفي كراماته ظاهرا، وأنه بعد موته يرد السلام ويصافح من قبره ، وتعم بركته على من زاره ، وغير ذلك من الأساطير والأوهام ، ويمكن مطالعة شيء من ذلك في ترجمته بكتاب الإدفوي : الطالع السعيد، ص ٢٩٨-٣٠٣، ومن هؤلاء **أحمد البدوي** ، وأصله من المغرب من فاس، واستقر بطنطا، وزوقت له الكرامات والأساطير في حياته وبعد موته ، وأنه أتي بالأسرى من بلاد الفرنج ، وغير ذلك . وانظر في ترجمته : سامح كريم ، أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر، ص٢٦٨.

مصر، وذلك لأن الثغر كان شعلة علم و لا يروج على أهل العلم مخاريق الصوفية، لذا كان التصوف بالإسكندرية له بعد فلسفي ، واشتغال بالعلوم العقلية، وبذلك تجنب هؤلاء الصوفية مهاجمة العلماء لبدعهم وأورادهم، ويضاف إلى ذلك أن **المذهب الأشعري** الذي كان سائداً في مصر المملوكية لم يكن بالمذهب المضاد للتصوف دائما ، بل كان إنكار الفقهاء لما يخالف ظاهر الشريعة فحسب، مع اعتقاد كثير منهم في ما يسمون بأقطاب التصوف، وظن من بعضهم جهلا أنه يمكن أن تكون علوم توصل إلى الله من غير طريق الأنبياء، ولذا فالمذهب الأشعري فتح الباب لولوج الصوفية، لكن بشرط عدم مخالفة ظاهر الشريعة، وقد التزمت صوفية الإسكندرية بهذا الشرط، ولا سيما وقد اشتهر عن سلاطين المماليك عقوبة من خالف ظاهر الشرع بأشد العقوبات، فقد ضرب قايتباي رقاب بعض النموسية(١) لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة.(٢)

كما أن العلماء ما كانوا يسكتون قط على مخالفة ظاهر الشريعة ، فها هو ابن حجر يترجم لأبي الحسن علي بن محمد بن وفا الشاذلي(٣)، من كبار صوفية عصره ، فيقول : (اجتمعت به مرة في دعوة فأنكرت على أصحابه إيماءهم إلى

---

(١) **النموسية** ، أتباع أبي علي حسين الصوفي نسبة إلى حيوان النمس لأخذهم إياه وتربيته!! وكان هذا الصوفي إذا سأله أحد شيئا قبض من الهواء وأعطاه إياه، وقد اتهم بأنه يعمل السحر أو ما يسمى بالسيمياء، وأنه يتشكل في صورة السباع والبهائم . انظر ترجمة في ابن العماد الحنبلي : الشذرات ، ج٧، ص٣٥٠.

(٢) ابن العماد الحنبلي : الشذرات ، ج٧، ص٣٥٠.

(٣) وأبوه محمد معدود من رجال الطريقة الشاذلية ، من المشيخة الوفائية، وهو سكندري مات بالقاهرة سنة ٧٦٥هـ، وانظر ترجمته ومشيخته في محمود عبد الرؤوف قاسم : الكشف عن حقيقة الصوفية ، ص ٣٥٩.

وقد ذكر في هذا الكتاب عدة مشيخات منها : الشسترية، والنعمانية، والمنايفية، والركنية، والأحمدية، والبرهامية ، والنقشبندية، والحروفية، والصفوية، والشطارية، والعيدروسية، والنعمتلاهية، والكنكوهية، وغيرها كثير ، ومنهم من كان يصرح بوحدة الوجود كالكنكوهية ويدعون إليها، وهذه كلها ليست طرقا ، وإنما مشيخات أخذت أسماؤها من أسماء مشايخها.

جهته بالسجود، فتلا وهو في وسط السماع يدور (فأينما تولوا فثم وجه الله) [1] فنادى من كان حاضرا من الطلبة : كفرت كفرت) [2] قال ابن العماد ، فترك (ابن حجر) المجلس وخرج هو وأصحابه[3]

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد جرد لسانه وقلمه في فضح حال هؤلاء الصوفية، وبيان خروجهم عن الشريعة، وجاهد في ذلك بالشام ومصر، ففي الشام ناظر كبير مشايخ الرفاعية البطائحية عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، فناظره الشيخ أمام النائب بالشام، وبين أن ما يفعلونه إنما هو من باب الحيل والخداع، وفضح حيلهم، وألزمهم بظاهر الشريعة ورفع الأطواق من أعناقهم، والالتزام بالصلاة وغير ذلك من الشريعة، وكان مما قاله له الشيخ الرفاعي: (نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتر ، وأما عند الشرع فلا)[4]، فكان هذا إقرارا منهم بخداعهم وإعانة الشياطين لهم فيما يفعلونه.

والنقول عن العلماء كثيرة في الإنكار على من خالف الشريعة، وكذلك الأمر بالنسبة للحكام والسلاطين، والمقصود هنا أن عصر المماليك لما كان معظما للعلماء، كان يأخذ على أيدي الغلاة فما كان يسمح بالمجاهرة بخلاف ظاهر الشرع، وقد فهم الصوفية في الإسكندرية الدرس جيدا، فدخلوا على الناس من باب آخر، وهو أنهم يجمعون بين علمي الظاهر والباطن، كما كان يؤثر عن أبي العباس المرسي أنه قال عن الفقهاء إنهم لم يشاركوا الصوفية فيما هم فيه بينما الصوفية شاركتهم فيما هم فيه.[5]

---

(١) سورة البقرة ، آية ١١٥.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر، حوادث سنة ٨٠٧هـ ،ج٥،ص٢٥٦.

(٣) ابن العماد : الشذرات ، ج١، حوادث سنة ٨٠٧.

(٤) انظر هذه المناظرة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ج١١، ص ٤٤٦-٤٧٥ ، وأما مناظراته مع رموز الصوفية بالإسكندرية فسوف يتم بحثه في مبحثي (أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية والمناظرات) من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

(٥) ونص عبارته : (شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه)، ابن تغري بردي: النجوم ج٧،ص٣٧١.

ونتيجة لهذا انزلق كثير من أهل الإسكندرية للطرق في بدع التصوف حتى ممن كان ينتسب للعلم، كما تقدم في ترجمة التاج ابن عطاء الله الذي كان متفقها على مذهب الإمام مالك، ثم تصوف وغالى في التصوف، وكسراج الدين أبي علي بن أبي كامل العفيفي السكندري المعروف بالبسلقوني ، شيخ الفقراء الأحمدية ، ولد بالإسكندرية وتلقى العلم بها فحفظ رسالة ابن أبي زيد في الفقه ، والشاطبية في القراءات، وشارك في النحو، وغير ذلك من علوم الشريعة، ثم آل أمره إلى التصوف.[١] ، وكذلك عتيق بن عبد الجبار بن عتيق الصوفي الشاهد، له رواية وأخذ عنه الذهبي وأرخ لوفاته في (٦٧٦هـ/١٢٧٧م)[٢]وغير هؤلاء كثير.

ويضاف إلى ما سبق من أسباب رواج التصوف بالإسكندرية، أن بعض السلاطين كانت تميل إلى رواجه بمصر عامة تغطية على بعض الأخطاء التي كانوا يرتكبونها ، فالتصوف يمنع الإنكار والثورة على الظلم ، ولا سيما وقد خالطته عقيدة الجبر ، كما تقدم ، فينظر العبد إلى مراد الله ولا يكون له مراد بين يدي مولاه، فينظر إلى سير الإرادة الربانية ولا يخالفها.[٣]

ويمكن أن يضاف أيضا أن الإسكندرية كانت ثغرا جهاديا ، وكان الصوفية يخفون تقاعسهم عن الجهاد بالدعاء للمجاهدين بأن ينصرهم الله ويرد أعداءهم عنهم ، ويصب غضبه على أعدائه[٤]

الأوضاع الدينية وأثرها على الحالة العلمية

وبهذا ندرك أن الأوضاع الدينية في عهد دولة المماليك بالإسكندرية كانت حافلة بما كان له الأثر على الحركة العلمية بها، وقد دأب المصريون على احترام العلماء وتبجيلهم ، ولما تسلطن المماليك على مصر عرفوا ذلك ، فقدموا العلماء واحترموهم وأجلوهم، فهم بحاجة إلى دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون

---

(١) الداودي: طبقات المفسرين، ج١ ص٢٨٢،٢٨٣،٢٨٧.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام، حوادث الفترة،، حوادث ٦٧١-٦٨٠هـ .

(٣)انظر في عقيدة الجبر عند الصوفية :مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية،ج١٠،ص ١٦١-١٦٤، ٤٨٢،٤٩٧.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد: الأثر المغربي، ص٢٣٦، وما بعدها.

بها على إرضاء الشعب[١]، بحكم ما للدين وعلمائه من قوة وسطوة في النفوس، لأن العلماء ورثة الأنبياء وبهم عرفوا دين الإسلام وفي بركة علمهم يعيشون[٢]، ولما كان المماليك عصائب يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد، على حد تعبير ابن خلدون[٣]، لذا كان على الأمير الذي يطمع في الحكم أن يتودد إلى العلماء ليكسبهم إلى جانبه، ليضمن بذلك تأييد الرأي العام في البلاد، ولذا نجد العيني يذكر الأسباب التي سوغت استحقاق الملك المؤيد السلطنة ، فيقدمها بقوله أنه كان له : (الفضل والكرم والإحسان إلى أهل العلم)[٤].

ولقد كان للحركة الصوفية أثر سلبي على الحركة العلمية بالإسكندرية يمكن أن نجده من خلال عدة عناصر، لعل من أهمها أن التصوف كان يقوم على الأوراد والأذكار مما عطل حركة التأليف العلمي الصحيح، ولم يكن المتصوفة يشتغلون بتدريس العلوم الشرعية إلا على طريقة أهل الكشف، بمعنى أن تفسيراتهم للقرآن على منهج التفسير الإشاري[٥]، الذي يحمل الألفاظ ما لا تحتمل من جهة اللغة، وأما إقرائهم الحديث أحيانا[٦]، فكانوا يمزجون بشروحاتهم على الطريقة الصوفية كما سبق من شرح أبي العباس المرسي لحديث جبريل في الإسلام والإيمان والإحسان[٧]، ويضاف إلى ذلك أن انجذاب بعض طلاب العلم للتصوف كابن عطاء كان نتيجته تعطيل العلم الشرعي، لأن نتاجه بعد ذلك إنما هي كتب التصوف بإشاراته التي هي أشبه بإشارات الفلاسفة كما سبق.

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٨٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٣.

(٤) العيني: السيف المهند، ص١٦٧، سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

(٥) المراد **بالتفسير الإشاري**: هو الذي تؤول به الآيات على غير ظاهرها، والتي يرى المفسر أنها تستنبط على طريق الرمز والإشارة، مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي، انظر: صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن،ص٢٩٦.

(٦) ذكر البلوي أنه قرأ على أبي العباس المرسي المجالس الثلاثة في الحديث وغيرها ، انظر: البلوي: تاج المفرق، ص٥٨، ٥٩.

(٧) انظر ما أوردناه عن ترجمة ابن عطاء السكندري، وحضوره مجلس المرسي ص١٥٣.

كما أن الدسائس التي كان يدبرها الصوفية للعلماء الذين يقومون بواجبهم الديني بفضح معتقداتهم، كانت عاملا سلبيا بالنسبة للحركة العلمية، كالدسائس التي وضعها ابن عطاء وغيره على شيخ الإسلام ابن تيمية، ويضاف إلى أن التصوف كان سببا في انتشار الأضرحة والمزارات التي كانت منتشرة في الثغر السكندري بل في جميع مصر المملوكية، لأن تعلق الناس بها كان فتنة عظيمة أوقعت الكثير في الشرك، مما كان عاملا سلبيا على الحركة العلمية، والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني

مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية خلال العصر المملوكي

. إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية .

. اهتمام الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحياة العلمية بالإسكندرية .

. حركة التأليف .

. خزائن الكتب .

. الأسر العلمية .

. موارد الإنفاق على التعليم (الأوقاف ـ الأحباس ـ الهبات ـ الصدقات ـ الإنفاق الحكومي)

. العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة (مدن مصر الداخلية ـ الشام ـ الحجاز ـ المغرب ـ الأندلس).

. الاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها.

الفصل الثاني :

مظاهر الحياة العلمية في الإسكندرية خلال العصر المملوكي

قبل الشروع في الحديث عن الحياة العلمية في الإسكندرية خلال عصر سلاطين المماليك، يجدر بنا أن نسلط الأضواء على أهم مظاهرها ومنها :

إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وأثره على الحياة العلمية بالإسكندرية:

الخليفة والخلافة من قولنا: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة[١]، قال تعالى: {ثم جعلناكم في خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}[٢].

فحين توفي الرسول صلى الله عليه وسلم سنة(١٠هـ/٦٣٣م) بايع المسلمون أبا بكر الصديق بالخلافة، ثم جاء من بعده عمر بن الخطاب فعثمان بن عفان،ثم علي بن أبي طالب الذي انتهت خلافته بمقتله سنة (٤٠هـ/٦٦١م) وبذلك انتهت فترة الخلافة الراشدة لتقوم بعد ذلك خلافة بني أمية بدمشق، والتي قدر لها البقاء حتى سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م) لتحل محلها الخلافة العباسية، وتنتقل العاصمة إلى بغداد، والتي سقطت في سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[٣]، ففي هذا العام اجتاحت جحافل المغول التي بدأت زحفها من الشرق كل الممالك الإسلامية التي وجدتها في طريقها بدءا بالدولة الخوارزمية[٤] وانتهاءً بالدولة العباسية والقضاء على

---

(١) الطبري: جامع البيان، ج١، ص٢٣٦؛ الرازي: مختار الصحاح، ص١٦٣.

(٢) يونس، آية: ١٤.

(٣) انظر تفاصيل قيام تلك الخلافات في الطبري: تاريخ الأمم والملوك؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ؛ ابن كثير البداية والنهاية.

(٤) لقد ظهر من قبائل المغول والتي سكنت منغوليا جنوب شرق سيبريا على حدود الصين ،وقد اختلطوا بالقبائل التركية ،وفي أواخر القرن السادس الهجري ظهر فيهم شاب اسمه (تموجين)كان عنده من الذكاء و الدهاء ما استطاع أن يلفت به الأنظار إليه لتتوالى الأحداث، وتجتمع عشيرة المغول عليه وتنصبه ملكاً على قبائلهم التي وحد بينها وفي عام (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) تسمى بـ (جنكيز خان)وصار إمبراطوراً للدولة المغولية، ومنذ ذلك

حاضرتها بغداد وخليفتها المستعصم بالله [1]، وقد كان لسقوط الخلافة العباسية أسوأ الأثر على نفوس المسلمين، فهي رمز الوحدة الإسلامية واتباع للأمر الرباني بتنصيب خليفة للمسلين، فها هو السيوطي يقول عنها: (هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوي الأخبار،وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة، وخارجة تطبق الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض)[2].

فنبرات الأسى والمرارة في تأريخ واقعة سقوط بغداد على أيدي التتار يتصدرها دائماً أن التتار قتلوا الخليفة، فمثلاً يقول ابن كثير: (ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة)[3]، وهذا يبين الفراغ الذي أحدثه موت الخليفة واحتياج المسلمين إلى إحياء الخلافة مرة ثانية، والشعور الديني المتزايد لضرورة تنصيب الخليفة في أقرب وقت ممكن[4]

التاريخ وهو يعمل على توسعة رقعة بلاده، فأخضع الصين، ودولة الخطا، وبدأ في مهاجمة الدولة الخوازمية المسلمة، وقد قام علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي بدور رائد في مقاومة المغول، وألحقوا بهم هزائم متتالية حتى إن الملك الأشرف صاحب دمشق شبه جلال الدين بن خوارزم شاه بالسد الذي بين الشام وبين يأجوج ومأجوج ، انظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٥٦ــ ٤٦٢؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص٢٣٢ــ ٢٤٠؛ العريني: المغول، ص١٨٨؛ الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص١٨٨.

(١) **المستعصم بالله** (ولايته ٦٤٠هـ-٦٥٦هــ/١٢٤٢-١٢٥٨م)**هو** أبو عبد الله محمد بن الإمام الظاهر، بويع بالخلافة بعد أخيه المستنصر، ودخل المغول بغداد في عهده واستولوا عليها وقاموا بقتله، وقد اختلفت الروايات في الكيفية التي قتل بها، فقيل إن هولاكو لما ملك بغداد أمر بخنقه، وقيل رفس إلى أن مات ، وقيل مزق، و قيل لف في بساط وألقي في نهر دجلة فخنقا انظر في ترجمته: رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص٢٩٠؛ ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٩٧؛ بن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٤-٢١٥؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٧٥-١٨٠.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٧٤١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥.

(٤) لم يتوقف الزحف التتري على العالم الإسلامي بسقوط بغداد، بل امتد حتى شمل الشام فقد أخضع هولاكو ماردين ونصيبين والرها ثم حلب في سنة (٦٥٨هــ/١٢٥٩م)، ومن ثم أخذوا دمشق والخليل وغزة، وأصبحوا على مشارف مصر، وفي هذه الأثناء انقرضت الدولة

وظلت الخلافة غائبة عن مسرح الأحداث لمدة ثلاث سنوات ففي سنة (٦٥٩هـ-١٢٦٠م) قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء منصب الخلافة في القاهرة[1]، فما كاد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسي إلى دمشق في عام (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، حتى أرسل يستدعيه فورا مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته، وبالفعل وصل الابن العباسي إلى مصر وهو **المستنصر أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسي** فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام وبايعه في عام (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) بمحضر القضاة والأمراء، وأثبت قاضي القضاة تاج الدين ابن

الأيوبية بموت الملك الصالح نجم الدين وتسلطن نور الدين علي بن المعز أيبك وكان صبيا صغيرا فاتفق رأي المماليك على أن الصبي لا يستطيع تقويم المملكة، ومن ثم أعلن السلطان قطز سلطانا على مصر والشام سنة (٦٥٧ هـ/١٢٥٨م) وتلقب بالمظفر، وقد أرسل له هولاكو رسالة ملؤها التهديد والوعيد قبل أن يعود إلى المشرق لما علم بوفاة أخيه عام (٦٥٨هـ/١٢٥٨م) ،وقد عقد السلطان المظفر مجلس الحرب استشار فيه الأمراء واتفقت الكلمة على الجهاد،وخرج السلطان بنفسه وألهب حماس الأمراء حين التقى الجيش الإسلامي والتتري في عين جالوت في رمضان سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٨م)، فانتصر المسلمون انتصارا ساحقا على التتر وقتل قائدهم كتبغا نوين وتغير ميزان القوى ،وانقلبت الموازين، غير أن قطز قتل لدى رجوعه من عين جالوت وتسلطن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وتلقب بالظاهر.انظر في أخبار ذلك بالتفصيل: عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين.

(١) لم يكن الظاهر بيبرس أول من فكر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر، وإنما هو الذي نجح في تحقيق ذلك ، فقد حاول أحمد بن طولون سنة(٢٦٩هـ/٨٨٢م)، ومن بعده محمد الأخشيد سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م) في نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتقوية دولتيهما اللتين أسساهما في مصر ولكنهما فشلا، كما حاول ذلك الملك الناصر يوسف الأيوبي (ت٦٥٩هـ/١٢٧٠م) صاحب حلب ودمشق ، وحاول قطز ذلك أيضا لكنه قتل قبل تحقيق هدفه. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٦٢٠؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص٣٤١، عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٣٧،١٣٨.

بنت الأعز نسب الخليفة بشهادة الشهود ومن ثم بايعه العلماء والأمراء، ومن ثم قلد الخليفة السلطان الأمر والحكم على البلاد والبلاد التي يفتحها [١].

ولما قتل الخليفة في محاولة استرداد بغداد بايع الظاهر أحمد الحاكم بأمر الله ربقي في القاهرة ولم يسمح له بمغادرتها وكذلك استحضر بيبرس بعض أمراء آخرين من بني العباس[٢].

ولو تتبعنا آثار إحياء الخلافة بالقاهرة، نجد أنه قد تم تقسيم السلطة على أساس أن يكون الخليفة هو الرمز، وأن تكون إدارة شؤون البلاد بيد السلطان وحده، ووصف معظم المؤرخين سلطة الخليفة بأنها كانت شكلية، فيقول المقريزي عنها: (ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين)[٣]، ولكن أرى أن هذا لم يكن بمثل هذا السوء الذي يصوره بعضهم وذلك لأمور لعل أهمها أن الخلافة العباسية في بغداد في عهدها الثاني كانت سلطة الخليفة فيها صورية وشكلية بهذا المفهوم الذي ذكر، فإن تغلب الأتراك على الوزارة والحكم من خلال ذلك كان أمرا مشهورا، فبنو بوية، ثم السلاجقة كانوا الحكام الحقيقيين للدولة، بل الدويلات التي ظهرت كالأيوبية وغيرها كانت تدير بلادها بنفسها مع تقليد رسمي شكلي من الخلافة العباسية، فالأمر إذن لم يتغير كثيرا [٤].

كذلك لا ننسى أن المماليك كانوا في الأصل أرقاء، ولعل قصة بيعهم أيام نجم الدين أيوب على يد العز ابن عبد السلام[٥] توضح مدى الشعور تجاههم، وأن أحدا منهم لا يصلح للخلافة لكون أصله رقيقا، وشرط القرشية في تعين الخليفة

---

(١)ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٠٨؛ بيبرس الدوادار: مختار الأخبار، ص١٥ – ١٦؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٥٣؛ ابن الطولوني: النزهة السنية في أخبار الخلفاء ، ص١٢١.

(٢) ابو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج، ص، ، وانظر عن الخلفاء العباسيين في القاهرة : الملحق، ص٦٠٢.

(٤) انظر: حسن أحمد أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٦، ص١٤٧، ١٥٠، وغيرهم ممن أرخ عن دولة بني بوية والسلاجقة والأيوبية والأغالبة وغير ذلك مما هو معروف مشهور

(٥) السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٢١٦-٢١٧.

كان سائدا في هذه الأوقات بين المسلمين(١)، فاحتاج المماليك إلى ما يثبت شرعية حكمهم، فكان لابد من وجود خليفة يقلد السلطان البلاد، فيكونون تابعين للخليفة فيتوطد حكمهم وهكذا كان(٢).

وعلى الرغم من أن الحوادث المتكررة تدل على أن السلطة الفعلية كانت بيد السلطان لا الخليفة والتي منها على سبيل المثال أن الظاهر برقوق سجن الخليفة المتوكل على الله(٣) في البرج ليلة واحدة عندما خالفه، ثم أعيد إلى مكانه(٤)، كما قام الخليفة العباسي المستعين بالله بتولي السلطة بمصر إلى جانب الخلافة وذلك في سنة (٨١٥هـ/١٤٢١م)، مما دفع السلطان المملوكي المؤيد إلى أن قبض عليه وسجنه بدمياط (٥)، فهذه الحادثة تبين على أنه لم تكن السلطة الشكلية للخليفة دائما كما هو مقتضى الحال في الخلافة ببغداد.

ولعل من أكبر النتائج التي ترتبت على إحياء الخلافة في القاهرة هو الوقوف في وجه تيار التشيع في مصر والشام ودعم الاتجاه السني داخل الدولة المملوكية، ولقد أحس بيبرس بذلك وربما يكون هذا من الدوافع القوية التي جعلته يحرص على إحياء الخلافة بالقاهرة(٦)، ويؤكد ذلك **حادثتان أولاهما**: أن الوزير ابن العلقمي(٧) بعد ممالأته للتتار كان في نيته أن يقيم دولة رافضية في بغداد ويقيم

---

(١)انظر: ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص١١٣.

(٢) ولمعرفة المزيد عن احياء الخلافة العباسية بالقاهرة وأسبابها وموقف الحكام منها انظر: محمد عبد العال أحمد: أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية.

(٣) **هو الخليفة المتوكل على الله** أبو عبد الله محمد بن المعتضد ابن أبي بكر المستكفي بالله (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، كان خيرا فاضلا: انظر عنه: ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص١٥٤.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٢٩٨.

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣، ص٢٧٣، ج٧، ص٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٨٥.

(٦) عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٣٦.

(٧) **ابن العلقمي هو**: محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب مؤيد الدين البغدادي الرافضي، ولي الوزارة أربع عشرة سنة، فأظهر الرفض، وكان له دور في مساعدة هولاكو في دخول بغداد،

حاكما علويا بدل الخليفة العباسي فلم يحقق له ذلك، ولقي أشد الإهانة من التتار ،فمات في نفس العام (٦٥٦هـ /١٢٥٨م) (١)، **أما الثانية**: أن رجلا شيعيا يعرف بالكوراني، نسبة إلى كوران من قرى اسفرائين، أظهر الزهد والورع وأخذ يجمع بعض خدم السلطان ويحرضهم على الخروج ضد المماليك ليتولى بدلهم حاكم شيعي، ثم ثاروا وشقوا القاهرة وهم ينادون: يا آل علي وفتحوا دكاكين السيوفيين وأخذوا ما فيها من سلاح ولكن عسكر السلطان الظاهر بيبرس أحاطوا بهم وأوثقوهم فأصبحوا مصلوبين، وكان ذلك في أواخر سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)(٢).

ومما لا شك فيه أن الإسكندرية تأثرت بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ولاسيما في مجال الحركة العلمية، وما ذاك إلا لأن الثغر الإسكندري كان يعج وقتها بالعلماء والقضاة والمفتيين، ويمكن أن نلاحظ هذا الأثر من خلال التأثر العام بتحول أنظار العالم الإسلامي من العراق إلى مصر وما يتبعها من بلاد الشام، فقد صارت مصر حاضرة المسلمين وموئل العلماء وطالبي العلم، وصارت مدارسها ومساجدها وشيوخها ذوي أثر بالغ مما لم يبلغه مكان آخر، ويؤكد هذا قول السيوطي: (وأعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل مسكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء) (٣).

ولا شك أن تردد العلماء والفضلاء وطلاب العلم على مصر كان للإسكندرية منه أوفر النصيب لكونها ثغرا ومحطة الوصول الأولى للقادمين من

وقد كان جزاءه القتل على يد هولاكو لخيانته لولي نعمته الخليفة العباسي فقد قال له: (لو أعطيناك كل ما نملكه ما نرجو منك خيرا)، ولمعرفة المزيد عن ترجمته انظر: ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ص٣١٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٢٨٠؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٧٦.

(١) الصفدي: الوافي، ج١، ص١٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢١٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٤.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢١١؛ المقريزي: السلوك، ١، ق٢، ص٤٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٢٠١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٩٤.

المغرب الإسلامي إلى مصر، أو العابرين إلى الحج بالإضافة إلى وجود كبار العلماء بها على مر العصور ابتداء من تلاميذ الحافظ السلفي وابن عوف ومرورا بابن المنير والدماميني وغير هؤلاء كما سيأتي مفصلا إن شاء الله تعالى في موضعه من هذا البحث[١].

أيضا طبيعة الإسكندرية ذاتها جعلت الحياة العلمية تزداد فيها مقارنة بغيرها من المراكز العلمية فلئن كانت القاهرة عاصمة الخلافة، ومن البديهي أن تقوم حركة علمية رائدة فيها، إلا أن كثرة الاضطرابات السياسية بين المماليك كانت تؤثر سلبيا على الحركة العلمية، في حين أن الإسكندرية كانت أكثر هدوءا من غيرها، ومن الأدلة على ذلك أن المؤيد سجن الخليفة العباسي بالإسكندرية ثم نقل إلى دمياط لكونها أبسط له فلم يوافق واستأذن أن يقيم بالإسكندرية بغير سجن فأجيب إلى ذلك[٢]، فهذه الحادثة تدل على الاستقرار السياسي بالإسكندرية مما أتاح للناس الاشتغال بالعلم والتجارة في حين أن من يستقرئ حوادث هذه الفترة يجد أن مدنا كثيرة بمصر والشام كانت تقوم فيها ثورات أو حركات معارضة سياسية لكثرة المناوئين بها ممن كانوا يشتغلون بالسياسة، أما الثغر فلم يكن هناك فيه من يدعم هؤلاء المعارضين[٣]، ولذلك كان دائما محل تحديد الإقامة أو الإقامة الجبرية لأي معارض سياسي، فانشغل أهل الثغر بالعلم والتعلم والتجارة، فكثرت المدارس ونبغ الطلاب، وصار الثغر يعج بالعلماء وطلبة العلم ورحل إليه الفضلاء من كل حدب وصوب.

---

(١) انظر ما يلي في الفصل الرابع ، ص٣٧٠ وما بعدها.

(٢)ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣، ص٢٧٣.

(٣) كثيرا ما كان يحدث بالقاهرة فتن من المماليك لعدة أسباب إما لتطاحنهم على السلطة، أو نتيجة لقطع رواتبهم أو قلة أرزاقهم وغيرها من الأسباب ، وبالرغم من أن الإسكندرية كانت المعتقل السياسي للمناوئين للدولة من الأمراء وغيرهم، إلا أن كتب التاريخ لم تطالعنا بما يدل على وجود دعم لهؤلاء المعارضين، أو محاولة مساعدتهم في معتقلهم ، وكل ما كان أنهم تركوا لمصيرهم،أو لأمر السلطان فيهم.انظر في أمثلة ما جرى من الفتن بين المماليك : الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص١٥٨؛ ابن إياس: البدائع، ج٤، ص٧.

اهتمام الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة بالحركة العلمية في الإسكندرية

إن الحركة العلمية لها اتصال وثيق بمدى اهتمام القادة بالعلوم، وذلك لأن الإسلام حث على العلم، وجعله أساساً لاختيار القائد كما قال تعالى: {وزاده بسطة في العلم والجسم}(١)، فقد ذكر المفسرون أن القائد لا بد أن يجمع بين هاتين الخصلتين، قال ابن كثير: (ومن هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه)(٢)، ويقول النسفي في تفسيره: (والملك لا بد أن يكون من أهل العلم فإن الجاهل ذليل مزدري غير منتفع به، وأن يكون جسيما لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب)(٣)، ويذكر العيني أن من ضمن الأسباب التي بررت استحقاق المؤيد شيخ للسلطنة فضله وكرمه وإحسانه إلى أهل العلم(٤) كما يؤكد على رعاية القادة للعلوم بقوله: (ينبغي للسلطان أن لا يخلي مجلسه من كبار العلماء، وأن يجعل للعلماء منه مجلساً خاصاً يذاكرونه فيه بالعلم ويذكرونه آلاء الله عليه وإحسانه إليه، والمراد من العلماء الفقهاء الذين فقهوا عن الله أمره ونهيه وهم أهل الفقه والحديث وما يتعلق بهما من العلوم الشرعية)(٥).

ومن الملاحظ أنه كلما كان التشجيع للعلماء بارزاً من أصحاب القرار السياسي، كلما كانت النهضة أكثر وضوحاً وجلاءً، ولقد تمتعت مدينة الإسكندرية بنهضة علمية رائدة قبل عصر المماليك، إلا أنها زادت في عصر المماليك بصورة أكبر وأشمل، ولعل من أحد أكبر العوامل التي أدت إلى ذلك هو الاهتمام بالحركة العلمية من قبل كبار السياسيين وأصحاب الرأي بها، وقد وضح ذلك

---

(١) البقرة، آية: ٢٤٧.

(٢)ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٠١ .

(٣)النسفي: تفسير النسفي، ج١، ص١٢٥. ويقول أبو بكر الجزائري في تفسيره: أيسر التفاسير، ج١، ص١٩٥: (والقيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس وشجاعة العقل والقلب).

(٤) العيني: السيف المهند، ص١٩٧.

(٥) العيني: الروض الزاهر، ص٣٢.

بجلاء من خلال **احتضان الدولة لعلماء المشرق والمغرب وحب الدولة للعلم والعلماء**، فقد واكب قيام دولة المماليك سقوط بغداد وهروب كثير من أهلها منها ممن بقي على قيد الحياة، فاجتياح المغول المشرق الإسلامي أدى إلى لجوء كثير من العلماء إلى الأراضي المصرية (١)، ولا شك أن مجيء عدد من علماء المشرق ونزولهم بمصر كان له الأثر الإيجابي في نشاط الحركة العلمية بكل مدن مصر والشام التي كانت تحت سلطة المماليك، ومن هذه المدن مدينة الإسكندرية، فتذكر لنا المصادر أن من هؤلاء العلماء الذين سكنوا الإسكندرية الشيخ أحمد بن عبد المحسن بن أحمد الواسطي الغرافي التاجر السفار(ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م) سمع الحديث في أسفاره وروى بها، حط رحاله بالإسكندرية وتوفي بها، وهو عميد أسرة آل الغرافي المشهورة بالعلم (٢)، كذلك الشيخ نجم الدين سعيد بن عبد الله الذهلي الحنبلي، الذي رحل من بغداد إلى الشام فالإسكندرية وله مؤلف سماه "تفتيت الأكباد في واقعة بغداد"(٣).

ولا شك أن تفاعل الثقافة العلمي بين المشرق والمغرب في الإسكندرية كان له الدور الإيجابي في تنشيط الحركة العلمية بها، وهذا يرجع بطريق غير مباشر إلى احتضان الدولة المملوكية لهؤلاء العلماء الوافدين عليها، فقد وفد على مصر عدد كبير من العلماء المغاربة والأندلسيين من خلال الرحلات إليها إما لأداء فريضة الحج، أو التجارة أو طلب العلم، وبعد سقوط الأندلس هاجر كثير من الأندلسيين والمغاربة من بلادهم واستقروا بمصر وتفرقوا في مدنها بما فيها الإسكندرية(٤). وقد بلغ بعضهم مواقع مرموقة في الدولة أمثال ابن خلدون الذي تولى قضاء القاهرة، وكان قد جلس مدة بالإسكندرية قبل أن يستقر به المقام

---

(١) يذكر المقريزي أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولي عددا كبيرا من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتاً على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل، انظر: الخطط، ج١، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٢) الصفدي: الوافي، ج٧، ص١٤٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٦ ، ٣٧.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١٨. وسيأتي ذكر جملة من هؤلاء وغيرهم في المبحث الخاص بالعلاقات من هذا الفصل إن شاء الله.

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع من هذه الرسالة إن شاء الله.

بالقاهرة[1].

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية جملة كبيرة من الإشارات الواضحة **لحب الخلفاء والمماليك السلاطين وكبار رجال الدولة للعلم والعلماء عامة**، فإنهم لم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا أقل من دولة بني أيوب والتي رفعت العلم وشأنه، فعلى سبيل المثال طالعتنا بعض المصادر التاريخية على أسماء عدد من **الخلفاء** العباسيين ممن كان له باع في العلوم الشرعية ومشاركة فيها وحبا وتعظيما لأهلها[2]، أمثال الخليفة المعتضد بالله[3] فقد كان جيد الفهم ذكيا يميل إلى الأدب وأهله، وله مشاركة فيه، ومعرفة تامة به[4]، كذلك وصف الخليفة المستعين بالله بأنه كان دينا فيه خير وإحسان ولين، توفي بالإسكندرية سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[5].

وأما **السلاطين**، فقد كان معروفا عن كثير منهم حب العلم والعلماء وتقريبهم، وبذل الهبات والعطايا لهم، والمشاركة في العلوم، فكان السلطان **الظاهر بيبرس** محبا للتاريخ مولعا به، وكان يقول: (سماع التاريخ أعظم من التجارب)[6]، وكان **الناصر قلاوون**، محبا للأدب واللغة، خبيرا بالأساليب العربية، ملما بالقواعد النحوية واللغوية، وتذكر المصادر التاريخية أنه كان ينقد ما كان يعرض عليه من المراسيم، ويصلحها، ولا يعلم على مكتوب حتى يقرأه، ويستدرك على الكتاب ما يبين لهم فيه الصواب، وكان يطارح الأدباء بذهن رائق

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ٣٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٣٨٧.

(٢) اعتبر بعض المؤرخين أن من شروط قبول الخليفة لإمرة المسلمين أن يكون ملما بالعلم وعنده خزائن كتب، انظر: غرس الدين: زبدة كشف الممالك، ص٩٢.

(٣) هو الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن المستعين بالله أبو الربيع سليمان (ت٧٦٣هـ/١٣٦١م) بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الحاكم بأمر الله سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، كان ذا حرمة وافرة وشهامة ومعرفة تامة، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٩١.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين ص ١٩١؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٥، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥؛ حوادث الدهور، ج٣، ٦١ ـ ٦٢.

(٥) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٨٠٢، ٨٠٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٦٧ـ ٤٦٨.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٢.

وذكاء مفرط، ويعظم أهل العلم والمناصب الشرعية، ولا يقرر فيها إلا من يكون أهلا لها، ويتحرى في ذلك ويبالغ في البحث عنه[1]، وصار ابنه الملك **الصالح إسماعيل** (ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م) على منواله، فقد ذكرت المصادر أنه كان دينا محبا للعلم متمسكا بالأحكام الشرعية [2]، كما كان **الأشرف شعبان** بن حسين بن محمد بن قلاوون، محبا للعلماء والفقهاء وأهل الخير[3]، وكذلك السلطان **ططر** كان ملما بالمسائل الفقهية في المذهب الحنفي، وقد وجه البدر العيني لترجمة متن القدوري[4] إلى اللغة التركية، وكان يتقرب إلى العلماء ويحضر مجالسهم العلمية[5]، أما السلطان **برسباي**، فقد كان البدر العيني يعلمه أمور الدين مما جعل السلطان يقول: (لولا البدر العيني لكان في إسلامنا شيء)[6]، وقد ترجم العيني كتابه التاريخ الكبير المسمى بـ(عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) إلى اللغة

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٩١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٧٣ـ ١٧٤. ويذكر البدر العيني في كتابه السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، ص٢٧٤ـ ٢٧٥ أن المؤيد: (كان يوم الأحد والأربعاء يجتمع عنده جماعة من العلماء وطائفة من الصلحاء يقعدون عنده وهو فيما بينهم كأحدهم من قبل العصر بساعة إلى قرب المغرب في القصر يتحدثون بالعلوم الشريفة ويتذاكرون من المسائل العويصة، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب ، ثم إذا فرغوا أمر أن يسقوا من السكر المتكرر ..في سلطانيات كبار في كل سلطانية قطعة كبيرة من الثلج في أيام الصيف والهجر).

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٧٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٩٧؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٦، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٤) من أشهر المتون الفقهية عند الحنفية لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي، المتوفى سنة (٤٢٨هـ/١٠٣٧م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٧٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٣، ص٢٣٣؛ سركس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٤٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٣، ص٢٦٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٢٥٧.

(٦) العيني: السيف المهند، ص (و).

التركية، وقدمه للسلطان هدية[1]، وكان يثني عليه ويصفه بأنه كان محبا للعلم محسنا للطلبة والقراء والفقهاء[2]، ويذكر صاحب المنهل أنه كان: (يميل إلى فعل الخير ،.. مغرما بإنشاء العمائر، من ذلك: مدرسته الأشرفية[3] بالقاهرة.. وجامعه بالقليوبية..وأوقف على ذلك عدة أوقاف)[4].

وكان الملك **الظاهر جقمق** (ت٨٥٧هـ/١٤٥١م) ممن اشتغل بطلب للعلم وكان يستحضر مسائل جيدة يباحث بها العلماء والفقهاء، ويلازم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دوما، وكان مولعا باقتناء الكتب لا سيما الكتب النفيسة، ويعطي فيها الأثمان الزائدة عن ثمنها الأصلي من أجل شرائها[5] ، وبنى **الأشرف قايتباي** (ت٩٠١هـ/١٤٩٥م) المدارس بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والإسكندرية وغزة، وكان له اشتغال بالعلم،كثير المطالعات في الكتب، وكان يعظم العلماء ، ووضع ديوانا لطيفا من نظمه وانشائية في مناقبه ومآثره سماه (الدرة المضيئة في المآثر الأشرفية)[6] ، وأما السلطان **قانصوة الغوري** (ت٩٢٢هـ/١٥١٦م) فكان يحرص على عقد المجالس العلمية والدينية مرة أو مرتين كل أسبوع[7]، ومن سلاطين المماليك من تصدر للتدريس ، فقد تصدر السلطان **المؤيد شيخ**

---

(١) يقع الكتاب في تسعة عشر مجلداً لا زالت بعض أجزائه المخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية، ومكتبة بايزيد بالقسطنطينية، انظر: سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢، ص١٤٠٣؛ وقد صدر منه أربعة أجزاء بتحقيق محمد أمين، وجزء خامس بتحقيق د. القرموط.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٩.

(٣) تقع بخط العنبر بين القصرين، راجع عنها: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٧، ٢٨.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٢٧٦.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل، ج٤، ص٢٩٦ـ ٢٩٩؛ النجوم الزاهرة ، ج١٥، ص٤٥٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٩١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٨٢ـ ١٨٦.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٢٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨، ص٧.

(٧) الغزي: الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨، ص١١٦؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٥٥.

المحمودي (ت٨٢٤هـ/١٤٢١م) للإقراء والتدريس، وكان يروي صحيح البخاري إجازة من حافظ زمانه سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)[١]

وكان يتكلم في مسائل فقهية في مذهب أبي حنيفة[٢]، وقد عده الحافظ ابن حجر العسقلاني في عداد مشايخه في كتابه المجمع المؤسس، وكان المؤيد كثير التعظيم لأهل العلم مكرما لهم، وكان لا يميل إلى شيء من البدع[٣].

ولم يكن الاهتمام بالعلم وأهله مقتصرا على الخلفاء والسلاطين فحسب، بل تعداه إلى كبار **أمراء** الدولة، فقد كانوا محبين للعلم والعلماء مشاركين في العلوم

فمنهم على سبيل المثال: الأمير **فخر الدين الصالحي** المعروف بالمقري (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، أحد الأمراء الأعيان، كان فاضلا يكتب خطا حسنا، ويعظم أهل العلم والحديث[٤]، ومنهم الأمير **زين الدين كتبغا** الحاجب الناصري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، كان من أكابر أمراء الدولة ويحب العلماء والصلحاء ويحضر مجالس الحديث[٥]، ومنهم الأمير **مسعود بن أوحد** بن مسعود (ت٧٥٤هـ/١٣٥٣م)أحد أعيان أمراء الدولة وأكابرها، وصف بأنه كان محبا لأهل العلم والخير[٦]، ومنهم سيف الدين **شيخو الناصري** (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦م) كبير الدولة ومشيرها، والمتكلم فيها بالجملة، كان يحب العلماء والفقراء ويجتمع

---

(١) هو عمر بن عبد الحق الكناني القاهري، البلقيني، ولد ببلقينة من بلاد الغربية بمصر، ويعد من أشهر العلماء في الحديث والفقه والأصول، وله كثير من المصنفات، السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٨٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٥١.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٣٠٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٥٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٢٣٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص١٦٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١٢١؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٥.

(٥)ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١١٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٥٠.

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١٧٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ح ٥، ص١١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٩٢.

بهم و يحسن إليهم، بنى مسجدا ومدرسة وخانقاة وأوقف عليها[١]، ومنهم الأمير سيف الدين **صرغتمش الناصري** (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م)، مدبر الدولة وكبيرها، كان محبا للعلماء والفقهاء ويجتمع بهم ويخالطهم ويتكلم معهم، وكان يقرأ تجويدا ويتعصب للمذهب الحنفي كثيرا، وله أوقاف وجهات بر[٢]، ومنهم الأمير **بكلمش العلائي** (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م)، أحد الأمراء الكبار بالديار المصرية وصف بأنه كان محبا للعلماء، يجلس معهم ويذاكر بمسائل ويتعصب للحنفية[٣]، ومنهم الأمير **أحمد بن طوغان** بن عبد الله الشيخوني دويدار النائب، كان محبا لأهل الخير والصلاح، ثم ترامى على أهل الحديث واختص بهم، وتوفي بالإسكندرية سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)[٤]، ومنهم الأمير **بيدرا المنصوري** (ت٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، فقد جمع بين حب أهل العلم وتقديمهم وبين حب جمع الكتب في أنواع العلوم، واقتنى منها جملة واستنسخ جملة أيضا[٥]، ومنهم الأمير **بكتمر الساقي** (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، وجد في تركته لما مات الكثير من الكتب والمصاحف وصحيح البخاري نسخ مختلفة[٦].

ولقد كان لاحترام السلاطين والأمراء الكبار للعلم وأهله أن حظي العلماء في عصر المماليك بمنزلة كبيرة، ويمكن أن يعود ذلك لأسباب أهمها ما تمتع به العلماء من مكانة عالية عند عوام الناس، فلقد كان الناس محبين للعلم والعلماء

---

(١) ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٢٠٤ـ ٢٠٥؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٢٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٨٣.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٢١٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٠٥؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٣٥٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٦٩.

(٤)ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٣٣١.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٨٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٣٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٨٨، ٧٩٣؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٤٩٤.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص١٩٣؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٨؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٣٩٣.

معظمين لشأن الفقهاء، محترمين لهم ولأقوالهم، فقد افتتح عهد المماليك ولا يزال في مخيلتهم حادثتان حدثتا في آخر عهد الأيوبيين دلتا على أن مكانة العلماء عند الناس تفوق ما كان للسلاطين، ألا وهما حادثتا بيع الأمراء ، وإبطال عدالة الوزير.

فبالنسبة للحادثة الأولى وهي مسألة بيع الأمراء، فتتلخص في أنه عندما وصل العز عبد العزيز بن عبد السلام إلى مصر سنة (٦٣٩ هـ/١٢٤١م) إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان للملك عدة مماليك أتراك اشتراهم من مال الدولة ودربهم على الفروسية ثم جعلهم أمراء وقادة الجيش، ورأى العز أن هؤلاء الأمراء لا يزالون في حكم الرق ولم يثبت عتقهم، لذلك لم يصحح لهم بيعا ولا شراء ، وتعطلت مصالحهم وكان من جملتهم نائب السلطان [١]، فشكوه إلى السلطان فاستدعاه وأغلظ القول له، فحمل العز متاعه ليخرج من القاهرة فلحقه الناس مما دفع بالناصح ليقول للسلطان: (أدرك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ)[٢]،وهنا ركب السلطان بنفسه وطلب من العز العودة، فوافق على شرط بيع الأمراء، وأعلن المزاد العام وبيعت الأمراء ودفع السلطان نجم الدين الثمن من ماله الخاص ليتملكهم ثم اعتقهم واحتفظ بهم قادة وقبض العز الثمن ووضعه في بيت المال ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه بائع الملوك [٣].

أما الحادثة الأخرى فهي إسقاط عدالة الوزير، فقد بلغ العز بن عبد السلام أن الاستادار[٤] معين الدين بن شيخ الشيوخ بنى طبلخانة فوق أحد مساجد القاهرة فأمر الشيخ بهدمه واسقط عدالة الاستادار ، ثم عزل نفسه عند القضاء لئلا يتسلط

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص٢١٦.

(٢) الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨١.

(٣) الزحيلي: العز بن عبد السلام ، ص ١٨٢.

(٤) الاستادار (أستاذ دار) هو: الشخص الذي يتحدث في أمر الدور أو البيوت السلطانية، من المطابخ والشراب خاناه، والغلمان، وله مطلق التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠، ج٥، ص٤٥٧.

عليه من خلال السلطة [١]، ثم أن الملك الصالح جهز رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، ليؤدي الرسالة، خرج إليه الخليفة وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حملنيها عن السلطان معين الدين شيخ الشيوخ استاداره فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان بمصر حتى شافهه بالرسالة ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[٢]، وهذا يدل على مكانة العز لدى سلاطين المماليك، حتى إن بيبرس عبر عن ذلك بقوله عشية وفاة العز: (ما استقر ملكي إلا الآن)[٣].

ومما يذكر في هذا المجال ويبين مدى احترام سلاطين المماليك للعلم وأهله زيارة بيبرس **للقباري** زاهد الإسكندرية ونزوله عند شروطه التي اشترطها للمقابلة[٤]، وأنه كان يأخذ بفتواهم في كل ما يقدم عليه من عمل من ذلك ما ذكر سنة (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) من أن رجلاً نصرانياً يدعى بولص الراهب ظفر بمال مدفون في مغارة بالجبل، فواسى به الفقراء من كل ملة، واستمر أمره حتى سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، فأحضره السلطان الظاهر بيبرس وطلب منه المال وأن يعرفه من أين يحصل له فلم يفصح له بشيء، وفي أثناء ذلك جاءت الفتاوى من فقهاء الإسكندرية إلى الملك الظاهر بقتله وعللوا ذلك بخوف الفتنة على ضعفاء النفوس من المسلمين، فأمر الظاهر على الفور بقتله[٥].

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٩٩؛ الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨٣ .

(٢)السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٨ ، ص٢١١؛ الزحيلي: العز بن عبد السلام، ص ١٨٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٧، ٣١٨. وقد ذكر ابن اياس أن العز كان ينهي الظاهر عن المظالم ويحذره منها، فقد أورد قصة مفادها أن شخصا ادعى على الظاهر أنه أخذ منه بئرا، فما كان من العز سوى أن أرسل رسولا إلى الظاهر ليمثل أمام القضاء، فحضر الظاهر مجلس القاضي ووقف بجانب الخصم، ولما كانت البينة للظاهر حكم له بالبئر، انظر: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣١٢؛ عبد الله الوهيبي: العز بن عبد السلام، ص٣٢.

(٤) شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص٦٥، كذلك راجع الأوضاع الدينية، ص ١٥٩.

(٥) اليونيني: مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩.

كذلك كان من اهتمام السلاطين والأمراء بعلماء الإسكندرية أن تبوءوا مكانة مرموقة في الدولة المملوكية، فهاهو السلطان الملك الأشرف برسباي يختص الشيخ **فاضل** السكندري ليكون المؤذن الخاص له في سفره وترحاله(١)، كما عمل الفقيه **تاج الدين** محمد بن أحمد **القطوسي** السكندري المالكي (ت٨٦٨هـ/١٤٦٣م) إماماً للسلطان خشقدم (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)(٢).

كما حرص سلاطين المماليك على إسناد **منصب القضاء** في الديار المصرية إلى **قضاة** من **الإسكندرية** منهم محيى الدين أبو الصلاح عبد الله بن قاضي القضاة **شرف الدين** أبو المكارم محمد ابن معين الدولة الإسكندري الشافعي (ت٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، تولى منصب قاضي القضاة(٣) بالديار المصرية لمدة ستين سنة(٤)، ومنهم جمال الدين **ابن خير** المالكي الإسكندري (ت٧٩١هـ/١٣٨٨م) منصب قاضي قضاة المالكية بالقاهرة(٥)،ومنهم شرف الدين بن محمد الدماميني

---

(١) ابن الجيعان: القول المستظرف، ص٤٨. ولم أجد لفاضل السكندري ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣٣٦.

(٣) يقول غرس الدين خليل عن منصب قاضي القضاة أنه: أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً، وعليهم مدار مصالح الأمة عقلاً وشرعاً.. .. وأجلهم قاضي القضاة الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي ولكل مهم نواب يحكمون بالديار المصرية)، انظر زبدة كشف الممالك، ص٩٢.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٥٥.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل، ج٧، ص٢٢٥ ـ ٢٢٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٨.

المالكي الإسكندري (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) نظر الجيش[١] وبيت المال وديوان المفرد[٢] بالديار المصرية ونظر الأسواق[٣] والحسبة بالقاهرة[٤].

ومما يؤكد مكانة العلماء في الدولة المملوكية حضور كل من السلطان المؤيد أحمد والظاهر تمربغا [٥] جنازة الشيخ محمد بن محمد **المالقي** السكندري، وكانا ممن حمل نعشه، وترحما عليه[٦].

ومن الأمور التي ساهمت مباشرة في إذكاء نشاط الحياة العلمية بالثغر تكرار **زيارات** السلاطين للإسكندرية **وتفقد أحوالها** وقد مر الحديث على هذا[٧]، وكذلك حرص السلاطين على أن **يتولى الثغر أمراء**[٨] **محبون للعلم وأهله**، فمن هؤلاء على سبيل المثال : **كوجبا** سعد الدين الناصري (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، الذي اشتغل بالرواية، فروى للشيخ شمس الدين الذهبي أحاديثه عن النجيب عبد

---

(١) نظر الجيش: وظيفة موضوعها التحدث في أمر الاقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان في شأنها وأخذ توقيعه على ما يقرره، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠.

(٢) وظيفة موضوعها شئون الديوان المختص بما أفرد من البلاد يصرف غلتها على مماليك السلطان من رواتب وكسوة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٧.

(٣) نظر الأسواق: وظيفة موضوعها شئون الأسواق وتنظيمها وترتيب أمورها ورقابة ما يجري فيها من بيع وشراء، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ـ ص .

(٤)ابن حجر: ذيل الدرر، ص١١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٢٣ـ ٢٤.

(٥) لقد تولى المؤيد أحمد سلطنة البلاد لأقل من سنة ليقيم بعد ذلك إقامة جبرية بالثغر السكندري، كذلك الحال بالنسبة للظاهر تمربغا الذي ما استقر في السلطنة سوى شهرين فقط ليلحق بالمؤيد أحمد، انظر: العلائي الظاهري: وثيقة عهد السلطان المؤيد، ص١٠؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٧٠.

(٦) هو الشيخ محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله بن الناصري أبي عبد الله المالقي السكندري الشافعي، سمع البخاري ، تفنن في القراءات وتلا بالسبع، وبرع في الفقه وأصوله والعربية والصرف والمعاني والبيان والميقات، مات سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م)، بالإسكندرية، السخاوي:الضوء اللامع،ج٩،ص١٩٩.

(٧) مر الحديث عن ذلك عند دراسة الأوضاع السياسية بالفصل الأول ، انظر ص ٤٦-٥٥.

(٨) عن أمراء الإسكندرية وفترات ولايتهم ، انظر الملحق، ص ٦٠٣.

اللطيف[1]، ومنهم **بيبرس الدوادار**(ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، صاحب المصنفات التاريخية المشهورة [2]، أرسله الناصر محمد إلى الإسكندرية لحفظه وتدبير شؤنه وذلك سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)[3]، ومنهم الأمير **صلاح الدين الدوادار** (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، اعتنى بالكتابة وكانت له مشاركة واستحضار للتواريخ [4] ومنهم **يلبغا** بن عبد الله **الخاصكي** الناصري، الأمير الكبير المشهور (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، تسلم ثغر الإسكندرية لإصلاح ما كان من غارات الإفرنج سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، كان له صدقات كثيرة على طلاب العلم ، وكان يتعصب للحنفية، حتى أنه كان يعطي من يتمذهب لمذهب أبي حنيفة العطاء الجزيل، ورتب لهم الرواتب الزائدة[5]، ومنهم **خليل بن عرام** الإسكندراني ابن صلاح الدين ابن عرام (ت٧٨٢هـ/١٣٧٨م)، يعد من اشهر من تولى نيابة الإسكندرية، كان من المحبين للعلم والمشتغلين به، جمع تاريخا للإسكندرية في عشر مجلدات[6]، له اهتمام بالأدب، عرف بحبه للعلماء وأهل الصلاح، ومشاركته للعلوم واشتهر بالفصاحة والمعرفة، وكان يكثر في مجلسه من المذاكرة مع الفضلاء، وأهل الأدب مع زيادة في الإكرام[7]، ولما قتل رثاه أحد الشعراء بقصيدة جاء فيها:

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهرا   وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا
ما زلت تجهد في التاريخ تكتبه   حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا[8]

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص١٢٦.
(٢) ابن حجر : الدرر ، ج٢، ص٤٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ١٥٠ـ ١٥١.
(٣) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٣.
(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٢٦.
(٥)ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، ص٢١٣ـ ٢١٥.
(٦) وهو من الكتب المفقودة، انظر: البغدادي: هدية العارفين ، ج٥، ص٢٨٩.
(٧) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٩٣ـ ٣٩٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٥، ص٢٦٣ـ٢٦٨.
(٨)المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٠٨؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٢٣ـ ٢٢٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٨٧.

ومنهم: محمد بن باقل الأمير **شمس الدين الهكاري**، متولي الإسكندرية (ت٧٨٣هـ/١٣٧٩م)، فقد كان له اشتغال بالأدب والنظم [١]، ومنهم الأمير **سيف الدين العمري** (٧٩١هـ/١٣٨٨م) نائب الإسكندرية، كان مشاركا في العلوم الطبيعية والنجوم[٢]، ومنهم الأمير **صرغتمش الخاصكي** (ت٨٠١هـ/١٣٩٨م) نائب الإسكندرية والذي كان محبا للعلم والعلماء وله بعض مشاركة في بعض المسائل[٣]، ومنهم الأمير **ناصر الدين** بن عبد الله الناصري (ت٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، والذي برع في التاريخ وكان يذاكر به وبالشعر[٤]، ومنهم الأمير جانبيك بن عبد الله الناصري (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م)[٥]، وهو الذي هدم المسطبة المشهورة بجدة، كانت له معرفة بالشعر واشتغال به[٦] ، والأمير **أقبغا التمرازي** (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م)، وكان مشتهرا بالدين المتين وقيام الليل محبا للعلماء[٧] ومنهم **يلبغا البهائي** الظاهري، نائب الثغر المشهور باهتماماته العلمية، ومشاركاته في الفقه والعربية والتاريخ[٨]، ومنهم **أحمد** بن علي بن إينال **اليوسفي الشهابي** (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، باشر نيابة الإسكندرية، وكان دينا عاقلا متواضعا محبا للفقراء والصالحين[٩]، ومنهم الأمير **عمر بن قديد** بن عبد الله ركن الدين **القلمطاوي** (ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، تولى أبوه نيابة الإسكندرية، ولم يكن هذا مانعا

---

(١) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٠٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٨٥.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٢٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٣٢٢.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣٦٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٣١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٤٣.

(٥) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٣٧.

(٦) كانت من الخرافات التي اعتقد الناس أن من طلع عليها واستجار بها لم يؤخذ منها مهما كان ذنبه حتى لو كان قتل نفسا، ولما خربها جانبيك، قام عليه عرب تلك البلاد فانتصر عليهم ، انظر : الدليل الشافي، ج١، ص٢٣٧.

(٧) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٤، ص١٨٢.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٧٧.

(٩) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٥٥.

له من الاشتغال بالعلم، فحفظ القرآن وأخذ الفقه وقرأ ولازم العز بن جماعة[1] أكثر من ٢٠ سنة، وقد فاق في النحو والصرف وعدد من الفنون[2]، ومنهم **أسنبغا الطياري** (ت٨٥٧هـ/١٤٥٣م)، كانت له مشاركة في الفقه والتاريخ وأيام الناس[3]، ومن أكثرهم شهرة **الغرس خليل بن شاهين** (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، وزير الديار المصرية ونائب الإسكندرية، صاحب كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، كان محبا للعلم والعلماء، اشتغل على جماعة منهم وأجازه ابن حجر في الحديث[4]، ومنهم **جكم قرار العلائي** الظاهري جقمق (ت٨٨٧هـ/١٤٨٢م)، تولى نيابة الإسكندرية، وكان محبا للعلم والعلماء والصالحين ويجمع الكتب العلمية ويقتنيها، ويظهر التفقه والتدين[5].

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)، كان من مشاهير علماء عصره برع في علوم شتى وصنف مصنفات مفيدة، قصده الطلبة من كل مكان، و كان يحسن إليهم ويساويهم في الجلوس ويبالغ في إكرامهم، تخرج به في الأصول والمعاني والبيان خلائق كثيرة. الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٤٧.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٤٠٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٦٢؛ المنهل الصافي: ج٢، ص٤٣٧؛ الدليل الشافي، ج١، ص١٣٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٣١١.

(٤) ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٢٩١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٣١٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٣، ص٧٥ـ ٧٦.

حركة التأليف في الإسكندرية في العهد المملوكي

لقد تضافرت **عدة عوامل** شجعت على حركة التأليف في مدينة الإسكندرية ولعل من أهمها: **اهتمام الدولة بالمؤلفات العلمية** بالثغر وذلك من خلال الاهتمام بتشجيع العلم والعلماء[١]،**ومنها الحوادث التي انتابت ثغر الإسكندرية**، ويمكن أن يمثل لذلك بحادثة القبرصي التي دفعت أحد الأذكياء وهو النويري السكندري أن وضع سبعة مجلدات في هذه الحادثة، سماه "**الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في الواقعة الإسكندرانية في سنة ٧٦٧هـ وعودها إلى حالتها المرضية**"، فنراه يذكر ضمن صفحات الكتاب الأسباب التي دفعته لتأليفه والتي منها واقعة الإسكندرية، فيقول بعد سرد المذابح التي أحدثها القبارصة بأهل الإسكندرية: (فجذبتني الغيرة بأسبابها، ودعتني الحمية لأربابها، إلى تأليف هذا الكتاب بها، ليقف عليه من يأتي من المسلمين بعد عصرنا هذا ليعلموا به ما اتفق بها فيما مضى من الزمان، وليجتهد ملوك مصر الآتية بعد ملوك عصرنا في حفظها من الفرنج بتكثير القياد بها والتركيز فيها لحراستها)[٢]، وقد ضمن هذا المؤلف العديد من العلوم والفنون والتواريخ ووصف الآثار والحركة العلمية والاجتماعية بمدينة الإسكندرية آنذاك حتى كان خبر الواقعة في جانب ما ذكره (كالشامة) كما يعلق ابن حجر على ذلك[٣]، **ومنها كذلك حب العلماء لمدينة الإسكندرية** التي دفعهم إلى تصنيف تاريخها ومنهم الولاة وغيرهم، فقد وضع والي الإسكندرية ابن عرام تاريخا للإسكندرية في عشر مجلدات [٤]، وكذلك وضع قاضيها وعالمها منصور بن سليم ابن العمادية تاريخاً لها [٥]، كذلك كتاب النويري

---

(١) للوقوف على تفصيله انظر ص ١٧٦.

(٢) النويري الإسكندراني: الإلمام، ج٢، ص٢٢٢.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٠٨؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٣ـ ٢٦٨؛ النجوم، ج١١، ص١٨٣.

(٥) لسان الدين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص٨٢؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٣٦،١٣٧.

السكندري ، فقد ذكر من أسباب وضعه له قوله: (وكان السبب في تأليفي هذا الكتاب طول إقامتي بالإسكندرية ومحبتي لها ولأهلها، فإني دخلتها في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بسبب زيارة الصالحين ورؤيتها، فلما حللت بها رأيت مدينة حسنة البناء جميلة المعنى طيبة السكنى، كما قال الشاعر فيها:

فما مثلها في الأرض يلقى مدينة فإن كنت في شك فأين نظيرها
فأضحت بحسن اليمن أحسن روضة وفاض بماء السعد فيها غديرها)

إلى أن قال : (فأحببتها حينئذ وسكنتها وتأهلت بها، والفت هذا الكتاب بها، وابتدأته في جمادى الآخرة سنة سبع وستين وسبعمائة إلى أن فرغت منه سنة خمس وسبعين وسبعمائة ... ثم ازددت في سكناها حباً لقول الشاعر[1]:

أرى الإسكندرية ذات حسن بديع ما عليه من مزيدِ
هي الثغر الذي يبدي ابتساما لتقبيل العُفاة من الوفودِ
إذا وافيتها لم يبق مما بقلبك مذ تراها من بعيدِ
حللت بظاهر منها كأني حللت إذاً بجنات الخلودِ
فلا بئر معطلة وكم قد رأيت هناك من قصر مشيدِ
بياض يملأ الآفاق نوراً يبشر برقه بسحاب جودِ
فأقسم لو رأتها مصرُ يوماً لكادت أن تغيبَ عن الوجودِ[2]

ومنها نزول المحدثين بالثغر وكثرة تواجدهم به، وهذا أثر في زيادة كتابة الإجازات العلمية والمشيخات والبرامج والمعاجم والأجزاء الحديثية، فيذكر البلوي أنه قرأ وسمع على شرف الدين أبي عبد الله محمد الكناني الشافعي الإسكندري نيفاً على الثلاثين تأليفاً في فنون شتى، قيد أسماءها وأسانيدها في برنامج رواياته[3].

ومنها المناخ المتميز للثغر، فلقد حبا الله سبحانه وتعالى الإسكندرية بمناخ لطيف[4]، جعلها طيبة الهواء على مدار السنة، يصف المقدسي الإسكندرية وطبيعة

---

(١) وهو الشاعر أبو الحسين الجزار ، وسبق الإشارة إليه في ص ١٢٥.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص، ٢١٩ـ ٢٢١.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٧٠. وانظر فيما يلي الفصل الخامس، علم التاريخ ، ص٥٥٨.

(٤) يتميز مناخ الإسكندرية نتيجة لموقعها على حوض البحر المتوسط بمناخ حار جاف صيفاً معتدل مطير شتاءاً انظر: محمد محمود الصياد: مدخل للجغرافيا الإقليمية، ص١٣٨.

هوائها بقوله: (الإسكندرية قصبة نفيسة على بحر الروم، عليها حصن منيع ، ... ، وهي شامية الهواء ، كثيرة الأمطار،..،..، طيبة نظيفة..)[1]، ويقول عنها ياقوت الحموي: (وهي شامية الهواء ، كثيرة الأمطار..)[2]، ويضيف الحميري: (وهي برية بحرية، وفيها من النعم والأرزاق ما ليس ببلد ، مع طيب هوائها)[3] فكان لهذا المناخ أكبر الأثر في تشجيع العلماء على التأليف، فها هو القاضي ابن خلكان[4] (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، يكتب فصولا من كتابه "وفيات الأعيان" بالثغر مغتنما فرصة وجوده به، فقد ذكر أن له كراسا كتبه بالإسكندرية [5].

ومن العوامل أيضاً ما اشتهرت به الإسكندرية من **معالم حضارية** كعمود السواري، والمنارة، والقصور الفخمة، والأسوار الحصينة، والأبراج المنيعة، وغير ذلك مما كان مصدر إلهام للكتاب، فجرت فيهم الطاقات الكامنة من الفن والإبداع، سواء في مجال الشعر أو الأدب، ومما يؤكد كلامنا ما ذكره ابن العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) صاحب كتاب "مسالك الأبصار" عن عمود السواري فقال: (هو عمود مرتفع في الهواء تحته قاعدة وفوقه قاعدة، يقال إنه لا نظير له من العمد في علوه ولا في استداراته، ويحكى عنه حكايات منها ما هو مسطر في الصحف ومنها ما هو مستفيض على الألسنة)[6]، كما تحدث عن منارة الإسكندرية والتي شاهدها وقد اندثر بعض معالمها فيقول: (لم يبقى منها إلا ما هو في حكم الأطلال الدوارس والرسوم الطوامس، وقد كانت المنارة مسرح ناظر ومطمح أمل حاضر طالما جمعت أحدنا وكانت لجياد الخواطر ديدنا)[7]. أما بالنسبة لقصورها الفخمة وسورها وأبراجها، فكانت هي الأخرى مصدر الهام لقريحة الشعراء، دفعتهم لتأليف القصائد ، ومن ذلك ما نقله النويري :

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٩٧.

(٢) ياقوت الحموي: تقويم البلدان، ص١٠٦.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص ٦٦.

(٤) أحمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي المعروف **بابن خلكان** (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، تولى قضاء مصر والشام، كان إماما عالما محققا متفردا في علم الأدب والتاريخ. ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٧٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٣٥٣.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٤١، ١٤٢.

(٦) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ق١، ص٢٤٠.

(٧) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ج١، ق٢، ص٢٤١.

وكم قصرٍ بها أضحى كحصنٍ منيع لا كزربٍ من جريدِ
يرص فصوصه بانيه رصّاً يفضله على نظم العقودِ
لها سورٌ إذا لاقى الأعادي يقابلهم بوجه من حديدِ
هو الفلكُ استدار بها وكم قد رأينا فيه من برجٍ سعيدِ
أحاط بسورها بحرٌ أجاجٌ ومنهلُ أهلِها عذبُ الورودِ(١).

ومنها وفرة المدارس وتنوعها بها، وقد انعكس ذلك على المدرسين الذين تفننوا في تأليف المناهج المختلفة التي تدرس في هذه المدارس فمما تذكره لنا المصادر في هذا الباب أن أبا الحرم نفيس الدين العوفي ولد أبي الطاهر بن عوف كان يدرس في المدرسة العوفية بالإسكندرية، وكان يحضر دروسه فضلاء ويتحرر بينهم بحوث فيكتبها في الحواشي فكمل كتابة شرح التهذيب في ستة وثلاثين مجلداً (٢).

ولم تقتصر حركة التأليف على **منهج واحد**، فقد تنوعت واختلفت وذلك تبعاً لاختلاف الاحتياج للمكتبات وطبيعة مؤلفه وميله لأحد العلوم دون الآخر ومن هذه الطرق: **الاهتمام بوضع الحواشي**، فمن ذلك على سبيل المثال: وضع محمد بن أبي بكر **الدماميني** حاشية على كتاب "مغني اللبيب من كتب الأعاريب"، لابن هشام الأنصاري في النحو، كانت عمدة من جاء بعده، فقد جاء أبو العباس الداري فلخصها(٣)، كما قام تقي الدين أبو العباس أحمد الداري **الشمني** بوضع حاشية على المغني، وقد اشتهرت هذه الحاشية بين الطلبة واعتمدوا عليها في دراستهم للغة(٤) وأيضاً وضع الشمني حاشية على كتاب الشفا(٥)، **ومنها الاهتمام بوضع**

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص٢٢٠ ــ ٢٢١، والأبيات متممة لأبيات الشاعر الجمال أبو الحسين الجزار.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٣.

(٣) الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠.

(٤) الموسوي: روضات الجنات، ج١، ص٣٣٧، ٣٣٨.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٧٥.

المختصرات والشروح، فمن أشهر المختصرات "مختصر ابن الحاجب" في أصول الفقه والذي قال فيه الزملكاني: (ليس للشافعية مثل مختصر ابن الحاجب للمالكية)[1] ومختصر التهذيب، لناصر الدين ابن المنير، وهو من أحسن مختصراته[2]، كذلك اختصر محمد بن أبي بكر الدماميني "حياة الحيوان الكبرى" للدميري في كتاب سماه "عين الحياه"[3]، أما الشروح فمن أشهرها "شرح الأربعين النووية"، وقد شرحها أبو حفص عمر بن أبي اليمن الإسكندري، كذلك شرح كتاب "العمدة في الحديث"، ووضع كتابا في اللغة العربية وشرحه[4]، أيضا لمحمد بن أبي بكر الدماميني كتاب "شرح لامية العجمي"[5]، كما وضع ناصر الدين أحمد ابن التنسي عدة شروح على عدد من المؤلفات منها "شرح الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك" في النحو لم يكمله، وشرح "الكافية لابن الحاجب" في النحو، وشرح "منتهى السول والأدل في علمي الأصول والجدل"[6].

ومنها الاهتمام بالردود والتعليقات، فمن الردود، ردود ناصر الدين **ابن المنير**، والتي من ألطفها ما يروى أنه أراد أن يصنف في الرد على الإحياء للغزالي فخاصمته أمه وقالت له : فرغت من مضاربة الأحياء وشرعت في مضاربة الأموات، فتركه [7]، كذلك من الردود كتاب "التحفة المختارة في الرد على من أنكر الزيارة" للفاكهاني[8]،أيضاً انتقاد محمد بن أبي بكر الدماميني على الصلاح

---

(١) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٨٨؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٤٠.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٥.

(٣) السيوطي: بغية الوعاه، ص٢٧ـ ٢٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٥؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٣٥؛ الزركلي: الاعلام، ج٦، ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٤) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٨٠.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١١٣؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠، ١٠١؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٩، ص١١٥.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٩٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٢٦٢؛ التنبكتي: نيل الابتهاج، ص٧٤، ٧٥؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص١٥٣.

(٧) الموسوي: روضات الجنات، ج١، ص٣٠٦ ؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج١، ص٧٨-٧٩.

(٨) ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص١٩٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٦، ص٩٦،٩٧.

الصفدي في مواقع من كتابه "الغيث" سماه "نزول الغيث" [1] أما التعليقات، فمنها كتاب "التعليق على مختصر ابن الحاجب" لناصر الدين أحمد التنسي[2].

ولقد تنوعت المؤلفات وتناولت ألوانا وفنونا مختلفة، ما بين الدين وعلومه، واللغة وآدابها، وغير ذلك من الموضوعات المتنوعة[3].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٥؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص٦٤.

(٣) سيرد الكثير منها بالتفصيل في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

خزائن الكتب

اقترن النشاط العلمي في الإسكندرية بحركة أخرى نشطة في ميدان دور العلم وأدواته، ومن ذلك خزائن الكتب أو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالمكتبات فقد شهد العصر المملوكي الكثير من هذه الخزائن والتي مثلت جزءاً هاماً في تنشيط الحركة العلمية بالمدارس ودور العلم المختلفة، لذا نجد العلماء يهتمون في تراجمهم ببيان حال الورقية، وما ينبغي على الوراق أو المجلد، وأوضاع خزائن الكتب، وطرق حفظ الكتاب، وحال القائمين على الخزانات، وشرط استعارة الكتاب ونحو ذلك.

والواقع أن الإسكندرية لم تختلف عن باقي مدن العهد المملوكي في خصوص وجود الخزائن بها وكيفية العمل فيها، وإن كانت المصادر لم تتحفنا بالكثير عن ذلك، إلا أننا من خلال قراءة متأنية في هذا العصر يمكن أن نحصل على تصور كاف لذلك، فقد كان البناء المعماري للخزانة يعتمد على حجم وعدد الكتب التي بها وعدد المستخدمين لها وما إلى ذلك، إلا أنها في مجملها كانت تحوي خلوة لخزن الكتب[1]، وتقسم إلى رفوف مقطعة بحواجز، وربما كان على كل حاجز باب بمفصلات وقفل، وفي كل خزانة مجموعة من الكتب يلصق عليها ورقة تعريف بالمحتوى أو نوعية الكتب ملصقة على باب كل خزانة، وكانت المصاحف الكبرى توضع في خزانة خاصة إلى جانب المحراب بالمدرسة [2] وكانت الكتب تصنف وتوضع ذات المواضيع الواحدة في مكان واحد[3]، ويراعي في عملية الرص مدى أهمية الكتاب من حيث ما يحتويه من علوم، ومكانة مصنفه فترص كتب الحديث الصرف كصحيح مسلم، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والصرف، ثم أشعار العرب ثم العروض[4] وهكذا.

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٧٢؛ ابن اياس: البدائع، ج١، ص١٠٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٧٢.

(٣) محمد ماهر: المكتبات، ص١٥٦؛ النشار، ١٨٢.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٧١.

وكانت الكتب وخاصة المصاحف تحفظ فيما يعرف بالبيوت، لحمايتها من التمزق والتلف، وكانت تصنع من الجلود أو القماش، والغالي منها يصنع من المعدن، وعندما يريد طالب الكتاب مطالعته فهو يضعه بين كتابين أو على (كرسي الكتب) حتى لا يتلف الكتاب ويتقطع حبله[1]، وكان الكرسي يصنع من الخشب أو المواد المعدنية كالنحاس والفضة، وهذا بالطبع أغلى ثمنا وأكثر جمالا، فيصف النويري السكندري أحد كراسي الربعات وبيتها والذي أخذه الفرنج من المدرسة الخلاصية حين هاجموا الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) بقوله: (وأخذوا منها كرسي الربعة وبيتها، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم المنزل فيهما اليقات الفضة بدائرهما، لم يُر مثلهما حسن صنعة وتدقيق وتخريم، وتركوا أجزاء الربعة المذكورة الثلاثين جزءاً مطروحة بالمدرسة المذكورة)[2].

وكانت المكتبات تحتوي على فهرس يضم قائمة بأسماء الكتب والمؤلفات وأماكن وجودها على الأرفف، ليسهل تناولها واستخدامها للباحثين والدارسين ، وكان المسؤول عن إعداد هذه الفهارس في الغالب خازن المكتبة[3].

أما موارد الكتب الوافدة إلى الخزائن فكانت تأتي بعدة طرق منها الشراء فيشتري ناظر الوقف الكتب ويضعها في الخزانة، أو يشتري الواهب كتبا ويهبها للخزانة[4]، ومنها ما كان يتم عن طريق النسخ، فيكون ثمة نساخ للخزانة لنسخ الكتب التي تحتاجها ويصعب الحصول عليها بالهبة أو الشراء[5]

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ، ص١٧٠.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣.

(٣) شعبان خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، ص٣٩٩ـ ٤٠١؛ النشار: تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، ص١٧٧ـ ١٧٨، وتعتبر فهرسة الكتب في المكتبات من أقدم العمليات الفنية للمكتبات حيث صاحبت بداية نشأة المكتبات ، وكان لمكتبة الإسكندرية السبق في ذلك، فقد وجدت فهارس لمكتبة الإسكندرية في عصر البطالمة، النشار: تاريخ المكتبات، ص١٧٨.

(٤) زبيدة عطا: مكتبات المدارس في العصر الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة المدارس ، ص٢١٨.

(٥) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص١٧٥.

بالإضافة إلى الهدايا والوقف، حيث اعتاد عدد من العلماء والأدباء والسلاطين إهداء الخزائن مجموعات من الكتب والمصنفات، كما فعل المؤيد شيخ حيث أهدى إلى خزانة الكتب الملحقة بالجامع المؤيدي كتباً كثيرة في علوم شتى، وقد يوقف العالم كتبه على بعض الخزائن، كما فعل الدمنهوري (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) عندما أوقف كتبه على مكتبة جامع الظاهر[١].

أما بالنسبة للهيكل الإداري لموظفي الخزانة، فكان يتم تعيين عدد من الموظفين بالخزانة على رأسهم الخازن، وهو المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها، وتنظيم العمل بها وفقاً لشروط الواقف[٢]، وكان يشترط فيه أن يكون عالماً فقيهاً، من أهل الدين والخير والأمانة ليكون عونا للطلبة والباحثين ومرشداً لهم[٣]، وأن يعير الكتب لمن هو أهلٌ لها، وأن يتفقد أحوالها باستمرار فيرمم شعثها، ويصلح أحوالها، ويتأكد من أنها موضوعة بمكانها المخصص بالخزانة المرصدة لها[٤] كما يكون بالمكتبة النساخون والمجلدون، وعدد من المناولين والفراشين[٥].

وكان الناظر يسلم الكتب إلى الخازن ويقوم بمراجعتها وترميمها وكان يتسلم المكتبة بحضور الشهود ويعتبر مسؤولا عنها، وله نظام في العمل بحيث حددت له مدد الإجازة والعطلة فكان يسمح له بثلاثة أشهر[٦].

ويلي وظيفة الخازن النساخون أو (الوراقون)، ويحدد عددهم بمكانة المكتبة ومدى حاجتها، ويشترط فيهم الدقة في النقل وجودة الخط والإتقان في العمل، بمعنى أن لا يحذف شيئاً من الكتاب أثناء نسخه[٧]، وقد حذر السبكي من

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص١٧٢.

(٢) النشار: تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، ص١٣٧ـ ١٣٨؛ محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص١٥٠ ــ ١٥١.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٧٩؛ النبراوي: أسعار السلع، ص٥١٩.

(٤) ابن جماعة: معيد النعم، ص١١١، النبراوي: أسعار السلع، ص٥١٩.

(٥) المقريزي: الخطط، ٣ج، ص٣٤٦.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٢٢٩.

(٧) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص١٣٩، ١٤٦.

ذلك بقوله: (.. ومن النساخ من لا يتقى الله تعالى ويكتب على عجلة ، ويحذف من أثناء الكتاب شيئا رغبة في نجازه، إذا كان قد استؤجر على نسخه جملة، وهذا خائن لله تعالى في تضيع العلم، وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض)[١].

و ألحق بأغلب المكتبات غرفة أعدت لجلوس النساخ ليمارسوا عملهم فيها وقد زودت هذه الغرف بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات وأدوات[٢]، مما لا غنى للناسخ عنها سواء كان يعمل ناسخا في إحدى المكتبات أو لحسابه الخاص وتتمثل هذه الأدوات في المحبرة، التي يحفظ بها الحبر أو المداد[٣]، وكانوا يفضلون الكتابة بالحبر عن المداد[٤]، (لبقائه على مر الدهور والأزمان وهو آلة ذوي العلم وعدة أهل المعرفة والفهم)[٥]، وكان القلم هو آلة النسخ، وأجوده الأملس العود المزال العقود، ذو الفتحة الواسعة،ليس بالصلب القاصى مما يمنع جريان الحبر أو الرخو فيتسبب في سرعة جريانه[٦]، أما الأقلام الغليظة أو ذات الخط العريض السميك فكانت تستخدم في كتابة الفصول أو الأبواب أو التراجم لتتميز عن بقية أجزاء الكتاب، وإن فضل البعض استخدام الحبر الأحمر لنفس الغرض[٧].

---

(١) السبكي: معيد النعم، ص١٠١، ١٠٢.

(٢) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص١٧٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٤٣.

(٤) **الحبر**: صنفان، الأول ما يناسب الكاغد (الورق)، وهو حبر الدخان، ويتكون من العفص والآس بعد نقعهما ثم غليهما على النار، ثم يصفى ويضع عليه صمغ عربي ودخان كالح بعد سحقه بسكر النبات والزعفران، أما الصنف الثاني فهو ما يناسب الرق (هو جلد رقيق يكتب عليه)، لا دخان فيه، ولذلك يجيء براقاً، وهو أضر للبصر بسبب بريقه، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢،ص٤٧٦، أما **المداد**: به كانت كتابة الأولين من أهل الصنعة، ويتألف من سخام النفط، المعيوب عليه الماء والعسل والملح والصمغ والعفص، ويوضع على نار لينة حتى يصبح كالطين، ثم يترك في إناء ويرفع إلى وقت الحاجة، القلقشندي: نفسه، ج٢، ص٤٧٥.

(٥) السمعاني: آداب الإملاء، ج٢، ص٥٤٥.

(٦) السمعاني: آداب الإملاء، ج٢، ص٥٦٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٤٤.

(٧) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٩١.

وكان يصاحب القلم المقلمة[١]، والسكين والمقـط[٢] والـورق، ذو اللـون النقـي الصافي[٣]، وكانت كتب العلم والأدب والرسائل تكتب بخط النسخ أو الرقـاع[٤]، وقد روعي في عملية النسخ عدة أمور من أهمها: أن ينسخ الناسخ كتاب الله وكتب الشرع والكتب المفيدة عموما، ويحذر من نسخ القصص الكاذبة كالأباطيل وكتـب المجون والبدع والأهواء، وأن يكتب بخط واضح يقرأ[٥].

وتعتبر (الوراقة) أو نسخ الكتب من مصادر التكسب، بل اعتبرها السـبكي من أجود الصنائع لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم ووثـائق الناس وعهدهم[٦].

ونتيجة للحركة العلمية النشطة التي شهدتها الإسكندرية في عهد المماليك وما صاحب ذلك من كثرة المؤلفات في مختلف العلوم، فقد راجت صنعة الوراقـة والنسخ في الثغر وامتهنها ثلة من العلماء، **منهم على سبيل المثال:** عبد الرحمـن بن أبي العز **بن شاواش** بن عامر الإسكندراني (ت٦٥٣هـ/١٢٥٥م) [٧] وعبـد العزيز **بن منجا** الإسكندراني الراوية المحدث (ت٦٦٣هـ/١٢٦٤م) [٨]، وتـاج الدين **الغرافي** ،كان يرتزق بالوراقة، فإذا حصـل قوتـه لا يتجـاوز[٩]، ويذكـر العبدري في رحلته أنه التقى به وأنشده بيتين في القلم قال فيهما:

---

(١) **المقلمة:** وعاء توضع به أقلام الكتابـة، انظـر: الفيروزآبـادي: القـاموس المحيـط، ج٤، ص١٦٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦٥.

(٢) **المقط:** بكسر الميم، هو ما يقطع به رأس القلـم، الفيروزآبـادي: القـاموس المحيـط، ج٢، ص٣٩٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦٨.

(٣) السمعاني: أدب الإملاء، ج٢، ص٥٧٤.

(٤) أحمد الاسكندري، مصطفى عناني: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص٢٩٢.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٢٩٩؛ ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٧٩.

(٦) السبكي: معيد النعم، ص١٣٢.

(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٥٠.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٥١ ــ ١٥٢.

(٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص١٠ ــ ١١.

وفارس بالظلام سار ودمعه في سراه جار

تراه في السير مشعلا يسير بالليل في النهار(١)

كما امتهن أخوه **عز الدين** الغرافي النسخ وارتزق به(٢).

وممن امتهن النسخ أيضاً من علماء الإسكندرية **مؤرخها النويري** السكندري والذي عمل في نسخ المخطوطات لأغنياء الثغر، ويقول في ذلك: (ونسخت لأكابرها بساحتها المنيرة كتبا كثيرة)(٣)، ولعل هذا النص يدل على حقائق عدة من أهمها، وجود ساحات بعينها للوراقة والنساخين، ناهيك عن اقتناء أكابر الثغر للكتب والمكتبات، وإن مهنة النسخ والوراقة مهنة محترمة يمتهنها الكثير من العلماء، وإن اختيار الأغنياء للنويري لينسخ لهم الكتب فيه دلالة على دقته في النسخ وأمانته، مع حسن وجمال خطه.

وممن عمل بمهنة الوراقة والنسخ عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز بن موسى بن أبي بكر العذري جمال الدين **الشبيشي الإسكندراني** (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م)، ذكر ابن حجر في ترجمته أنه: (تكسب بالوراقة، وكتابة الوثائق، وأنه نسخ بخطه كثيرا، وكتب الخط الجيد) (٤)، وانتقده بقوله: (وربما جازف في نقله)(٥). ولما كانت الكتب المنسوخة تحتاج إلى تجليد فقد ألحقت بعض المكتبات بقسم خاص للتجليد، يعمل به مجلدون تقع على كاهلهم مسؤولية تجليد الكتب وحفظ أوراقها من التلف والعناية بمظهرها الخارجي(٦).

وقد تنوعت المكتبات والخزائن بتنوع أماكن وجودها، فهناك الخزائن الملحقة بالمساجد والجوامع، وتكون عادة مملوءة بالمصاحف، واحتوى البعض

---

(١) العبدري: الرحلة، ص١١٣.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج١، ص٢٤ـ ٢٥.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص٢٢١.

(٤) ابن حجر: الذيل على الدرر، ص٢٥٨.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١٤٩.

(٦) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية، ص٦٠؛ عبد الغني عبد العادلي: التعليم في زمن الأيوبيين والمماليك، ١٥١.

منها بالإضافة للمصاحف على الكتب الدينية المختلفة، فيذكر السيوطي أنه كانت هناك مكتبة عامرة بجامع الإسكندرية[1].

أما بالنسبة للخزائن الملحقة بالمدارس فإن المصادر التي بين أيدينا لم تمدنا بما يمكن أن ندرك به وجود مكتبات بمدارس الثغر، وإن لم تخل من المصاحف فقد أشار النويري السكندري في كتابه عن وجود مصاحف بها، كما ذكر في المدرسة الخلاصية، وكيف قام الفرنج بطرح أجزاء المصحف الثلاثين في أرضية المدرسة، بعد أن أخذوا الكرسي الذي كانت عليه والبيت الذي كانت فيه[2]، هذا من شأن وجود المصاحف بالمدارس أما الكتب الأخرى، فكل ما وقفنا عليه إنما وجد في خزائن خاصة لمدرسين أو قيمين على المدارس، أو محبين للعلم وقد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى إندثار بعض تواريخ الثغر كتاريخ ابن عزام، وقد يكون السبب في ذلك كون الثغر رباطاً جهادياً بحيث يخشى على الكتب من تسلط الأعداء عليها، كما حدث في واقعة القبرصي عندما خرب مدرسة ابن حباسة والمدرسة الخلاصية وغيرهما، فلعل طلاب العلم اكتفوا بالمطالعة في المكتبات الخاصة بالمدرسين ولا سيما أنهم كانوا لا يمنعون أحدا من الدخول إليها والمطالعة فيها كما كان من شأن مدرس المدرسة السراجية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء الكناني الشافعي الاسكندري، الذي سخر مكتبته لطلبة العلم، فيذكر البلوي أنه اطلع على مكتبته العامرة ووجد فيها: (أمهات المجلدات وألوف التآليف للمؤلفات وصنوف التصانيف المجموعات المصنفات)[3]، ولقد سمح أصحاب المكتبات الخاصة لطلبة العلم بنسخ ما شاءوا من المصنفات، رغبة في مساعدتهم ونشر العلم والمعرفة، مثال ذلك ما قام به البلوي من نسخ الكثير من مصنفات مكتبة **الكناني**[4]، بل سمح بعض علماءها بإعارة كتبهم لطلبة العلم، فقد

---

(١) السيوطي: بغية الوعاه، ص٣٣؛ عبد المنعم هريدي: مظاهر النهضة العلمية بمصر، ص٤٤٤.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٧٠.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٧٠.

استعار البدر الدماميني كتاب الصحاح للجوهري من أحد علمائها ويدعى **نجم الدين**، حيث كتب له البدر أبياتا شعرية جاء فيها:

مولاي إن وافيت بابك طالبا　منك الصحاح فليس ذاك بمنكر

البحر أنت وهل يلام فتى سعى　للنجم كي يلقى صحاح الجوهري[1]

ومن خزائن الكتب الخاصة، خزانة كتب الأمير **ركن الدين بيبرس** المظفري الجمدار، والي الإسكندرية (ت٧٩٩هـ/١٣٦٦م)، الذي ذكر البعض أنه بعد وفاته بيعت تركته بالقاهرة، فوجد بها نسخة من كتاب "شرح التهذيب"، لأحد أبناء ابن عوف، فاشتراها قاضي القضاة الإخنائي المالكي[2]، وممن كانت له أيضا خزانة خاصة كمال الدين محمد بن محمد بن خلف **الشمني** الإسكندراني، فقد كان يمتلك كثيرا من الكتب أصيب في بعضها[3].

ولقد شغف كثير من العلماء بنسخ الكتب والأجزاء[4] وضمها إلى مكتباتهم، مثل مسند الإسكندرية أبي محمد عبد الوهاب **بن رواج**، ذكر الذهبي أنه سمع من أبي الطاهر بن عوف ونسخ الأجزاء[5] والشيخ محمد بن عبد الله بن إبراهيم **بن عيسى** الإسكندراني المالكي (ت٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، الذي كتب بخطه الكثير[6]، ومنهم الشيخ عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين **ابن حباسة**، الذي قال عنه البلوي: (واظبته وقد ناهز التسعين، وجف ماء عمره المعين، إلا أنه قد متع بلسانه وجنانه، وأقطع ما شاء من إحسانه وبيانه، ووضع له البركة في سمعه

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص٩٦.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٣؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص٥٠٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٥٠٩.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٥١. ربما احترقت أو أصابتها دودة الأرض.

(٤) لقد درج المحدثون على استخدام لفظة (نسخ الأجزاء)، أو (كتب بخطه) للدلالة على أن العلم المترجم له كان ينسخ كتب الحديث لنفسه هو سواء نسخ الكتب الكبيرة أو الأجزاء الحديثية المشهورة، وهيطريقة العلماء ، انظر: السيوطي : تدريب الراوي ، ج٢، ص١٤٩.

(٥) للذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٦) الذهبي: العبر، ج٥، ص٢٥٥؛ تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٣٩٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٥٨

وبصره وبنانه، فما دخلت عليه قط إلا وهو مطالع في الدواوين والتآليف، أو ناسخ لكن بالخط الرقيق والقلم النحيف على نحافة جسمه وقيامه، في ليله وصيامه في نهاره، ...لازمته كثيراً ..، فكنت صدى صوته وسلمان بيته، وكنت كثيراً لا أستأذن في الدخول عليه)[1].

والذي يجدر ذكره هنا أنه لما كان الثغر السكندري له وضع خاص مختلف عن بقية مدن مصر وهو الوضع الجهادي، فقد حوت بعض المكتبات أو خزائن الكتب على مجموعة كبيرة من الأسلحة والذخيرة، لتكون في متناول أيدي الطلبة تحسباً لأي مداهمة من قبل الأعداء للثغر، فيذكر البلوي أنه حين أطلع على مكتبة **الكناني** شاهد فيها أنواعا من الأسلحة والعدد والذخيرة وآلات الحرب الشيء الكثير، بل وتعلم من صاحبها أحكام الرماية بالقوس العربية[2].

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٨٣.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٧٠.

الأسر والبيوتات العلمية

العلم ميراث النبوة، قال صلى الله عليه وسلم: ((إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر))[1] وشاهده في القرآن قوله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا}[2].

فالعلم خير ميراث يورثه السابق للاحق، وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: {وورث سليمان داود}[3]، أنه ورثه في الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما تقدم في الحديث.

وميراث العلم في بلد يدل على خيرية أهل هذا البلد، فإن من علامة إرادة الخير بالعبد التفقه في الدين كما قال صلى الله عليه وسلم: ((من يرد الله به خيرا يفقه في الدين)) [4].

ولقد حفلت الإسكندرية بنشاط علمي كبير وموروث ذاخر في هيئة بيوتات وأسر علمية عديدة، وأعني بذلك وجود أكثر من عالم في الأسرة، وبدراسة هذه الأسر تبين لي أن أصل كثير منها من خارج الإسكندرية، وإنما استوطنت هذه الأسر في الثغر لما وجدته من إعانة على العلم وسهولة تلقيه به، فمنها ما كان يرجع إلى أصول مغربية كأسرة التنسي وبني وفا، ومنها ما كان يرجع لأصول عراقية كأسرة بني كويك، ومنها ما كان من محافظات مصر الداخلية كأسرة الدماميني، إذ أصولهم من دمامين بصعيد مصر، كما أن من هذه الأسر ما كانت

---

(١) أبو داود: السنن، في أول كتاب العلم، ج٣،ص٣١٧ (ح٣٦٤١) ؛ الترمذي : السنن، كتاب العلم،ج٥،ص٤٧ (ح٢٦٨٢)؛ ابن ماجه: السنن، المقدمة، ج١،ص٨١(ح٢٢٣)، وصححه ابن حبان والحاكم ، وانظر ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٩٣.

(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٢ ، وانظر : ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٥٨.

(٣) النمل، الآية: ١٦.

(٤) البخاري : الجامع الصحيح، كتاب العلم، ص٢٠ (ح ٧١)، كتاب فرض الخمس، ص٦٣٣ (ح٣١١٦)، كتاب الاعتصام، ١٥٣٣ (ح٧٣١٢)؛ وأخرجه مسلم : الجامع الصحيح، كتاب الزكاة، ج٢،ص٧١٢ (ح١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

أصوله ترجع لقبائل عربية جاءت في ركاب حركة الفتوحات الإسلامية ثم استوطنت الثغر إبان الفتح الإسلامي لمصر كأسرة بني المنير التي تعود إلى قبيلة جذام العربية كما أن اهتمامات الأسر العلمية بالإسكندرية اختلفت وتباينت، وغلب على بعضها التميز في بعض فنون العلم دون غيره، فمنها ما تميز بالحديث كأسرة السلفي ومنها ما تميز بالفقه المالكي كأسرة التنسي، ومنها ما تميز بالفقه الحنفي كبني كويك، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى(١).

وقبل الشروع في سرد بعض الأسر العلمية بالإسكندرية يجدر بنا أن نلقي الضوء على **العوامل** التي أدت إلى ظهور وتمركز الكثير من الأسر العلمية بها منها:

أولاً: موقع الثغر المتميز(٢).

ثانياً: تأصل المذهب السني بالثغر(٣)

ثالثاً: الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي الذي شهدته الإسكندرية في العهد المملوكي، والذي يقول عنه النويري السكندري

فَلُذتُ بمَن يَبْغِي بها مطلبَ الغِنى　　فَأوْفَر ذو مالٍ وسُرَّ فقيرُها

فقُلْ للذي قَدْ طَالَ عنها انتِزَاحُه　　هَلُمَّ فقَدْ طَابَتْ وطَاب عُبُورُها(٤)

فدفع ذلك الرخاء المادي الذي تمتعت به الإسكندرية بكثير من أبناء البيت الواحد إلى التفرغ لطلب العلم ومن ثم نشره بين الآخرين.

رابعاً: توارث أبناء هذه البيوتات للعلم الشرعي عن طريق الرواية والإجازة، كعلم الحديث الذي توارثه أبناء أسرة الغرافي، وقاموا يدرسونه في مدارس الثغر(٥).

---

(١) انظر ما يلي ، ص ٢٠٧وما بعدها.

(٢) انظر ما سبق ، ص ٨ وما بعدها.

(٣) وسيأتي دراسة ذلك في آخر مباحث هذا الفصل.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ٢٢٠.

(٥) انظر ما يلي ، ص ٢٣٤.

وأما تأثير الأسر العلمية في الإسكندرية فقد كان إيجابيا وواضحا في المدينة ولعلنا نستنبط من ذلك ما يلي:

أولا: **استمرار نشاط الحركة العلمية**، فإن الأجيال تتوارث العلم وتذكي أواره ويحصل كذلك التنافس المحمود بين أفرادها في ذلك.

ثانيا: احتدام التنافس لبناء المدارس، إذ كثير من هذه الأسر تبني المدارس وتوقف عليها الأوقاف ويلي تدريسها جماعة من هذه الأسرة وما إلى ذلك، فقد بنت أسر بني كويك والدماميني وغيرها المدارس وأوقفت عليها الأوقاف الخيرية.

ثالثاً: التأثير في الحياة السياسية، إذ الولاة والأمراء قد لا ينقادون لرأي عالم إذا كان منفردا، أما إن كان من أسرة علمية معروفة فإن القرار السياسي يتأثر بذلك، ولا أدل على ذلك من أن الولاة والأمراء استقضوا أفرادا من هذه الأسر، فتولى قضاء الثغر جماعة ينسبون إلى البيوتات العلمية مثل أسرة التنسي، حيث تولى جماعة منهم القضاء في الإسكندرية واستقروا في منصب القضاء زمناً طويلاً، منهم شمس الدين بن بنت التنسي ومنهم كمال الدين محمد بن محمد التنسي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) والذي تولى منصب قاضي القضاة في عهد الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وفي زمن الأشرف شعبان بن حسين[١]، ومنهم حفيد الشمس ناصر الدين أحمد التنسي وهو القاضي بن القاضي أحمد ابن قاضي القضاة محمد جمال الدين ابن قاضي القضاة شمس الدين المتقدم ذكره، كذلك كان الحال بالنسبة لأسرة ابن المنير وأسرة الدماميني.

الأسر العلمية بالثغر :

تنوعت الأسر العلمية بالثغر، فمنها الأسر التي امتد عطاؤها ردحاً من الزمان قد يبلغ القرون ويظهر فيها العشرات من طلبة العلم، ويبرز منها العديد من

---

(١) تولى الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون السلطة مرتين الأولى وكانت مدتها أربع سنوات، من الفترة ما بين (٧٤٧ـ ٧٥٢هـ) / (١٣٤٦ـ١٣٥١م)، والثانية ومدتها سبع سنوات وانتهت بمقتله وهي الفترة من (٧٥٥هـ ـ ٧٦٢هـ) / (١٣٥٤ ـ ١٣٦٠م)، وأما الأشرف شعبان بن حسين فقد حكم البلاد في الفترة من (٧٦٤هـ ـ ٧٧٨هـ) / (١٣٦٢ ـ ١٣٨٦م).

العلماء ، وقد تكون الأسرة العلمية ممتدة لبضعة عقود، يكون فيها العالم وواحد أو اثنان من أفراد أسرته فحسب، فمن هذه الأسر.

أسرة التنسي:

ترجع أصول أسرة التنسي إلى المغرب العربي، حيث مدينة تنس(١)، التي تنسب إليها هذه الأسرة، ويرجع نسب هذه الأسرة إلى الزبير بن العوام(٢) رضي الله عنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا مشتهرا بين أهل الثغر حتى مدح البدر الدماميني أحد أفراد هذه الأسرة بقوله:

وأجاد فكرك في بحار علومه   سبحا لأنك من بني العوام(٣).

وقد ذكر السيوطي أن من تابعي التابعين ثلاثة علماء من هذه الأسرة(٤)، مما يدل على تقدم نزول هذه الأسرة بمصر.

وقد اشتهرت أسرة التنسي بالإسكندرية بالتجارة والعلم الشرعي، وتولى بعض أفرادها المناصب الدينية كالقضاء والتدريس، ويأتي في طليعتهم قاضي القضاة **شمس الدين** محمد بن علي بن العز أبو عبد الله المالكي ابن بنت التنسي ــ نسبة إلى جده لأمه، (ت ٦٤٨هــ/١٢٥٠م)، اشتهر بالصلاح والفضل، كان

---

(١) **تنس**: مدينة في بلاد المغرب العربي ذكرها ياقوت في معجمه وأنها مدينة مسورة حصينة، يخترقها نهر يصب في البحر ، وبها مسجد جامع وأسواق حافلة، وينسب بناؤها إلى البحريين من أهل الأندلس، عام (٢٦٢هــ/ ٨٧٥م) وقد حاق الدمار بالمدينة بسبب الفيضان في النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، انظر: مجهول: الاستبصار، ص١٣٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٨ــ ٤٩.

(٢) هو **الزبير** بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد الغزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي، أبو عبد الله حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، أسلم وسنه ١٢ سنة، وقيل ٨ سنوات، مات شهيداً سنة (٣٦هــ/٦٥٨م) في منصرفه من موقعة الجمل، وعمره ٦٦ أو ٦٧ سنة، ابن حجر: الإصابة في تميز الصحابة، ج١، ص٥٤٥ ــ ٥٤٦.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٥٢؛ القرافي: توشيح الديباج، ص ٥٥ــ ٥٦.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٢٨٢ــ ٢٨٧.

عالما بالفقه والأصول وانتفع به جماعة[1]، ساق **حفيده بدر الدين النسب** بأنه ابن عطاء الله بن عوض بن نجا بن أبي الثناء حمود بن شهار بن حاتم بن ابن جابر بن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام[2]، ثم **ابنه** القاضي **جمال الدين** محمد بن محمد، وقد كان **شمس الدين** قاضي القضاة في زمانه[3]، توفي وخلفه ابنه **كمال الدين** محمد بن محمد بن التنسي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، والذي تولى منصب قاضي قضاة المالكية بالإسكندرية زمن الناصر حسن والأشرف شعبان، وقد وصف **الكمال** بأنه كان إماما بارعا في الفقه والأصول والحديث، كثير الاستحضار له ذهن وقاد، وقريحة حادة[4]، وأما ابنه **ناصر الدين** أحمد بن كمال الدين محمد (ت٨٠١هـ/١٣٩٩م) فيعد أحد أشهر من تولى منصب قاضي قضاة المالكية بمصر المملوكية، وقد تقلد المنصب مراراً[5]، أما بالنسبة لقضاء ثغر الإسكندرية بدأت ولايته عليه سنة (٧٨١هـ/١٣٧٧م)، وقد تردد ناصر الدين إلى القاهرة مراراً طالباً وشيخاً، إلى أن ولاه الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية بعد القاضي شهاب الدين أحمد النحريري[6] سنة (٧٩٤هـ/١٣٩١م)، وقد باشره بعفة ونزاهة مع عقل وتودد وقد حمدت سيرته، فقد كان غنياً ديناً، له

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٧، ص٥٣.

(٢) قال البقاعي: هكذا كتب لي نسبه بخطه، انظر: السيوطي: نظم العقيان، ص١٣٧، ١٣٨. وفي توشيح الديباج أن البدر التنسي أثبت في نسبه عواض بدل عطاء الله، نظر بدر الدين القرافي، ص٥٥ــ ٥٦.

(٣) ابن ابن العراقي: الذيل على العبر، ج٢، ص ٤٢.

(٤) ابن ابن العراقي: الذيل على العبر، ج٢، ص٤٢؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٤٤، ١٨١، ٢١٦، ٢٦١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٣٠؛ إنباء الغمر، ج١، ص١٢٤.

(٥) تكرر عزله واستبدل بالقاضي ابن الريغي، ثم أعيد توليته وعزل ابن الريغي مرارا، وقد تولى القضاء في سنوات ٧٨٣هـ ، ٧٨٠هـ ، ٧٩٤هـ ، انظر: المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٤٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٣١.

(٦) **هو شهاب الدين** أحمد بن عبد الله النحريري المالكي (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، كان بارعاً في الفقه على المذهب المالكي، تولى منصب قاضي قضاة الديار المصرية، ابن حجر: رفع الإصر ، ج١، ص٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل ، ج١، ص٣٥٢.

متاجر عدة ومال جزيل وثراء واسع، وظل في منصبه بعيدا عما يرمى به قضاة السوء حتى توفي سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، وقد كان مشتغلا بعلوم شتى، فأجاد في الفقه والأصول والأدب والنحو والجدل والمنطق[١]، له مصنفات عدة في علوم مختلفة منها، "شرح على تسهيل ابن مالك"[٢] لم يكمله، و "شرح مختصر ابن الحاجب" في الأصول و "شرح كافية ابن الحاجب"، وغير ذلك[٣]، ذكر المؤرخون أنه كان فاضلا، سليم الصدر، لم يسمع عنه ذم أحد بقول ولا فعل، وكانت أيامه في عافية، والرعية في أمان على أنفسهم وأموالهم، ولم يدخل عليه في طول ولايته خلل[٤]، وقد خلف أبناء تولوا القضاء ، منهم **جمال الدين** عبد الله، فقد تولى القضاء عام (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، حتى سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) حيث توفي غريقا في مياه النيل[٥]، ومن أولاده أيضا **شمس الدين** محمد (ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م)، وهو والد الشهاب أحمد والنور علي كما يأتي، وقد أشتغل شمس الدين بالعلم وتقدم وبرع في الشروط وتخرج به فضلاء، وناب في الحكم مدة، ورشح لقضاء الشام ولكنه لم يتولاه، ثم تولى قضاء المالكية لفترة، وذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج وأقام بها فترة، وحين عاد إلى الإسكندرية أصابه مرض لزمة حتى مات به، وكانت جنازته حافلة بالمشيعين[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٤٤؛ العقود اللؤلؤية، ج١، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص١٣٨، ٣٤٩، ٤٨١، ج٢، ص٢٩؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٥٨، ١٨٧.

(٢) هو كتاب تسهيل الفوائد وتكميل القاصد لمحمد بن عبد الله الطائي المعروف بابن مالك (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، انظر: السخاوي: ذيل الدرر الكامنة، ص٦٧.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٥٢ـ ١٥٣، وللوقوف على مصنفاته انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٠٥.

(٤) القرافي: توشيح الديباج، ج٢، ص٥٥ـ ٥٦؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٨٢؛ النجوم الزاهرة، ص١٣، ٦٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٩.

(٥) ابن حجر: رفع الاصر ، ج٢، ص٢٨١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٩.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٩٠.

ومن أشهر أبنائه أيضاً **بدر الدين** محمد المكنى بأبي الخلاص (ت٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، ولد بالإسكندرية وبها قرأ على بعض القراء، ثم انتقل إلى القاهرة فأتم حفظ القرآن، واشتغل بالعلم، فأخذ الفقه وأصول الدين والمعاني والبيان ، وباشر التوقيع[١] في الدولة المؤيدية[٢] ، وحج وناب في القضاء، وكان ينوب عن أخيه شمس الدين المتقدم ذكره، درس وأفتى ، وكان إماماً بارعاً في الفقه، له ذكاء مفرط، محباً في إسداء المعونة للطلبة، كثير المداراة، تام العقل[٣]، بقي في القضاء حتى وافته المنية بمرض الطاعون.

وله شعر جاء فيه:

إله الحق قد عظمت ذنوبي فسامح ما لعفوك من مشارك

أغث يا سيدي عبدا فقيرا أناخ ببابك العالي ودارك[٤].

وقد قال عنه ابن تغري بردي بأنه: (أعظم من رأينا من القضاة في العفة وجودة سيرة حواشيه الذين هم على بابه بلا مدافعة..)[٥]، ومن أبناء الشمس جمال الدين محمد بن ناصر الدين: **الشهاب أحمد**، وقد جمع بين العلم والتجارة وعمل شاهدا[٦] بأحد مساجد القاهرة، ثم أولع بالتجارة فانصرف إليها، فأصاب ثروة طائلة، أدى فريضة الحج مرارا، وتنقل في بلاد الشرق كاليمن ودمشق وبيت المقدس، أصابته خسارة في ماله فعاد كآحاد الناس، فأقام في إحدى مدارس القاهرة

---

(١) التوقيع ما يكتب لعامة أرباب الوظائف كبيرها وصغيرها، وقد جاءت التسمية من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، انظر ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص٥٣؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٧٨.

(٢) الدولة المؤيدية ، أي الدولة التي تولى السلطنة فيها السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٨٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٣، ص١١٢؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٩٨؛ ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٣٧٩؛ السيوطي: نظم العقيان، ص١٣٧، ١٣٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٣٧.

(٦) انظر التعريف فيما سبق بالفصل الأول ص ١٤٣.

حتى وافته المنية[١] ، وأما أخوه **النور علي** فلم تمدنا المصادر بالكثير عنه، إلا أنه كان مشهورا كباقي الأسرة بالعلم[٢]، ومن هذه الأسرة أيضا **كمال الدين** التاج محمد بن كمال الدين بن الجمال ابن الشمس التنسي (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)، أخو ناصر الدين ابن التنسي، وهو أحد فقهاء المالكية بالثغر السكندري، ناب في القضاء كأبيه وجده، وجلس للتدريس وإسماع الحديث بمدارس الثغر[٣]، ومن أسرة التنسي أيضا محمد بن محمد بن محمد بن حسن **العفيف** سبط بنت ابن التنسي، ويعرف بابن العفيف، ولد سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)، وباشر الخمس بالإسكندرية، وناب في قضائها وصرف غير مرة[٤].

أسرة ابن المنير:

ترجع أصول أسرة ابن المنير إلى قبيلة (جذام) العربية التي استقر بعض أفرادها بالثغر السكندري مع الفتح العربي في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وقد نالت هذه الأسرة شهرة عريضة وذلك بسبب تميز أبنائها بنتاجهم العلمي وتوليهم العديد من المناصب الدينية في الدولة كالقضاء وغيره، وقد وصف البلوي هذه الأسرة بقوله: (البيت الذي نمى على قواعد الإيمان الصحيحة، و سمى على عمد الأعمال الصالحة، والأنساب الصريحة)[٥]، ويأتي في طليعة هذه الأسرة: **أبو المعالي** محمد بن منصور بن أبي بكر ابن القاسم بن مختار الجذامي الجروي الإسكندراني المالكي (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، أجاز له مجموعة من علماء عصره حدث واستفاد منه خلق كثير وكتب عنه الطلبة، ولي القضاء[٦]، وهو والد شيخين جليلين وهما ناصر الدين وزين الدين[٧]، فأما **ناصر الدين** فهو الإمام ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن القاسم ابن

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٨٩ ــ ٩٠.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٩٠.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٢٨٩.

(٤)السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص١٠٣.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٦١.

(٦) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٥٩٩

(٧) الصفدي: الوافي، ج٥، ص٧٥؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج٧، ص٢٩٦.

الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن القاسم ابن مختار الجذامي المالكي (ت٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، ويعد أحد كبار علماء الثغر في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[١]، وفيه قال العز بن عبد السلام: (الديار المصرية تفخر برجلين في طرفيها: ابن دقيق العيد في قوص، وابن المنير في الإسكندرية)[٢]، كما قال عنه قاضي القضاة تقي الدين بن شكر[٣]: (أجمع الشافعية والمالكية على أن أفضل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة: القرافي[٤] بمصر القديمة، والشيخ ناصر الدين بن المنير بالإسكندرية، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد بالقاهرة المعزية، كلهم مالكية خلا الشيخ تقي الدين فإنه جمع بين المذهبين)[٥]

ولد ناصر الدين بالإسكندرية ودرس العلوم الشرعية على أبيه وغيره، وتتلمذ على يد الزاهد الكبير أبي القاسم القباري برع في التفسير والقراءات وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه والأصول واللغة والآداب والمعاني والبديع والشعر[٦]

---

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٣٢؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٣٤٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٩٢.

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج١، ص٢٤٥؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص١٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٥.

(٣) هو صفي الدين عبد الله بن علي **بن شكر** (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، كان محباً للعلم والعلماء، بنى المدرسة الصاحبية بالقاهرة، جعلها وقفاً على المالكية، وأوقف عليها أوقاف جليلة، الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج٥، ص٩٠؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٧١.

(٤) **هو شهاب الدين** أحمد بن إدريس **القرافي** (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، نسب إلى القرافة من غير أن يسكنها، وإنما سئل عند تفرقة الرواتب بمدرسة الصاحب ابن شكر، فقيل عنه: توجه إلى القرافة، فقال بعض من حضر: اكتبوه القرافي، فلزمه ذلك، كان مالكياً إماماً في أصول الفقه والدين، عالماً بالتفسير وغيره من العلوم الشرعية، تولى التدريس بعدد من مدارس القاهرة، صنف في أصول الفقه كتب مفيدة. انظر ترجمته: ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٢٣٣، الدليل، ج١، ص٣٩.

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٣٨.

(٦) الذهبي: العبر، ج٥، ص١٧٣؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٣٦١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٦ ــ ٣١٧.

وكان خطيبا شاعرا[1]، تولى مناصب عدة بالإسكندرية، منها نيابة القضاء عن ابن التنسي عام (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، ثم تولى القضاء والخطابة مرتين، وتولى التدريس بعدد من مساجدها ومدارسها، وولي نظر الأحباس والمساجد بها[2] وذكر أنه كان لا يناظر تعظيما لفضيلته، بل تورد الأسئلة بين يديه ثم يسمع ما يجيب فيها[3]، تعرض لمحنة في حياته بعد توليه القضاء سنة(٦٨٠هـ/١٢٨١م)[4]، حيث داهمت عصابة داره ومعهم قناني خمر ووضعوها في داره وادعوا أنهم وجدوها عنده، فأخذوا منه أكثر مناصبه، ولكنه توجه إلى القاهرة وسعى في الذين سعوا به إلى السلطان الناصر قلاوون، ونال من بعضهم وأعيدت إليه ولايته، وظل بها إلى أن توفي[5].

وهذه دلالة واضحة على أن بعضا من الأسر العلمية كانت محل حقد وحسد كثير من الناس، كما يدل ذلك على مكانة الأسر العلمية عند سلاطين المماليك ومدى اهتمامهم بعلمائها، وتوليتهم المناصب الهامة في الدولة، ولقد صنف ابن المنير في علوم شتى[6]، فله الانتصاف من الكشاف[7]، وله ديوان خطب كتبه إلى قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن خلكان، صاحب كتاب وفيات الأعيان[8]، وله تفسير في عشر مجلدات[9]، وله تفسير سورة الإسراء [10]،

---

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٥٩٩

(٢)ابن شاكر كتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٢٤٤؛ ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٥٨؛ المنهل، ج٢، ص١٨٥ ــ ١٨٦.

(٤) وقد أرخ ابن إياس وفاته في بدائع الزهور ، ج١، ق١، ص٣٥١، في سنة ٦٨٠هـ، وهو خلاف ما اجتمعت عليه المصادر.

(٥) النويري:نهاية الأرب،ج٣١، ص١٢٤؛ابن شاكر كتبي:عيون التواريخ،ج٢١،ص٣٤٨ـ٣٤٩.

(٦) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٩٨؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٣٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨١.

(٧) ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٩.

(٨) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٩٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٦.

(٩) الصفدي: الوافي، ج٨، ص١٢٨، ١٢٩؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ص١٣٢ــ ١٣٣.

(١٠)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٨.

وغيرها كثير[1]، وأما أخوه **زين الدين** ، فهو أبو الحسن علي بن محمد بن منصور المالكي (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م)[2]، قرأ الفقه على أعلام عصره، ومنهم أخوه، وكان له حظه من النبوغ، حتى إن بعض أكابر علماء عصره يقدمه على أخيه ناصر الدين[3]، ولي قضاء الثغر بعد أخيه حتى عزل عام (٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، وزين الدين هو شيخ الأسرة المنيرية إبان نزول العبدري صاحب الرحلة بها، وقد أطنب العبدري في مدحه حيث وصفه بأنه: (الفقيه العالم الكامل الرئيس الأوحد القاضي العادل شرف الفقهاء والمفتين، وسط قلادة المدرسين، صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين، وحيد العلماء وبحر المصنفين، ذو المآثر العينية والمفاخر العلية)[4]، ويبين ابن فرحون مكانته العلمية فيقول: (كان ممن له أهلية الترجيح والاجتهاد في مذهب مالك)[5]، وله مشاركة أدبية وأشعار ، أورد العبدري جملة منها[6].

ومن رموز الأسرة المنيرية ابن أخي ناصر الدين وزين الدين، الفقيه المحدث **فخر الدين** أبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن منصور بن المنير السكندري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، والملقب بعز القضاة، درس الفقه على **عميه** ناصر الدين وزين الدين ، وسمع وحدث، وجلس للدرس والإفتاء على المذهب المالكي، وتولى نيابة الحكم بالإسكندرية، وتوفي بها وعمره اثنان وثمانون عاماً[7]، وممن أسهم في الحياة العلمية بالإسكندرية من هذه الأسرة **مجد الدين** عز

---

(١) انظر في ترجمته: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٣٦٣؛ الدليل الشافي، ج١،٨٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٥، ص٣٨١.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص١٢٣؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٨٥.

(٣) ابن فرحون: الديباج ج٢، ص١٢٣.

(٤) العبدري: الرحلة، ص٨٩.

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص١٢٤.

(٦) العبدري: الرحلة، ص٥، ١١، ١٦، ٧٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٧.

(٧) أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٠٨؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص١٨٧ـ ١٨٨؛ ابن حجر: الدرر، ج٢، ص٤٢٢، ج٣، ص٣٦ـ ٣٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١،ص٤٥٩.

القضاة محمد بن عبد الواحد بن منصور ابن المنير السكندري (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، سمع وحدث واستفاد منه الطلبة[١]، ومن أفراد هذه الأسرة أيضاً **جمال الدين** محمد بن شرف الدين محمد بن المنير، وهو ابن أخي ناصر الدين القاضي، لقيه الرحالة البلوي عند مقدمه الثغر، وأخذ عنه ووصفه بالنزاهة والعدل والعلم والكرم، وقال عنه أنه كان: (مشاراً إليه من كل غائب وشاهد..مشاوراً في النوازل والديانات، مستفتي في عوارض غوامض القضايا والمشكلات، تصطفيه الرتب العلية السنية، وتتنافس فيه الخطط الشرعية السنية، فطوراً مقدماً في أندية الوزراء والأعيان ، وتارة صدراً في قضاة العدل والإحسان، حتى اعترف بإرشاده الخاص والعام، واغترف من بحر ارفاده الراوي والظامي، فما من جار في تحصيل مرام إلا عليه اعتمد، وما من سار على سبيل اعتصامه إلا بدليله استرشد)[٢]وقد أخذ البلوي عنه معظم تآليف عمه ناصر الدين، منها الأرجوزة الكبرى في التفسير، ومناسبات تراجم البخاري، وأجزاء من أحكام السماع[٣]، ومن علماء الأسرة أيضاً **شمس الدين** محمد بن المنير(ت٨٠٣هـ/١٤٠١م) المؤذن الشهير زمن السلطان الناصر فرج[٤].

أسرة الدماميني:

يرجع نسب هذه الأسرة إلى بلدة بصعيد مصر يقال لها (دمامين)[٥]، وتعود أصولها إلى قبيلة (مخزوم) القرشية[٦]، وكان أفراد هذه الأسرة من العلماء المالكية، ومن أبرزهم: **نجم الدين** عمر بن محمد بن سليمان الدماميني (ت٧٠٧هـ/١٣٠٧م)،

---

(١) ابن حجر: الدرر، ج٤، ص١٥٣ــ ١٥٤.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٦٢.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٦٢.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص١٢٩.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٥٦؛ على مبارك: الخطط التوفيقية، ج١١، ص٢٠، ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أنها تابعة لمديرية (قنا)، انظر الخطط،ج١١،ص٥١.

(٦) وورد ذلك في نسب الشرف الدماميني المتوفى سنة (٨٠٣هـ) انظر: ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣٦٢؛ والسخاوي : الضوء اللامع، ج٩، ص٦٣ ــ ٦٤؛ وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٨٢.

سمع الحديث بالإسكندرية، وحدث بها ووصفه الصفدي بأنه : (كان من تجار الكارم، وكان رئيسا له مكارم)[1]، اشتهر بالكرم إضافة إلى شهرته بالعلم، نزل أحد العلماء ضيفا عليه فأكرمه إكراما بالغا، فكتب على بابه لما ارتحل:

نزلت بدار نجم فاق بدرا   أدام الله رفعته وجاهه

فأعذب موردي وأطاب نزلي   وأهدى لي رياسته وجاهه[2].

ومن أبرز علماء هذه الأسرة **تاج الدين أبو بكر** عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي الدماميني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، كان رئيس تجار الكارم بالإسكندرية سمع الحديث وأشتغل بالفقه بقوص، وكان له ذكاء مكنه من حفظ (التنبيه)[3]، ثم استوطن الإسكندرية، وكان كثير العطاء، له مشاركات علمية، وبني مدرسة بالثغر بحي العطارين وأوقف عليها أوقافا كثيرة، تنقل وراء تجارته بالأقطار حتى وافته المنية بمصر[4] مخلفا وراءه ثروة عظيمة، منها مائة ألف دينار عينا[5]، وممن نبغ من هذه الأسرة **محمد بن أبي بكر** بن محمد بن سليمان المخزومي المالكي المشهور بابن الدماميني (ت٧٦٠هـ/١٣٥٩م)، وهو والد كل من شرف الدين وتاج الدين الآتي ذكرهما، وكان من كبار محدثي الثغر في زمنه، كما تولى أيضاً نظر الثغر [6]، ومنهم أيضاً **بهاء الدين** عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر الأسكندراني الدماميني (ت٧٩٤هـ/١٣٩٢م)، برع في الحديث وتفرد بالرواية وانتفع به الطلبة، كان فاضلاً ديناً له نظم ومعرفة[7]، ومن

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٦٥١.

(٢)الأدفوي: الطالع السعيد، ص٤٥٦؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٦٥١.

(٣) هو أحد كتب الشافعية المعتمدة، لأبي إسحاق إبراهيم الشيرازي (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، وعليه عمل المتأخرين من الشافعية، انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٣٩٥.

(٤)الأدفوي: الطالع السعيد، ص٣٦٠؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٢١٠؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٤٠؛ ابن حجر: الدرر، ج٢، ص٤٣٤، ج٣، ص٤٨؛ ابن تغري بردي: الدليل، ج١، ص٤٣٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٠.

(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٠٨.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة،ج٢، ص٣٥٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص٢٣٣.

هذه الأسرة أيضا **شرف الدين** محمد بن محمد بن أبي بكر الدماميني (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وهو ابن المحدث محمد بن أبي بكر، كان عالما فقيها أديبا، بارعا في الفقه والأصول واللغة والحساب حيث مهر فيه، وكانت له دراية تامة بالمباشرات، أهلته للعمل في ديوان الثغر، فتذكر المصادر أنه باشر نظر الأسواق بالثغر، ووكالة بيت المال، ونظر الكسوة، ونظر الخاص ونظر ديوان المفرد، وحسبة الثغر وحسبة القاهرة، وغير ذلك من الوظائف الديوانية بالإضافة لتوليه منصب قاضي قضاة المالكية، وخطابة الجامع الغربي، وقد جمع كتبا كثيرة، وكان محسنا إلى أصحابه، ذا خلق ورياسة ودربة وسياسة، رحمه الله تعالى(١)، ومن هذه الأسرة أيضا **تاج الدين** أبو بكر بن محمد بن أبي بكر تاج الدين الدماميني، تولى عدة مناصب منها قضاء قضاة المالكية بالثغر السكندري والحسبة بها، وولى نظر الجيش كأخيه واستمر في مباشرته حتى سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) بحكم استعفائه من الوظيفة(٢)، ومن أشهر علماء هذا البيت أيضا، **بدر الدين** محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، جمع بين العلم والتجارة، تفقه على يد علماء الإسكندرية، ومنهم بهاء الدين الدماميني، وقد برع بدر الدين في علوم اللغة والنحو والنظم والنثر والخط، وشارك في الفقه ومعرفة الشروط، وتميز بسرعة الإدراك ودقة الملاحظة، وجلس للتدريس بعدد ممن مدارس الثغر، وناب في الحكم عنه أحد أبناء آل التنسي(٣)، ثم انتقل إلى القاهرة وناب بها، وتصدر لتدريس النحو بالجامع الأزهر، ثم ذهب إلى الحج وعاد إلى الإسكندرية،

---

(١)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص١٢٩؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٨٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٦٣ـ ٦٤؛ ابن القاضي: درة الحجال، ص٤٣٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٨٩٤ـ ٨٩٥، ج٣، ق٣، ص٩٩٨؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص١١٠؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص١٦٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٦٩، ٦٧١.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٥١١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٢، ص٩٨ ـ ٩٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ١٨١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص١٥٠.

حيث اشتغل بالعلم والتدريس، وتولى خطابة جامعها الغربي، وعمل بصناعة الثياب الحريرية، واتسعت تجارته، وصار له دولاب نسيج متسع، ولكنه ما لبث أن وقع تحت طائلة الديون واحترقت داره وأفلست تجارته، ولزمه الغرماء، فقام إلى جواره بعض الأعيان حتى صلح حاله، ثم عين في قضاء المالكية بالقاهرة، وخرج للحج ومن بلاد الحجاز دخل اليمن سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)، وأقام بزبيد[١] لمدة عام، درس خلاله بالجامع الكبير بها واستفاد به علماء وطلبة العلم بالنحو، ومن نظمه في وصف العيش بزبيد قوله:

رعى الله مصرا إننا في ظلالها ... نروح ونغدوا سالمين من الجهد
وشرب مياه النيل فيها براحة ... وأهل زبيد يشربون من الكد [٢]

ثم سافر إلى الهند فراج أمره بها، وصار له دنيا عريضة، واستمر به الحال إلى أن مات مسموما بالهند مخلفا وراءه عدة مؤلفات[٣]، ومن أبناء هذه الأسرة الذين نبغوا في علوم شتى القاضي **جمال الدين** عبد الله بن محمد بن الدماميني (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، عرف بالجمال الدماميني، أخذ العلم من جده البهاء أحد أئمة الأدب والحديث،تولى قضاء الثغر مدة ثلاثين عاما إلى أن توفاه الله[٤].

---

(١) زبيد: اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب، ثم غلب اسم الوادي عليها فلا تعرف إلا به، وهي مدينة مشهورة باليمن، أحدثت في أيام المأمون، وبإزائها ساحل المندب، وينسب إليها جمع كثير من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٦، الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٤.

(٢) الأهدل: تحفة الزمن، ج٢،ص٢٦٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ١٨٤ ــ ١٨٥، القرافي: توشيح الديباج، ١٧٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٢٨ــ ١٢٩؛ الدليل الشافي ، ج٢، ص٥٨٣، ٥٨٤، وسيأتي بحث مؤلفاته في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

(٤)الصيرفي، ج٣، ص٤٢؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٤٩١؛ حوادث الدهور، ج١، ص٦٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٥٣؛ التبر المسبوك، ص٢٦ ــ ٢٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٢٨، ٢٣٣، العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٥٦.

ومن علماء هذه الأسرة أيضا: **أحمد** بن محمد بن ابي بكر بن عمر **المخزومي** السكندري (ت٨٦٠هـ/١٤٥٦م)، ولد بالثغر ونشأ به، وقرأ القرآن وتفقه على أبيه وغيره من علماء عصره، فبرع في الحديث والعربية والأدب، كان من فضلاء الثغر المشهورين بالخير والفضيلة[١] تصدر للتحديث بالثغر وبالقاهرة[٢].

أسرة بني وفا:

تنحدر هذه الأسرة من أصول مغربية، استقر أفرادها بالإسكندرية خلال العصر المملوكي، إلا أن شهرة هذا البيت بلغت أوجهها في القاهرة حيث نزل بها عميد هذه الأسرة **محمد وفا**(ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، وكان رجلا صوفيا من أقطاب الطريقة الشاذلية، ولد بالإسكندرية وتتلمذ على ياقوت العرش وغيره من صوفية الثغر، ورحل إلى أخميم حيث تزوج وصار له طلاب ومريدون ثم تحول إلى القاهرة يعظ بمساجدها وكانت له مشاركة في الأدب[٣]، وقد ظهر من أبناء هذه الأسرة من كان له مشاركة في العلوم، وإن غلب عليهم التصوف، فمنهم **أبو الحسن** علي بن محمد بن وفا المالكي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، جلس مجلس أبيه وكان له مشاركة في التفسير والأدب، وقد لمزه ابن حجر بقوله: (كان له نظم كثير واقتدار على جلب الخلق مع خفة ظاهرة)[٤]، وقال ابن العماد عنه: (وشعره ينعق بالاتحاد المفضي للإلحاد ، وكذا نظم والده)[٥]، وذكر عنه أنه جعل مسجداً في داره يصلي فيه ومن يصاحبه الجمعة، مع أنه مالكي المذهب والمالكية يرون أن الجمعة لا تصح إلا في المسجد العتيق[٦]، ومن رموز هذا البيت **شهاب الدين**

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٠٦.

(٢) السيوطي: نظم العقيان، ص٥٤.

(٣) ابن تغري بردي:الدليل الشافي،ج٢، ص٦٩٣ــ٦٩٤؛ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب،ج٦، ص٢٠٦.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، حوادث سنة ٨٠٧هـ ،ج٥،ص٢٥٦.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٧١ــ ٧٢.

(٦)ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٤.

أحمد (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، شقيق علي من أبناء محمد وفا، وكان قد غلب عليه الزهد والتنسك ولازم الخلوة وندر اجتماعه بالناس إلى أن وافته المنية(١)، وقد سار على نهجه عدد من أبنائه منهم **أبو الفضل** عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن أبي الوفا، وقد نهج طريق أبيه وجلس للوعظ، إلا أنه تميز ببراعته في الشعر حتى ذكره ابن حجر في معجمه وقال بأنه مدحه بأبيات شعرية(٢)، وذكر السخاوي أنه لو عاش لفاق أهل زمانه في ذلك، لأنه توفي غريقا في عنفوان شبابه في النيل عام (٨١٤هـ/١٤١١م)، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره(٣)

ومنهم أيضاً أبو الفتح محمد بن أحمد بن وفا السكندري المالكي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ثاني أبناء الشهاب أحمد، وأكثرهم علماً وفضلاً، حفظ القرآن وكتب في العلم وبرع في الشعر، وخطب في الناس بعد عمه علي بن محمد بن وفا، وصار أعلم بني وفا قاطبة وأشعرهم، وحضر مجلسه أكابر الدولة وأعيانها والأئمة والفقهاء ، فمن مقدمة من حضر مجلسه الظاهر جقمق قبل توليه السلطنة، توفي بالقاهرة وكانت جنازته حافلة ودفن بالقرافة بجانب آبائه(٤).

والذي يجدر ذكره هنا أن إدراجنا لهذه الأسرة ضمن الأسر العلمية بالإسكندرية كان مراعاة لبراعتهم في الأدب والشعر، لا من باب التصوف الذي لم نوليه اهتمامنا في هذه الدراسة لكونه مخالفة عقدية واضحة.

أسرة ابن الكويك:

أسرة عراقية تعود أصولها إلى مدينة تكريت(٥)، سكنت الإسكندرية وجمع أفرادها بين العلم و التجارة، وغلب عليهم التفقه على مذهب الإمام الشافعي، أسهم

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٨٠٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٩٦.

(٥) ابن حجر: المعجم المؤسس، ج٣، ص١٤٨

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٨٧، ،ج٢، ص٨٣٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٥٨ـ ٥٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٠٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥، ص٥٢٨ـ ٥٢٩؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٨٣٢ـ ٨٣٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٤٧ـ ٢٤٨؛ السيوطي: نظم العقيان ، ص١٣٧.

(٥) **تكريت** ، مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة، غربي دجلة ، قريبة من الموصل، نسبة إلى تكريت بنت وائل أخت بكر بن وائل،انظر :ياقوت:معجم البلدان ج٢،ص٣٩٩ ابن سعيد:الجغرافيا،ص١٥٧ـ١٥٨.

أفرادها بدور فاعل في تنشيط الحركة العلمية بالإسكندرية، ويأتي في طليعتهم القاضي **شهاب الدين** بن الكويك أحد تلامذة الإمام ابن دقيق العيد [١]، ومنهم أيضا **شمس الدين** محمد بن محمد بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم بن الكويك (ت٧١٤هـ/١٣١٥م)، نزيل الإسكندرية، اشتهر بالتجارة، وكانت له مبار كثيرة ومعروف بالمدينة[٢]، ومنهم **سراج الدين** عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم التكريتي ابن الكويك (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، ابن أخي شمس الدين، اشتغل بالتجارة وحدث بالثغر، وبرع في الفقه الشافعي، وفرق على كل من سمع عليه ديناراً ديناراً، عرف عنه أيضاً نظمه للشعر، كان فاضلاً عاقلاً، محباً للرحلة من أجل العلم أو التجارة، بنى مدرسة بالثغر، وهو والد كل من أبي جعفر وأبي اليمن المحدثين بالثغر السكندري[٣]، فأما **أبو جعفر** فهو محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن الكويك السكندري (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، ولد بالإسكندرية ونبغ في الحديث وصار من كبار محدثي الثغر، وناب في الحكم بالإسكندرية، وباشر نظر الأحباس، ثم انتقل إلى القاهرة مدرساً بأحد مدارسها وبها توفى[٤]، وأما **أبو اليمن** فهو محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد عز الدين ابن الكويك (ت٧٩٠هـ/١٣٨٨م)، مسند الثغر، تفقه به وحدث، وتتلمذ عليه المقريزي، وصاهر العز بن جماعة، وكان مسموع الكلمة عند القضاة[٥]، ومن شيوخه وجيهة بنت علي أخت منصور بن سليم[٦]، وبرز من علماء هذه الأسرة ابن أبي اليمن **سراج الدين أبو الطيب** محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن

---

(١) الادفوي: الطالع اسعيد، ص٥٩٥.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٢.

(٣)الادفوى: الطالع السعيد، ص٤٨٩؛ ابن حجر: الدرر ، ج٣، ص١٩٨؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٤١.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٤٤ـ ٤٥.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص١٤٣ـ ١٤٤؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٩١؛ ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب،ج٦،ص٣١٤.

(٦) ابن حجر: الدرر، ج٤، ص١٤٤؛ إنباء الغمر، ج١، ص٣٦١.

الكويك(ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، كان نابغاً في علوم الحديث، وحدث وروى[١]، ومن أبنائه أيضاً المحدث **شرف الدين** محمد بن أبي اليمن ابن الكويك السكندري الشافعي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، درس الحديث على علماء عصره حتى مهر فيه، وتصدى لإسماعه حتى آخر عمره، ومن أشهر من تلقاه عنه الإمام ابن حجر العسقلاني[٢]، لازم إسماع الحديث رغم كفاف بصره لكبر سنة، وافته المنية وهو في الرابعة والثمانيين من عمره[٣].

<u>أسرة ابن عرام:</u>

ترجع أصولها إلى مدينة أسوان[٤] أقصى صعيد مصر، استوطنت الإسكندرية واسهم كثير من أفرادها في تنشيط الحركة العلمية بالإسكندرية، منهم **تقي الدين** ابن عرام كان من محدثي الثغر المشهورين بالعلم والتقوى، وهو عم **بهاء الدين وتاج الدين**[٥]، **فأما بهاء الدين فهو** أحمد بن أبي بكر بن عرام الأسواني(ت٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، ولد بالإسكندرية، وتلقى بها علومه، وتولى نظر الأحباس، درس الفقه والعربية، ونظم الشعر وكتب النثر، وصفه الصفدي بأنه يجري في ميدان الأدب ولا يعثر[٦]، وأما **تاج الدين فهو** عبد الله بن أبي بكر بن عرام الشافعي الإسكندري (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، ، سمع الحديث وبرع في العربية، كان حفيداً لزينب بنت أبي الحسن الشاذلي، برع في اللغة والأدب[٧]، ومن نسائهم فاطمة بنت محمد بن أبي بكر بن عرام، حدثت بالإسكندرية وسمع منها خلق كثير[١]، ومنهم تقي الدين أبو عبد الله محمد بن بهاء الدين أحمد بن أبي

(١) وهو الابن الأصغر لأبي اليمن، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٧٢ـ ٧٣.

(٢) ابن حجر: ابناء الغمر، ج٣، ص١٨٨، وأرخ وفاته في سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م)، وكناه بأبي الطاهر؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص١١١ـ ١١٢.

(٣)الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٤٣٠ـ ٤٣١؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٤٧٥ـ ٤٧٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٥٥، الدليل، ج٢، ص٦٨٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٤١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٢.

(٤) الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص١٨٦.

(٥) الأدفوي: الطالع السعيد، ج٢، ص٢٥١.

(٦)الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص١٨٦؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص١١٩.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٥٦.

خلق كثير[1]، ومنهم تقي الدين أبو عبد الله محمد بن بهاء الدين أحمد بن أبي بكر بن عرام الشافعي (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، برع في علم الحديث بالإضافة إلى الفقه والعربية، قصده الطلبة للانتفاع بعلمه[2].

أسرة الغَرّافي:

تنسب هذه الأسرة إلى بلدة الغراف، وهو نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة[3]، وذكر العيني أن نسبها ينتهي إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه[4]، وقد نزل بالثغر السكندري جماعة من هؤلاء نبغ منهم أكثر من عالم خلال العهد المملوكي، منهم **الشريف أبو العباس أحمد** بن محمد بن عبد المحسن بن أبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب الواسطي الغرافي(ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، كان رجلاً فاضلاً محدثاً وتاجراً، نزل الإسكندرية وحدث بها[5]، كتب على كتاب "التنبيه" في الفقه شرحاً جليلاً استدل فيه بعدة أحاديث وخرجها، سماه "معتمد التنبيه على أحاديث مسائل التنبيه"[6]، ومنهم المحدث **تاج الدين** علي بن أحمد بن الحسين الغرافي (ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م)، وهو من أشهر رجال هذه الأسرة، حدث فأكثر الحديث، وحمل عنه الحديث وحُدِثَ به عنه في حياته، كان فاضلاً عالماً محدثاً مكثراً مسنداً مفيداً، يرتزق بالوراقة، فإذا حصل قوته لا يتجاوز، درس بالمدرسة النبيهية وارتحل إليه طلاب الحديث، والعلم عامة للأخذ منه[7]، ومن أفراد هذه الأسرة أيضاً **عز الدين** إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن عز الدين

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص١٠٠.

(٢)الأدفوي: الطالع السعيد، ص٧٤؛ البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢١٠.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٦،ص٢٧٣

(٤) العيني: عقد الجمان، ص٣٦، ٣٧.

(٥) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٤٩٣.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٧، ص١٤٢؛ العيني: عقد الجمان، ص٣٦، ٣٧؛ المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٥٠٩.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٣٩؛ العامري: غربال الزمان، ص٥٧٨.

الأسرة أيضا **عز الدين** إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن عز الدين العلوي الغرافي الاسكندري الشافعي (ت٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، ولد بالإسكندرية، وهو أخو تاج الدين يصغره بعشر سنين، سمع بدمشق وحلب، وهو ابن بضع وعشرين سنة، وصف بأنه زاهد، وولي بعد أخيه مشيخة دار الحديث النبيهية[١].

<u>**أسرة منصور بن سليم:**</u>

من الأسر المعروفة بالثغر، اشتهرت باسم المحدث **وجيه الدين** أبي المظفر الهمداني منصور بن سليم بن فتوح الملقب **بابن العمادية** (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، قال عن نفسه إنه: (سمع الحديث بالإسكندرية وبمصر ودمشق وحلب والموصل والعراق ومكة، ومولده بالإسكندرية سنة سبع وستمائة)[٢]، ووصفه اليونيني بأنه: (الفقيه العالم المحدث الفاصل)[٣]، ووصفه الذهبي بأنه الإمام المحدث الذي لم يخلف بعده مثله)[٤]، ولد بالإسكندرية وسمع من جماعة وحدث ودرس بها، وجمع وصنف وخرج وحدث، وكان حافظا صالحا حسن الطريقة جميل السيرة، محسنا إلى من يرد إليه من الطلبة، حسن الأخلاق لين الجانب[٥]، وقد ولي ابن العمادية الاحتساب بثغر الإسكندرية[٦]، وقد ذكر الذهبي جملة ممن أخذ عنهم الحديث من شيوخه وجملة من تلاميذه[٧]،ورحل إلى بغداد وأقام بها مدة حيث درس على يديه عدد من علماء النظامية وعدد من علماء بغداد بلغوا ٧٦ عالما و٢٦ عالمة،

---

(١)الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٤٩ـ ٥٠ ؛ الوافي بالوفيات، ج٥، ص٣١٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص١٠؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٤٠ـ ٤١، ج٦، ص٨٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٠.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج١، ص٣٤٨، وقد حدد اليافعي مولده بأنه في الثامن من صفر بالإسكندرية، انظر: اليافعي، حسن بن إبراهيم:جامع التواريخ المصرية، لوحة٢١٦، حوادث سنة ٦٧٣هـ.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص١٠٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٤١، ١٤٢.

(٥) المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٧.

(٦) اليافعي : جامع التواريخ المصرية، لوحة٢١٦، حوادث سنة ٦٧٣هـ.

(٧)الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٤٢.

وتصدر كذلك التدريس بالمدرسة المستنصرية بها، ورحل إلى طلب العلم في أقطار عدة منها حماة والموصل ودمشق وحلب وحران، ومكة[١] صنف المعجم والأربعين البلدانية وتاريخ الإسكندرية، وله ذيل على ابن نقطة فيما ذيله على كتاب الأمير ابن ماكولا[٢]،وقد توفي في ليلة الحادي والعشرين من شوال سنة٦٧٣هـ بالإسكندرية[٣]، وممن برز من أسرته أخته لأمه المحدثة وجيهة بنت علي بن يحيى بن سلطان الأنصارية الصعيدية ثم الإسكندرية (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، سمعت الحديث من جماعة من العلماء، ووصفت بأنها سمعت كثيراً، وأجاز لها جماعة ، وخرج لها بعض أهل الحديث مشيخة، وسمع منها الذهبي وغيره[٤]، وأما والد وجيهة فهو **أبو الحسن** علي بن يحيى بن علي بن سلطان الصعيدي الإسكندراني المؤدب، كان محدثاً سمع منه الذهبي الكثير من المرويات، توفي بعد سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)[٥]، ومن أفراد هذه الأسرة **عبد الرحمن** بن سليم بن منصور الهمداني ابن العمادية الشافعي (ت٦٩١هـ/١٢٩١م) أخو وجيه الدين، وأحد أعيان الإسكندرية، سمع من ابن رواج والصفراوي والهمداني وسبط السلفي[٦]، كما اشتهر من هذه الأسرة **أبو القاسم الهواري** ، أخو وجيه الدين لأمه كان من محدثي الثغر، وسمع منه الذهبي[٧].

أسرة ابن رشيق:

من علمائها **علم الدين** محمد بن الحسين بن عتيق بن رشيق الربعي

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٦٧؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص١٧٢، ١٧٥.

(٢) اليونيني: الذيل، ج٣، ص١٠٣؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص١٧٢، وقد طبع هذا الذيل بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى باسم (ذيل تكملة الإكمال).

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية، لوحة٢١٦، حوادث سنة ٦٧٣هـ.

(٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٦٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٣٢٥.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٣٠٨؛ ابن الجزري: غاية النهاية، ج١، ص٥٨٤.

(٦)ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٧٧.

(٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٦٧.

المالكي (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م)، كان من فضلاء الثغر وعلمائه، تولى قضاء الثغر وحسنت سيرته[١]، وصفه ابن فرحون بأنه: (كان من سادات المشايخ ، جمع بين العلم والعمل والورع والتقوى)[٢]، وهو والد الفقيه **زين الدين** أبي القاسم محمد بن محمد بن عتيق بن رشيق المالكي الإسكندري (ت٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، كان من علماء الإسكندرية المشهورين بغزارة العلم، برع في الفقه وقرض الشعر، تولى قضاء الإسكندرية مدة ١٢ سنة، عرض عليه قضاء الشام فامتنع[٣].

أسرة آل ابن حجر:

فمنهم: **عثمان بن محمد** بن علي بن أحمد بن محمود الكناني العسقلاني[٤] (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)، **أشتهر بابن حجر وابن البزاز**، سكن الإسكندرية، وانتهت إليه رئاسة الافتاء في المذهب الشافعي، وتفقه به جماعة، ومن أسرته **ناصر الدين أحمد الفقيه**، وهو عم ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)[٥].

أسرة ابن خير السكندري

من علماء هذه الأسرة البارزين جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن خير الأنصاري الإسكندراني المالكي (ت٧٩١هـ/١٣٨٩م)، ، تولى نيابة الحكم والقضاء بالإسكندرية، برع في المذهب المالكي وتصدر لتدريسه للطلبة، ندب لتولية القضاء بالقاهرة فباشره بعفة ونزاهة[٦]، ومنهم ابنه ولي الدين أحمد بن عبد

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٨؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٤٧.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٣٢٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢١٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٨.

(٤) نسبة إلى **عسقلان**: وهي مدينة بفلسطين، يقال لها عروس الشام، نزلها جماعة من الصحابة، ولم تزل عامرة حتى استولى عليها الإفرنج، فحررها صلاح الدين، وخربها لئلا يستخدمها الفرنج ضد المسلمين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٦، ص١٧٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٠.

(٥)ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٦٤.

(٦) ابن حجر: رفع الأصر، ج٢، ص٢٤١؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٠٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٨.

الرحمن بن محمد بن خير الإسكندراني المالكي (ت٧٩٣هـ/١٣٩١م)، برع في الفقه، وقام بتدريسه للطلبة، وانتفع به خلق كثير، انتقل إلى القاهرة وتصدر للتدريس في كثير من مدارسها[١].

أسرة ابن البوري:

ومن علمائها جمال الدين محمد بن أحمد بن هبة الله الأموي الإسكندري المعروف بابن البوري، كان من فقهاء الثغر المشهورين (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م) بالإسكندرية[٢] وقد نبغ من أفراد هذه الأسرة ابن أخيه محمد بن علي بن أحمد بن هبة الله الأموي المعروف أيضاً بابن البوري (ت٨٠٢هـ/١٣٩٩م)، درس علم الحديث على علماء عصره، فبرع فيه وتصدر له[٣].

أسرة الشمني:

تعود جذورها إلى(شُمنة)، مزرعة بقسنطينة من بلاد المغرب، ولد بها عالمنا كمال الدين محمد بن حسن بن محمد بن خلف الله الشُمني، ثم رحل إلى الإسكندرية واستوطنها وسمع بها الحديث من عدد كبير من علمائها، ثم تصدر لتدريسه على الطلبة، صنف فيه مؤلفات مفيدة، توفي سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)[٤] وقد خلفه في العلم ابنه تقي الدين أبو العباس أحمد بن كمال الدين محمد الشمني الدنفي السكندري (ت٨٦٨هـ/١٤٦٣م)، كان من أئمة علماء الفقه والحديث بالثغر، برع في الفقه والتفسير، صنف الكثير في علوم شتى[٥].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص١٦٨.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٧١.

(٣)المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٢٥٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٠٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص١٦٧.

(٤) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٤٣١.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٧٤ـ ٤٧٥؛ السخاوي: الذيل على رفع الأصر، ص٢٠٦.

موارد الإنفاق على التعليم

تباينت **موارد الإنفاق على التعليم** خلال العصر المملوكي ما بين وقف أو هبة أو صدقة، أو إنفاق من جهة الدولة، إلا أن الوقف كان المصدر الرئيس لذلك وهذا واضح في بعض المدارس بمصر المملوكية التي خربت لتعطيل أوقافها، كما ذكره المقريزي وغيره[1]، ويرى بعض الباحثين أنه بدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقوم قائمة للدراسة في ذلك العصر، وأن ريع الأوقاف هو المصدر الأساس والوحيد لغالبية مدارس ومكاتب الأيتام في العصر المملوكي[2]، ومن هنا كان الحديث لزاماً على الوقف والحبس في هذا العصر.

١- الأوقاف أو الأحباس

الوقف في **اللغة** هو الحبس، يقال: وقف يقف وقفاً، أي حبس يحبس حبساً[3]، وفي **الاصطلاح** هو: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة[4]، أي التصرف في ريع العين وما تدره من مال مع بقاء العين ذاتها وجعل منفعتها لجهة من جهات البر، وهي بهذا تخرج عن ملك صاحبها وتسبل منفعتها بجعلها مبذولة على وجه القربة لله سبحانه وتعالى[5]، والأصل في ذلك عموم قوله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}[6]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له))[7].

---

(١) كالمدرسة الخروبية ومدرسة إينال والمحلى،انظر:المقريزي: الخطط،ج٢،ص٣٦٨،ج٢، ص٤٠١.

(٢) محمد أمين: الأوقاف، ص٢٤٠.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٤٨٩٨.

(٤) ابن قدامة: المغني، ج ٨، ص ١٨٤.

(٥) عبد العزيز الداود: الوقف وشروطه وخصائصه ، ص١٠٧، مجلة أضواء الشريعة، كلية الشريعة، جامعة الأمام محمد بن سعود، العدد ١١، ١٤٠٠هـ.

(٦) آل عمران، آية، ٩٢.

(٧) مسلم : الجامع الصحيح، في كتاب الوصية، ج٣، ص١٢٥٥ (ح١٦٣١).

وقد أجمع الجمهور من أهل العلم على جواز الوقف واستحبابه، وأنه مندوب مرغب فيه[1]، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف أصحابه المساجد

والأرض والآبار والحدائق والخيل، فعن أنس رضى الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأمر ببناء المسجد قال: ((يابني النجار: ثامنوني بحائطكم هذا؟، فقالوا: والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، أي فأخذه فبناه مسجداً))[2].

وأخرج البخاري أن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماله بخيبر فقال له ((إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها))[3]. أي يوقف أرضها ويجعل ثمرتها في وجوه البر من صلة و صدقة.

والوقف بهذا ينقسم إلى قسمين:

١ ـ وقف أهلي وذري، وهو ما تكون منافعه للأولاد والأحفاد والذرية، ومن بعدهم إلى جهة خيرية.

٢ ـ وقف خيري، وهو ما تصرف نفقته على جهة بر ابتداء كمساجد ومدارس وغير ذلك[4].

ورغم أنه لا فرق بين الوقف والحبس: فالوقف والحبس اسمان لمسمى واحد، فالوقف لغة هو الحبس كما تقدم، والفقهاء يعبرون تارة عن الأوقاف بالأحباس وبالعكس، كما يترجم المحدثون أبواب كتبهم بذلك فيعقد الإمام النسائي

---

(١) أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، ص٣٩٨.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب الصلاة، ص٩٢ (ح٤٢٨)، وكتاب الحج، ص٣٧٠ (ح١٨٦٨)، وكتاب الوصايا، ص٥٦٣،٥٦٤ (ح٢٧٧١،٢٧٧٤،٢٧٧٩)؛ وأخرجه مسلم : الجامع الصحيح، في كتاب المساجد، ج١،ص٣٧٣ (ح٥٢٤) .

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، في كتاب الوصايا، ص٥٦٣ (ح٢٧٧٢)؛ مسلم : الجامع الصحيح، في كتاب الوصية، ج٣،ص١٢٥٥ (ح١٦٣٢) .

(٤) سيد سابق: فقه السنة، ج٣، ص٣٧٩؛ محمد أمين، الأوقاف، ص٢٩.

في سننه كتابا عن (الأحباس)[1] ويذكر فيها نصوص الوقف، **إلا أنه في العهد المملوكي ظهر فرق إداري** بين الأوقاف والأحباس، فصار اسم الأوقاف يطلق على الأوقاف الخيرية على الحرمين وجهات البر، وكانت تحت إشراف قاضي القضاة، وكذلك تطلق على الأوقاف الأهلية، وتطلق ثالثا على الأحباس وهي (الرزق) التابعة لديوان الأحباس وهي الأراضي الزراعية التي يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية إلى بعض الناس[2] ويصرف ريعها إلى مستحقيها ويتوارثها الخلف عن السلف، أو تنحل بانقراض المستحقين وتعود إلى الديوان الذي خرجت منه [3].

وأما الأوقاف الحكمية وهي الأوقاف الخيرية التي لا يدخل فيها وقف أهلي فكانت في الدولة المملوكية تحت إشراف قاضي القضاة مباشرة، وتصرف على الأشراف والفقهاء والصوفية والفقراء والقراء والأسرى وابن السبيل والمريض والمجنون وتجهيز الموتى وأسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة المساجد ومصالح المدارس والأربطة والخوانق[4]، ومنذ عام (٧٨٥ هـ/١٣٨١م) أي في عهد السلطان برقوق أصبح السلطان يقوم بتعيين نظار الأوقاف بنفسه، وأما الأوقاف الأهلية فكان يقوم بنظارتها واقفها أيام حياته ثم الأرشد فالأرشد من أولاده، وتكون تحت نظر قاضي القضاة الشافعي في الأغلب[5].

وقد ازدهر الوقف ازدهارا كبيرا في العصر المملوكي، وقد يعزى ذلك لعدة أمور لعل من أهمها:

---

(١) النسائي: السنن، ج٦،ص ٢٢٩-٢٣٧.

(٢) يذكر القلقشندي أن نظر الأحباس أصله أراضي اشتراها الإمام الليث بن سعد وأوقفها على جهات البر ثم تبعه الناس في إضافة الأوقاف حتى عهد الظاهر بيبرس، الذي افرد للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقا وجعل له متحدثا وهو ناظر الأحباس، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٣) محمد أمين: الأوقاف، ص ١٠٨ــ١٠٩.

(٤) محمد أمين: الأوقاف، ص ١١٣.

(٥) محمد أمين: الأوقاف، ص ١١٦.

رغبة الدولة في نشر المدارس السنية لمنع أي اتجاه في تنشيط الاتجاهات الشيعية بعد أفول نجم الفاطميين الشيعة، ولا شك أن هذه المدارس تحتاج إلى أموال كثيرة في جهات صرفها من مرتبات للناظر والمدرسين والطلاب ونحو ذلك، فقام الوقف بسد هذه الحاجة، وصار السلاطين والأمراء وغيرهم يوقفون الأراضي الزراعية والدور والحوانيت والخانات والحمامات والمجازر والمعاصر وغير ذلك [١].

ما ذكره بعض الباحثين أن من أسباب انتشار الوقف هو حفظ الأموال من المصادرات التي كثرت في عهد المماليك لمن تغضب عليه الدولة، فيصادر السلطان الجديد رجال السلطان الراحل وحاشيته، فوجد سلاطين المماليك ورجال دولتهم في نظام الوقف حماية لأملاكهم وتأمين أموالهم من المصادرات، وحتى في بعض الحالات التي حاول فيها السلاطين التسلط على الوقف، ويتركون منه ما يكفي للقيام بالشعائر الدينية، ويستولون على الفائض، وجدوا معارضة شديدة من بعض القضاة والفقهاء [٢].

وإن كان في اعتقادنا أن هناك بعض الحوادث الفردية التي تدل على أن هناك من لجأ للوقف حماية لماله، أما أن يكون هذا شعوراً عاماً لدى أصحاب الوقف سواء من المماليك أو غيرهم ففيه نظر، وعلى فرض صحته، فإنه يعكس صورة أخرى وهي مدى خوف سلاطين وأمراء المماليك من القضاة والفقهاء، أو بمعنى آخر مدى قوة السلطة القضائية التي تجعل السلاطين أو الأمراء يخافون من تغيير الوقف حتى لا يحدث مصادمة ظاهرة للشريعة [٣]، في حين لا يبالون بمصادرة الأموال أو الممتلكات الغير موقوفة.

---

(١) انظر وقفية السلطان الناصر محمد بن قلاوون على خانقاة سرياقوس، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٢٨.

(٢) محمد أمين : الأوقاف ص ٧٢ ، ٨٢ ، ٩١ .

(٣) وهناك أمثلة كثيرة من معارضة الفقهاء للسلاطين ذكر بعضها محمد أمين في كتابه الأوقاف، ص ٣٦٩ ، وما بعدها ، ومن أطرفها أن القاضي **سراج الدين** الهندي أغلظ على **ألجاي يوسف** ناظر الأوقاف لما استكثر معلوم التدريس وذكر أنه يأخذه لحفظ بلاد المسلمين فقال القاضي قاضي القضاة له(ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء فسكت)، بل نستطيع أن نقول إنه

إعفاء الأوقاف من الضرائب[1]، ولا أظن أن هذا عاملا كبيرا، فليست الضرائب المفروضة في زمن المماليك باهظة جدا حتى يلجأ من يلجأ إلى الوقف ويكون هذا دافعا وحيدا لذلك.

وقد سار سلاطين المماليك على نهج الأيوبيين بالاستمرار في دعم الحركة العلمية بالموارد المالية من خلال الأوقاف، لذا أوقفوا الأوقاف الكثيرة على الثغو سواء على الأربطة والخانقاة أو المدارس أو من خلال المساعدات المادية والعينية لطلاب العلم به، فعلى سبيل المثال كان الخليفة **المستعين بالله** والذي سكن الإسكندرية وتوفي بها كثير الخير والإحسان[2]، أيضا قام السلطان قايتباي بإنشاء مدرسة بالثغر وأوقف عليها ما يكفيها من نفقات للمدرسين والطلبة والمتصوفة والأيتام والعميان[3]، كذلك أنشأ **قايتباي** (سنة ٨٨٤ هـ/١٤٧٩م) القلعة أو البرج بالإسكندرية حتى لا تطرق الفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به، وأجرى عليهم الرواتب في كل شهر، وأوقف عليه الأوقاف

القاضي قاضي القضاة له(ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء فسكت)، بل نستطيع أن نقول إنه كان هنالك الكثير من السلاطين من يتورع عن أخذ مال الأوقاف بدليل أن السلطان طومان باي حين منى جيشه بالهزيمة على أيدي سليم العثماني طلب من مماليكه الخروج للأخذ بالثأر فرفضوا إلا إذا دفع لهم نفقة، وحسنوا له الأخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والإقطاعات ليستعين بها على النفقة ومحاربة الجيش العثماني، لكن قايتباي لم يوافق وقال: ما أحدث في أيامي هذه المظلمة أبداً، فشكره الناس على ذلك ودعوا له. انظر في ذلك: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٧.

(١) محمد أمين: الأوقاف، ص٩١.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٢٠٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٢٩؛ لقد قام السلطان قايتباي بإنشاء المدارس بمصر والقدس ودمشق، وبمكة، ولما كانت المعلومات التي بين أيدينا والتي تخص مدرسته بالإسكندرية ليس فيها سوى الإسم فقد ، فقد استعنا بما كتبه الحارثي في رسالته عن مدرسة قايتباي بمكة ، باعتبار أن منشئ تلك المدارس شخص واحد، وأن نظم التعليم كانت واحدة في ذلك الزمان، انظر: عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والشام، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، ج١: ص٢٢٥ـ ٢٧٣.

الجليلة[1]، ومما هو جدير بالذكر أن القلعة تحتوي بداخلها مسجدا له إمام وخطيب ومؤذن وخادم وغير ذلك، وهؤلاء لا بد وأن لهم رواتب شهرية تصرف عليهم غير الهبات العينية والتي انتشرت كثيراً في هذا العصر والتي تتضمن الخبز واللحم وغير ذلك[2].

كذلك قام السلطان **قايتباي** سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) ببيع قطعة أرض من أملاك بيت المال بظاهر الثغر السكندري تجاه باب رشيد للأمير قجماس الإسحاقي نائب الثغر لينفق ثمنها على المجاهدين والمرابطين بالثغر[3]، **ومما هو جدير بالذكر أن الأمير قجماس الإسحاقي** - نائب السلطان بالإسكندرية - قام بإنشاء رباط على بحر السلسلة (أودع فيه الأسلحة والأقوات وما يلزم المرابطين فيه)[4] وأوقف الأوقاف على هذا الرباط ومنشآته الأخرى وعلى نفسه وذريته بعض الأملاك [5]، **كذلك عُرِفَ نائب الإسكندرية** الأمير **سيف الدين بكتمر**، بأنه صاحب الأوقاف في بلدان شتى[6]،وكذلك الحال بالنسبة **لخليل ابن عرام الذي اشتهر خلال ولايته** الإسكندرية بمساعدته لطلبة العلم والعلماء، خاصة في أوقات الأزمات التي تمر على الثغر كالغلاء أو القحط ونحوها، فقد أمد سكان الإسكندرية وخاصة العلماء والفقراء **بأسمطة ممدودة** في بعض سنين الغلاء كعام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) وعام (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)[7]، كما **بنى** الأمير **يشبك بن مهدي** الدوادار الكبير في طرف المدينة **برجاً** في موقع مناسب يمكن من خلاله استخدام المدافع لضرب سفن العدو عند محاولتها مهاجمة المدينة، **وقد أوقف** الأمير **يشبك** على هذا **البرج** أراضي كثيرة، وجعل من مصارف وقفه ما يصرف على أرباب الوظائف

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ، ج٣، ص١٥٦، ٣٢٩؛ محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٢٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٦٥؛ محمد أمين: الأوقاف، ص١٨١.

(٣) محمد أمين: وثائق من عصر سلاطين المماليك، ص٣٩٧.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص ٢١٢؛ محمد أمين : الأوقاف، ص ٢٢٦.

(٥) محمد أمين: الأوقاف، ص ٢٢٦.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص١٢٠.

(٧) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٣٧٦ـ ٣٧٧.

والمقاتلة والعدة التي ترصد للجهاد في سبيل الله تعالى كما جاء بوثيقة الوقف والتي حددت المرتب الخاص بكل فرد يعمل في هذا البرج[١].

كما **شارك كبار التجار** ومحبو العلم **السلاطين والأمراء** بإنشاء العديد من المدارس بالثغر وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، كمدرسة ابن الكويك وابن حباسة والسراجية وابن الدماميني فقد ذكر الأدفوي أنه أوقف عليها أوقافا كثيرة[٢]

ولقد تعددت مصارف الوقف في العهد المملوكي، ويهمنا هنا ما يصرف على الحركة العلمية في الإسكندرية، حيث كانت مصروفات الوقف تقسم إلى **عمارة المساجد والمدارس والأربطة** وما يلحق بها من مساكن وغيرها، وإلى **أجور العاملين** بالمساجد والمدارس والأربطة، من إداريين ومدرسين ومستخدمين بالإضافة إلى **النفقات الاحتياطية** للمدرسة أو الجامع أو الربط، أو ما ينفق في وجوه البر[٣].

وكان **الناظر للوقف** هو المسؤول الأول عن الإشراف على هذه المباني وموظفيها، وعمارة أوقافها، وإجاراتها وقبض أثمانها وصرفها وفق شرط الواقف ويحدد له بموجب ذلك أجر سنوي تحدده الوقفية[٤]، وقد كان الناظر منذ القرن

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٣٧٧.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد، ص٣٥٥ــ ٣٦٠، ولمزيد من التفصيلات عن هذه المدارس انظر الفصل الثالث فيما يلي، ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٣) انظر وقفيات السلطان الناصر حسن ، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ٣١٤؛ محمد أمين: الأوقاف، ص١٨٤، ٢٥٣.

(٤) جاء في وقفية السلطان حسن أجر الناظر بنحو (١٠٠٠ درهم) نقرة، ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٦٤، والدرهم النقرة كان على عهد السلطان الظاهر بيبرس، وكان عياره الثلثان من فضه والثلث من النحاس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٦٤٢، ٦٤٣، ثم ظهر في عهد الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ، الفلوس الجدد وكانت من النحاس الأحمر، وفي عهد المؤيد شيخ ظهرت الدراهم الفضة المؤيدية ، وكانت عبارة عن مسكوكات صغيرة الوزن من الفضة أرباع وأنصاف، المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٣٠٧؛ محمد أمين: ص٢٩٧. ولقد اعتمدنا في مبحثنا هذا على وقفيات كانت الأجور فيها بالدرهم النقرة حتى لا يحدث لبس، واضعين في الاعتبار أن هذه الأجور تختلف من عصر لآخر ومن مكان لغيره.

الثالث الهجري من القضاة المالكية واستمر هذا الأمر حتى عهد السلطان برقوق حيث عين على الثغر ناظرا حنفيا وهو همام بن عبد الواحد السيواسي[١]، وممن تولى نظر الأوقاف بالإسكندرية القاضي ناصرالدين ابن المنير [٢]

أما المدرس فتختلف جامكيته او راتبه والمخصصات التي يأخذها على حسب علمه الذي يقوم بتدريسه من فقه، أو قرآن أو حديث أو نحو إلى غير ذلك[٣]، هذا بخلاف ما يكون من مزايا عينية وهبات سنوية في المناسبات كرمضان[٤]، وكان يقرر **للمعيد** عادة نحو ثلث ما يقرر للمدرس[٥]، **أما الطلبة** فيختلف عددهم من مدرسة لأخرى، كما يختلف ما **يكلفون** به من مهام، فقد كانت المدارس تكلف طلبة لقراءة القرآن أو الحديث في أوقات معينة، ويقرر لهم عادة نحو نصف ما يتقاضاه المعيد[٦]، **وسائر الطلبة يتقاضون** نحوا من نصف ما يقرر للطلبة المكلفين[٧]، كما أن هناك من جملة الطلاب من يكلف بمهمة **(النقيب)** الذي يضبط غياب الطلاب ويزيد ما يأخذه عن سائر الطلاب المكلفين بنحو العشر إلى

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ٦٣؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص١٢١؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٣٦.

(٢) الداوودي: طبقات المفسرين، ج١، ص٨٨ـ ٨٩.

(٣) فعلى سبيل المثال حددت وقفية السلطان الناصر حسن والأمير صرغتمش مبلغ ثلاثمائة درهم نقرة شهرياً لكل مدرس من مدرسي الفقه أو الحديث أو التفسير، و١٥٠ درهماً شهرياً لمدرس القراءات. ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٦٠ ، سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص١٥٧، ١٥٨.

(٤) ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ٣٦١.

(٥) حددت له وثيقة السلطان حسن ووثيقة صرغتمش مائة درهم نقرة شهرياً، ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٥٧. سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص١٦١.

(٦) فقد حدد له ٥٥ نقرة شهرياً، سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٦٤.

(٧) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٦٥، وقد حدد لهم في وثيقة السلطان حسن لطلاب التفسير عشرون درهماً نقرة، ولطلاب الحديث نحو ذلك، وللطلاب المبتدئين في الفقه ثلاثون، ويزيد معلوم طلاب الفقه حسب ازدياد معرفتهم.

الخمس[1]، **وأما خازن الكتب** فقد كان يصرف له على نحو ما يصرف للطلبة المكلفين أو للمعيد[2]، وأما **خادم المدرسة** القائم على شؤون تنظيفها ونحو ذلك فمخصصه الشهري ما بين ما يأخذ المكلف من الطلبة وما يأخذه المعيد[3] .

كما خص قراء القرآن والحديث ببعض هذه الوقفيات[4] ومن ذلك المدرسة التي أنشأها عثمان بن الظاهر جقمق في الإسكندرية ظاهر باب البحر ودفن أمه في قبة بها ورتب عندها قراء لليالي الجمع وإسماع الحديث في أيامها سوى قراءة في كل يوم[5]

كذلك حوت بعض المدارس على مدرس **للطب** ويستحق نصف ما يأخذه مدرسو الفقه أو التفسير أو الحديث، أما **مدرسو أصول الفقه واللغة العربية والمواقيت وعلم الهيئة**، فيستحق كل منهم ثلث مما يتقاضاه مدرس الفقه[6].

كما أشارت وثائق الوقف الصرف على الكتاتيب الخاصة بالأيتام، فكان المؤدب يتقاضى نحواً مما يتقاضاه طلبة المدارس[7]، وكان يختار من هؤلاء الطلبة عدد معين لتعليمهم القرآن والخط العربي ويصرف لكل منهم مبلغ معين شهرياً قد يصل إلى ضعف ما يتقاضاه طلاب المدارس أحياناً[8]، كما يصرف لهم

---

(١) في وثيقة صرغتمش أنه يأخذ ٥ إلى ١٠ دراهم عن ما يأخذه الطلاب المكلفون. سامح عبد الرحمن، السابق، ص١٦٨.

(٢) أي ما بين ٥٠ ــ ١٠٠درهم نقرة شهرياً، كما في وثيقة صرغتمش والسلطان حسن السابق،ص١٨١.

(٣) إلى ما بين ٥٠ ــ ١٠٠ درهم نقرة، حسب ما جاء في المصدر السابق، ص٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) حددت وثيقة الناصر حسن ما يصرف لهم ما بين ٤٠ إلى ٥٠ درهم نقره، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ٣٦٠، ٣٦٢.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٨، والذي لا شك فيه أن هذه الظاهرة واحدة من البدع التي انتشرت في المجتمع المملوكي آنذاك، ولا تزال أثارها قائمة حتى اليوم.

(٦) محمد أمين: الأوقاف، ص٣٦١ــ ٣٦٤.

(٧) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ص١٨٨.

(٨) ويرجع السبب في ذلك إلى كون الأيتام ليس لهم من يصرف عليهم بعكس طلاب المدارس الذين لهم ذويهم أو أملاكهم.

عند ختم القرآن نحو من ضعف الراتب الشهري[١]، وكان لهؤلاء الأيتام **عريف** ينال نصيباً من هذه الوقفيات[٢]، كما أشارت هذه الوثائق إلى أنه كان يصرفُ لهم في أول شهر رجب، وفي النصف من شعبان، وفي عيدي الفطر والأضحى من البندق والكعك والتمر وغير ذلك[٣]، مما يدل على أن الوقفية كانت تراعى سن المتعلم ولا تحرمه مما يحتاجه.

وربما كان من مخصصات الوقف **رسم الضيافة**، فقد ذكر البلوي في رحلته أنه لما نزل بالمدرسة السراجية وأنه كان يطعم بها كل شيء، ولم ينقصه حتى الخل والزيت[٤]، كما ذكر العبدري أنه لما نزل بمدرسة الغرافي نال من بره وتأنيسه ما جعله يدعو الله أن يكافئه به[٥].

كما شملت هذه الوقفيات مخصصات للقائمين على **الوظائف الدينية** بالمساجد **كالإمام** والذي كان يسكن بملحق بالمسجد[٦]، و**الخطيب** والذي خصص له بالمسجد خلوة لإعداد الخطبة[٧]، و**المؤذن** والذي كانت وظيفته مرتبطة بكل مسجد، وإن كانت بعض المساجد الكبرى رتبت عدداً أكبر من المؤذنين [٨]، كما كان بالمساجد مقررات **لمجمر المبخرة** و**الوقاد** الذي يقوم بإيقاد الشموع[٩]،

---

(١) سامح عبد الرحمن: القيم النقدية، ١٨٨ ــ ١٨٩.

(٢) كان نصيبه لا يتجاوز ٤٠ نقرة، انظر وقفية السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٦٤.

(٣) سامح عبد الرحمن: السابق، ص١٨٩.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٦٨.

(٥) العبدري: الرحلة، ص٢٣٥.

(٦) كان يتقاضى حوالي ١٠٠نقرة شهريا،انظر:وثيقة السلطان حسن، ابن حبيب:تذكرة النبيه،ج٣،٣٦١.

(٧) خصص له ثلاثمائة درهم نقرة شهريا انظر: وثيقة وقف السلطان الناصر حسن ، ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٥٧.

(٨) خصص له ٤٠ درهم نقرة شهريا، وثيقة وقف السلطان الناصر حسن، ابن حبيب: التذكرة، ج٣، ص٣٦٢، محمد أمين: الأوقاف، ص١٩١.

(٩) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤١١.

والمزملاتي الذي يطوف بالماء لسقيا المدرسين وطلبة العلم[1]، بالإضافة إلى رواتب ومخصصات عينية **للفراش والبواب والكحال والطبيب**[2].

وممن اهتم بالأوقاف من علماء الثغر القاضي محمد بن علي بن عبد الوهاب المعروف بابن أبي الفرج (ت٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، فقد جاء في ترجمته أنه وأهله كانوا مهتمين بالآثار الجميلة والأوقاف وأوجه الخير[3].

كذلك خضر بن أبي بكر والذي بنى بالثغر المدرسة الخضراء وأوقف عليها أموالا وأوقافا كثيرة[4].

ـ الهبات والصدقات:

لقد تنافس علماء الإسكندرية في توزيع الهبات والعطايا على طلبتهم وخاصة في المناسبات كشهر رمضان، فقد كان الشيخ المحدث معين الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين الشافعي غاية في الجود والكرم لطلبة العلم خاصة الوافدين على الإسكندرية فمنهم البلوي أحد أولئك الطلبة الذين عاشوا من أعطيات هذا الشيخ الجليل والذي ضاعفها في شهر رمضان[5]، وإلى جانب ذلك تكفل بعض علماء الإسكندرية بنفقات طلبتهم طوال مدة إقامتهم بالإسكندرية، كما فعل

(١) النبراوي: أسعار السلع الغذائية، ص٥٠٥.

(٢) كانت مهمة الفراش تنحصر في كنس وتنظيف المنشأة التعليمية، وبيوت الطلبة، ويصرف له في كل شهر خمسة وعشرون درهماً نقرة، أما البواب فكانت مهمته هي حراسة المكان والقيام على فتحه وإغلاقه، وتصرف له كل شهر عشرة دراهم نقرة، أما الكحال وهو المتخصص في معالجة أمراض العيون والطبيب المعالج للأمراض الباطنية فكانت مخصصاتهم الشهرية لا تتجاوز خمسة عشر درهماً نقرة، انظر: النبراوي: أسعار السلع الغذائية، ص٥٠٥ ـ ٥٠٨. كما لا يفوتنا هنا أن نذكر المخصصات العينية التي كانت تصرف إما شهرياً أو سنوياً أو في المناسبات الدينية للقائمين على هذه المنشآت والتي تنوعت ما بين مواد غذائية كالخبز البر والدقيق والحبوب والأرز، واللحم الضأن، والحلوى، والفواكه، والعسل، والسكر، .. ..الخ، أو ملابس والتي تنوعت هي الأخرى ما بين قميص وطاقية ومداس ..الخ، انظر وثيقة وقف السلطان حسن ابن قلاوون، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص٤١٧.

(٣) اليونيني: الذيل، ج٢، ص٣٠٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١١١ ـ ١١٢.

(٤) ابن كثير: البداية، ج٧، ص١٣، ص٢٨٠.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٤٤ ـ ٤٥.

علماء الإسكندرية بنفقات طلبتهم طوال مدة إقامتهم بالإسكندرية، كما فعل قاضي قضاة الإسكندرية محي الدين أبو عبد الله محمد الشافعي مع البلوي حين أنشده الأخير قصيدة مدحه فيه فاستحسنها وأعجب بها(١)، وأمر له بنفقة عن كل يوم مدة إقامته بالإسكندرية(٢).

كذلك كان لمحمد بن محمد بن الكويك معروف وصدقات وبر بالإضافة للمدرسة التي أوقفها بالثغر(٣)، أيضا يذكر النويري أن محمد بن سلام صاحب رباط ابن سلام، والذي أوقف رباط قاعة القرافة وما بها من سلاح للمرابطين، كانت له صدقات جارية وأموال يفرقها على أهل الصلاح والمساكين(٤)، بل وجد بالثغر أسر علمية توارثت استضافة الوافدين من طلبة العلم على الثغر والتكفل بهم طيلة وجودهم بالمدينة أمثال أسرة الدماميني، نزل بها الكثير من علماء عصرها البارزين، فقد نزل على نجم الدين عمر بن سليمان الدماميني بعض الفضلاء، فلما ارتحل كتب على بابه:

نزلت بدار نجمٍ فاق بدراً   أدام الله رفعته وجَاهَهْ
فأعذبَ موردي وأطابَ نُزْلِي   وأهدى لي رياسته وجَاهَهْ (٥)

كما استضاف تاج الدين عتيق الدماميني بمنزلة بمدينة الإسكندرية الأدفوي صاحب كتاب "الطالع السعيد"، وأحسن ضيافته وأكرمه وأهدى إليه(٦).

---

(١) لعل استحسان قاضي القضاة لها كان من باب المجاملة، وحتى لا يكسر خاطره خاصة وهو غريب عن دياره منقطع عن أهله، وكذلك ليدفعه للزيادة من طلب العلم الذي رحل من أجله.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٣٥٢.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٥٤.

(٥) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٦٥١، وراجع ص٢١٧.

(٦) الأدفوي: الطالع السعيد، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠.

الإنفاق الحكومي:

وعلى الرغم من أن نظم التعليم المختلفة كانت قائمة على الوقف إلا أنه وجد بالثغر السكندري نوع من الإنفاق الحكومي على العلم والتعلم، فقد جاء في وظيفة نظر الصادر وهي الخاصة بالقدر المقرر الذي يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية، وأن يصرف هذا المتحصل على صورة مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح، ينفق عليهم جزء معلوم من متحصل هذه الجهة(١).

والجدير بالذكر أن ضريبة الصادر كانت قد ألغيت في عهد الدولة الأيوبية حتى التقى صلاح الدين الأيوبي بالفقيه أبي الطاهر بن عوف بالإسكندرية فأشار عليه الفقيه بإعادة هذه الضريبة وأن يصرف متحصلها على فقهاء الثغر(٢).

ولا شك أن ما يأخذه الفقهاء من هذا الصادر يعينهم على التفرغ لطلب العلم ولم يقتصر الإنفاق الحكومي بالإسكندرية على الأعطيات والهبات التي كانت تنفق على العلماء والمتعلمين، بل تعدى ذلك إلى ترميم دور العلم والعبادة، ففي عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م) قام ناظر الثغر معين الدين محمد بن شهاب الدين بترميم الجامع الغربي وجدد بياضه، و نقش ذلك على رخامة علقها بالمسجد، كما قام أيضاً بترميم الجامع الشرقي عند سقوط أحد أعمدته بمعاونة القاضي كمال الدين(٣).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٦.

(٢) الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص٧٧.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤١.

العلاقات العلمية بين الإسكندرية وبعض البلدان المجاورة

(مدن مصر الداخلية ـ الشام ـ الحجاز ـ المغرب ـ الأندلس).

ارتبطت الإسكندرية بعلاقات علمية متميزة مع سائر أقطار العالم الإسلامي. فقد كانت منذ نهاية العهد الفاطمي عامل جذب للعلماء مع وجود مدرستي الحديث والفقه بها، وعلى رأسها الحافظ **السلفي** والفقيه **أبو عوف** بها ومن قبلهما الإمام الطرطوشي، فأخذت الرحلة طريقها إلى الإسكندرية، وحط العلماء رحالهم بها، وزادت الرحلة ونبغ طلب العلم مع الاتجاه السني المتزايد بالمدينة منذ الأيوبيين ومن بعدهم المماليك، الذين أكدوا سنية الدولة، وزادوا في الرعاية العلمية للثغر، وعلى الرغم من كون الإسكندرية المدينة الثانية بمصر المملوكية إلا أنها شكلت من الناحية العلمية دوراً ريادياً لتقدم اشتغالها بالعلوم الشرعية السنية قبل القاهرة المعزية[(١)].

ولقد ارتبطت الإسكندرية علمياً بعلاقات كثيرة مع كافة مراكز العلم في العالم الإسلامي وقد اتخذت هذه العلاقات أشكالاً عدة، فمن العلماء من قدم الإسكندرية واستوطنها وتلقى فيها علومه أو درَّس بها، ومنهم من نزل بها فقرأ بها وسمع من محدثيها أو تفقه على يد فقهائها، أو تلقى الأدب والنحو من علمائها ثم عاد إلى بلاده ناشراً ما حمله منها من علوم، وفي المقابل خرج من الإسكندرية عدد من رواد العلم جالوا في مدن وأقطار العالم الإسلامي لطلب العلم أو المساهمة في التعليم.

ولما كانت القاهرة هي مركز الإشعاع الحضاري والعلمي آنذاك، فمن الطبيعي أن تكون هي المحطة الأولى لطلبة العلم[(٢)]

---

(١) لقد بينا ذلك فيما تقدم من مباحث انظر، ص٢٥-٢٦ .

(٢) إن العلاقات العلمية ما بين الأقطار عادةً ما تكون قائمة على الأخذ والعطاء المتبادل لكي يتم الهدف من هذه العلاقة وهو انتقال العلم والمعرفة، والارتقاء الحضاري للشعوب، ولكن ونتيجة لضخامة المحتوى الثقافي المتبادل ما بين الإسكندرية ومدن العالم الإسلامي سواء مدن مصر الداخلية أو بلاد الشام والعراق والحجاز والمغرب .. الخ، فقد كان هذا المبحث مخصصاً للفقهاء و القضاة و العلماء والمدرسين والمحدثين والوعاظ وغيرهم ممن أسهم في تميز

فمن **علماء الإسكندرية الذين وفدوا على القاهرة**، وطافوا بين أروقتها العلمية ما بين محدثين ومدرسين: المحدث المسند **رشيد الدين بن رواج**، دخل القاهرة وحدث بها(١)، ومنهم **جمال الدين** عبد الرحمن بن مكي الإسكندراني (ت٦٥١هـ/١٢٥٣م)، سمع من جماعة بالإسكندرية ووفد عليه الطلبة ثم رحل إلى القاهرة فقصده الطلبة هناك فجلس لتعليمهم(٢)، ومنهم **عبد الرحمن** بن علي بن محمد بن محمد بن مهران الإسكندراني المولد المصري الوفاة، الفقيه الشافعي البارع، كان جامعا لفنون شتى توفي بمصر سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)(٣)، ومنهم أيضا **محيي الدين** عبد الله بن محمد أبو الصلاح قاضي قضاة مصر **ويعرف بابن عين الدولة الصفراوي** الإسكندراني الشافعي (ت٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، تولى قضاء الديار المصرية والوجه القبلي مدة سنين، حتى أصابه المرض وأقعد بسببه فعزل عن القضاء ولزم بيته حتى توفي، وصف بالفضل والديانة ولطف الأخلاق وحسن المجالسة، دخلت عليه امرأة في مجلس حكمه لقضية لها، فقال لها ما اسمك؟ فقالت: ست من يراها فوضع كمه على عينيه، وقد بلغ الثمانين وأنشد يقول:

إن الثمانين وبلغتها ما أحوجت سمعي إلى ترجمان

توفي بالقاهرة ودفن بالقرافة(٤)، ومنهم **فخر الدين** أحمد **ابن المخلطة**، رحل إلى دمشق وأخذ عن الذهبي، ودرس بالقاهرة بالمدرسة الصرغتمشية الفقه

العلاقات العلمية بين الإسكندرية وأقطار العالم الإسلامي من الجانبين الإسكندراني والبلدان الإسلامية، وأما مبحث الرحلة في طلب العلم، في الفصل الثالث ، فللتحدث عن طلبة العلم الذي رحلوا إلى البلاد الإسلامية لطلب العلم وتحصيله، وأما الفصل الرابع بأكمله فخصص للطلبة والرحالة الذين وفدوا إلى الإسكندرية من جميع بلدان العالم الإسلامي للنيل من معين علمها الصافي وذلك لكثرة من وفد إليها من طلاب العلم في العهد المملوكي.

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٣٩٧؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٣٨١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٢؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٤٢.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ٨٩.

(٣) العبادي: الذيل، ص٦٨؛ ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٤٤٨، ٤٤٩.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٦٢، ج٤، ص٢٩.

والعربية(١)، ومنهم **عبد الله** بن محمد بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل بن فضل بن خير الأنصاري الإسكندراني المالكي **يعرف بابن خير**، ولد بالإسكندرية، سمع الكثير وحدث ببلده، وصف بالقاضي العالم المسند الرحلة، ذهب إلى القاهرة وحدث في الجامع الأزهر بها كتاب "الشفا" وغيره، عمر حتى مات سنة (بضع وعشرين وسبعمائة)(٢)، ومنهم **عمر بن أبي بكر** بن أحمد الإسكندراني القاهري كان عالماً بالحديث، أخذ عنه السخاوي وأجاز له توفي سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م) وقد جاوز الستين عاماً(٣)، ومنهم **فخر الدين** محمد بن سراج الدين الربعي **ابن الكويك** الإسكندراني (ت٧٦٩هـ/٢٣٦٧م) سمع بالإسكندرية، قدم القاهرة، ودرس بعدد من مدارسها(٤)، ومنهم **عبد الرحمن** بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل الإسكندراني المالكي (ت٧٩١هـ/١٣٨٨) سمع وحدث، تولى قضاء المالكية بالقاهرة، فحمدت سيرته، سمع منه الكثير من علمائها أمثال ابن حجر العسقلاني(٥)، ومنهم **محمد بن محمد** بن حسن بن علي بن يحي بن محمد بن خلف الشمس الإسكندراني، ثم القاهري، اشتغل بالعلم وسمع من البهاء الدماميني والتاج بن موسى، وتقدم في الحديث ودرس وتوفي سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) بالجامع الأزهر(٦)، ومنهم **محمد** بن محمد بن محمد بن خلف الله **الشمني** ثم الإسكندراني المالكي، ولد بالإسكندرية، وسمع بها من شيوخها واشتغل فيها بالعلم ومهر، ثم قدم القاهرة، فسمع فيها من علمائها، وتقدم في الحديث وصنف فيه،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج١٠، ص٣٢٩؛ السيوطي: بغية الوعاه، ج١، ص٣٧٠.
والمدرسة الصرغتمشية : أسسها الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري، وكان ذلك سنة (٧٥٧هـ/١٣٥٦م)، وكانت مجاورة لجامع أحمد ابن طولون، وقد أوقف عليها الأمير سيف الدين الكثير من الأوقاف، انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٠٣

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٦٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص١١٧.

(٤) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج١، ص٢٥٩.

(٥) ابن حجر: المجمع المؤسس، ج٣، ص١٦٢ــ ١٦٣.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٧٤ــ ٧٥.

ودرسه في المدرسة الجمالية[1]، ثم عرضت له علة فمات بها سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م)[2]، ومنهم **شمس الدين** محمد الإسكندراني المالكي، المعروف **بابن المعلمة** (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، ولي حسبة القاهرة، له مشاركة في العربية وغيرها[3]، ومنهم **نور الدين** حسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله الإسكندراني (ت٨٤٧هـ/١٤٤٣م)، حفظ القرآن في صغره، وتصدر للتحديث، سكن القاهرة، وتولى الخطابة في جامع السيوطي، احترقت كتبه بسبب حريق وقع بشونة مجاوره لمكتبته[4].

ولم تقتصر وفادة علماء الإسكندرية على القاهرة، بل تعدتها إلى معظم المدن المصرية، فممن دخل منهم إلى **قوص**[5]: **محمد** بن أحمد بن عبد الرحمن الكندي **الدشناوي** القوصي مولدا ودارا ووفاة، نبغ في علم القراءات والحديث حدث بقوص والقاهرة والإسكندرية، فقد سمع منه في الإسكندرية سراج الدين عبد اللطيف بن الكويك وفخر الدين بن عثمان النويري المالكي وخلائق[6]، **وأحمد بن مرهف** بن ناهض بن عبد العزيز أبو العباس ناظر قوص وأعمالها كان فقيها فاضلا أديبا شاعرا تقلب في الخدمة السلطانية وتولى نظر الدواوين بقوص والإسكندرية ودرس بعدد من المدارس ببلده، وله مؤلفات عدة[7].

---

(١) **المدرسة الجمالية** : تقع برحبة باب العيد بالقاهرة، بناها الأمير جمال الدين الاستادار، وانتهت عمارتها سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م)، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٠١.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١٨٦؛ السخاوي: ذيل الدرر، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٤٥١.

(٤) السخاوي: التبر المسبوك، ص٧٩.

(٥) قوص: مدينة بأعلى صعيد مصر، مدينة عظيمة واسعه، قصبة صعيد مصر، تحط بها التجارة القادمة من عدن، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٧، ص١٨٣.

(٦) الأدفوي: الطالع السعيد، ص٤٨٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٥٠؛ أعيان العصر، ج٤، ص٢٦٨؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٣٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ٣٢٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١٩٠.

(٧) العبادي: الذيل ، ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

ومنهم **شمس الدين** علي بن أبي بكر بن عبد الله بن مفرج الأنصاري الشافعي الإسكندراني، كان جيد الفهم له مشاركات في الأصول والفقه سمع الحديث من الدمياطي، وتقي الدين بن دقيق العيد، ولازمه وأملى عليه شرح الإلمام، وأخذ الفقه والأصول والنحو من ابن العراقي، توجه إلى قوص وأعاد بإحدى مدارسها، ثم تولى قضاء فوه[1]، ثم نقل إلى قضاء أسيوط[2]، ثم عزل فتوجه إلى مكة وجاور بها إلى أن توفي سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[3].

وممن وفد على رشيد[4]: **علي** بن عبد اللطيف **البرلسي** ثم الإسكندراني التاجر، ابتنى بها بيتين وصهريجاً تعلوه مدرسة لطيفة، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها حتى توفي سنة(٧٨٧هـ/١٣٨٣م)[5].

وممن وفد على بلبيس[6]: **تاج الدين** محمد بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن هلال الإسكندراني (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، تولى القضاء بها وكانت له مشاركة في العربية نظما ونثرا.

وفي مقابل ذلك فقد **وفد على الإسكندرية** عدد من علماء مصر ليتولوا بها **المناصب الدينية أو الإدارية** من قضاة وفقهاء وعلماء، وليسهموا في تنشيط الحركة العلمية بها، فمن القاهرة جاءها قاضي القضاة علم الدين أبو عبد الله محمد

---

(١) **فوه**: بالضم ثم التشديد، بليدة على شاطيء النيل قرب رشيد، ذات أسواق ونخل كثير، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥،ص٤٠٦.

(٢) **أسيوط**: مدينة بغربي النيل بصعيد مصر جليلة كبيرة كثيرة البساتين، ينسب إليها جماعة، ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١،ص٢٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ، ج٦، ص٢٢٨ ــ ٢٢٩.

(٤) **رشيد**: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥٢.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٥، ص٢٤٥.

(٦) **بلبيس** : بكسر الباءين، وسكون اللام وياء وسين مهملة، مدينة على طريق الشام ، قرب الفسطاط ، فتحت سنة ١٨هــعلى يد عمرو بن العاص، ياقوت: معجم البلدان، ج٢،ص٢٦٢.

ابن **الإخنائي** الشافعي (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، تولى القضاء بالإسكندرية فحمدت سيرته، وصف بالعلم والفضل والمهابة، والنزاهة والعفة[١].

ومن سخا[٢]: **محمد** بن عبد الخالق **بن طرخان** أبو عبد الله المحدث المسند، من أهالي قرية سخا على النيل بأسفل مصر، رحل إلى الإسكندرية واستوطنها، وتفرد فيها بعلو الإسناد وأجاز للطلبة منهم الرحالة ابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، له السماع الصحيح العالي[٣].

ومن المحلة[٤]: **تاج الدين التنوخي** محمد بن صالح المحلي، ولي نظر الإسكندرية، من الأحباس والمساجد والجوامع والمدارس، وحدث بها[٥]، وممن نزلها من أهل المحلة: **الشهاب المحلي** أحمد بن محمد بن علي بن هارون بن علي (ت٨٦٠هـ/١٤٥٥م)، ولد بالمحلة ونشأ بها وحفظ القرآن وتعانى التكسب بماء الورد ونحوه، ناب في الحكم بالقاهرة ثم بعد ذلك ترقى فتولى قضاء الإسكندرية، التقى به السخاوي في الإسكندرية وتباحثا في بعض العلوم[٦].

كما شملت هذه العلاقة بعض المدن خارج حدود الأراضي المصرية وبالأخص بعض مدن الشام والحجاز والعراق والمغرب، فمن علماء الإسكندرية الذين ارتحلوا إلى **دمشق رشيد الدين** عبد العزيز بن محمد بن الطاهر المعروف

---

(١)أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٠٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٢٢٠.

(٢) **سخا**: قرية كبيرها من قرى أسفل مصر، تشتهر بالزراعة، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٩٦.

(٣) الصفدي: الوافي، ج٣،ص٢١٩؛ ابن تغري بردي:الدليل الشافي، ج٢،ص٦٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١،ص٣٨٤؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٢، ص١٩؛ ابن العماد: الشذرات، ج٥،ص٤٠٢.

(٤) **المحلة**: بالفتح، وهي مدينة مشهورة بمصر، بالقرب من القاهرة، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٦٣.

(٥) ابن العمادية:ذيل تكملة الإكمال،ج٢،ص٥٨٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣،ص١٥٦ـ١٥٧.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

بابن عوف، أحد فقهاء الإسكندرية ومفتيها، وقد نزل بالمدرسة العادلية[1] بدمشق والتقى به الفقيه أبو شامة، وأرخ وفاته في (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[2] **وجمال الدين** الإسكندراني (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م)، كان شيخ الحساب في زمنه، فقد تولى الحساب بمكة ودمشق وانتفع به خلق كثير[3].

وبها توفي **برهان الدين** إبراهيم **بن فلاح** بن محمد الجذامي الإسكندراني شيخ القراء الشافعي، ولد بالإسكندرية، وكان معروفا بالعلم والديانة، ناب في خطابة الجامع الأموي وباشر الحكم مدة بدمشق ودرس بها، وتوفي بها سنة (٧٠٢هـ/١٣٠١م)[4] وممن دخل دمشق أيضا **علاء الدين ابن عرفة** علي بن المظفر بن إبراهيم ابن عمر ابن يزيد **الكندي** الإسكندراني الدمشقي (ت٧١٦هـ/١٣١٦م)، اشتغل بالأدب ومهر في العربية، وأجاد الشعر وأبدع فيه وجمع تذكرة النبيه في عدة مجلدات، تقرب من الخمسين، تولى التدريس بإحدى مدارسها وتصدر لتدريس الحديث بها إلى أن وافته المنية[5]، ومنهم أيضاً **جمال الدين** أبو عبد الله محمد بن أبي الربيع سليمان بن مسور **الزواوي** المالكي الإسكندراني(ت٧١٧هـ/١٣١٧م)، برع في الفقه المالكي مما أهله لتولي منصب قاضي المالكية بدمشق لمدة ثلاثين سنة[6]، ومنهم **معين الدين** محمد بن أحمد **المصغوني** الإسكندراني، قدم دمشق وكان عاقلاً فاضلاً، حدث بدمشق عن التاج

---

(١) **المدرسة العادلية** : بدمشق بدأ في إنشائها الملك العادل نور الدين محمود، ثم الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وأتمها الملك المعظم عيسى، انظر عنها: النعيمي: الدارس، ج١، ص٣٥٩ـ ٣٦٢.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٥٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ق١٣، ص٢٩٩، ج٧، ق١٤، ص٧٨؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٣٥٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٥٠٦؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٧٠٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٩٤٥.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٧٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٤٩٩؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٣٨٩.

(٦)المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٧٩ ـ ١٨٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٤٨.

الغرافي بمجلس إمام دمشق آنذاك أبي المظفر بن المسمعاني[1]، ومنهم **عمر** بن أبي اليمن علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي تاج الدين **الفاكهاني** (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، قرأ القراءات على عدد من فضلاء عصره بالإسكندرية، كان فقيها متفننا في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، وكان على حظ وافر من اتباع السلف الصالح والتمسك بالدين الحنيف، له العديد من المؤلفات رحل إلى القدس ودمشق وحدث هناك ببعض تصانيفه[2]، **وممن حدث بدمشق من أهل الإسكندرية إبراهيم** بن أحمد **بن فلاح** الإسكندراني (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، حدث بدمشق وأجاز له حافظ دمشق ابن عساكر، وكان يؤم بمشهد أبي بكر كأبيه وجده، وكان حسن الخط والقراءة[3] **ومنهم حفيده علي** بن أبي الفضل بن أحمد بن إبراهيم **بن فلاح** الإسكندراني (ت٧٨٣هـ/١٣٧٩م)، وصف بأنه من بيت الرواية والفضل، واشتهر بالحديث وعمر طويلا[4].

ولم تقتصر العلاقات العلمية بين الإسكندرية ومدينة دمشق من بلاد الشام بل تعدتها إلى مدن أخرى مثل طرابلس، فقد نزل بها أحد علماء الإسكندرية وهو القاضي شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن عطية الإسكندراني الشافعي (ت٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، فتولى الحكم بها، كان إماماً فاضلاً حازماً عارفاً بالمذهب الشافعي، متفنناً، وصف بالرأي والحزم والشجاعة، وقد قام ببناء المدرسة الشمسية بجوار الجامع المتصدري بطرابلس[5].

---

(١) المقريزي: المقفى الكبير، ج٥، ص٢٤٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٣٨.

(٢)أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص١٠٤؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٢١؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٨٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٣٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٤٧ــ ٤٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٤٨.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٨٣ ــ ٢٨٤، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص١٢١ــ ٢٢٢، وهذه **المدرسة الشمسية** التي بناها شمس الدين القاضي الإسكندراني تعتبر المدرسة الثانية بعد المدرسة الزريقية أقدم المدارس المملوكية بطرابلس، للمزيد عنها وعن بانيها انظر:

وندب من الإسكندرية إلى حلب قاضي القضاة **شهاب الدين** أحمد بن إبراهيم الصالحي الحنفي، ليتولى بها القضاء، وقد باشره بعفة ونزاهة لمدة ٣٣ سنة، كان عارفا بالفقه أصولا وفروعا، درس وخطب وأفاد توفي بالإسكندرية سنة (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠)[١].

كما شملت تلك العلاقة مدينة بغداد، فقد رحل إليها **ابن العطار** إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الإسكندراني الحنفي (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م)، برع في المذاهب وتأدب على يد أبي زكريا بن معطي النحوي[٢]، جال في بلاد عدة، منها اليمن والشام والعراق، ذكر ابن تغري بردي أن: (أبا المظفر منصور بن سليم ذكره في تاريخ الإسكندرية وأثنى على علمه وفضله، وذكر شيئا من نظمه، وقال: رأيته بالموصل وبغداد في خدمة الملك الناصر صلاح الدين، ثم انتقل إلى القاهرة واستوطنها ومات بها)[٣]، ومنهم **عبد الله** بن عبد الرحمن بن عمر **الشارمساحي** (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، نشأ بالإسكندرية، وتلقى علومه بها ، فبرع وتفنن، وكان من أئمة المالكية، صنف في الفقه والنظر والخلاف، رحل إلى بغداد فأكرمه الخليفة المستنصر وعينه مدرسا بالمستنصرية وخلع عليه خلعة سوداء[٤] وعمامة وطرحة، وأعطى بغلة بمركب جميل، ومن طريف ما يذكر عنه أن الخليفة أمر أن يحضر عنده جميع المدرسين ببغداد بجميع المدارس، وأرباب الدولة، فحضروا وقام الشارمساحي بإلقاء خطبة بليغة نالت إعجاب الحاضرين ، ثم سأله بعض العلماء عن مسألة بيوع الآجال، فقال: أذكر

عمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، ص٢٧٨، السيد عبد العزيز السالم: طرابلس الشام، ص٤١٨ـ ٤٢٠.

(١) ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٢٠٨ـ ٢٠٩؛ النجوم الزاهرة، ج١، ١١٦.

(٢) هو يحيى بن عبد المعطي الفقيه الحنفي زين الدين النحوي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، الذهبي: العبر، ج٥، ص١١٢.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٨٧، ٨٨.

(٤) هي عبارة عن عمامة سوداء مدورة بعذبة مذهبة ، وتسمى أحياناً بالخلعة الخليفية أو السلطانية، انظر: البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٢١.

فيها ثمانين ألف وجه، فاستغرب فقهاء بغداد من ذلك، فشرع يسردها عليهم إلى أن انتهى إلى مائتين وجها، فاستطالوها وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بفضل الشيخ وسعة علمه، له مؤلفات عدة منها كتاب "الفوائد" في الفقه، و "التعليق" في علم الخلاف، و "شرح آداب النظر" وغير ذلك كثير(١)، وممن ارتحل إليها **منصور بن سليم** ابن العمادية درس بالمدرسة النظامية والمستنصرية، وتخرج على يديه عدد كبير من علماء بغداد(٢).

ولقد امتد التواصل العلمي أيضا بين الإسكندرية وبلاد الحجاز، فرحل إليها حاجا **زين الدين ابن المنير** فاغتنم الكثير من الحجاج والعلماء فرصة وجوده بينهم للأخذ عنه والسماع منه(٣)، **كذلك بدر الدين حسن** بن عبد العزيز بن عبد الكريم قاضي الإسكندرية، فتذكر المصادر أنه حدث بمكة وأخذ عنه جماعة، كان محبا للفقراء وطلبة العلم كثير الكرم والعطاء، توفي سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)(٤)، ومنهم المحدث **تقي الدين** عرام، كان له مكان بالمسجد الحرام يحدث به(٥)، ومنهم **أحمد** بن سليمان بن أحمد **الشهاب التروجي** الإسكندراني، جال ورحل في البلاد ودخل العراق والهند، ثم أقام بالحرمين حتى مات بمكة سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)، و دفن بالمعلاة، ووصف بأنه كانت له نباهة في العلم ويذاكر بأشياء حسنة من الحكايات والشعر، وقد أوقف عدة كتب على أحد أربطتها(٦) وممن وفد على بلاد الحجاز **يحيى بن محمد** بن يحيى بن أحمد المالكي، ولد بالإسكندرية سنة

---

(١) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٤٤٨ ـ ٤٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٧.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٦٧؛ الناجي: تاريخ المستنصرية ، ج١، ص١٧٢،١٧٥.

(٣) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٣٧ــ ٣٨.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص١٨ ــ١٩.

(٥) ابن فهد: لحظ الألحاظ، ص٢٥٦ــ ٢٦٠.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٤٣؛ ابن فهد: اتحاف الورى، ج٣، ص٤٧٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٣٠٨.

(٧٧١هـ/١٣٦٩م)، جاور بمكة ووصف بالصلاح وتوفي بها سنة (٨٤٦هـ/١٤٤٢م)[1].

وممن وفد على اليمن من علماء الإسكندرية: محمد بن تميم شرف الدين أبو عبد الله الإسكندراني (ت٧١٥هـ/١٣١٥م)، كاتب الدرج باليمن، ووصف بأنه صاحب نظم بديع، ولفظ صنيع، كان يعرف بالمقاماتي، له موشحات بديعة[2] ومنهم الفقيه **محمد** بن محمد **المخزومي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)**، أقام بزبيد مدة ينسخ للملك الأشرف[3]، وممن **وفد على اليمن** سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) محمد بن أبي بكر **الدماميني** درس بالجامع الكبير بمدينة زبيد، ثم غادرها إلى الهند حيث توفي بها سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[4].

وفي المقابل استقبلت الإسكندرية جمع كبير من العلماء والمحدثين والفقهاء والوعاظ والمدرسين والذين أسهموا بدور فاعل في تنشيط الحركة العلمية بها، **فممن وفد إليها من دمشق: جمال الدين** ابن النجار إبراهيم بن سليمان بن حمزة بن خليفة الدمشقي **المجود** (ت٦٥١هـ/١٢٥٣م)، طاف بعدد من بلدان العالم الإسلامي كحلب وبغداد وبعلبك حيث عمل كاتباً عند صاحبها، ورحل إلى الإسكندرية حيث تولي نقابة الأشراف بها، حدث وكتب الإجازات وله نظم حسن[5]، ومنهم **شمس الدين** أبو عبد الله الدمشقي الشافعي، المعروف **بابن**

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٥٨.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٣٧٤؛ الوافي، ج٢، ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص١٥٨؛ ابن حجر: الدرر، ج٤، ص٣٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٧، ص١٥٩؛ الذيل على الدرر، ص٢٣٨. والملك الأشرف هو إسماعيل بن الملك الأفضل العباس بن علي الرسولي، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، كان صاحب سياسة وحنكة أهلته للقضاء على الفتن والاضطرابات التي واجهته، عرف عنه حب العلماء والعلم وانشغاله به، توفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، محمد عبد العال: بنو رسول، ص٢٢٤ــ٢٢٥.

(٤) الأهدل: تحفة الزمن، ج٢، ص٢٦٨.

(٥) الكتبي: وفيات الوفيات، ج١، ص ٩ ــ ١٠.

اللبان، كان إماما عالما فقيها أفتى وأفاد، تصدى لتدريس الطلبة، حدث بدمشق والقاهرة والإسكندرية وتوفي بالقاهرة سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[١].

ومنهم **عبد الأحد** بن عبد الله بن شقير **الحراني** الدمشقي (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

وسمع الكثير وحدث بدمشق والإسكندرية[٢]، ومنهم الشيخ المسند الرحلة **علاء الدين** أبن الحسن علي بن الحسين **العرضي** الدمشقي ولد سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) بدمشق، ونشأ بها وسمع وحدث، وباشر نظر الجيش ، ثم أعرض عن ذلك وأقبل إلى طلاب الحديث واستوطن الإسكندرية آخر عمره، وتوفي بها سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)[٣].

ومن **الموصل**[٤]: محمد بن يوسف بن عبد الله الجزري الموصلي (ت٧١١هـ/١٣١١م)، دخل الديار المصرية فتولى الخطابة والإقراء بجامع القلعة[٥]، ثم رفد على الإسكندرية فدرس بها، ولقيه ابن رشيد السبتي بها ونال منه إجازة تامة عام (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[٦].

---

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١٦.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٢١ ــ ٤٢٢.

(٣) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج١، ص١٢٥ ــ١٢٦.

(٤) **الموصل** : بالفتح وكسر الصاد، المدينة المشهورة العظيمة ، إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير، وهي باب العراق، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات، وينسب لها جمع من العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٨،ص١٩٥-١٩٨؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٦٣.

(٥) هي قلعة صلاح الدين الأيوبي ، وتسمى قلعة الجبل، بنيت سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦)، وهي أكبر المنشآت العسكرية التي شيدها الأيوبيون لدفع الخطر الصليبي عن مصر، وحفلت عمارتها من الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة فيما اشتملت منشآتها الداخلية على مساكن السلطان، وشيدت على هضبة صخرية مرتفعة، انظر:الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية، ص١٥٠ــ ١٥١.

(٦) ابن القاضي: درة الحجال، ج٢، ص١٩ــ ٢٠.

ومن صفد[1] القاضي **شمس الدين** محمد بن عامر قاضي قضاة المالكية وكان معدوداً من فقهاء المالكية، ناب في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، ثم نزل الإسكندرية وتولى قضائها غير مرة، وتوفي بها سنة(٨٥٨هـ/١٤٥٤م)[2].

ومن بغداد نزل بها: الحافظ العالم الفاضل **مجد الدين** أبو الخير سعيد بن عبد الله "الهلالي الدّلهي الحنبلي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، كان عارفاً بالفقه والخلاف، وأعاد بالمدرسة النظامية ببغداد، له مؤلفات عدة منها "تفتيت الأكباد في واقعة بغداد"، برع في التراجم والوفيات، رحل من بغداد إلى الشام ومصر ودخل الثغر الإسكندراني[3]، يذكر العبادي أن منصور بن سليم ذكره في تاريخ الإسكندرية قال بأنه: (قدم مصر والإسكندرية في الجامع الجيوشي، وكان عارفاً بالفقه والخلاف ظاهر التدين والصلاح، .. ..، سمع منه شيخنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة قصائد الوتريات، ورافقه في الحج، وروى لنا عنه الوتريات شيخنا السيد الشريف عز الدين الغرافي بسماعه من تقي الدين المازري بسماعه من مجد الدين المذكور)[4].

وممن وفد عليها من بلاد المغرب من مدينة تلمسان[5]**: يحيى بن محمد** بن موسى **أبو زكريا التجيبي** التلمساني حج وجاور وسمع بمكة، وسكن الإسكندرية، وعظ بها وصنف التفسير والرقائق، مات سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)[6].

---

(١) **صفد** : بفتح الفاء، مدينة في جبال عاملة ، المطلة على حمص من الشام، وهي من جبال لبنان، ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ٣٦٧.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص١٧٢.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٦٠ـ ١٦١؛ الصفدي: أعيان العصر، ج٢، ص٤٠٨، ٤٠٩؛ العامري: غربال الزمان، ص٥٤٢.

(٤) العبادي: الذيل على طبقات فقهاء الشافعية، ص٨٧.

(٥) **تلمسان:** عبارة عن مدينتين متجاورتين متسورتين بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، اختطها الملثمون ملوك المغرب، كان يسكن بالحديثة الجنود وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، أما القديمة فكانت سكن الرعية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص١٣٥.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٤٠.

ومنهم **ابن الجرح** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التلمساني (ت٦٥٦هـ/١٢٨٥م)، درس بمدارس الإسكندرية وظل بها إلى أن توفي[١]

ومنهم **حافي رأسه** محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر العلامة جمال الدين التلمساني الزناتي النحوي (ت٦٩٣هـ/١٢٩٥م)، ولد بتلمسان ثم انتقل إلى الإسكندرية، فبرع في العربية وأصبح من أئمتها، وتصدر لها زمانا، فكان يقرئ بداره، قرأ عليه ابن المنير شيئا من النحو، وهو أحد النحاة الثلاثة المحمدين في عصر واحد، هو في الإسكندرية وابن النحاس[٢] في مصر، وابن مالك[٣] في دمشق، ومن شعره ما كتبه إلى الأمير نور الدين بن مسعود الصوابي، يقول فيه:

شكوتُ إليكَ نور الدين حَالي   وحسبيْ أنْ أرَى وجهً الصوابِ
وكُتْبِي بعْـتُها ورهنتُ حتَّى   بقيتُ من المَجُوسِ بلا كتابِ[٤]

ومن دكَّالَة[٥]: **عبد الحميد** بن علي بن الحسن بن عبد الملك أبو محمد الدكالي الفقيه الشافعي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، سكن مصر واستوطنها ثم نزل الإسكندرية، وأفتى بها على مذهب الشافعي له باع في الأب والشعر فمن شعره :

أكـابدُ أفْكـارَ الحيـاةِ من الدَّهـرِ   وأرْجو انتصاراً في العَوَاقبِ بالصبْرِ
وأعْجبُ من صَرْفِ الزّمانِ وجَوْرِهِ   وإنْ كَانَ ذَا مَجْرَى العَوَاقِبِ في الدَّهْرِ[٦]

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٨٣.

(٢) **ابن النحاس** :هو اللغوي الأديب محمد بن إبراهيم بن أبي نصر ابن النحاس شيخ الديار المصرية في علم اللسان، وتخرج به جماعة من الأدباء، توفي سنة٦٩٨هـ، السيوطي: بغية الوعاة، ج١،ص١٣.

(٣) هو محمد بن عبد الله الطائي الجياني جمال الدين أبو عبد الله المعروف **بابن مالك** النحوي، (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) انظر: ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص٤٥٢.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٦٥ـ ٣٦٦.

(٥) **دكالة:** بلد بالمغرب ذكر ياقوت أنه يسكنه البربر، ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٤،ص٦٦.

(٦) العبادي: الذيل، ص٨١ـ ٨٢.

ومن تاز[1]: **أبو عبد الله** التازي المقرئ المغربي المالكي (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، أحد فضلاء الثغر ناب في الحكم عن قاضي القضاة بدر الدين الأخنائي، كان مشهورا بالعلم والفرائض[2].

ومن قسنطينة[3]: سالم بن عبد الله بن سعادة بن طاجين القسنطيني، نزيل الإسكندرية، لازم القاضي برهان الدين ابن جماعة، كانت له محاضرة حسنة وبرع في

فنون عديدة، مات بالإسكندرية سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)[4].

ومن سيواس[5]: شهاب الدين أحمد بن سعيد السيواسي المغربي المالكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، تولي قضاء دمشق، ثم ولي قضاء الإسكندرية، وكان من أهل العلم والفضل[6].

وأما بلاد الأندلس فمن قرطبة[7]: **ضياء الدين** أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي المحدث المالكي، نزل الإسكندرية، ودرس بها إلى أن وافته المنية ودفن بها سنة(٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[8]، يقول عنه ابن فرحون أنه: (كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث والفضل التام وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب)[1]، ومنهم **أحمد** بن إبراهيم بن محمد بن يوسف

(١) **تازا**: من بلاد المغرب ، حد بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب مثل وهران ومليلة، وفي جبالها بنيت مدينة الرباط، انظر: الحميري: الروض المعطار، ص١٢٨؛ مؤلف مجهول: الاستبصار، ١٨٦.

(٢) ابن العراقي: ذيل العبر، ج٢، ص٤٤٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٤٩.

(٣) قُسَنْطينة: مدينة وقلعة عالية حصينة من حدود افريقيا مما يلي المغرب، حولها مزارع كثيرة، الحميري: الروض المعطار، ص٤٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١٤٨.

(٥) **سيواس** : بلد بالروم ، ينسب لها جماعة، البغدادي: مراصد الاطلاع،ج٢،ص٧٦٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ٣، ص٤٠.

(٧) **قرطبة**: مدينة وسط الأندلس، كانت مقر ملوك بني أمية، وهي محصنة بسور عظيم، تميزت بحسنها وجمالها عن سائر بلاد الأندلس، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٤.

(٨) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٩٥ــ ٩٦؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص١٩٠؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٦٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٧.

من أهل المشرق والمغرب)[1]، ومنهم **أحمد** بن إبراهيم بن محمد بن يوسف **المرادي** العشاب اشتغل بالنحو وغيره، ووزر للحياني صاحب تونس، ثم نزل الإسكندرية، وحدث بها بكثير من مسموعاته، سمع منه تقي الدين ابن عرام وآخرون، مات بالإسكندرية سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)[2]، ومنهم الشاعر المجيد **أبو عبد الله بن العطار**، وصفه ابن سعيد بأنه:(حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع، مطبوع النوادر موصوف بالأديب، مازحته بالإسكندرية، وبهذه الحضرة العليا (تونس)، وما زال يدين بالانفراد والتجوال في البلاد حتى قضى مناه وألقى بهذه المدينة عصاه لا يخطر الهم له ببال ولا يبيت إلا على وعد من وصال، وله حين سمع ما ارتجلته في السكين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الريغي، وقال: ما إليها سبيل حتى يحضر لك معنى نبيل:

أُحاجِيكَ ما شَيء إذا ما سَرَقْتَه   وفِيْهِ نِصَابٌ لَيْسَ يَلزمُكَ القطعُ
عَلى أنَّ فيه القَطْعَ والحَدُّ ثابتٌ   ولا حدَّ فيه هَكَذَا حكَمَ الشرعُ)[3]

ومن أشبيلية[4]: **أبو إسحاق** إبراهيم بن محمد بن وثيق الإشبيلي شيخ القراء بالإسكندرية، مات بها سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[5].

ومن غرناطة[6]: **ضياء الدين** أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف ابن عفيف الأنصاري الأندلسي الغرناطي(ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، كان إماماً عالماً فاضلاً ماهراً، قدم مصر وأقام بها واجتمع بعلمائها وسمع وكتب، ثم رجع وجال

---

(١) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤١.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٥٦.

(٣) ابن خليل: اختصار القدح، ص٢١٥ــ ٢١٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٣٩ــ ٣٤٠.

(٤) **إشبيلية** :مدينة كبيرة بالأندلس قريبة من البحر، يمر بها نهر يسمى (وادي الكبير)، كثيرة الشجر والزيتون والفواكه، اشتهرت بزراعة القطن، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٥، الحميري: الروض المعطار، ص٥٨ــ ٦٠.

(٥) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٢١؛ معرفة القراء الكبار، ج٢، ص٦٥٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٥٠١.

(٦) **غرناطة**: مدينة عظيمة من مدن الأندلس ، اشتهرت بجمالها وحسنها وحصانتها المنيعة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٤

في الأندلس، ثم عاد واستوطن الإسكندرية، كان شاعراً مجيداً خاصةً في المدائح النبوية والتي منها قصيده ذكرها ابن حبيب في تذكرته قال فيها:

لله ما يَلْقَاه فيك مُتَيَّم   أحشاؤه مما به تَتَوَقَّدُ

قَدْ كَان يقْنعُ بالخيالِ إذا سَرَى   عنْد الكَرَى لَوْ كان مِمَّنْ يُوَقَّدُ(١)

ومن **صقلية**(٢): أسرة أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي الطاهر منصور بن الحضرمي الصقلي المالكي ، رحلت هذه الأسرة العلمية من صقلية واستقرت بالإسكندرية، وولد هو بها ونشأ وتعلم وحدث، مات بها سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) من بيت حديث، فقد حدث هو وأبوه وجده وجد أبيه، وجد جده(٣).

---

(١) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص١١٤.

(٢) **صقلية** : بثلاث كسرات، من جزائر البحر مقابلة إفريقية ، وهي مثلثة الشكل، بها مدن كثيرة وبها عيون غزيرة، وأنهار جارية، أفاض ياقوت في ترجمتها، معجم البلدان، ج٥،ص٣٧٤.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج١، ص٤٣١.

الاتجاه السني للحركة العلمية في الإسكندرية وأثره في التمكين للمذهب السني بها :

لقد احتفظت الإسكندرية بهويتها السنية برغم وجود الحكم الفاطمي الشيعي في البلاد المصرية، متأثرة بالحركة العلمية السنية النشطة بها، فقد رزحت مصر تحت الحكم العبيدي الشيعي ما يزيد على القرنين من الزمان، حاول فيها الفاطميون بكل ما أوتوا من إمكانات تبديل الهوية المصرية السنية إلى التشيع والرفض وعلى عكس توقعاتهم، فقد ظل المصريون متمسكين بسنيتهم(١) مما حدا بالخلفاء الفاطميين إلى محاولة مصانعتهم ، ويمكن أن نعتبر أول اتجاه في المصانعة كان عندما أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله(٢) دار العلم أو ما يسمى في بعض المصادر بـ (دار الحكمة) وذلك في عام (٣٩٥هـ /١٠٠٥م)(٣) ، فقد جعل الدراسة فيها مفتوحة وسمح بالاشتغال بفقه المذاهب السنية ، وولى أمرها جماعة منهم مشايخ السنة، كان على رأسهم الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبوا أسامة جنادة بن محمد اللغوي وأبو الحسن علي بن سليمان المقري الأنطاكي، ولم يستمر الأمر طويلا ففي نهاية عام (٣٩٩ هـ/١٠٠٩م) قتل أبو أسامة اللغوي وأبو الحسن الأنطاكي واضطر الشيخ عبد الغني بن سعيد إلى الاختباء(٤)، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور، كما جلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء وحضر إليها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب أو النسخ أو التعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر(٥).

---

(١) سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص٨٤.

(٢) **هو الحاكم بأمر الله** أبو علي منصور بن المعز العبيدي، تولى الحكم بعد أبيه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) وكانت مدة حكمه (٢٠) سنة، سيرته من أعجب السير، مات مقتولاً سنة (٤١١هـ/١٠٢٠م)، ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص٩٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢،ص٣.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٨٠.

(٤)المقريزي: الخطط، ج ٢، ص٣٤١،٣٤٢.

(٥)المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٥٦ ، الخطط ، ج١، ص٤٥٩.

هذا كان من شأن دار الحكمة والبدايات للانفراج السني في هذه الدولة الشيعية ولكن تكاد تجمع المصادر على أن البدايات الحقيقية للتحول إلى المذهب السني في الحكم كانت مع أواخر العهد الفاطمي عندما تولى الوزارة وزراء سنيون وهما الوزير رضوان بن ولخشي والعادل بن السلار، حيث أقاموا المدارس السنية بمصر وبالتحديد في مدينة الإسكندرية، مما حدا ببعض الباحثين أن يقول إن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس وأن أول أستاذ نظامي للمذهب السني في مصر كان بها (1).

فتذكر لنا المصادر التاريخية أن الطرطوشي، وهو الشيخ محمد ابن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الطرطوشي، نسبة إلى طرطوشة بالأندلس، قدم إلى الإسكندرية واستقر بها عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) وتزوج فيها من امرأة ذات يسار، فحسنت حاله ووهبت له داراً، جعل الطابق العلوي منها موضع سكناه، وأما الطابق السفلي فجعله مدرسة يلقي فيها دروسه على طلاب العلم(2).

ويذكر تلميذه أبو الطاهر ابن عوف أحوال الثغر وعلماءه حين قدمه الطرطوشي والأسباب التي دفعته لنشر العلم السني، والتصدي لمناوئيه بقوله: (كان نزوله بالإسكندرية في الوقت الذي قتل فيه علماؤها، فوجد البلد عاطلا عن العلم، فأقام بها وبث علما جما، وكان يقول: إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية - لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم - أقول له: وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم)(3).

وأما **ثاني مدارس** الإسكندرية فهي المدرسة **الحافظية**، التي أنشأها الوزير السني رضوان بن ولخشي لمحاربة التشيع وأهل الذمة في نفس الوقت، فقد استفحل أمر أهل الذمة في مصر واستولوا على الوظائف المهمة في الدولة

---

(١) سعاد ماهر: مساجد مصر، ص١٦٧.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢٤٦.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢٤٧.

وتزايد الأمر سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) مع قدوم بدر الدين الجمالي[1] إلى مصر، فلقد كان أرمنيا اعتنق الإسلام لما ولاه الفاطميون دمشق، واشترط عند قدومه إلى مصر انجده المستنصر[2] أن يصحب جيشه معه، وكان يضم آلافا من الأرمن المسيحيين وعائلاتهم الذين استقروا في مصر حول القاهرة[3].

واستمرت هجرة الأرمن كذلك في عهد ولده الأفضل ومن بعده المأمون البطائحي[4].

ولما تولى الخلافة الحافظ عبد المجيد[5] اختار وزيره إسماعيليا من أصل أرميني وهو أبو الفتح يانس ثم استوزر بعد ذلك بهرام الأرمني والي الغربية ونعته (بسيف الإسلام تاج الملوك) رغم كونه نصرانيا وذلك في سنة (٥٢٩هـ/١١٢٨م) ولم يلبث بهرام أن أحضر من بلاد الأرمن اخوته وأهله حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان وبنيت في عهده كنائس وأديرة فخاف المصريون من تفاقم أمرهم[6] فبعث رؤساء المصريين إلى والي الغربية رضوان بن ولخشي أحد الأفراد الموصوفين بالشجاعة والإقدام، فحشد نحو

---

(١) **هو أمير الجيوش بدرالدين الجمالي** (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، كان شديد البطش سريع الغضب تسلط على الحكم حتى لم يبق للخليفة المستنصر بالله شئ، تولى الوزارة لمدة (٢١) سنة. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج١، ص٣٨٠.

(٢) **هو المستنصر بالله** معد بن الظاهر علي بن الحاكم منصور بن العزيز، تولى الحكم بعد أبيه سنة (٤٢٧هـ/١٠٥٥م)، وتوفي سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وكانت مدة ولايته ٦٠ سنة و ٤ أشهر، جرت في أيامه فتن ومحن بسبب الغلاء والقحط، فاستنجد بأمير الجيوش الجمالي من الشام ووكل له أمر الرعية. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٤٠؛ الذهبي: العبر، ج٣، ص٣١٨؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٠٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٣٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٩.

(٥) **هو الحافظ لدين الله** أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم بن محمد (ت٥٤٤هـ/١١٥٠م)، كانت ولايته ١٨ سنة و ٤ أشهر و١٩ يوما، وصف بالبطش والظلم، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٣٧.

(٦) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٠١ــ ٣٠٢.

ثلاثين ألفا من العربان وغيرهم وسار بهم نحو القاهرة لمحاربة بهرام، فلما تقاربا رفع رضوان المصاحف على الرماح فترك عسكر المسلمين بهرام والتجأوا بأجمعهم إلى رضوان(١)، وهرب بهرام بإشارة الحافظ إلى أخيه الباسك في قوص ونهب العامة سائر ديار الأرمن وبعض الكنائس، وقد توسط ملك صقلية روجر الثاني لدى الحافظ ليمنح بهرام وذويه الأمان(٢)، ونتيجة لتلك الأحداث اضطر الحافظ إلى تعيين رضوان وزيرا خلفا لبهرام، فعمل على استخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى ورسم على أهل الذمة الجزية وبعض الشروط (٣)، ولما كانت اتجاهاته سنية فقد انشأ مدرسة سنية في مدينة الإسكندرية عام (٥٣٢هـ/١١٣٧م)، لعدة اعتبارات من أهمها أن الإسكندرية مدينة سنية وجل أهلها من اتباع المذهب المالكي، وهي أيضا بعيده عن القاهرة مركز الخلافة الفاطمية الشيعية، وكذلك لتكون جبهة سنية يقاوم بها مذهب الدولة ونفوذ أهل الذمة، وقد أسند رئاستها وإدارة أوقافها إلى الفقيه المالكي أبي طاهر بن عوف، ولم يكتف الوزير رضوان بإنشاء مدرسة سنية مالكية في قلب الدولة الشيعية بل فكر في خلع الخليفة الفاطمي الحافظ واستشار في ذلك أبا الطاهر بن عوف وابن أبي كامل فقيه الإمامية وداعي الدعاة ابن سلامة، إلا أن هذا الأمر لم يتم(٤).

وأما **ثالث** المدارس السنية بالإسكندرية في العهد الفاطمي فهي المدرسة التي أنشأها العادل بن السلار الذي كان والياً على الإسكندرية قبل توليه منصب الوزاره . وقد خص هذه المدرسة والتي سميت **بالسلفية** لتدريس الحديث والمذهب

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ص١٢٤-ص١٢٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفاء ، ج٣، ص١٥٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٠٣، ٢٠٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص٤٥٨-٤٦٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص١٢٨-١٢٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفاء ص١٣٧.

الشافعي، ونصب بها رجلاً من كبار الحفاظ في عصره هو الحافظ أبو الطاهر السلفي وذلك بعد أربعة عشر عاما من إنشاء المدرسة الحافظية [١].

وعندما استولى صلاح الدين الديار المصرية من الفاطميين، بدأ التحول السني الرسمي لمصر ابتداء من عام (٥٦٥هـ/١١٦٩م) حين أبطل الأذان بـ(حي على خير العمل) واستفتح بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى بمصر لبني العباس سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)[٢]، وأمر أن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدين الأربعة [٣]، وعزل قضاة مصر من الشيعة، وحل مكانهم قضاة شافعية وعمر المدارس السنية بمصر والشام[٤]، وكانت للإسكندرية النصيب الأكبر والحظ الأوفر من اهتمامات صلاح الدين، فقد أنشأ بها المدارس ورحل إليها مصطحبا معه ولديه الأفضل والعزيز للسماع من السلفي[٥]، ورحل كذلك إلى أبي الطاهر بن عوف وسمع منه الموطأ [٦]، وقد واصل السلاطين الأيوبيون من بعده الجهود في التمكين للمذهب السني من خلال بناء المدارس وتقريب العلماء السنة[٧]، وهكذا ظلت الإسكندرية تؤدي دورها في العهد الأيوبي في نشر السنة والتمكين بها.

ولما ورث المماليك السلطة في مصر بعد أفول نجم الأيوبيين، واصلوا جهود أسلافهم في محاربة التشيع بمصر، فقد حفظت لنا كتب التاريخ حركة رجل شيعي يدعى بالكوراني ـ نسبة إلى كوران من قرى اسفرانية ـ حيث أظهر

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص٣٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٧، ص٣٥٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٩٨.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٤٨٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٦، ص١٠٩؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٧١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٥.

(٤) انظر في جهود صلاح الدين في إقامة المدار س السنية لمحاربة التشيع ، سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين واللماليك، ص١٠٤، ١٠٥.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٨٢.

(٦)القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٣٩.

(٧) لمعرفة المزيد عن الحركة الفكرية في عهد الأيوبيين، انظر: عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصريين الأيوبي والمملوكي الأول، ص١٤٩ ـ ١٥٧.

الزهد والورع، وأخذ يجمع بعض خدم السلطان ويحرضهم على الخروج على المماليك ليتولى بدلهم حاكم شيعي، ثم ثاروا وشقوا القاهرة وهم ينادون : يا آل علي وفتحوا دكاكين السيوفيين أخذوا ما فيها من سلاح، ولكن عسكر السلطان بيبرس أحاطوا بهم وأوثقوهم وأنزلوا بهم عقوبة الصلب تعزيرا، وكان ذلك في أواخر سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)(١).

وللحد من اتساع نطاق حركة التشيع بمصر عامة والإسكندرية خاصة فقد عمد سلاطين المماليك إلى اتخاذ إجراءات وقائية منها:

أولا: أن السلطان الظاهر بيبرس رتب القضاة على المذاهب الأربعة، فقد كان القضاء أول الأمر في يد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، ولما كثرت الشكايات منه وتوقفه في كثير من الأحكام جعل قضاة أربعة من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة المعروفة(٢).

ثانياً: أكثر السلاطين المماليك من إنشاء المدارس السنية كوسيلة علمية للتمكين للمذهب السني في البلاد، وأوقفوا عليها الأوقاف، لتتمكن من أداء رسالتها في محاربة التشيع، فقد قام الظاهر بيبرس بإنشاء أول مدرسة مملوكية سنية بالقاهرة سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وسميت بالمدرسة الظاهرية، وقد جعل بها خزانة كتب ضخمة، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين(٣)، وقد سار على نهجه من جاء بعده من سلاطين المماليك الذين تنافسوا في إنشاء المدارس ودور العلم، وقد شهدت الإسكندرية عدد كبير من المدارس ودر العلم في العهد المملوكي(٤).

ثالثاً: اهتمام سلاطين المماليك بالحديث وعلومه، فيذكر السيوطي الحال التي كانت عليها علوم الحديث والسنة زمن المماليك مقارنة مع زمن الفاطميين بقوله: (وما زال بها علم جم إلى أن ضعف ذلك باستيلاء العبيديين الرافضة عليها

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٤٠٠.

(٢)ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٧٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٤٦٦.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٤) سيأتي ذكر ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

سنة ٣٥٨، وبنو القاهرة وشاع التشيع بها وقل الحديث والسنة إلى أن وليها أمـراء السنة النبوية وضعف الروافض والحمد لله)[١]، وأضاف السـخاوي: (وهـي الآن أكبر البلاد عمارة بالفضلاء من سائر المذاهب والفنون)[٢]، وقد سبقت الإسكندرية بلاد مصر المملوكية في هذا الأمر، ففيها يقول الذهبي: (ما زال بها الحديث قليـلا حتى سكنها السلفي، فصارت مرحولا إليها في الحديث والقراءات)[٣]، وقد اعتـاد سلاطين المماليك إصدار المراسيم السلطانية بقراءة صحيح البخاري ومسلم فـي القلعة وفي المساجد وإلزام الناس بالحضور فمـن ذلـك مـا كـان فـي عـام (٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، حيث أمر السلطان (برسباي) بإحضار العلماء لسماع "صحيح البخاري" بالقلعة[٤]، وفي عام (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) أمر السلطان (برسباي) بقـراءة "صحيح مسلم" بالقلعة واجتمع الفقهاء والعلماء وخلع عليهم في يوم الختـم خلعـا سنية، وفي عهد السلطان (الأشرف قايتباي) عام (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) ختم "صحيح البخاري" بالقلعة وحضر القضاة والعلماء وفرقت الخلع كالعادة [٥]، وفـي عـهد السلطان (قانصوه الغوري) في رمضان عام (٩١١هـ/١٥٠٥م) كان ختم قـراءة "صحيح البخاري"، وكان الختم بالحوش السلطاني، ويعلق ابن إياس علـى ذلـك بقوله: (وكانت العادة القديمة بأن البخاري يقرأ بالقصر ويختم بالقصر ويكون لـه يوم مشهود وتفرق هناك الخلع على القضاة ومشايخ العلم ..)[٦].

وكان السلاطين يتشددون في معاقبة من يسيء الأدب في مجلس العلم فقـد أكد السلطان (برسباي) على القاضي الشافعي عام (٨٣٨ هـ/١٤٣٤م) أن يحضر معه عصا في دروس الحديث، ومن تعدى أو أساء الأدب في المجلس أدب [٧].

---

(١) الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ص١٧٠ـ ١٧١.

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص٦٦٢.

(٣) الذهبي: الأمصار ذوات الآثار، ص١٨٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣٠٦.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١١.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٨٨.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٥٤٨.

وكانوا يرتبون الخلع المقررة للطالب الذي يديم سماع الحديث ويعطونه المال الجزيل كما ذكره ابن حجر في تاريخه[1].

ولا شك أن قراءة الحديث مغايرة تماما للمذهب الشيعي الذي يعتمد في أصله على أساطير وخرافات، ولا شك أيضا أن قراءة "الصحيحين" مكنت للمذهب السني في نفوس العوام والأمراء وأكابر الدولة مما وطد للسنة في مصر وخرج التشيع إلى غير رجعة.

ولقد كان تلاميذ الحافظ السلفي بالإسكندرية يتصدرون الإقراء والتحديث وكانت الرحلة تشد لهم من كل مكان[2].

رابعاً: تعاقب **سلاطين** المماليك على **إزالة المنكرات** الظاهرة والأمر بالمعروف للتأكيد على **تطبيق المذهب السني**، فقد قام الظاهر بيبرس بالقضاء على بؤر التشيع نهائياً، واستئصال شأفته في دولته، وإقامة الجمع، والترضي عن الصحابة، والقضاء على المنكرات بها، وإقامة شعائر وشرائع الإسلام فيها[3]، كما منع تعاطي الحشيش والاتجار به، وأمر بإراقة الخمور في سائر البلاد، وإغلاق بيوت المسكرات، ومنع الحانات والخواطي بجميع أقطار دولته في مصر والشام وأرسل المراسيم لتقرأ على المنابر في سائر الأقطار، ولما ورد المرسوم إلى قاضي الإسكندرية ناصر الدين أحمد بن المنير قال:

ليس لإبليس عندنا أرب　　غير بلاد الأمير مأواهُ
حُـرمتْه الخمرُ والحشيشُ معاً　　حُرِمْتُه ماءه ومرعاهُ[4].

وقد توعد بيبرس من يعصرها أو يشربها بالقتل، فأريق على الأجناد والعوام منها ما لا يحصى قيمته[5]، وشنق بعض من شرب الخمر[6].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٥٤٨.

(٢) للوقوف على تفصيله انظر ما يلي ص ٣٤٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٠٨.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩٦، وانظر ما سبق ص ١٢٢ في الأوضاع الاجتماعية.

(٥)ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص٦٦٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٦٨.

(٦) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩٧.

وحذا حذو الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك من بعده، ففي عد الناصر محمد قام والي القاهرة بتوسيط جماعة من المفسدين، وأراق الخمور، وأحرق الحشيش، وقد نال ذلك العمل منه استحسان الناصر[1]، وفي بغداد تم رسم إراقة الشراب حتى ملأ دجلة، ومنع الناس من عصر العنب، وأمر بالنداء على أن من وجد عنده شيء من الشراب فيكون عرضة لعقوبة القتل، وقتل بسبب ذلك جماعة كما رسم باستتابة الخواطيء وتزويجهن حتى لم يبقى في البلد خاطئة[2]، وفي الإسكندرية قام الأمير بكتمر الحسامي[3] والي الثغر بإراقة الخمر ومنع بيعها وحمل الناس على الأمور الشرعية ووقع عليهم الغرامات حتى امتثلوا للشرع[4] بل نستطيع القول أن الإسكندرية أصبحت يضرب بها المثل في المحافظة على علوم الشريعة، وتغيير المنكر، فقد ذكر القلقشندي نقلا عن صاحب مسالك الأبصار عن مدينة فاس: (أنها صلحت أن تكون قاعدة الملك، وأنها تشبه الإسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس)[5].

وسار النواب على نهج سلاطينهم في هذا الأمر، فهاهو نائب الإسكندرية جانبك الناصري، يخلع عليه السلطان ببندر جدة، وكان الناصري قد حمل قسطاً من العلم من الإسكندرية، فلما وجد بجدة مصطبة اصطلح الناس على أن من التجأ من أرباب الجرائم بها، فإنها تفيده ولا يجرؤ أحد على أخذه من عليها كان من كان، فقام بهدم هذه المصطبة حفاظاً على عقائد الناس، وقد عبر ذلك ابن تغري بردي بقوله: (فالله يغفر له بإزالة هذه البدعة من بين المسلمين)[6].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٢٨ ــ ٣٢٩.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٠٤.

(٣) هو الأمير بكتمر الحسامي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، تولى الثغر خلفا للأمير بيلباك المحسني، وكان قبل ذلك حاجبا بدمشق، لمزيد عن ترجمته انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٧، ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٣٨٦.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص١، ص٢٥٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٥٧.

(٦) ابن تغري بردي: المنهل، ج٤، ص٢٣٠، ٢٣١.

خامساً: حرص **سلاطين** المماليك ونوابهم على **إنزال عقوبة التعزير على الزنادقة**[1]، فلا شك أن الاتجاهات الفكرية المنحرفة تعتمد على مخالفة الكتاب والسنة فيما تعتقد وتدعو إليه، كما كان من شأن العبيديين في مصر الفاطمية، ولما قام سلاطين المماليك بتأكيد هوية مصر السنية سيراً على نهج الأيوبيين، رأوا أن الأمر يحتاج إلى القبض بيد من حديد لمنع المخالفات العقدية بدولتهم من ذلك ما ذكره ابن حبيب في حوادث سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) من ضرب رقبة أحمد بن محمد البقبقي بالقاهرة المحروسة بين القصرين لزندقته وتلاعبه بالدين واستخفافه بالشرع الشريف واستهتاره بالقرآن الكريم[2]، وقد سلم لقاضي القضاة المالكية زين الدين علي بن مخلوف (ت٧١٨هـ/١٣٣٨م)، الذي حكم بقتله[3]، وقد قال فيه الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال[4] لما سجن ليقتل:

يظن فتى البقبقي أنه   سيخلص من قبضة المالكي

نعم سوف يُسلِمُهُ المالكيْ   قريباً ولكن إلى مالكٍ[5]

---

(١) **الزنديق**: هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، إذا تبين أمره قبل أن يتوب من الزندقة، انظر: أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، ص٥٠٥؛ وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ج٦، ص١٨٤.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص٢٤١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٢٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٠٢؛ وقد أورد العيني في كتابه عقود الجمان القصة بالكامل ، وكيف أن جماعة من أصحابه ومن أكابر القبط حاولوا عند القاضي زين الدين أن يستتيبه وأن لا يقتله وأرادوا أن يثبتوا له جنوناً ليتخلص من هذه الورطة، ولكن القاضي أمر بإراقة دمه لما ثبت لديه من زندقته وكفره بعد أن تحدث في هذا الأمر مع السلطان الملك الناصر بن قلاوون، والذي ترك أمر القضاء في ذلك الزنديق للقاضي، انظر: العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٧ ـ ١٨٣.

(٤) **هو محمد بن دانيال** بن يوسف الموصلي، الحكيم شمس الدين الكحال الفاضل الأديب (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)، انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٥٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٧.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٤٢؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص ١٨٨.

وكذلك كان الأمر بدمشق ففي سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) حكم القاضي المالكي بقتل محمد بن عبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر بن عثمان الباجريقي وإراقة دمه وإن تاب وأسلم، لاستخفافه بالدين وكلامه في الباري عز وجل [١].

وكذلك ما حدث بالصعيد سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) عندما خرج شخص من الفقراء قيل له المهدي وقامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستنجي به، وأشياء من هذا النمط فأرسل السلطان إلى قاضي القضاه المالكي، فحكم بقتله وضربت عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل[٢].

وفي نفس العام خرج خارجي من الصعيد يزعم أنه من خلفاء الصوفي وتكلم بكفريات وطعن في القرآن والحديث فطلب إلى مصر وحكم عليه الشيخ شمس الدين الخطيب الحنفي بقتله، ورميت برقبته ثم اتبع باثنين من جماعته [٣].

ولقد كان أكثر هؤلاء الزنادقة يحالون على القاضي المالكي بالديار المصرية، لأن مذهب المالكية ينص على أن الزنديق ينفذ فيه الحكم وإن أظهر التوبة خلافاً للمشهور من بقية المذاهب[٤]، ولذا اختار المماليك الإحالة للمالكية

---

(١) ابن حبيب: تذكرة البنية، ج١، ص٢٦٤، ويلاحظ أن الباجريقي هرب بعد الحكم عليه وأقام بمصر بالجامع الأزهر ثم نزل اقرب دمشق إلى أن مات سنة (٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، كما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٣٠؛ وابن شاكر: فوات الوفيات، ج٢، ص٤٤؛ وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٦٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٨٧.

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٠٢ .(وإن كان غالب القضاة المالكية بمصر كانوا من الإسكندرية كقضاة بيت التنسي والدماميني وغيرهم).

(٤) اختلاف العلماء في **قبول توبة الزنديق**، فذهب الإمام الشافعي إلى قبولها لأن النبي صلى الله عليه وسلم كف عن المنافقين مع إخبار الله تعالى له بباطنهم، وذهب الإمام مالك إلى عدم قبول توبته واستدل لهذا بقوله تعالى: {إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا}، والزنديق لا تظهر منه علامة تبين، وعن الأمام أبي حنيفة والإمام أحمد روايتان كالمذهبين، انظر: ابن قدامة: المغني، ج١٢، ص٢٦٩ ـ٢٧١؛ ابن عبد البر: الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، ج٢، ص١٠٩١؛ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١٦، ص٣٠، **وهذا الخلاف في توبته في الظاهر**

لمنع التهتك والاستهتار بالشرع، بل إنهم كانوا يعملون على الفور بفتوى القضاة المالكية خاصة التي تصلهم من الإسكندرية لحسم مادة الزندقة، كما حدث سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، حين أرسل قضاة الإسكندرية فتوى بقتل بولص الراهب المعروف بالحبيس، والذي أظهر الكثير من المال دون أن يعلم مصدره، وكان يواسي به أهل الذمة وغيرهم، فجاءت الفتاوى من فقهاء الإسكندرية إلى السلطان الظاهر بيبرس بقتله، وعللوا ذلك بخوف الفتنة على ضعفاء النفوس من المسلمين [١]، ويلاحظ أن هؤلاء الزنادقة كانوا في كثير من البلاد شمالها وجنوبها إلا أنه لم تحدثنا المصادر عن وجود شيء من ذلك بالإسكندرية، بل لما وجد بالإسكندرية من حكم عليه بالزندقة لم يكن من أهلها إنما كان قادما من خارجها، فقد ضربت عنق ميخائيل الأسلمي الذي كان نصرانيا وأسلم وقرر في نظر الإسكندرية سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م)، بعد أن اثبت عليه أنه زنديق وشهد عليه بذلك خمسون إلا واحد[٢]، ولعل السبب في ذلك هو تقدم الإسكندرية على غيرها من المدن بظهور مدارس السنة بها إبان الحكم الفاطمي وأيضا كان انتشار المذهب المالكي بالإسكندرية واعتلاء منصب القضاء بها قضاة مالكيون حد من زحف الفكر الزندقي إلى الثغر مما أثر في التمكين للمذهب السني بها والله تعالى أعلم

أما في الباطن فتنفعه التوبة عند الله إن كان تاب توبة صحيحة، انظر: خالد حمزة: تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية، ج٢، ص٧٩٤.

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٩.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ٣٠١ .

الفصل الثالث

دور العلم في الإسكندرية ونُظُمه ووسائله خلال العصر المملوكي

- المساجد .
- الكتاتيب.
- المدارس النظامية.
- دور العلماء .
- الأربطة والخانقاوات.
- أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية.
- الرحلات العلمية.
- الإجازات العلمية .
- المناظرات والندوات العلمية .
- المدرسون وطرق التدريس .

المساجد

لم يقتصر دور المسجد في الإسلام على مجرد أداء الصلوات الخمس، بل تجاوز ذلك فصار مؤسسة اجتماعية تربوية لم تعرف الدنيا لها مثيلا ويُعدُّ المسجد النواة الأولية لبث الدعوة الإسلامية، ولا أدل على أهميته من أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة قام بالإعداد لبناء المسجد، واشترى أرضه من يتيمين ثم قام بتجهيزه حتى صار مسجداً مؤسساً على التقوى(١)، ولعل من أهم خصائص المسجد في الإسلام أنه منارة علم دائمة، ومؤسسة تربوية واجتماعية ، ومكان لعقد رايات الجهاد(٢).

ولم يحدث تغيير كبير في **خصائص المساجد** في الدولة المملوكية عنها في عصور الإسلام السابقة، فكانت المساجد تؤدي **دورها العلمي** من خلال الخطابة وحلقات الدروس، وتؤدي **دورها الاجتماعي التربوي** كذلك، كما أنها لم تغفل **الدور الجهادى** ولا سيما وأن دولة المماليك دولة جهادية(٣).

أما بالنسبة لدور المسجد في الحركة العلمية، فقد كانت المساجد والمدارس تمثل وحدة واحدة من ناحية التدريس العلمي لعلوم الشريعة، بل صارت كثير من المدارس تقام فيها الصلوات الخمس، بل وصلاة الجمعة أيضاً(٤)، إلا أننا يمكن أن نلمح فروقاً بين دور المسجد العلمي، ودور المدارس، وذلك من خلال ما يلي:

ـ كانت الدروس بالمساجد مفتوحة، بمعنى أن الشيخ يلقي الدرس على الطلاب، والطلاب لا يتقيدون بعدد معين، بعكس المدارس التي كانت أعداد

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ق٣، ص ٢١٣ ــ ٢١٧؛ محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص٩٣.

(٢) الوشلي: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور، ص٢٢، ٢٣.

(٣) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة ، من مجموعة أبحاث تاريخ المدارس الإسلامية في مصر، ص١١٦ ــ ١٨.

(٤) محمد حمزة: العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية ، ص٢٨٨.

الطلاب لا يتجاوز ما قرره واقف المدرسة عادة [1].

– لم تكن ثمة أوقاف مرتبة لطلاب حلقات الدروس في المساجد، ولذا فالرغبة في العلم الشرعي كانت الحافز الأساسي لهؤلاء الطلاب، ولذا نبغ فيهم كثيرون وصاروا أئمة يقتدى بهم.

– عادة لا يتم تقرير مرتب للمدرس بالمساجد، إلا في بعض الحالات، ولهذا فإن المدرس إنما يلقي دروسه حسبةً.

– كانت المساجد مفتوحة وحلقات العلم فيها كثيرة ومتنوعة، وبإمكان الطالب أن ينتقل من حلقة إلى أخرى وفق رغبته،كما أن الحضور كان بها اختيارياً، ولكافة الطبقات والأعمار.

– كانت المساجد مفتوحة أمام الغرباء بحيث يدخلونها بغير حرج أو تكلف بينما كانت المدارس لها أنظمتها التي قد يتحرج بعض الغرباء من دخولها[2].

ولما كان سلاطين المماليك ممن اهتم بإنشاء العمائر الدينية ومنها المساجد[3]، فقد شهدت مدينة الإسكندرية في عهدهم العديد من هذه المساجد والتي عبر عنها ابن جبير بقوله وهي: (أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى أثنى عشر ألف مسجد والمقل دون ذلك لا ينضبط، فمنهم من يقول : ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك، وبالجملة فهي كثيرة جداً، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع)[4].

---

(١) انظر محمد أمين : الأوقاف، ص ٢٤٧.

(٢) ولا شك أن وجود العديد من الغرباء بأسئلتهم ومناقشاتهم يثري الحركة العلمية، كما يأتي تفصيله إن شاء الله في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(٣) النهرواني: الإعلام، ص٢١٤، وانظر على سبيل المثال المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة أنشأها السلطان المنصور قلاوون وأبناؤه الناصر محمد وأخوه الحسن والتي ما زالت إلى الآن تشهد على روعة البناء والتصميم وتؤكد على حب المماليك للبناء والعمارة.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٤٣.

كما تحدث الهروي عن ذلك بقوله:(وبها من المساجد والمعابد مالا رأيته بغيرها، وذكر لي ابن منقذ أن فيها اثني عشر ألف مسجد)[١].

وعلى الرغم من التفاوت الرقمي نسبيا عند ابن جبير والهروي، إلا أن زائرا آخر للإسكندرية في نفس الفترة، وهو محمد بن عبد الوهاب بن خزيمة الذي أقام بالمدينة نحو الأربعين سنة، ذكر عددا أخر للمساجد، حيث قال: (وبها ٨٠٠ مسجد، منها ١٩٠ للخطبة)[٢].

وهذه النقول في الجملة لها دلالتها على كثرة مساجد الثغر، وخاصة المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة، كذلك لها دلالتها على كثرة أهل الإسكندرية في ذلك الزمان، فإن الأصل أن خطبة الجمعة تكون في البلد الواحد في مسجد واحد فقط، ثم الأمر يزداد بحسب احتياج البلد إلى مسجد آخر وثالث[٣]، ووجود (١٩٠) مسجدا يخطب فيه الجمعة بالإسكندرية يدل على كثرة أهلها، إضافة إلى ذلك له دلالة أخرى على نشاط الحركة العلمية، إذ كانت خطب الجمع تشكل دروسا يستفيد منها الحاضرون، ناهيك عن الخطب المدونة والتي استفاد منها الكثير من طلبة العلم من أهل المدينة وممن يفد إليها.

ولا شك أن الحال استمرت على هذا المنوال في طوال العهد المملوكي ويأتي في طليعة هذه المساجد جامعان يعود بناؤهما إلى ما قبل العصر المملوكي، ألا وهما الجامع الغربي والجامع الشرقي .

---

(١) الهروي: كتاب الإشارات، ص٤٧ـ ٤٨.

(٢) نقلا عن الشيال: تاريخ الإسكندرية، ص٨١. وهذا الرقم قد يكون أقل مبالغة، ويرجحه أن صاحبه ممن أقام بالإسكندرية ولم يكن رحالة يسمع ما يقال له، إلا أن العدد مازال كبيرا !.

(٣) لقد نص الفقهاء على أنه إذا كان البلد كبيرا يحتاج إلى جوامع فصلاة الجمعة في جميعها جائزة، وأما مع عدم الحاجة فلا يحق أكثر من واحدة ، وإن حصل الغنى باثنتين لم تجز الثالثة وكذلك ما زاد، انظر في ذلك: ابن قدامة، المغني: ج٣، ص٢١٣.

فالأول وهو الجامع الغربي: فيعد أقدم مساجد الإسكندرية، إذ يعود تاريخ إنشائه إلى الفتح الإسلامي للإسكندرية، فقد أقامه القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه فوق كوم وعلة[١] غربي المدينة بمسافة غير بعيدة عن البحر[٢].

وقد ذكره القلقشندي في نسخة تكليف بالخطابة جاء فيها: (وأما الجامع الغربي فهو أجل جوامع الإسكندرية قدراً وأعظمها صيتاً وأسيرها في الأفاق ذكراً يحضر الجمعة فيه أهل المشرق والمغرب، ويلم بخطبته سكان الوهاد والهضب)[٣]، وهذا الحشد الكبير الذي يجتمع لصلاة الجمعة له دلالتان حضارية وعلمية، فالحضارية لتقدم العمارة الهندسية بالإسكندرية، فإن المسجد الذي يتسع لـ (أهل المشرق والمغرب..وسكان الوهاد والهضب)، لابد أن يكون ضخماً وأعمدته عالية بحيث لا يحدث اختناق، كما لابد أن يراعى كون العتب والقباب في السقف بحيث تعكس صوت الإمام إلى المصلين في آخر الصفوف، ففي كتب الرحالة وصف المسجد بأنه بناء ضخم، مربع الشكل، يشتمل على أربعة إيوانات يضم إيوان القبلة ٢٩ بلاطة تقطعها خمسة أساكيب[٤]، ويتوسط صحن الجامع قبة للوضوء تحيط بها أحواض الزهور، وتحتوى عقوده على زخارف جميلة، وتتكون مئذنته من ثلاث طوابق، ويعلو جدران المسجد شرفات مسننة الشكل تشبه شرفات الجامع الأزهر، ويدور بأعلى جدران المسجد نوافذ معقودة[٥].

---

(١) **كوم وعلة:** عبارة عن تل من الأنقاض يبدوا للقادم إلى الإسكندرية من أبواب البر، وينسب هذا الاسم إلى عبد الرحمن بن وعلة السبئيى المصري صاحب ابن عباس رضي الله عنهما وهو صاحب المقبرة وصار اسمه علماً عليها، انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج١، ص٨٨؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٥٧.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٤١، ١٣٠؛ ابن رشيد: ملء الغيبة، ج٣، ص٩٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٨.

(٤) **البلاطة:** هي الجزء المعماري المحصور بين أربعة أعمدة، في حين إن **الأسكوب** : هو العرضة الموازية لجدار القبلة. انظر حسين مؤنس: المساجد، ص٨٨،٨٩. **وأما الإيوان** : فهو قاعة مسقوفة بقبوة، انظر أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، ج ٢، ص٨٧.

(٥) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٧٢.

وقد أطلق عليه **جامع الألف عمود**[1]، وذكر المؤرخون أنه صلى في أحد أيام الجمع فيه على سبعمائة جنازة دفعة واحدة وذلك إبان الوباء الذي اجتاح الإسكندرية عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[2]، كما عرف باسم **المسجد العتيق**[3]، وهذه التسمية مأخوذة من كونه أول المساجد الجامعة التي أقيمت بالثغر مع الفتح الإسلامي للمدينة، وعرف أيضا **بجامع السبعين**[4]، **والجامع الأخضر**[5].

وقد ظل هذا المسجد موضع العناية من قبل الأيوبيين والمماليك، فقد زاد في مساحته السلطان **صلاح الدين** الأيوبي زيادة كبيرة[6]، وصلى فيه السلطان المملوكي الأشرف شعبان الجمعة إبان زيارته للمدينة وتفقده لأنحائها بعد واقعة القبارصة[7]، وقد أمر بترميمه في عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، فقام بذلك الشيخ **معين الدين** ابن الشيخ بهاء الدين عبد الله الدماميني ناظر الإسكندرية[8]، كما أن الشيخ ابن سلام صاحب الرباط المعروف كان قد دأب على تغطية هذا المسجد بصفوف من الحصر والجدائل من ماله الخاص[9].

وقد ظل الجامع الغربي يؤدي رسالته العلمية طيلة العصر المملوكي[10] **وقد تولى الخطابة فيه ثلة من العلماء**، من أشهرهم **ناصر الدين** ابن المنير قاضي الإسكندرية، والذي بلغت شهرته في الخطابة أنه لما صدر الأمر بتولية القاضي

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج١، ص١٠٢، ج٦، ص٤٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٨٥؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ١٠٤.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٥٢.

(٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٣، ص٩٣؛ النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤٠.

(٤) على مبارك: الخطط، ج٧، ص١١٥.

(٥) راجع مجلة الجمعية الملكية للآثار بالإسكندرية، مج ٣٤، سنة ١٩٤١، ص٩٨، ٩٩، نقلا من هامش: النويري السكندري: الإلمام ، ج١، ص١٠٢.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤٠.

(٧) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٤.

(٨) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤١ـ ٤٥.

(٩) النويرس السكندري: الإلمام ، ج٢، ص١٥٤.

(١٠) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٧٢.

محمد بن الطناحي الخطبة بالمسجد عام (٨٠٤هـ/١٤٠١م)، جاء في سجل تكليفه بالخطبة ما يلي: (فليرق منبره رقى من خطب المنبر لخطبته، وعلم علو مقامه فقابله بعلو رتبته، ويشنف الاسماع بوعظه، ويشبع القلب بلفظه، ويحي العقول بتذكيره، ويبك العيون بتحذيره، وليعد للجامع ما تعوده من الإسعاد، ويجدد ما درس من معالم خطابته حتى يقال: هذا ابن المنير قد عاد)[١]، وهذا الوصف يدل على ما كان عليه ابن المنير في خطبته من التذكير وقوة الألفاظ وإبكاء الحاضرين حتى صار مضرب المثل في الخطابة، **وممن** تولى الخطابة أيضا بهذا المسجد **شرف الدين** محمد الدماميني[٢]، وكذلك **بدر الدين** محمد الدماميني[٣] وأيضا **ازين عبد الرحمن** الفكيري وقد ظل محتفظا بإمامته وخطابته حتى مات سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[٤]، ومن بعده ابنه **الشهاب** أحمد (ت٨٧٠هـ/١٤٦٥م) واستمر إماما للمسجد (٣٥) عاما، ثم جلس شاهدا، وترك الإمامة والعمل بالقضاء وانصرف للتجارة[٥] ومنهم علي بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب بن يفتح الله القرشي السكندري (ت٨٦٢هـ/١٤٥٧م)[٦].

وممن درس بالجامع الغربي أيضا: الإمام عبد الكريم بن علي بن محمد النحوي الضرير والملقب بالبارع، فقد كانت له حلقة به يقرئ النحو،، وصف بميله نحو الخير مع كثرة الصمت[٧].

وأما الجامع الشرقي: فكان يقع بحي العطارين، ولذا أطلق عليه **جامع العطارين** ، ويرجع تاريخ بنائه إلى الفتح الإسلامي أيضا[٨]، ولكنه لم يكن جامعا

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص٤١٨، ٤١٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٩٨.

(٣) القرافي: توشيح الديباج، ص١٧٩، ١٧٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص١٥٦؛ الداودي: طبقات المفسرين، ج١، ص٢٨٧

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٣٣٥.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٨.

(٧) الصفدي: نكت الهميان، ص١٩٥.

(٨) الشيال: الإسكندرية طبغرافية المدينة، ص٢٠٣، ٢١٦.

إلا في عهد الوزير الفاطمي أمير الجيوش بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر حيث أمر بإعادة بنائه من المصادرات التي فرضها على أهل الإسكندرية عقوبة لهم على مداراتهم لولده الأوحد الذي ثار عليه، ومنذ ذلك الحين أقيمت فيه الخطبة وصار جامعا[١]، وقد استمرت الخطبة فيه طيلة عهد الفاطميين إلا أن صلاح الدين الأيوبي أوقف الخطبة فيه، ولعله لعدم الحاجة مع وجود الجامع الغربي، إلا أنه في العهد المملوكي وتحديدا زمن الناصر محمد بن قلاوون أعيدت خطبة الجمعة به، وعين القاضي فخر الدين محمد بن محمد بن مسكين الشافعي (ت ٧٦١هـ/١٣٦٠م) خطيبا له[٢]، وقد أطلق عليه أيضا **الجامع الجيوشي**، نسبة إلى الوزير الفاطمي أمير الجيوش الجمالي[٣]، وقد قام على خدمته ثلة من علماء الإسكندرية، من هؤلاء قاضي القضاة **كمال الدين** التنسي ، فقد أولاه عناية واهتماما فائقا، من حيث تفقده وترميمه وتجديده، فمن ذلك عندما سقط سنة (٧٧٢هـ/١٣٧١م) عمود من أعمدته فتكسر قطعا، فقام بانتزاع عمود من أعمدة الجانب البحري للمسجد ووضعه مكان العمود الساقط، ثم دعمه بعمود أخر جلبه من فندق الموز بشارع المرجانيين وكان قد تهدم في واقعة القبارصة، كذلك قام كمال الدين بترميم الجامع في العام التالي وكساه بالبياض، وغرس في صحنه أشجارا على نحو ما كان في مساجد الأندلس، ووصف بأنه كان منتظم الشكل، يقوم على كل ركن من أركانه الأربعة مئذنة مرتفعة، يحتوى على فناء داخلي مكشوف يتوسط صحنه ميضأة وأشجار ونباتات، احتوت جدرانه على زخارف جميلة محفورة على قطع الرخام والجرانيت ومطعمة بالفسيفساء[٤]، وقد نظم النويري السكندري شعرا جاء فيه:

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١؛ وقد سجل هذا التجديد على لوحة رخامية لا تزال حتى الآن باقية في أدنى المئذنة انظر: السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٢٠.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٢١؛ السلوك، ج٣، ق١، ص٥٦.

(٣) النويري السكندري: الإلمام ، ج٤، ص٤٠.

(٤) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٧١.

غدا الجامع الشرقي بالحسن مبدعا   له بهجة يصبو له كل من سعا
بياض له كالياسمين تخاله   كدر على حيطانه مترصعا [١].

ومن تولى **الخطابة والإمامة والتدريس** فيه الفقيه ناصر الدين ابن المنير[٢]، **كذلك** تولى شيخ القراءات **المكين الأسمر** تعليم قراءة القرآن وتلاوته فيه[٣].

مسجد سوق العجم: ذكر **التجيبي** أنه قرأ به على التاج الغرافي كتاب ثواب قضاء حوائج الإخوان وما جاء في إغاثة اللهفان للحافظ أبي الغنائم وجزءا فيه أربعون حديثا من حديث ابن زنبور[٤] في سنة (٦٩٦هـ/١٢٥٨م) [٥].

مسجد أبي الدرداء رضي الله عنه: قرأ فيه التجيبي أيضا كتاب نهاية الرائض في خلاصة الفرائض[٦] على مؤلفه جمال الدين الصودي[٧] سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، وقرأ غير ذلك من كتبه على المؤلف ذاته[٨].

مسجد الشمس الواسطي:

ذكره التجيبي في معرض حديثه عن العلوم التي تلقاها فيه، والتي منها جزء فيه فضيلة من أسمه أحمد للحافظ ابن بكير[٩]، قرأه على الجمال بن عبد الله بحق سماعه من منصور بي سليم بالثغر سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م)[١٠].

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٤٤.

(٢) العماد الاصفهاني: الخريدة، ص١٩٣.

(٣) المقريزي: درر العقود ، ج١، ص٢٣٦.

(٤) هو أبو صالح محمد بن أبي الأزهر المكي المعروف بابن زنبور، (ت٢٤٨هـ/٨٦١م)، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٢، ص١١٩.

(٥) التجيبي: البرنامج، ص، ١٥٧، ١٧٧ـ ١٧٨.

(٦) رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج٦، ص٢٣٨.

(٧) هو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن أبي بكر بن عبد السلام المغربي الصودي نزيل الإسكندرية ، كان حيا سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)، انظر: كحالة: السابق، ج٦، ص٣٨.

(٨) التجيبي: البرنامج، ص٢٧٤ـ ٢٧٥.

(٩) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن بكير (ت٣٨٨هـ/١٠٠٢م). انظر ترجمته في ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٣، ص١٢٨.

(١٠) التجيبي: البرنامج، ص٢٣٤.

مسجد قداح: ورد ذكره عرضا في ترجمة الإمام زين الدين محمد بن أحمد بن يوسف الصنهاجي (ت٧١٧هـ/١٣١٧م)، إمام القراءات بالثغر، فقد كان يؤم المصلين بذلك المسجد[١]، ومما لا شك فيه أن إماما بهذه الصفة لا بد أن تكون حلقاته أو بعض حلقاته العلمية بالمسجد الذي يؤم الناس فيه.

جامع الأمير قجماس الإسحاقي[٢]:

كانت تقام به صلاة الجمعة والجماعات، وقد أقام الأمير بجوار الجامع بستانا وخانا لنزول الغرباء فيه[٣].

جامع السواري:

ويقع خارج باب السدرة[٤] على مقربة من عمود السواري المشهور، وقد قام الأمير قجماس بتجديده وإقامة الشعائر الدينية به إبان توليه نيابة الإسكندرية[٥].

مسجد القشميري: ذكره النويري السكندري حين أرخ لواقعة القبرصي، وذكر أنه كان يتولى العناية به عبد الله بن الفقيه أبي بكر، وقد أخذ منه النويري تفاصيل اقتحام القبارصة لرباط ابن سلام[٦].

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٤٥٧ـ ٤٥٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٤٦.

(٢) هو الأمير قجماس الإسحاقي تولى إمارة الثغر مرتين الأولى سنة (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، واستمرت حتى سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، والثانية سنة (٨٨١هـ/١٤٧٦م) واستمرت حتى سنة (٨٨٢هـ/١٤٧٨م)، انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٣٢، ١٤٢.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢١٣؛ محمد أمين: فهرس وثائق القاهرة، ص٣٨٣ـ٣٨٩.

(٤) **باب سدرة:** أحد أبواب الإسكندرية، ويقع في الطرف الغربي من السور الجنوبي للمدينة، وعرف بذلك نسبة إلى شجرة عاتية من أشجار السدر كانت تقوم إلى جواره، انظر السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٤٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢١٣.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٥٠ـ ١٥١.

مسجد أبي الأشهب: ذكره النويري السكندري في الإلمام في معرض حديثه عن دخول السلطان الأشرف شعبان للمدينة واختراق موكبه لشارع المحجة العظمى والذي به المسجد[1].

مسجد قصر السلاح: ويقع داخل قصر السلاح، وقد صلى به السلطان الأشرف شعبان العصر في أول يوم من زيارته للمدينة سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)[2].

مسجد بظاهر المدينة: ويقع من ناحية الغرب من مدينة الإسكندرية، كان يعتكف به ياقوت العرشي للتعبد والتهجد[3].

مسجد القمري: أنشأه أبو الحسن علي بن إسماعيل البياع القمري،بمنطقة بالإسكندرية تدعى بـ (القمرة)، وقد تصدى منشئه لرواية الحديث به[4].

مسجد تربة الأمير طغية[5]: يقع في شبه جزيرة المنار، وكان يعلو باب هذا المسجد غرفة كانت محل جلوس الأمير جنفرا لاستعراض طوائف الجند في إطلاقهم النفط المشتعل[6].

مسجد الهمداني: ذكره البلوي في رحلته، وينسبه إلى الإمام المحدث أبي الفضل جعفر بن الحسن الهمداني (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م)[7].

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٣.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص١٧.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٥، ص٢١٧.

(٤) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢،ص٥٢٧.

(٥) هو الأمير سيف الدين بن عبد الله الناصري، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولما مرض الناصر، شعر أن طغية له إقبال على أن يأخذ الملك لنفسه من بعده، فقام الناصر بسجنه بمدينة الإسكندرية حتى لا تتحقق ظنونه، واستمر طغية في محبسه حتى توفي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م)، انظر ترجمته: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٥٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٤٠٨؛ الدليل الشافي، ج١، ص٣٦٤.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٣٣، ١٣٤، ج٦، ص١٧.

(٧) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص١٠٣. ولعله هو الإمام المحدث جعفر بن علي بن هبة الله أبو

جامع صفوان:

ذكره السخاوي إبان حديثه عن الشيخ محمد بن عوض الشمس أبي عبد الله السكندري المالكي (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، أنه كان يجلس في حانوت الشهود المجاور لجامع صفوان من الثغر، وقد كرر السخاوي ذكره عند ترجمته لعدد أخر من الفقهاء مكتفيا بذكر اسمه فقط(١).

مسجد الفقيه ناصر الدين بن عربي:

و يقع في حي العطارين ورد ذكره في وقفية الناصر محمد، بالإضافة إلى مسجد أخر لم تذكر الوقفية أسمه يقع بنفس الحي(٢).

مسجد المنار:

ويعود تاريخ إنشائه إلى عهد الدولة الطولونية بمصر، فقد قام الأمير أحمد بن طولون ببناء قبة من الخشب في أعلى المنار ليصلي بها المرابطون بالمنار، ثم ما لبثت أن تهدمت بفعل الرياح ، فبنى الملك الكامل الأيوبي مكانها مسجدا(٣) وفي أيام الظاهر بيبرس تداعي بعض أركان المنار وسقط فتأثر المسجد الموجود بها؛ فأمر الظاهر ببناء ما تهدم ، وفي سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، أمر بيبرس بهدم القبة وتشييدها من جديد، وقد ظل المسجد في موضعه من المنار حتى سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢)، حيث انهدم نتيجة لزلزال قوي ضرب الإسكندرية، وفي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) أعيد بناء المسجد على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وممن تولى الأذان فيه المحدث عبد الله بن أبي بكر بن عمر الإسكندري، فقد صعد إليه في واقعة القبارصة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) ليؤذن

الفضل الزمداني الإسكندراني المالكي المقريء (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، كان من علماء الإسكندرية الذين تفقهوا على السلفي وغيره ، تصدر للإقراء ومات بدمشق.للوقوف على المزيد من ترجمته انظر: السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٤٥؛ ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج٥، ص١٨.

(١) السخاوي: الضوء اللامع : ج٣، ص٣٤، ج٨، ص٢٧٣.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٦.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٩٠.

فشاهده إفرنجي فصعد إليه ورماه من أعلى المنار فسقط ميتـــا[1]، وقـد شــاهده المقريزي بنفسه، مما يؤكد أنه ظل قائما حتى منتصف القرن التاسع الــهجري[2]، ثم بعد ذلك زال مع المنار بسبب الزلازل والإهمال وعدم الترميم، حتى أقام عليــه قايتباي المحمودي قلعته المشهورة.

مسجد قايتباي بداخل القلعة:

وقد أنشأه السلطان المملوكي قايتباي المحمودي داخل القلعـــة حيـن قـام ببنائها، على أنقاض المنار القديم، والمسجد عبارة عن صحـــن مركـزي مربـع الشكل، تحيط به أربع ايوانات صغيرة تزدان بواطن عقودها بزخـــارف هندسـية ونباتية، وتكسوا أرضية الصحن الفسيفساء المتعددة الألوان في تكوينات هندســية بديعة، ويرتفع إيوان الصلاة قليلا عن أرضية الصحن، وينفتح على الصحن بعقـد منفوخ، وينتهي جدار القبلة في الإيوان بمحراب تقوم عضادتاه على عمودين مـن الرخام، وجميع إيوانات المسجد الأربعة مسقوفة، ويعتبر إيــوان القبلـة أكثرهـا اتساعا[3].

مصلى العيد: ويقع بشبه جزيرة المنار، وكان مخصصا كما يتضـــح مـن أسمه لصلاة العيدين، وقد قام القبارصة في حملتهم على المدينة بـــهدم الأعمــدة الحاملة لقبة منبر هذا المصلى[4].

مسجد الرحمة: ويقع بالقرب من عمود السواري[5].

مسجد الأمير عز الدين الأفرم: ويقع عند فم خليج الإسكندرية، وقد بنــاه الأفرم سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) عند حفر الخليج[6].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٢٩٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٥٠ـ ٥٥١.

(٣) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٦٥؛ عبد الرحمن عبـد التـواب: قايتبـاي المحمودي، ص٢٠٣.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٢.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٨٤

(٦) بيبرس: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٠٥.

وإلى جانب هذا فقد وجدت في الإسكندرية مساجد اعتقد عوام الناس ومن ليس لهم بضاعة في العلم الشرعي أن العمل بها أفضل من العمل في غيرها سوى الحرمين وبيت المقدس منها: **مسجد سليمان** عليه السلام، ومسجد **موسى** عليه السلام، ومسجد **ذي القرنين** ومسجد **الخضر**(1) ، **ومساجد أخرى اتخذت على القبور كمسجد أبي العباس المرسي**(2)، ومسجد **سيدي بشر**(3)، ومسجد **عبد الرحمن بن هرمز**(4)، وضريح **الطرطوشي**(5)، وزاوية **الأعرج**(6)، وضريح

---

(١) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٠٢.

(٢) أقيم على ضريح أبي العباس المرسي، على يد أحد التجار ويدعى زين الدين بن القطان سنة (٧٠٦هـ/١٣٠٧م)، وجدد قجماس الإسحاقي عمارته في أيام نيابته للثغر، وابتنى لنفسه قبرا بداخله ليدفن بجوار المرسي، وقد رمم وجدد مرات عدة، انظر: علي مبارك: الخطط، ج٧، ص١٨٨؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص٢١٢؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٧٥؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص١٦٧.وهو الآن قائم بالقرب من الساحل، إلا أنه محل فتنة لأهل الثغر شأنه شأن المشاهد الأخرى، وبالملحق ص ٦١٧ صورة لضريح المسجد الحديث.

(٣) يرجع بناؤه إلى أوائل القرن السادس الهجري نسبة إلى بشر بن محمد بن بشر الجوهري ، الذي وفد الإسكندرية في القرن السادس وأخذ عن السلفي وتوفي سنة(٥٢٨هـ/١١٣٢م)، ودفن على مقربة من البحر، ولا يزال قائما حتى اليوم، وتسمى الجهة باسمه، انظر سعاد ماهر: مساجد مصر، ص٣٤٠.

(٤) نسبة إلى الإمام المحدث التابعي الجليل عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وفد إلى الإسكندرية مرابطا ومات بها سنة (١١٧هـ/٧٣٦م)ودفن برأس التين، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٦٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١٤٥؛ الشيال: أعلام الإسكندرية، ص٤٣.

(٥) نسبة إلى الطرطوشي الفقيه الأندلسي، صاحب المدرسة المالكية التي أنشأت في العصر الفاطمي: وهذا الضريح ملحق به مكان للصلاة، السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٢٢٩؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، ص٢٥٣.

(٦) نسبة إلى برهان الدين الأعرج أحد الصوفية الذين عاشوا بالإسكندرية في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، انظر ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٧ـ ٣٨.

سنان[1]، **وهي في الحقيقة مشاهد وليست بمساجد، إذ لا يجتمع في الإسلام مسجد وقبر**، وقد حارب علماء السنة ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية اتخاذ القبور مساجد أو العكس، وأمر بإزالة هذه المنكرات، لما لها من خطر كبير على الاعتقاد[2].

---

(١) نسبة إلى أبي علي سند بن عفان بن إبراهيم المالكي تلميذ الطرطوشي، توفي سنة (٤٥١هـ/١٠٥٨م)، ودفن بمقبرة وعلة، ابن فرحون: الديباج: ج١، ص٣٩٩ـ ٤٠٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٥٢.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، ج٤، ص٥١٩، ج١٧، ص٤٦٤. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)).انظر: البخاري : الجامع الصحيح كتاب الصلاة، ص٩٣ (ح٤٣٦)؛ مسلم: الصحيح، ج١، ص٣٧٥ (ح٥٢٨) ؛ وانظر: ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٢٠٠.، وقال صلى الله عليه وسلم ((لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)) ، الترمذي : السنن، في كتاب الصلاة، ج٢،ص١٣٦ (ح٣٢٠) ، وقال حديث حسن ، أبو داود : السنن، كتاب الجنائز، ج٣،ص٢١٨ (ح٣٢٣٦)، النسائي: السنن، ج٤،ص٩٤ (ح٢٠٤٣).

الكتاتيب

الكُتَّاب هو محل تعليم الصبيان، ويقال: إن هذا من اللحن الدارج، فقد ذكر ابن منظور أن **المكْتب** هو موضوع الكتاب، والمكتب والكتاب موضوع تعليم الكتاب، والجمع **الكتاتيب والمكاتب** ، ثم أورد قول المبرد: (المكتب موضوع التعليم والمكتِب: المعلم، والكتاب: الصبيان، قال: ومن جعل الموضوع الكتاب فقد أخطأ)[١]، إلا أن الظاهر أن هذا لم يكن متفقاً على كونه لحناً في اللغة، فقد جاء في مختار الصحاح أن الكتاب والمكتب واحد[٢]، وليس هناك ما يمنع أن يكون الكتَّاب هو الكتبة، ثم اتسع استعمال الكلمة في الموضع الذي يتعلم فيه الصبيان الكتابة والله أعلم.

ودور الكتاتيب دور قديمة، فلم يزل الناس في كل مجتمع يجتمعون على وضع نظام تعليم الصبيان، وقد وجدت هذه الدور في العصر النبوي، وقد جاء عن أم سلمة أنها بعثت يوماً إلى معلّم الكتاب: ابعث إليَّ غلماناً ينفشون صوفاً، ولا تبعث إليَّ حراً[٣].

وتعليم الصبيان الكتابة كان من مهام الدولة النبوية، فقد جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أنه: (كان ناس من الأسارى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[٤].

وقد انتشرت الكتاتيب في جميع أرجاء العالم الإسلامي عبر العصور المختلفة، وشهدت توسعاً ملحوظاً في العصر المملوكي، وصارت المدد الأول للمدارس السنية التي كثرت في هذا العصر، كما كانت تهدف إلى أن تكون بداية لتعليم الأولاد على المنهج الأقوم والطريق الأرشد[٥]، ففي الكتاتيب يتعلم الأولاد

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٣٨١٧، مادة كتب.

(٢) الرازي: مختار الصحاح، ص٤٩٥، مادة كتب.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص٥٣، هذا وقد علقه البخاري بصيغة التمريض عن أم سلمة في كتاب الديات ، باب من استعان عبداً أو صبياً .

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢٤٧.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٧ــ ٤٥٨.

القرآن الكريم ويقومون بحفظه وتلاوته، وكذلك يتعلمون الكتابة والخط وشيئا من المسائل الفقيه وبعض متون الحديث وأصول الحساب وما يعين على إظهار دين الله ومعرفة أحكامه[١].

وقد شهد العصر المملوكي نوعين من هذه الكتاتيب: الأهلية: وهي التي يتخذها من له قدرة على التعليم وسيلة للتكسب فيُتعلَّم فيها الصبيان بأجر معلوم يدفعه أولياؤهم له[٢]، و**العامة**: وهي التي أنشأتها الدولة أو أصحاب المناصب والجاه من سلاطين وأمراء وتجار وعلماء من جملة الأوقاف بحيث يكون التعليم فيها بدون أجر، وفي العادة تكون للأيتام والمعدمين والفقراء والمساكين، وغالباً ما تحدد هذه الكتاتيب عدد الطلاب الذين يدرسون بها، وتكون ملحقة بالمدارس أو الجوامع لكي يضمن تيسير الإشراف عليها والعناية بها سواء في تدبير المدرس المناسب له أو الصرف المنظم على طلبتها أو الترميمات العمرانية المستمرة عليها[٣]، وكان يقوم على أمر هذه الكتاتيب: المؤدب وهو الفقيه أو المعلم، وقد روعي أن يكون صحيح العقيدة، أميناً على عمله، وعالماً بما يقوم به ، متزوجاً[٤].

وقد روعي عند إقامة الكتاب أن يكون بعيدا عن الأسواق مع ضرورة صرف الباعة من بابه، حتى لا يتلهى الصبيان بما في أيديهم عن الدرس، فإن تعذر فعلى شوارع المسلمين، ويكره أن يكون الموضع بمكان غير مسلوك للناس أو في القرافة أو أن يكون في المساجد لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم))[٥]، لذا فكانت تلحق بجانب المساجد أو المدارس أو

---

(١) ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٧٠؛ ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٢.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٤ــ ٤٥٥.

(٣) حياة حجي: صورة من الحضارة ، ص١٨٨ــ ١٨٩.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص١٣٠؛ ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٧.

(٥) ابن ماجة: السنن، في كتاب المساجد، ج١،ص٢٤٧ (ح٧٥٠)،وأشار المحقق إلى ضعفه.

الأربطة أو أعلى الأسبلة[١]، **وقد حدد سن معين لدخول الكتاب** وهو السبع سنوات، وإن كان بعض الآباء يلحقون أبناءهم في سن أقل ليستراح من تعبهم[٢].

ويستمر الطالب في المكتب متنقلاً ما بين حلقاته من حفظ للقرآن أو سماع للحديث أو تعلم للفقه أو اشتغال بالقراءة والكتابة والخط حتى سن البلوغ[٣]، ثم ينتقل إلى المدارس أو المساجد التي تروق له ليلتحق بإحدى حلقاتها، وإن لم يرغب فينصرف لشؤون الحياة.

وتبدأ **الدراسة بالكتاتيب** يومياً من طلوع الشمس وحتى العصر، ما عدا الثلاثاء والخميس، فالدراسة فيهما حتى الظهر فقط، أما يوم الجمعة فكان عطلة رسمية، بالإضافة لعطلات العيدين والتي تتم قبل العيد بيوم أو يومين أو ثلاثة[٤].

وتبدأ الدراسة بالقرآن فيحفظ الصبي صغار السور، بعد معرفته للحروف وضبطها، ثم عقائد السنن كقواعد الإسلام الخمس والوضوء والصلاة، وأصول الحساب والخط، مع التدريب على الحفظ والكتابة[٥].

ولكي تتم العملية التعليمية والتربوية على أكمل وجه كان المعلم أو المؤدب يستعين **بالعرفاء والرقباء** من الصبيان الكبار الذين قاربوا البلوغ أو التخرج، ولا سيما في الوقت الذي يغيب فيه المعلم أو المؤدب عن الدرس [٦]، ويسمح للصبية بالانصراف إلى منازلهم خلال **فترة الغذاء** للاستراحة، حيث لم يكن مسموحاً لهم بإحضار الطعام إلى المكتب لئلا ينكسر الفقير، ويظل مشوشاً ساخطاً على نفقة والديه[٧].

---

(١) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٨.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص ٤٥٧،٤٥٩.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، وقفية السلطان حسن، ٤١٠.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٦٢.

(٥) ابن الحاج: نفسه، ج٢،ص٤٥٩؛ علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص١٥٩.

(٦) ابن حبيب: التذكرة، ج٣، وقفية السلطان حسن، ص ٤٠٩؛ ابن الحاج: المدخل، ج٢،ص٤٦٤.

(٧) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٥٨.

وقد حددت نظم العقوبة داخل الكتاتيب، بحيث يتم تأديب الأطفال لإصلاحهم، وذلك بالتدريج، فيبدأ المعلم تأديب الصبي من خلال العبوس في وجهه، ثم يتدرج إلى توبيخه، واستخدام أسلوب التغليظ والتهديد، فإن لم يجد نفعاً فيقوم بضربه ضرباً غير مبرح، عادة ما يكون على أسفل الرجلين أو الأفخاذ أو غيرها من المواضع التي لا يخشى منها مرض ولا غائلة، ويكون الضرب بعصا وسط لا هي بالغليظة التي تكسر العظام أو الرقيقة التي لا تؤلم(١)، ويعتبر هذا النوع من التأديب هو النوع الوسط الذي يصلح الأولاد، وأن التأديب الشديد يؤثر تأثيرا سلبيا على نفسية الصبي، فيحمله على الكذب وغير ذلك من الصفات المذمومة ويؤكد على ذلك ابن خلدون بقوله: (.. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل سافلين... فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد عليهم في التأديب)(٢).

كما وضع فقيه الإسكندرية أبو الطاهر إسماعيل بن عوف الزهري قاعدة عظيمة في ضرب الصبيان، فقد سأل فقهاء الثغر، هل لضرب صبيان المكتب حد فاختلفوا في تحديده فأجاب ابن عوف بقوله: **(الضرب للصبيان كالغيث للنبات)**(٣).

وكان الأولاد يكتبون في الألواح، وهي عبارة عن خشبة يكتب عليها الصبي الآيات القرآنية ليتسنى له حفظها، وبعد ذلك يقوم بمسحها بالماء بخرقة بعد

---

(١) ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٧١؛ المدخل: ابن الحاج، ص٤٦٠،

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص١٢٥٣.

(٣) العبدري: الرحلة، ص٩٠.

حفظها لكتابة الآيات الجديدة[١]، وكانت الألواح تزين في الأعياد والمواسم لإدخال السرور على الأولاد، وحثهم على مواصلة القراءة وكذلك عند التخرج من الكتاب وإتمام حفظ القرآن وهو ما يعرف في ذلك الوقت بـ**(الإصرافة)**، وهي عبارة عن احتفال بختم الصبي القرآن، كما تزين جدران الكتاب وحيطانه وأسقفته بالحرير، وكذلك يزين الصبي نفسه، ويركب فرسا أو بغلة مزينة، حاملاً معه إصرافته (شهادته) وهي عبارة عن لوح تزينه أشرطة الحرير ويمشي بين صبيان الكتاب حتى يوصلونه إلى بيته، وهم ينشدون له الأناشيد الجميلة، وبعد وصولهم إلى البيت يقوم المؤدب بإعطاء لوح الإصرافة إلى أقارب الطالب فيكرمونه بدراهم الفضة فرحين بهذه المناسبة السعيدة[٢].

وكان الصبي يتخرج من الكتاب وهو حافظ للقرآن الكريم ومتون الأحاديث وعقائد السنن وأصول الحساب، عارفاً بالأدب والخط، متعلماً لسلوكيات التهذيب والتقويم من بر الوالدين، والانقياد لهم بالسمع والطاعة، مراعياً لقواعد الآداب والكلام، وغير ذلك من أولويات الذوق السليم[٣].

ورغم أن المصادر التي تسنى لي الاطلاع عليها لم تشر إلى مسميات هذه الكتاتيب باستثناء ما ورد في تذكرة النبيه أن الناصر أوقف أملاكاً له بمدينة الإسكندريه وفيها ذكر **(المكتب المرسوم لتعليم القرآن)**، ومن خلال وصف المكان يتضح أنه كان في شارع مسلوك في سوق[٤]، كما هو الحال في مكاتب مصر عامة كما تقدم، **إلا أنها أشارت إلى بعض من عمل في هذه الكتاتيب من المعلمين والمؤدبين** منهم: **علي بن يحيى** الإسكندراني المؤدب، **وهو والد المعمرة وجيهة**[٥]، ومنهم **أحمد بن عبد الباري** بن عبد الرحمن بن عبد الكريم أبو العباس

---

(١) ابن الحاج: المدخل، ج٢، ص٤٦٠.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ص٤٧٠ـ ٤٧١.

(٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٧١.

(٤) ابن حبيب: التذكرة، ج٢، ص٤٣٣، سطر ٥٧ من وثيقة وقف السلطان الناصر محمد لخانقات سرياقوس.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٣٠٨.

المؤدب (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، أحد فضلاء الإسكندرية وشيوخها، نشأ بها وقرأ القرآن بالسبع على أبي القاسم عيسى[١]، وطلب العلم ، وسمع من الصفراوي[٢] والهمداني[٣]، وعني بالحديث وسمع الكثير[٤]، **وأحمد بن محمد** بن عبد الوهاب بن عمر أبو العباس القرشي الإسكندراني المؤدب (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، كان على علم بالقرآن والحديث قرأ القراءات وحدث[٥]، ومنهم **عبد الرحمن بن مهند** بن سليم بن مخلوف أبو القاسم القرشي الإسكندراني المالكي المؤدب (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كانت له مشاركة في علوم الحديث[٦]، وأيضا أبو عبد الله محمد المقرئ المؤدب السكندري المالكي (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، كامن من فضلاء الثغر وأعلامهم في علم القراءات[٧].

ومن الملاحظ أن المؤدبين في الإسكندرية كانت لهم مشاركة في العلوم الشرعية بما يدفع بالتلميذ لطلب العلم رجاءاً أن يكون مثل مؤدبه، فالتلميذ يقتدي بأستاذه ومعلمه، مما يدل على أن الكتاتيب كانت نواة للحركة العملية بالإسكندرية وكانت الدافع الأول للتعلم والمصدر المغذي للمدارس فيما بعد.

---

(١) هو عيسى بن عبد العزيز بن عيسى اللخمي الشريشي الإسكندري (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م)، الذهبي: العبر، ج٥، ص١١٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل الإسكندراني المالكي الصفرواي (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، الذهبي: العبر، ص١٥٠.

(٣) هو جعفر بن علي بن هبة الله أبو الفضل الهمداني الإسكندراني، (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، الذهبي: العبر، ج٥، ص١٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٣٢٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٦٢.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٢٦٤.

(٧) النويري السكندري: الإلمام، ج١، ص١٠٢، ١٠٣.

المدارس النظامية

تعد المدارس[١] أحد أهم المؤسسات التعليمية الحضارية الإسلامية[٢]، وهي كما عرفها أحمد فكري: (المسجد الجامع الذي أقيمت في حرمه بيوت لسكن فريق مختار من الفقهاء أو الطلاب ورتب لتدريسهم فيه مدرسون بأجر معلوم ووفرت للجميع فيه سبل البحث والدراسة والمعيشة وأجريت عليهم الجرايات الوافرة)[٣] وقد عرفت الإسكندرية المدارس السنية النظامية قبل العهد المملوكي، فقد ظهر في العصر الفاطمي مدرسة الطرطوشي، والتي أنشأها أبو بكر محمد بن الوليد

---

(١) المدراس والمدرس: الموضع الذي يدرس فيه، والمدرس الكتاب، والمدراس الذي يقرأ الكتب ويدرسها ، ودرس الكتاب، يدرسه درسا ودراسة ، انظر ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص١٣٦٠، الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص٧٠٢.

(٢) اختلف العلماء حول أصل المدرسة ونشأتها فمنهم من يرى أنها بدأت منذ القرن الأول الهجري حيث كان الصحابة يعلمون الناس في المساجد، وبعض الدور سواء كان ذلك بمكة أو المدينة، راجع: عباس كامل: المدارس الإسلامية ودور العلم وعمارتها الأثرية، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الثالثة، ١٣٩٧هـ العدد ٣، ص١٥١ـ ١٥٣، ومنهم من يرى أنها بدأت في نيسابور ومرو وبخارى في فترة حكم محمود الغزنوي (٣٩١ـ ٤٢١هـ/٩٩٩ ـ ١٠٣٠م)، انظر ايمن فؤاد السيد ، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، من أبحاث تاريخ المدارس في مصر ، ص٩٩، ومنهم من يجعل من المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي ببغداد أول مدرسة نظامية عرفها العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، انظر زبيدة محمد عطا: مكتبات المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ص٢٠٢.

(٣) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، ص١٩٢، وفي اعتقادنا أن المدرسة من خلال هذا التعريف من الممكن أن تنطبق على **صفة** المسجد النبوي الشريف،لأنه اشترط مكاناً للتدريس، ومسكناً للطلاب، ومصدراً للإنفاق الحكومي، وكان أهل الصفة معتكفين بالمسجد النبوي لطلب العلم، وكان يقال لهم القراء كما جاء في حديث رواه البخاري(ح٤٠٩١)، وكذلك ينفق عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، كما ورد مصرحاً به في حديث رواه الإمام أحمد في المسند، ج١، ص٧٩، وعليه فتكون صفة المسجد النبوي أول مدرسة نظامية في الإسلام، والله أعلم.

الطرطوشي عندما استقر بالإسكندرية سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، وجلس لتدريس الفقه على المذهب المالكي بها[١]، والمدرسة المسرورية والتي أنشأها مسرور الخادم في أواخر العصر الفاطمي[٢]، بالإضافة إلى المدرسة السلفية والحافظية وقد استمرتا حتى العصر المملوكي **والذي يعد في حقيقته امتدادا للعصر الأيوبي** عصر انتشار المدارس في الأراضي المصرية، فقد ورث سلاطين المماليك عن الأيوبيين الاهتمام بإنشاء المدارس والتي وصف ابن بطوطة كثرتها بمصر بقوله: (ولا يحيط أحد بحصرها لكثرتها)[٣]، ولقد حفلت الإسكندرية بالعديد من المدارس النظامية المختلفة، والتي لا تختلف في مجملها عن غيرها من مدارس المدن المصرية الأخرى، وكان التخطيط العمراني للمدارس آنذاك على ثلاثة أنواع أساسية[٤]، أولها التخطيط ذو النظام الأيواني، وهو عبارة عن صحن مكشوف أو مغطى ويسمى (دور قاعة) تحيط به أربعة إيوانات أكبرها وأعمقها إيوان القبلة وقد تكون إيوانين وربما واحد أو ثلاثة، وأما التخطيط الثاني فهو ذو الأروقة حول صحن أو دور قاعة، وهو عبارة عن صحن أو قاعة يحيط بها أربعة أروقة وربما توسط سقف الرواق منها قبة ترتفع عن بقية السقف وقد فتحت بأضلاعها عدة نوافذ للتهوية والإضاءة، كما زود بعضها بمئذنة ومنبر ودكة المبلغ أو المؤذن وخلوة الخطيب وكرسي المصحف[٥]، كما زود بعضها بصومعات[٦] كالمدرسة

---

(١) الذهبي: العبر، ج٤، ص٤٤٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٩٣؛ ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢٤٥.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٧٧.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٣ .

(٤) انظر تخطيطاً لمدرسة مملوكية بالملحق ص ٦١٨.

(٥) محمد حمزة إسماعيل: العلاقة بين أوجه التأسيس والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس: ص ٢٧٧.

(٦) **الصومعة:** جمعها صوامع، وهي من البناء، وقد رأى ابن منظور أنها من البناء سميت هكذا لتلطيف أعلاها، والصومعة عبارة عن منارة مرتفعة، أول من اتخذها الرهبان مكاناً لهم، وقد أطلق العرب على أبراج الزهاد اسم الصومعة ، وفي الإسلام ومع بناء المساجد وإلحاق المآذن بها والتفنن في أشكالها، استعملت كلمة الصومعة للدلالة على المآذن ويرجع ذلك إلى

النابلسية بالإسكندرية فقد ذكر النويري أن لهذه المدرسة صومعة اختبأ بأعلاها جمال الدين ابن النابلسي ، فصعد إليها جماعة من القبارصة وقذفوه من أعلاها[1]، أما النوع الثالث من أنواع تخطيط المدارس فهو ذو الحجرة الواحدة أو عدد من الحجرات، وهو من أبسط وأقدم الأساليب المعمارية التي استعملها الإنسان في بناء منشآته، بالإضافة إلى استمراريتها وشيوعها[2] ، وقد حظيت مدارس الإسكندرية بمزيد من العناية من قبل أصحابها حيث زينت جدرانها ومداخلها بالنقوش والزخارف، فقد ذكر النويري عن المدرسة الخلاصية بالإسكندرية أنه كان لها باب ذو حلقتين من النحاس المخرم، وكرسي للربعة، وبيت لها من النحاس الأندلسي المطعم بالفضة، وأنه لم يرى لمثلها حسن صنعة ودقة تجريم، وقد تعرضت هذه المدرسة لاعتداء القبارصة في سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م) فخلعوا الحلقتين واستولوا على كرسي الربعة وبيتها[3].

وزخرفت أورقة مدارسها بالفسيفساء بدقة ومهارة، ويلاحظ أنه للفسيفساء خاصية أخرى غير الناحية الجمالية، وهي أنها لا تتأثر بالرطوبة العالية بسبب موقع الثغر على البحر، ويؤكد ذلك ما ذكره غرس الدين خليل من أن مدارسها كانت مرخمة ومنقوشة[4].

ولم يقتصر دور المدارس على الناحية العلمية فحسب بل أدت كثير من المدارس دورا إيجابيا في الناحية الاجتماعية، فعادةً ما كان يلحق بالمدارس وحدات سكنية خاصة للمدرسين والطلبة، وخاصة الغرباء منهم، فقد ذكر منصور بن سليم ابن العمادية أن الشاعر مظفر بن عبد الله بن العلامي الفقيه، سكن معهم

أن المآذن الأولى التي شيدت في صدر الإسلام كانت مربعة الشكل، ومن الجدير بالذكر أن هذا الطراز من الصوامع استمر في بلاد المغرب والأندلس انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٨، فصل الصاد حرف العين، الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية، ص١٦٣.

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣.

(٢) عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والحجاز، ج١، ص٣١١.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣.

(٤) غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالك، ص٤٩ــ ٥٠.

المدرسة الحافظية بالثغر[١]، فقد كانت المدرسة الحافظية بالإسكندرية كبيرة متسعة، وقد جاء في نسخة سجل تدريسها الإشارة إلى مشكلة تشتت الوافدين إلى الثغر،حيث جاء فيها: (وأن طالبي العلم من أهله ــ يعني الثغر ــ ومن الواردين إليه والطارئين عليه متشتتو الشمل متفرقو الجمع، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلودين ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس)[٢].

وبهذا كان الغرباء من الطلبة ينزلون بهذه المدرسة ومن هؤلاء الشيخ أحمد بن مودون بن القاسم بن جعفر الخلاطي المعروف بالحجازي فقد نزل بالمدرسة الحافظية لما قدم الإسكندرية[٣].

ولا شك أن نزول العلماء وطلاب العلم بالمدارس يعطي الفرصة لطلاب المدرسة لمناقشة ومناظرة القادم إليهم، ويوسع آفاق المتعلم للاطلاع على علوم أخرى غير التي يدرسها في مدرسته، ويحبب إليهم الرحلة وكل هذا يثري الحركة العلمية ولا أدل على ذلك مما ذكره الرحالة من **لقاءاتهم** بشيوخ المدارس **ومناظراتهم** في مدارسهم كما ذكره العبدري وغيره[٤].

هذا وقد حفلت بعض المدارس **بأماكن العلاج** (البيمارستانات)، وكان الطلاب وغيرهم يتلقون فيها العلاج وذلك مثل البيمارستان الملحق بالمدرسة التي أقامها صلاح الدين عام (٥٧٧هـ/١١٨١م)[٥]، والتي ظلت موجودة حتى العهد المملوكي[٦].

كذلك حوت بعض المدارس الأضرحة والقبور، ولقد أثر ذلك في الناحية العلمية بصورة سلبية، وبشكل واضح، فقد ظلت الإسكندرية ردحا من الزمان لا

---

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٤٩٥.

(٢)القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٨٦.

(٤) انظر مبحث المناظرات من هذا الفصل ص ٣٥٢.

(٥)ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٣٠٠.

(٦) السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٠.

يرى طلابها غضاضة في دفن الموتى بالمساجد والمدارس[1]، ومن المعلوم أن وجود مثل هذه المشاهد له أثره في عقيدة التوحيد لدى الناس، إذ صار العوام يتبركون ويستغيثون بهؤلاء المقبورين ومن يسمونهم بـ (الأولياء) وصارت القصص تنسج والأساطير تروى حول كرامات هؤلاء المقبورين، وقد تصدى لهذه المخالفات العقدية الكثير من العلماء الذين وفدوا على الإسكندرية آنذاك وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية [2].

ولقد انتشرت المدارس في الإسكندرية المملوكية وتنوعت الدراسة بها من قراءات وحديث وفقه ولغة وأدب وغير ذلك من العلوم، واعتمد أكثرها على جهود فردية من العلماء والتجار[3]، وهذا أعطى علماء الإسكندرية نوعاً من الحرية في التدريس بغير توجيه من أحد.

كذلك ارتبطت أسماء كثير من المدارس بأسماء الأسر العلمية، كمدرسة بني كويك والدماميني وابن حباسة وابن المنير وغيرها، وبقاء المدرسة أدى في

---

(١) يذكر غرس الدين خليل في كتابه زبدة كشف الممالك، ص ١٥١، عددا من الأماكن كالمساجد والمدارس والأربطة والتي كانت تقصد للزيارة فيقول: (وبالثغر عدد من المزارات والأماكن المباركة ما يطول شرحها، منها مشهد دانيال عليه السلام، وجابر الأنصاري، وابن الحاجب المالكي، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي العباس المرسي، وياقوت العرش، وعبد الله الراسي، وقاسم القباري، وأبي الفتح الواسطي، وغير ذلك من الصلحاء والأماكن المباركة).

(٢) سيأتي تفصيله في مبحث (أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية) إن شاء الله تعالى.

(٣) لقد لاحظنا وبرغم حب السلاطين المماليك بتشييد العمائر والأبنية الدينية إلا أن جل اهتمامهم كان منصبا على مدينة القاهرة، ولعل ذلك يعود إلى أنها كانت درة المدائن وقلب العالم الإسلامي النابض وعاصمة البلاد وحاضرتها، بعكس الإسكندرية التي برغم كونها القاعدة الثانية في البلاد بعد القاهرة كما ذكر القلقشندي (صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٨ـ ٣١٩)، إلا أنها كانت عرضة للغارات الغاشمة من قبل الفرنج ولا أدل على ذلك من واقعة القبرصي التي لم تترك لا أخضر ولا يابسا، فربما لذلك خشي سلاطين المماليك وأمراؤهم على بناء مثل هذه العمائر الدينية الباهظة التكاليف بالثغر، واكتفوا بإنشاء مساجد أو مدارس أو خوانق تؤدي الغرض الوظيفي والذي أنشئت من أجله.

المقابل إلى استمرار الأسرة العلمية في العطاء إذ أن أبناءها يحرصون على طلب العلم وتهيئة أنفسهم للعمل بها لضمان استمرارية المدرسة.

كذلك أدى وجود المدارس بالإسكندرية واشتهارها في العالم إلى وجود عامل جذب قوي للرحالة والعلماء لقصد هذه المدارس العلمية للقراءة على أصحابها، وأخذ الإجازات منهم، فصارت كالمراكز التي تستقطب العلماء من الشرق والغرب[1].

ومن أشهر مدارس الإسكندرية :

المدرسة الحافظية أو(العوفية): نسبة إلى الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله والذي أمر ببنائها لتدريس المذهب السني المخالف لمذهب الدولة الشيعي تحت ضغط الوزير السني رضوان ابن ولخشي، ويطلق عليها أيضاً العوفية[2] نسبة إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف[3]، وقد امتد عطاؤها إلى حين الدولة المملوكية، وتولى التدريس فيها جماعة من العلماء والفضلاء منهم ذرية أبي الطاهر بين عوف الذي كان إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وعليه مدار الفتوى، وقد جمع إلى ذلك: الورع والزهد وكثرة العبادة، والتواضع التام ونزاهة النفس، وكان ربيب الإمام أبي بكر الطرطوشي وقيل إن خالته كانت زوج الطرطوشي، وعليه تفقه، وبه انتفع في علوم شتى وتوفي وله ست وتسعون سنة وكان ذلك سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، وممن سمع منه الحافظ السلفي، وغيره من كبار علماء العصر[4]، وممن تولى التدريس بهذه المدرسة حفيده ويدعى **نفيس الدين** أبو الحرم مكي، وهو مؤلف "شرح التهذيب" لأبي سعيد البراذعي[5]، وقد تسابق الفضلاء لإحراز هذا الكتاب، فقد قدم ابنا الإمام أبي زيد من المغرب ونسخاه وأنفقا في نسخه مالاً عظيماً، وكان لدى ــ

(١) وهذا بالتالي له دوره في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للثغر، كما سبق دراسة ذلك في الفصل الأول.

(٢) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٣٠.

(٣) انظر ما سبق ص ٢٦٦.

(٤) الذهبي: العبر: ج٤، ص٢٤٢

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٣.

أبي زيد من المغرب ونسخاه وأنفقا في نسخه مالا عظيما، وكان لدى ــ نائب السلطنة بالإسكندرية ــ بيبرس الجمدار نسخة منه، وبيعت في تركته بالقاهرة فاشتراها قاضي القضاة الأخنائي المالكي(١)، وهذا له دور إيجابي في مدى تأثير الفقه المالكي بالإسكندرية على القاهرة، ولاسيما وأن هذا الكتاب كان خلاصة الندوات والمناظرات التي كانت تعقد في هذه المدرسة بين نفيس الدين ومن يحضر درسه من الفضلاء(٢)، **ولم تكن الدراسة بهذه المدرسة قاصرة على المذهب المالكي**، فقد درس بها الشهاب أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق بن عبد السلام الشافعي الإسكندراني المقرئ (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)(٣)، وكذلك أحمد بن قيس شهاب الدين الأنصاري الشافعي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، وكان يعرف بها بـ (الشافعي)، وهو فقيه في مذهبه، قال عنه السبكي: (لم يكن بقى في الشافعية أكبر منه)(٤).

المدرسة العادلية أو(السلفية):

نسبة إلى الإمام السلفي، وهو الحافظ أبو الطاهر محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م)، الملقب بصدر الدين، أحد الحفاظ الرحالة، دخل الإسكندرية سنة (٥١١هـ/١١٠٩م)، قادماً من بلاد الشام، وأقام بالثغر حتى قصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه، وقام وزير الخليفة الفاطمي العادل ابن السلار ببناء مدرسة له بالثغر، لذلك فقد تنسب هذه المدرسة في بعض المصادر للوزير فيقال لها العادلية، وقد فوض ابن السلار أمو

---

(١)،ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٤.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص١٨٦.

(٣) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٦٠٧.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٣١٦.

التدريس فيها إلى الحافظ السلفي[1]، وقد استمرت هذه المدرسة في تدريس العلوم الشرعية حتى العهد المملوكي[2].

مدرسة الأشرف قايتباي:

أنشأها السلطان الأشرف قايتباي أثناء توليته حكم السلطنة بالديار المصرية وكانت بالقرب من القلقة التي أنشأها مكان المنار القديم[3] ، ومن المتوقع أن تكون هذه المدرسة من حيث التصميم والوحدات الأساسية شبيهة بتلك المدارس التي أنشأها السلطان بالقاهرة ومكة، وغيرها من المدن الإسلامية، أي تحتوي على قاعات الدرس والصلاة، ومكتب السبيل للأيتام، والمكتبة والوحدات السكنية والميضأة ، بالإضافة إلى الأوقاف الخاصة بها للصرف عليها[4].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٠٥ــ ١٠٧؛ اليافعي: مرآة الجنان ، ج١، ص٣١٦؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ: ١٢٦٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٥.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٤١٠؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص١٠٨.

(٣) ابن الجيعان: القول المستظرف: ص١٢٥؛ العزي: الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠١؛ ابن أياس : البدائع، ج٣ــ ص٣٢٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨، ص٨.

(٤) لقد قام السلطان بإنشاء مدرسة في عدد من المدن الإسلامية في زمن متقارب نسبياً، فقد أنشأ بصحراء القاهرة مدرسته ما بين سنتي (٨٦٥ــ ٨٧٢هــ/١٤٦٠ــ ١٤٦٧م)، ثم أنشأ المدرسة الكبرى بمصر في عام (٨٧٢هــ/١٤٦٧م)، وأما مكة فقد تم الانتهاء من بنائها في مطلع (٨٨٤هــ/١٤٧٩م)، ولعله من المرجح أن تكون مدرسة الإسكندرية بنيت في هذه الفترة الزمنية ما بين (٨٧٢ ــ ٨٨٤هــ/١٤٦٠ ــ ١٤٧٩م)، ويلاحظ في مدارس القاهرة ومكة نوع من التطابق في الوحدات الأساسية للبناء وكذلك الموظفين، فبينما ضمت مدرسة القاهرة قاعات الدرس ومكتب السبيل والمكتبة والوحدات السكنية والميضأة والمئذنة، فإننا نجد هذه الوحدات نفسها في مدرسة مكة المكرمة، وأما الوظائف الدينية من شيخ المدرسة والمدرسين والطلاب والأيتام في المكتب فتكاد تكون متطابقة أيضاً، ولا يوجد ثمة اختلاف ظاهر إلا في احتواء مدرسة القاهرة على قاعة الصلاة وكذاالوظائف المتعلقة بالخطابة والإمامة، والتي لا توجد بمدرسة مكة، ويعود ذلك لإقامة الصلاة بالحرم المكي الشريف، انظر: عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والحجاز، ج١، ١٢٧ــ ١٧٠، ٢٢٥ــ ٢٣٧.

مدرسة دار الحديث التكريتية:

أنشأها **سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن سند التاجر الكارمي** التكريتي (ت٧١٤هـ/١٣١٤م)، وصف بالوجاهة والفضل والمعروف، وحبه للعلم وطلبته[١]، أنشأ هذه المدرسة سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م)، وجعلها لدراسة الحديث الشريف والفقه على المذهب الشافعي[٢]، ويذكر أن هذه المدرسة حولت في القرن الثاني عشر للهجرة إلى زاوية صغيرة، تقع في شارع البلقطرية بقسم الجمرك، وتحتفظ هذه الزاوية اليوم باللوحة التأسيسية للمدرسة، ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عليه في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه)[٣].

مدرسة ابن الكويك أو (الكارمية):

أنشأها **التاجر الكارمي عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن الكويك التكريتي**، من متحصل فائدة يوم واحد[٤]، فقد كان عبد اللطيف من أسرة علمية تجارية، اشتهرت في القرنين السابع والثامن الهجري[٥]، فلم يمنعه ثراؤه أو انشغاله بالتجارة هو أو أفراد عائلته من طلب العلم ، فتذكر المصادر أن عبد

وعليه يمكن أن **نتوقع أن تكون مدرسة الإسكندرية من الناحية التخطيطية والوظيفية** على النحو الذي رأيناه في مدارس القاهرة ومكة، مع فارق بسيط وهو أنها لم تكن تحفة معمارية كمدرسته بالقاهرة والله أعلم.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٠.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص١٥٩ـ١٦٠؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٦٠ـ ٦١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٤.

(٣) السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٧٨.

(٤) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص٥١.

(٥) انظر ما سبق، ص ٢٢١.

اللطيف تفقه وتلقى الحديث على كبار علماء الإسكندرية ، توفي سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م)[١].

مدرسة الدماميني:

أنشأها العالم التاجر تاج الدين عتيق بن محمد ابن سليمان المخزومي الدماميني (ت٧٣١هـ/١٣٣٠م)، وأسرة الدماميني من كبريات الأسر السكندرية في العصر المملوكي ذات ثراء عريض ومكانة علمية واجتماعية عالية، وقد ذكر الأدفوي أن تاج الدين بنى المدرسة بالمرجانيين وهو أحد شوارع الحي التجاري بالإسكندرية الشهير بحي العطارين، وقد أوقف تاج الدين على مدرسته الأوقاف الكثيرة ليضمن بذلك استمراريتها في أداء رسالتها العلمية[٢].

مدرسة القاضي الفقيه زين الدين ابن المنير:

أنشأها الإمام زين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن منصور المالكي والملقب بابن المنير، ولي قضاء الثغر بعد أخيه ناصر الدين وظل فيه حتى عزل سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، كان الكثير من الطلبة يحرصون على الالتقاء به وأخذ العلم منه، خاصة الرحالة ، فقد لقيه العبدري وابن فرحون وسمعا منه واستفادا من علمه[٣]، وصفه العبدري بأنه: (الفقيه العالم الكامل الرئيس الأوحد القاضي العادل شرف الفقهاء والمفتين، وسط قلادة المدرسين صدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين)[٤].

المدرسة العمادية:

ورد ذكرها في وثائق الوقف التي أوقفها الناصر قلاوون على خانقاة سرياقوس، وتقع في حي موجود به معصرة من ضمن أوقاف الناصر[٥]، ويبدو لي أن منشئ هذه المدرسة هو ابن العمادية وجيه الدين بن منصور بن سليم

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٣١٤.

(٢) الأدفوي: الطالع السعيد، ص٣٥٩ــ ٣٦٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٨.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص١٢٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣١٧.

(٤) العبدري: الرحلة، ص٨٩.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٤٣٦.

الهمداني الإسكندراني الشافعي [١]، وصف بأنه كان جميل السيرة، محسنا إلى من يقرأ عليه من الطلبة[٢].

مدرسة فائد:

حوت هذه المدرسة على دور لسكنى الطلبة الغرباء، فممن سكنها من الطلبة الرحالة الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن عمر بن خضر بن إلياس الضرير الأديب، كان شغوفا بالأدب وبرع فيه وتعانى النظم، خرج من الصعيد ليبدأ رحلته في تلقي العلم، فحط رحاله في عدد من المدن كالقاهرة، حيث عمل في إحدى حوانيتها بالخياطة، كما ارتحل إلى ودمشق والقدس، ومكة وحج مرتين، دخل الإسكندرية في القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي، ونزل بمدرسة فائد وعمل بها مؤذنا، وظل بها كذلك إلى أن أصابه العمى فانتقل إلى مدرسة ابن بصاصة[٣].

المدرسة البصاصية أو (مدرسة ابن بصاصة):

تنسب إلى ابن بصاصة الذي يبدو لنا أن أمر إنشائها يعود إليه، ورغم أنني لم أقف على ترجمة له ولا على تاريخ إنشائها، إلا أنها كانت موجودة ضمن المدارس المملوكية المشهورة بمدينة الإسكندرية، والتي عمرت طويلاً، **وقد حوت هذه المدرسة** على عدد من الدور لإيواء الغرباء من الطلبة كغيرها من مدارس العصر المملوكي بالإسكندرية، فممن سكنها أبو بكر بن عبد الله بن عمر بن خضر بن إلياس الضرير الأديب سالف الذكر، وقد لقيه البقاعي سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م) بالمدرسة وتباحثا سوياً في فنون الأدب ، وكتب عنه البقاعي قصيدة طويلة جاء في أولها:

كلمَّا تاه دلالاً وَصَلَفْ   زدت شوقاً وغراماً وشغفْ

---

(١) انظر ما سبق، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن شاكر كتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص٦٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع : ج١١، ص٣٩ـ ٤٠.

وكأن الأديب الضرير حن للترحال من جديد فسافر من الإسكندرية بعد سنة (٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، لينقطع خبره بعد ذلك[١] لتطوي كتب السير صفحة حياته.

وممن تولى التدريس بها الشيخ الفقيه الصالح المعمر زكي الدين أبو محمد عبد المحسن بن عبد الله الشافعي الفوي الإسكندراني، فقد قرأ عليه التجيبي جزءا من كتاب "الشهاب" [٢] للشيخ أبي عبد الله القضاعي، وقد حصل التجيبي من الشيخ زكي الدين على إجازة هذا الكتاب وكان ذلك سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) بداخل المدرسة البصاصية[٣]، **كذلك ممن تولى مشيختها** الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الصنهاجي، فلقد ولد بالثغر ونشأ به وحفظ القرآن وقرأ به بالروايات على جماعة من علمائها، فبرع فيه وأصبح علما مبرزا به، وولي مشيخة المدرسة البصاصية فتصدر للإقراء وانتفع الطلبة به لعلمه وفضله[٤].

المدرسة السراجية:

لم تشر المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها إلى من أنشأها، ولكن المعلومات التي تيسرت لنا عن مدرسيها تشير إلى أنها إحدى مدارس الشافعية بالإسكندرية ، وقد تولى مشيختها الفقيه المفتي شمس الدين أبو عبد الله محمد الكناني الشافعي الإسكندراني، عرف بحبه للعلم ومساعدته للطلبة، فقد كان هينا لينا معهم متوددا إليهم، خاصة الغرباء منهم، فعلى سبيل المثال حين نزل البلوي بهذه المدرسة فإن الشيخ شمس الدين تفانى في إكرامه، ومكنه من الإطلاع على مكتبته الخاصة، بل وعلمه كيفية الرماية بالقوس العربية، وقد كان البلوي في غاية الغبطة والسرور من ذلك[٥]، **وقد حوت هذه المدرسة كغيرها من المدارس دوراً**

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص٤٠.

(٢) هو كتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية، للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت٤٥٤هـ/١٠٦١م)، حاجي خليفة: كشف الظنون ، ج٢، ص٩٢.

(٣) التجيبي: البرنامج، ص١٤٨.

(٤) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٥٥ـ ٣٥٦.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٦٨ـ ٧٠.

لسكنى الغرباء، فقد سكن البلوي إحدى هذه الدور، وقد كان الطلبة النزلاء يدونون ما يجول بخواطرهم على أبواب وجدران البيوت، وقد لاحظ البلوي ذلك في الـدار التي سكنها، ومما جاء فيه:

عليك سلام الله يا خير منزل رحلنا وودعناك غير ذميم
فإن تكن الأيام فرق بيننـــا فما أحد من صرفها بسليم

وكتب بخط أخر على أحد الجدران ما نصه:

تركنا همنا ثم ارتحلنا كذا الدنيا نـــزول وارتحال
وما دهر على أحد بباق ولا يبقى على الإنسان حال

وبخط أخر كتب أيضاً:

قد حضرنا في ذا المكان وغبننا وكذا الدهـــر غيبته وحضور

وبخط أخر كتب كالرد أيضاً:

قد حضرنا في ذا المكان وغبتم وقرأنا من بعده ما كتبتم
وذكرنـــاكم بكـــل جميـــل فاذكرونا بمثـــله إن حضرتم

ومن العجب أن البلوي لما قرأ هذه الأبيات لـــم يســـتنكر الكتابـــة علـــى الجدران والأبواب، بل قام هو الأخر بتسجيل ذكرياته وما يدور بخلجات قلبه على أحد الجدران، ومما كتبه:

قد توالى لنا الدموع نجيعا وذكرنـــاكم بخير جميعا
وسألنا يا حـــاضرين دعاء واجترعنا الفراق والتوديعا[١]

ولنا وقفه مع هذه الأبيات التي أوردها البلوي سواء التي كانت من نظمـــه أو نقلها لنا عن الطلبة النزلاء، ففيها دلالة على أن المدرسة كانت تحتـــوي علـــى عدد من الدور التي كانت مهيأة لنزول الطلبة الغرباء، كذلك اختلاف الخطوط على الجدران والأبواب دليل على كثرة الطلبة اللذين نزلوا بها، كما تدل هذه الكتابـــات على المكانة العلمية للمدرسة عند الطلبة، وحرصهم على النزول بها، وأنهم كـــانوا يجدون الرعاية والاهتمام المادي والمعنوي من قبل القائمين عليها، بدليل أنهم لـــو

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٧٨ــ ٧٩.

وجدوا غير ذلك لما كلفهم الأمر كثيرا ولقاموا على الفور بتدوين احتجاجاتهم على الجدران.

مدرسة ابن حباسة:

قام بإنشائها وجيه الدين أبو علي منصور بن عبد العزيز ابن حباسة الإسكندراني، (ت٦٣٩هـ/١٢٤١م، وهو من تجار وأعيان الثغر[١] ، وأحد أبناء أسرة تعود جذورها التاريخية إلى حباسة ابن علي بن محمد بن محمود بن موسى بن عز العرب بن زيد بن عمرو بن محارب بن مكاثر بن رافع .. إلى أن ينتهي نسبه إلى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[٢].

ولقد تعاقب أبناء هذه الأسرة والتي عرفت بطلب العلم ورواية الحديث على تولي مشيختها والتدريس بها، فممن تولى العمل بها حفيد مؤسسها ويدعى نور الدين أبا عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحيى بن وجيه الدين ابن حباسة لقيه العبدري أثناء وجوده بالإسكندرية بمدرسة جده سنة (٦٨٩هـ م١٢٩٠م) وأخذ عنه بعض المعارف والمعلومات عن بن جبير ورحلته[٣]، وممن تولى مشيختها أيضاً عز الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نور الدين أبي عبد الله بن وجيه الدين بن حباسة، لقيه البلوي أثناء رحلته سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)[٤]، بالإسكندرية وقد ناهز التسعين إلا أن هرمه لم يمنعه من مواصلة مسيرته التعليمية، فما دخل عليه البلوي إلا ورآه مطالعاً في الدواوين والتآليف، أو ناسخاً للحديث والعلوم ولقد استفاد منه البلوي ولازمه حتى بمنزله، وقرأ عليه نحو أربعين مجلداً في أنواع مختلفة من العلوم، وقد أجاز له الشيخ الإجازة التامة[٥]، ويبدو لي أن عز الدين لم يكن على قيد الحياة حين داهم القبارصة الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، وقاموا بنهب المدينة وحرق كل ما طالته أيديهم بما في ذلك

---

(١) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج١، ص٢٠٢.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٨٢.

(٣) العبدري: الرحلة، ص٩٣.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ج١، ص١٨.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ص٨٣.

مدرسته، فيذكر لنا النويري السكندري أن القبارصة قاموا بحرق درابزي مدرسة ابن حباسة مع سقف إيوانها[١].

المدرسة الكولمية:

وهي من المدارس الشافعية بالإسكندرية، وإن كنا نجهل مؤسسها ومتى أنشئت، إلا أن ابن حجر العسقلاني أمدنا باسم شيخين جليلين تولوا مشيختها، وهما تقي الدين أحمد بن عبد الرزاق ابن عبد العزيز بن موسى الإسكندراني الفقيه الشافعي، وابنه محمد، والذي سمع منه ابن حجر بمدرسة إقرائه سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م)[٢].

مدرسة الفخر:

لم تشر المصادر التي بين يدي إلى من أنشأ هذه المدرسة، واكتفى النويري السكندري بالإشارة إلى أنها قد أحرقت على يد القبارصة إبان هجومهم الغاشم على المدينة، وأن موقعها كان بالقرب من باب رشيد[٣].

المدرسة الزكوية:

ذكرها ابن رشيد في معرض حديثه عن أحد المشايخ الذين لقيهم في رحلته بمدينة الإسكندرية، وهو الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حسن بن علي التونسي، حيث أن الأخير تلقى الكثير من علوم الدين واللغة بهذه المدرسة على بعض مشايخها أمثال أبي عبد الله بن الجرج[٤].

المدرسة النابلسية:

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٦٥. هذا ولم تشر المصادر إلى هذه المدرسة بعد واقعة القبارصة، ولا ندري هل المدرسة دمرت تماماً من الحريق، وأغلقت ولم تجد من يقوم بترميمها وإعادتها إلى ركب المسيرة التعليمية، أم أنها جددت وأعيدت إلى ما كانت عليه في سابق عهدها.

(٢) ابن حجر: المجمع المؤسس، ج٢، ص٤٩٢.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٦٦.

(٤) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٣، ص١٣ـ ١٤.

بناها عبد الله بن أبي بكر بن عمر النابلسي الإسكندري وقد قام على أمر المدرسة من بعده ابنه المحدث جمال الدين المعروف بابن النابلسي، قتل في واقعة القبارصة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، فقد اختفى بداخل صومعة مدرسة أبيه علـه ينجوا من القبارصة، ولكنهم أدركوه وقاموا برميه من أعلى المدرسة على الأرض فاندقت عنقه ومات[١].

المدرسة الخلاصية:

قام بإنشائها نور الدين ابن خلاص، ومن الواضح أنه كان رجلاً ميسور الحال وأنه قد صرف على تعميرها مبلغاً كبيراً من المال، بدليل أن القبارصة حين هاجموا المدينة سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)، قاموا بنهب حلقتي باب المدرسة وكانتا مصنوعتين من النحاس المخرم، ولو لم تكونا ذات قيمة مادية لما تجشموا عناء حملهما معهم، ولقد قام نور الدين ابن خلاص بعمل حلقتين لباب المدرسة بعد الواقعة بعدة أشهر، كذلك نهب القبارصة أيضاً كرسي الربعة وبيتها، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم المطعم بالفضة، بطريقة بديعة وفي غاية الدقة، بعد أن ألقوا بأجزاء القرآن على الأرض[٢].

مدرسة دار الحديث النبيهية:

كغيرها من المدارس التي لم تشر المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها إلى من أنشأها، عرفت في كتب التاريخ تارة بالمدرسة النبيهية وأخرى بدار الحديث النبيهية، ولعل من هذا الاسم الأخير يتضح أنها كانت مخصصة لتدريس مادة الحديث: وقد تولى مشيختها عدد من علماء الإسكندرية منهم أبناء **الغرافي تاج الدين**، الذي سمع التجيبي الكثير من كتب الحديث عليه سنة

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣؛ ابن حجر: الدرر، ج٢، ص٢٥١.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٣.

(٦٩٦هـ/١٢٩٦م)[١]، أيضاً تولى مشيختها وتصدى للتدريس بها أخوه **عز الدين** وقد لقيه ابن رشيد بها وسمع منه[٢].

مدرسة الأنصاري أو(القمني):

أنشأها الإمام فخر الدين أبو محمد بن الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم القمني الأنصاري، وهو أحد محدثي الثغر في القرن (٨هـ/١٤م)، وقد انقطع القمني في مدرسته لتدريس الحديث والسنة الشريفة ولقد استمر مدرساً بها حتى وافته المنية سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، وممن أخذ منه الرحالة البلوي، فقد سمع منه عدة تصانيف في الحديث والسيرة، وأجاز له الرواية عنه فيما سمعه[٣].

المدرسة الأبزارية أو (دار الحديث الأبزارية):

كغيرها من مدارس الإسكندرية التي لم تمدنا المصادر المتوفرة بمعلومات عنها سوى أنها كانت مخصصة لدراسة الحديث، فقد تولى مشيختها والتدريس بها عالم الإسكندرية في الحديث، تاج الدين الغرافي، مما جعل لها سمعة في الأفاق فقصده الطلبة من جميع الإنحاء، فعلى سبيل المثال قصده بن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، وهو يدرس بهذه المدرسة، وسمع منه الحديث وقام بنقله[٤] وممن تصدى للتدريس بها **الفقيه** المحدث ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن عطية الإسكندراني (ت٧١٢هـ/١٣١٢م) حيث تولى مهنة (قاريء الحديث) بها للشيخ تاج الدين الغرافي[٥].

المدرسة العلمية:

---

(١) التجيبي: البرنامج، ص١٧٨ـ١٧٩؛ ابن فهد: ذيل تذكرة الحفاظ، ص٩٠.

(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٣، ص٧١، ٧٨؛ الذهبي: المعين في طبقات المحدثين، ص٢٣٧؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص١٠، ج٣، ص١٧ـ١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٠.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٣٨ـ ٤١؛ ابن حجر: الدرر، ج٣، ص٤١٨.

(٤) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٩١؛ العبادي: ذيل طبقات الشافعية، ص١٩٢.

(٥) الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص٥٥٦.

وهي واحدة من المدارس التي لم تتحفنا المصادر التي بين أيدينا بشيء عمن أنشأها، تولى مشيختها الشيخ العالم نجم الدين أبو الحسن علي بن زين الدين بن هبة الله الأنصاري الخزرجي المالكي، ولد عام (٦٧٧هـ /١٢٧٨م) حسب ما ذكره البلوي أثناء رحلته إلى الإسكندرية، وقد سمع عليه العديد من الكتب الحديثية[١].

مدرسة الجرارة:

ذكرها صاحب الضوء اللامع في معرض حديثه عن عمر بن علي ابن عمر البحيري الخراشي الإسكندري المالكي، وقال بأنه تولى الإمامة بها، ثم انتقل إلى مكة المكرمة فقطنها وتوفي بها سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م)[٢].

مدرسة بني حديد:

تعود أصول هذه المدرسة إلى أسرة بني حديد والتي عاشت في العصر الفاطمي وامتدت حتى الأيوبي وتولت عدة مناصب دينية كالقضاء وغيره[٣]، وقد ظلت هذه المدرسة تؤدي دورها العلمي خلال عصر الأيوبيين ثم عصر المماليك ، وممن تولى التدريس بها والإفتاء، الفقيه العالم أحمد بن محمد بن سلامة أبو الحسين الإسكنداني المالكي (ت٦٤٥هـ/١٢٤٧م) [٤]، وقد حوت هذه المدرسة على مكا ن مخصص لسكنى الغرباء والمدرسين والطلبة، فقد نزل بها الإمام أبو زكريا يحيى بن أبي ملُّول الزناتي الفقيه المالكي حين استوطن الإسكندرية، وقد انتفع به الطلبة، ثم غادر الإسكندرية ودخل العراق وتوفي بها[٥].

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ج ٢، ص٣٦-٣٩؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣ ، ص ١٢٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٠٧.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢٤٦ــ ٢٤٧. فمن أبناء هذه الأسرة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد قاضي الإسكندرية، وعم أبيه القاضي أبو الحسين زيد بن الحسن بن حديد الإسكندراني ، والحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن حديد الإسكندراني، انظر : ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج١، ص٢١٤.

(٤)ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٣.

(٥) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج١، ص٣١٠.

مدرسة المجد معالي الجزري:

من الواضح من أسمها أن مؤسسها كان رجلا عالما، ورد ذكرها عند الحديث عن الفقيه العلامة المفتي شهاب الدين أبي العباس الشافعي (توفي في حدود نيف وأربعين وسبعمائة للهجرة)، أحد العلماء المشهورين والفقهاء المذكورين بالديار المصرية، انتقل من القاهرة إلى الإسكندرية ليتولى حسبتها وعمل بها في عدد من المدارس منها مدرسة المجد معالي الجزري[١].

مدرسة بن فياض ومدرسة المقدسي:

وقد ذكرهما منصور بن سليم ابن العمادية في معرض حديثه عن أبي المعالي محمد الفقيه المالكي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، وأخيه القاضي أبو محمد عبد الرحيم بن المخيلي (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م) الذي تولى التدريس في هاتين المدرستين بعد موت أخيه[٢].

المدرسة الخضراء:

بنيت في عصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، وقد قام ببنائها الشيخ خضر بن أبي بكر بن موس المهراني (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م)[٣]، أحد مشاهير الصوفية، فقد قام الشيخ خضر بهدم كنيسة قديمة للنصاري بالإسكندرية ـ كانوا يزعمون أن رأس يحيى وزكريا عليهما السلام فيها ـ وقام بإنشاء مدرسته

---

(١) العبادي: ذيل طبقات الفقهاء الشافعية، ص٢٠٥ـ ٢٠٧.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج٢، ص٩٥٠.

(٣) كان هذا الشيخ يدعى إنه يعلم الغيب، فكثيراً ما كان يخبر السلطان الظاهر بيبرس بأشياء من هذا القبيل، فقد أخبره بسلطنته، وبانتصاراته على الأعداء، اعتقله الظاهر بعد ذلك نتيجة لرميه بالفحش وغير ذلك من الأمور التي تخالف الشرع، فأمر الظاهر بعد المشورة بقتله، فقال للسلطان، أنا أجلي قريب من أجلك، وبيني وبينك أيام يسيرة، فخاف السلطان ووجم، وتوقف عن قتله واكتفى بحبسه والتضييق عليه. الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٢٢١ـ ٢٢.

الخضراء على أنقاضها، مستعيناً بأموال كثيرة من بيت المال، ثم أوقف عليها الأوقاف ليضمن استمراريتها(١).

المدرسة والبيمارستان الصلاحي:

أمر بإنشائها السلطان الأيوبي صلاح الدين وذلك أثناء زيارته للثغر سنة (٥٧٧هـ /١١٨٢م)، وقد تمت عمارتها سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)(٢)، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى العصر المملوكي فقد قام الأمير المملوكي سيف الدين الأكز نائب الثغر بتعميرها وتزويد البيمارستان بما يحتاجه من المستلزمات الطبية كالأدوية وأدوات الجراحة وغير ذلك، كما قام بوضع سلسلة على رحبتها لمنع الدواب من الدخول إليها أو إلحاق الأذى بها(٣).

مدرسة ظاهر باب البحر:

وهي من المدارس التي لم تشر المصادر التي وصلت إلينا إلى من أنشأها، وما نعرفه عنها هو أنها أنشئت خارج أسوار مدينة الإسكندرية في منطقة ظاهر باب البحر(٤)، ولعل هذه المدرسة كانت المحطة الأولى للطلبة القادمين من

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٦٤ــ ٢٦٨؛ ابن شاكر كتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص، ١٣، ١٤٩.

(٢) كما تشير بذلك اللوحة التأسيسية التي عثر عليها وتتعلق بإنشاء تلك المدرسة، والتي جاء فيها: (مما أمر بعمله السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف بن السيد الأجل أدام الله قدرته ، وأعلى أبدا كلمته، ونشر في الخافقين أعلامه، (أتم) عمارتها وأنشأها الأمير الاسفسلار الكبير .. زين الدين..جلال الأمراء ، مملوك أمير المؤمنين أبو سعيد قراجا سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)، انظر السيد عبد العزيز السالم، تاريخ الإسكندرية، ص٤٩.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٤٦؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص٧٦؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ٢٤٦.

(٤) باب البحر: أحد الأبواب التي تفتح في السور الشمالي للمدينة، ويطلق عليه عدة أسماء منها على سبيل المثال باب أشتوم، وباب السلسلة، وهذا الباب كان يطل على رقعة مستوية من الأرض تطل على الميناء الشرقية ، ومنه كان المسافرون يدخلون إلى المدينة بعد نزولهم من

جهة البحر، وقد قام السلطان عثمان بن الظاهر جقمق بدفن والدته التـــي توفيـــت وهي معه بالإسكندرية، بقبة أنشأها في هذه المدرسة، ورتب عندها قـــراء ليـــالي الجمع وكذلك إسماع الحديث في سائر أيام الأسبوع، بالإضافة إلى ما كان يقرأ من القرآن في كل يوم[1].

السفن ومنه يخرجون للإبحار، انظر: السخاوي، الضوء اللامـــع، ج٣، ص٢٠١؛ الحمـــيري: الروض المعطار، ص٥٥؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٥٢.

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٨.

دور العلماء

لم يقتصر طلب العلم في الإسكندرية ودوره على المساجد والكتاتيب والمدارس بل تعدى ذلك إلى أماكن أخرى ومنها (دور العلماء)، فقد فتح العديد من العلماء بيوتهم للإقراء والتدريس وبذل الإجازات لمستحقيها، وذلك امتدادا لما كان عليه السلف من فتح دورهم لطالبي العلم[١].

ومن أشهر دور العلم بالإسكندرية دار المحدث **وجيه** الدين يحيى الصنهاجي الإسكندراني، فقد لقيه ابن بطوطة عند مروره بالإسكندرية ووصفه بأنه من قضاتها المشهورين بالعلم والفضل[٢]، كذلك لقيه البلوي وذكر أنه كان إماما في الفروع والأحكام، وأخذ عنه وأجازه العديد من التآليف بمنزله بالثغر[٣].

كذلك منهم: **تاج الدين الغرافي**، فقد ذكر البلوي أنه لقيه بمنزله بالإسكندرية وسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية[٤].

ومنهم الشيخ **شرف الدين** أبو العباس أحمد بن أبي الحسن الكتامي الشافعي لقيه البلوي وترجم له، وذكر أنه لقيه بمنزله من الإسكندرية، وسمع عليه تصانيف جملة[٥].

وفي كلام البلوي دلالة على طول الوقت الذي قرأ فيه على الشيخ في بيته مما يدل على انقطاعه للتدريس في بيته، وكذلك طول المدة التي يمنحها للطلاب في بيته، والله أعلم.

ومن دور العلم بالإسكندرية دار الشيخ **محمد بن عبد الله** التلمساني المعروف **بحافي** رأسه، فكان يقرئ بداره وكان من أئمة العربية والنحو[٦].

---

(١) السمعاني: أداب الإملاء والاستملاء، ص١٤١.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٦.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٦٢؛ ابن حجر: الدرر، ج٤، ص٤٢٨.

(٤) البلوي: تاج المفرق، ص٢٠٦.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ج١، ص٢٠٣.

(٦) ابن شاكر كتبي: وفيات الوفيات، ج٢، ص٤٥٤ـ ٤٥٥.

ومنهم الإمام العلامة **ناصر الدين ابن المنير** الذي كان يسمع العلم بمنزله، فقد لقيه البلوي بمنزله وسمع عليه أكثر تآليف عمه العالم الكبير قاضي القضاة في الإسكندرية ابن المنير، ومما سمع عليه الأرجوزة الكبرى في التفسير، وكتاب تراجم أبواب البخاري.

كذلك كان الشيخ **عز الدين ابن حباسة** (من علماء القرن ٨هـ/١٤م)، يقرأ عليه في بيته، فقد لقيه البلوي بمنزله وحرص على ملازمته وسمع عليه في بيته عددا من مروياته تقرب من الأربعين مجلدا[١].

أيضا كان الشيخ المقرئ المجود عبد الله أبو محمد **المكين الأسمر** متصدرا للإقراء بالإسكندرية، فقد قرا عليه صاحب "ملء العيبة" الحديث بدكان في منزلة بالثغر وأجازه بجميع ما تجوز له روايته[٢].

كما كان الشيخ الفقيه **شمس الدين** أبو عبد الله بن كمال الدين القرشي الإسكندري، يسمع العلم بحانوت الوثيقة بالإسكندرية[٣]، والظاهر أنه كان حانوتا مشهورا بالإسكندرية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن العلماء لم تكن دورهم فقط هي محل بثهم العلم بجوار المراكز العلمية النظامية المعتادة من المساجد والمدارس، بل كان بثهم للعلم في كل مكان يمكنهم فيه ذلك ولو كان حانوتا، وقد ذكر البلوي في رحلته أنه لقي أيضا الشيخ شرف الدين أبا البركات محمد بن فخر الدين أبي بكر بن أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله **الجذامي** بالإسكندرية، وأنه لقيه بدكانه من الشهود بالإسكندرية.

أيضا من العلماء اللذين فتحوا أبواب دورهم لطلبة العلم، الشيخ محمد بن صالح بن محمود بن حمزة أبو عبد الله **التنوخي** الفقيه الشافعي، فقد سمع منه أبو المظفر منصور بي سليم بمنزله بالثغر، وقد وصف بالسيرة الحسنة المرضية[٤].

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ج٢، ص٨٠ـ ٨٦.

(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ص٣٥.

(٣) البلوي : تاج المفرق، ج١، ص٢١٠.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٣٥.

وقد سبق في ترجمة الشيخ الزاهد أبي القاسم المعروف **بالقباري** أنه كان يلازمه الإمام الشيخ ابن المنير في منزله وكان يأخذ عنه الزهد والرقائق(١).

وهكذا أسهمت دور العلماء في تنشيط الحركة العلمية بمدينة الإسكندرية وكانت فسحة للغرباء أن يحصلوا العلوم دونما حرج في المجالس العامة، وكانت من جهة أخرى تعطي للشيخ فرصة لبث علمه في غير المراكز النظامية للتعلم مما وسَّع دائرة العلم في الثغر في العهد المملوكي.

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣١٥، كذلك انظر الفصل الأول من هذه الرسالة، ص ١٥٨-١٦١.

الأربطة والخانقاوات

الأربطة: جمع رباط، والربط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً[١]، قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}[٢]، وقال تعالى: {يا أيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا}[٣]، ومن ثم أطلق لفظ (رباط) على البناء المحصن الذي يقوم قريباً من الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفع خطرهم، وأكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم وكان المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية، حتى ضعف خطر المسيحية على المشرق الإسلامي، وعندئذ أخذ الرباط يفقد الطابع الحربي، وتغلب عليه الصفة الدينية[٤]، ثم تحول الرباط إلى المكان الذي ينزل به الصوفية[٥].

والخانقاه: وجمعه خانقاوات وخوانق، هي كلمة فارسية تعني البيت، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وجعلت لانقطاع الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[٦]، حسب زعمهم.

وقد ظهرت الخوانق في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة[٧]، في الوقت الذي كثرت فيه الصوفية وتعددت مشيخاتها[٨].

والظاهر أن الرباط والخانقاة اسمان لمسمى واحد فقد ذكر ابن الحاج أن: (الرباط هو المسمى في عرف العجم خانقاة)[٩]، وحتى لما عرف المقريزي الرباط

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص١٥٦١، مادة ربط.

(٢) الأنفال، آية: ٦٠.

(٣) آل عمران، آية: ٢٠٠.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٨.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٢٧.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤١٤؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٨.

(٧) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤١٤.

(٨) الخطيب: دراسات في تاريخ الحضارة ، ص٧٣.

(٩) ابن الحاج: المدخل، ج٣، ص١٨٥.

والخانقاه، وذكر كل نوع على حدة، إلا أنه في تعريفه جمع بينهما في المعنى فكان تعريفه لكل منهما أنه: (بيت الصوفية ومنزلهم)[1]، وقد اهتم المماليك ببيوت الصوفية، وصار يعين لكل ربط أو خانقاة شيخ أو أكثر، يعاونه عدد من المتصوفه، واشترط في الشيخ أن يكون: (من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة)[2]، وقد اختلفت الأربطة والخانقاوات فيما يهدى لها على حسب حال مشيختها، ما بين الأرز إلى اللحوم والفواكه والعسل، **وألحق بها** الحمامات والمطابخ، كما زود بعضها بخزانة للأشربة والأدوية وطبيب وكحال [3]، مما يدل على اهتمام السلاطين والأمراء وكبار التجار بوقفيات الصوفية، حيث كان الكثير منهم يتفاخر ويتنافس على بناء الأربطة والزوايا[4].

وقد عاب ابن الحاج على أهل الخاناقاوات السماعات التي كانوا يقيمونها للذكر، ومعهم الشبابة والمزمار والدف وما يقومون به من الرقص والتصفيق وهز الرؤوس كما يفعل أهل الخمور سواء بسواء، وكيف أن الشيخ يرقص بغير وقار ولا حياء ويأخذ في المناداة والبكاء وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته[5].

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٢٧. أيضا سميت الأربطة بـ (المحارس)، انظر الخزرجي: سير الأولياء، ص١٣٦.

(٢) حجة وقف بيبرس الجاشنكير عن سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٧١.

(٣) حجة وقف الغوري، عن سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٧٢.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٧١؛ النهرواني: الإعلام، ص٢١٤، والزوايا: مفردها زاوية، وهي مشتقة من الفعل أنزوى ، ينزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد، ثم تطورت إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة ليقيم بها الصوفية والغرباء والطلبة، انظر: الخطيب: دراسات في تاريخ الحضارة، ص٧٣، وقد ذكر ابن بطوطة في نفس المكان أن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق.

(٥) ابن الحاج: المدخل، ج١، ص١٠٤، ج٢، ص٢ ـ٦، كما انتشر في مجالسهم اصطحاب المردان، وربما الأراذل وأصحاب المغاني والملاهي، وربما تعاطوا الحشيش، انظر: ابن الحاج: المدخل، ج٣، ص٩٥ـ١١٩؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٢٠٥.

وهكذا خرجت الخانقاوات عن شرط واقفيها إلى هذه المفاسد والمنكرات حتى استنكر العلماء أوضاعهم وأصدر السلطان جقمق مرسوماً لمنع الصوفية من عمل (مالا يجوز في زواياهم)[1]، وقال المقريزي عن هؤلاء الصوفية: (لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى)[2].

وقد وجد بالإسكندرية عدة أربطة وخانقاوات وزوايا، من ذلك:

رباط الواسطي:

نسبة إلى الشيخ أبي علي منصور بن نصر بن أبي الفضل **الواسطي** القاضي المتوفى سنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) [3].

رباط سوار أو (محرس سوار):

وهو الذي نزل به أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري[4]، كذلك نزل فيه عدد كبير من المتصوفة أمثال المرسي أبي العباس [5].

رباط الهكاري:

أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبي المفاخر باخل بن عبد الله الهكاري متولى الثغر زمن المنصور قلاوون، وكان أديباً عالماً توفي سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، عند رباطه بخارج باب رشيد[6].

رباط ابن سلام:

أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام بشبه جزيرة المنار قبل واقعة القبارصة بأكثر من سنة، وقد صرف على بنائه مبلغا كبيرا من المال، وجعله للمرابطين وليبيت فيه طائفة رماه رباط القرافة المتطوعين وليؤدوا الصلاة به وقد قام القبارصة أثناء وقعتهم الغاشمة على المدينة بمهاجمته وقتل من فيه

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، سنة ٨٥٢هـ ، ج١،ص١٦٤.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢٧٢؛ عاشور:المجتمع المصري، ص١٧٥.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص١٤٣؛ الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص١٠٧.

(٤) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٣٤١؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٢

(٥) الخزرجي: سير الأولياء، ص١٣٦ـ ١٣٧.

(٦) النويري السكندري: الإلمام، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٢.

وأحرقوا أسقفه وكسروا قناديله، ويذكر النويري أن الصليبيين لما تكاثروا حوله أمطرهم رماة المسلمين بسهامهم فقتلوا منهم جماعة حتى نفذت سهامهم، ثم عمدوا بعد ذلك إلى شرفات الرباط فقاموا بهدمها وأخذ حجارتها ورموا بها على العدو إلى أن نفذت، فقام الصليبيون باقتحام الرباط من شبابيكه المهدمة وذبحوا جميع من كان به من المسلمين المرابطين حتى سالت دماؤهم من ميازيب الرباط، ولما شاهد الشيخ محمد بن سلام ما فعل برباطه بكى وتألم على ما شاهده، فقام بسد شبابيكه وبابه بالحجارة، وبعد مرور خمس سنوات على الواقعة قام ابن سلام بتجديد الرباط وأعماره وكان ذلك سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م)، فأصبح الرباط كما كان أولا، غير أنه جعل سقف إيوانه من الحجارة بدل الخشب حتى لا تلتهمه النيران، إذا حدث أمر ما(١).

رباط قاعة القرافة:

وهو من وقوفات الشيخ محمد بن عبد السلام أيضا (٢)، وممن تولى مشيخته، الشيخ أحمد أبو العباس (ت في القرن ٨هـ/١٤م)(٣).

رباط الذهيبي:

وهو من الأربطة المعروفة بمدينة الإسكندرية، تولى مشيخته الشيخ الشمس أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المالقي السكندري الشافعي حفظ القرآن والشاطبية، وأخذ الحديث عن عدد كبير من علماء الثغر، وكذلك علم **القراءات**، وتولى مشيخة قاعة القرافة والذهيبي عن والده، وظل كذلك إلى أن وافته المنية بمنزله بالرملة سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) (٤).

رباط وتربة الأمير طغية:

كان بالقرب من رباط ابن سلام، وحوله عدد من الأضرحة، يعلو بابها غرفة يجلس فيها الأمير جنفرا نائب صلاح الدين بن عرام متولى الإسكندرية

---

(١) النويري السكندري: الإلمام،ج٢، ص١٥١، ١٥٤.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٥٤.

(٣)النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٨٨.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص١٩٩ــ ٢٠٠.

ليستعرض إطلاق النفط المشتعل، وحول هذه التربة كان يقوم عدد من الربط أحرقها القبارصة وكسروا قناديلها وقناديل مزاراتها، وقد هدم نائب الإسكندرية هذه الربط بعد الواقعة بسنتين حتى لا يتخذها القبارصة في المستقبل مأوى لهم(١).

رباط قجماس الإسحاقي:

عمره الأمير قجماس الإسحاقي نائب السلطنة في أيام الأشرف قايتباي خارج باب البحر على شاطئ بحر السلسلة وسبل به(٢).

رباط الشاطبي:

ذكره صاحب الإلمام حين ذكر متولي الإسكندرية الأمير سيف الدين أرغون الالا ـ المعروف بالأحمدي وأنه دفن بهذا الرباط سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م)(٣).

خانقاه بيليك المحسني:

ذكر ابن حجر أنها من إنشاء بيليك المحسني الذي كان نائبا على الإسكندرية في القرن السابع، ومن شيوخها مجد الدين موسى ابن أحمد بن محمود الأقصري (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) (٤)، وممن تولى مشيخة هذا الرباط أيضا أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة الشهاب المصري الشافعي (ت٨٤٩هـ/١٤٤٥م)، وصف بالإصلاح وتلاوة القرآن(٥).

رباط ابن حباسة:

يقع عند أحد أبواب الإسكندرية ويعرف بباب العزيز، بناه الشيخ ابن خباسة لأحد أعيان مشايخ الثغر المتصوفة ويدعى عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي بن عبد الخالق أبو محمد بن الثناء الإسكندري، حيث جلس الأخير في هذا

---

(١) النويري السكندري: الإلمام، ج٢، ص١٧٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢١٣؛ السيد عبد العزيز السالم: مدينة الإسكندرية، ص٤٨٣.

(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٦، ص٤٢٢ـ ٤٢٣.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، ص١٤٣ـ ١٤٤.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٣٢.

الرباط، ثم انتقل إلى مكة وتوفي بها سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[١] ، وممن تولى مشيخة هذا الرباط الشيخ أبو محمد عبد الله المغربي الصوفي[٢].

رباط ومشيخة الشاذلية:

نسبة إلى طائفة الشاذلية، وقد تتابع على مشيختها عدد من مشايخ الصوفية منهم السلطان المملوكي أحمد بن أينال أبو الفتح العلائي الظاهري الناصري، فقد تولى المذكور مشيخة الشاذلية، أثناء وجوده منفيا بالإسكندرية، توفي سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) [٣].

رباط الشيخ عبد الرزاق:

قام بإنشائه الشيخ عبد الرزاق أحد رموز التصوف بالإسكندرية في العصر المملوكي، وقد كان هذا الرباط يحتوي على عدد كبير من الخلوات[٤] لكثير من المشايخ الصوفية، لا يخرجون منها إلا لصلاة الجمعة، ومن هؤلاء الصوفية الذين استقروا في هذا الرباط أبو الفقراء حجاج، ووصف بأنه من أصحاب المكاشفات[٥][٦].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٤٩٧ــ ٤٩٩.

(٢) ابن العمادية: ذيل تكملة الإكمال، ج١، ص٣٠٤.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٢٤٦.

(٤) **الخلوات الصوفية** هي:بدعة مستحدثة بحيث ينقطع الشخص عن العالم الخارجي للتعبد وهي ليس فيها أي نفع لا للشخص ولا للمجتمع، يخرج منها الشخص مظلم الفكر محلا للوساوس نافرا عن الناس، وقد جعل الصوفية شروطا للخلوة، بأن تكون مظلمة، ويكون مداوما للصوم بقدر الإمكان مقللا للطعام والنوم، ساكتا عن الكلام إلا من ذكر الله، لا يخرج من خلوته إلا لصلاة الجماعة فقط، لمعرفة المزيد عن شروط الخلوة وأقسامها انظر:غالب عواجي:فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، ص٨٠١ــ ٨٠٨.

(٥) إن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالي، إلا أن الصوفية تعدوا على هذه الصفة وأقاموا أمرا سموه (**الكشف الصوفي**)، أو المكاشفات، ومعناه أنهم يعلمون الغيب إما عن طريق الله مباشرة ــ تعالى الله عما يقولون ــ أو عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم أو الأنبياء أو الخضر أو ملك الإلهام، ، انظر: غالب عواجي: فرق معاصرة، ص٨٧٢ــ ٨٧٥.

(٦) الخزرجي: سير الألياء، ص١٠٨ــ ١٠٩.

ومن رواد هذا الرباط: عبد الرحمن بن الطيب، فقد كان ممن يساعد فقراء الثغر بما يتحصل عليه من الأموال والأشياء العينية، كالأطعمة وغيرها[١].

ومن قاطنيه أيضا: شخص يدعى أبو النور، أقام فيه عشر سنين لم يخرج من زاويته من الرباط إلا للجمعة فقط[٢]، وقد حذا حذوه أحد رواد الرباط ويدعى موسى المغربي[٣]، ومن رواده أيضا أبو حفص عمر التلمساني، وهذا الصوفي لم تنتهي شطحاته عند ترك الاجتماع بالناس والمكشافات وغير ذلك بل تعدتها إلى ما هو أكبر من ذلك وهو أن الله عز وجل قد كلمه؟ [٤]ـ تعالى الله عما يقول علوا كبيرا[٥] ـ، وما يؤكد كلامنا أن كثير من هؤلاء المتصوفة والذين يسيرون على نهجه ضاق بهم فقهاء الثغر، وأودعوهم البيمارستانات، أمثال الصوفي عبد القادر النقاد، فقد سلك نفس المسلك، حيث ظهر عليه وله وصار ينطق بالعجائب والمكاشفات، فقام فقهاء الثغر بالحكم عليه بالجنون وأودعوه أحد المصحات بها خوفا من أن يتأثر منه بعض ضعاف النفوس، وقد قام المرسي أبو العباس بزيارته في البيمارستان ورأى حاله وسمع نطقه وكلامه، ليقول بعد ذلك : هذا عبد قادر[٦]، ولعله قال ذلك في محاولة منه لتدارك الموقف حتى لا تنفضح أفكارهم

---

(١) الخزرجي: سير الأولياء، ص١٠٩.

(٢) الخزرجي: سير الأولياء، ص١١٠.

(٣) الخزرجي: سير الأولياء، ص١١٠.

(٤) يذكر التلمساني: أنه وقف ذات مرة على جانب البحر يدعوا الله للمسلمين فسمع من صدر البحر من يقول له: ولك مثله مرتين أو ثلاثا، فأخبر بذلك أحد مشايخ الصوفية، فلما سافر الأخير إلى المهدية من بلاد المغرب أرسل للتلمساني كتابا قال فيه: السلام على عمر الذي كلمه الحجر، فعتب التلمساني عليه، وقال: من يكلمه الله ينعت بكلام الحجر؟، ونحن في اعتقادنا أن الرجل كانت لديه نوع من التهيأت والتخيلات الباطلة، وأن ما سمعه هو دوي أمواج البحر، خاصة لو علمنا أن الكثير من المتصوفة كان يجاهد نفسه عن تناول الطعام المتنوع وكذلك شرب الماء فهذا له تأثير كبير ليس على البنية الجسدية فقط وإنما على التركيز الفكري والحضور الذهني والله أعلم.

(٥) الخزرجي: سير الأولياء، ص١١٠.

(٦) الخزرجي: سير الأولياء، ص١١٢.

ولعله قال ذلك في محاولة منه لتدارك الموقف حتى لا تنفضح أفكارهم ومخالفتهم العقدية.

رباط أبي عبد الله العصار:

قام بإنشائه أبو عبد الله العصار، وقام بتولي مشيخته من بعده ابنه أبو الفضل، ومن سكان هذا الرباط أبو الربيع سليمان المراكشي(١).

ومن مجمل ما سبق نجد أن هذه الأربطة أنشأها إما نواب الإسكندرية ومتوليها، أو فضلاء الثغر أو مشايخ الصوفية، كما أن بعضها كان رباطا حربيا ولم يكن مجرد زاوية للفقراء وأنها كانت تستخدم للصلاة كرباط ابن سلام، ومن المتوقع أن يكون بهذه الأربطة شيوخ لحث المجاهدين على الجهاد وإمامتهم في الصلاة وتعليمهم أمور دينهم، **نذكر منهم على سبيل المثال بهاء الدين** عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن الخليل العسقلاني المكي المقرئ الشافعي المحدث، رحل من أجل طلب الحديث، فدخل الشام ومصر، برع في مذهب الشافعي وفي الحديث وعلم القراءات، ثم بعد ذلك أثر الانقطاع والخمول(٢)، فترك جميع ذلك وانقطع مرابطا بإحدى الزوايا الموجودة ظاهر مدينة الإسكندرية، وبقي كذلك إلى أن وافته المنية سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)(٣)، ومنهم أيضا **أبو عبد الله** محمد بن محمد بن أحمد **الماغوسي** السلاوي، وصف بأنه عالم مجاهد مرابط، متفنن ناثر ناصح مرشد، نزل الإسكندرية ورابط بها وتوفي سنة (٧٨٠هـ/١٣٧٦م)(٤).

ويلاحظ أن هذه الأربطة والخانقاوات والزوايا، صارت أضرحة لمن بناها، ناهيك أنه لم يكن لهذه الأربطة والخانقاوات كبير الأثر بالحركة العلمية اللهم

---

(١) الخزرجي: سير الأولياء، ص١١٣.

(٢) يذكر صاحب كتاب ذيل العبر، أنه: (كان كثير التقشف فوصل به ذلك إلى نوع من السوداء)، ابن العراقي، ج٢، ص٤١١. والسوداء مرض من الأمراض النفسية، يتمثل بـ (الوسواس) انظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ص٧٥.

(٣) الصفدي: الوافي، ج١٧، ص٥٩٦؛ أعيان العصر، ج٢، ص٧٢٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١١٤ــ ١١٥؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ١٥٨.

(٤) القرافي: توشيح الديباج، ص٢٣٢.

إلا تعليم القرآن وقراءته، وأما ما يتعلق بعلوم الشريعة وأصولها، فلم يكن لها دور بارز في تنشيط الحركة العلمية، لأن المتصوفة في واقع الأمر لم يكونوا يـــهتمون بذلك، بما ابتدعوه من القول بالحقيقة وعلم الباطن مما تقدم ذكـــره فـــي الفصـــل الأول[1].

ومن الملاحظ أن معظم المنقطعين من المتصوفة لا يرابطون في الأربطـــة المبنية ظاهر الثغر السكندري والتي هي معدة للجهاد ومنازلة العدو، وإنمـــا فـــي الخانقاوات أو الأربطة التي ليست لها صفة جهادية، خاصة التي بناءهـــا مشـــايخ المتصوفة كرباط عبد الرزاق وغيره، وأن جل همهم توفير مسكن ومـــأكل لـــهم بالإضافة إلى أن معظم مرابطي هذه الخانقاوات كانوا من المغاربة أو الأندلســـيين الذين انقطعوا عن أوطانهم في هذه الأربطة، فكان لزاما عليهم أن يحيطوا أنفســـهم بهالة من التنظيم وذلك بإيهام العوام بأنهم أصحاب كرامات ومكاشفات ونحو ذلـــك لكي يضمنوا لأنفسهم حياة طيبة من خلال ما يرد عليهم من معونـــة مـــن أهـــالي الثغر، إذ ليس لهم مهنة يمتهنونها لكسب العيش.

---

(١) راجع الأوضاع الدينية، ص ١٥٠.

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية على الحياة العلمية بالإسكندرية

قبل بيان الحركة العلمية التي أحدثها شيخ الإسلام ابن تيمية بالإسكندرية إبان اعتقاله ، يجدر بنا أن **نتعرف** أولا على **ابن تيمية** وآرائه وأسباب سجنه.

فهو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحراني الدمشقي الملقب بتقي الدين المكنى بابي العباس، الإمام المحقق الحافظ المجتهد المحدث المفسر الأصولي النحوي الواعظ الخطيب الكاتب الأديب، شيخ الإسلام وقدوة الأنام[١]، ولد سنة (٦٦١ هـ/١٢٦٢م)، تلقى العلوم على كبار مشايخ عصره حتى برز في شتى علوم الإسلام من تفسير وحديث وفقه ولغة وأصول فقه وفرائض كما أتقن فنون الحساب والجبر والمقابلة ورد على المتكلمين والفلاسفة، وأفتى وله من العمر ١٩سنة، وجلس مجلس والده ولم يتجاوز ٢٢ سنة[٢]، بلغ مرتبة الاجتهاد وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم، وأما التفسير فقد بلغ فيه الغاية، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوة عجيبة، كان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو الفقه أو من الرد على الفلاسفة نحوا من أربعة كراريس[٣]، وبلغت تصانيفه نحو ٥٠٠ مجلد[٤]، كتب رسالته (الحموية) في سنة(٦٩٨هـ/١٢٩٨م) وله من العمر ٣٧ سنة، فكانت محنته الأولى بسبب هذه الرسالة، أو الفتوى الحموية[٥]،حيث

---

(١) المراغي: الفتح المبين، ج٢، ص١٣٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٢٠٣.

(٣) ابن عبد الهادي: العقود، ص٦٤.

(٤) الصفدي: الوافي، ج٧، ص٢٣، أعيان العصر، ج١، ص٢٣٩. وعدها البعض ٣٠٠ مجلد انظر: محمد أبو صعيليك وإبراهيم العلي: ثلاث رسائل في الجهاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٩.

(٥) فقد سئل في هذه الفتوى عن الصفات، فذكر مذهب السلف ورجحه على مذهب المتكلمين فأوعز المخالفون للقاضي الحنفي الذي طلب حضوره فلم يحضر، فأمر أن ينادى في البلد ببطلان هذه العقيدة أو الفتوى أو الرسالة، ولكن الأمير سيف الدين جاغان نائب الشام أرسل طائفة فضربوا المنادي ومن معه، وتم الاجتماع مع الشيخ وقرئت الفتوى من الصباح إلى الثلث من الليل، وتبين أنه على حق في كتابه، وقال القاضي الشافعي عمر بن أحمد القزويني: (كل من تكلم في الشيخ يعزر)، انظر سرد هذه الحادثة مفصلة في ابن عبد الهادي: العقود:

أصبحت نارا على أهل البدع، وأحدثت هزة في القلوب والأفكار، وبدأت الأنظار تتحول إلى صوت صادع بالحق كسر حاجز الخوف وبدأ يصرخ في أمة احتوتها الأفكار المنحرفة، ثم بدأت محنة السجن منذ عام (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) وله من العمر ٤٤ سنة، فقد عقد للشيخ رحمه الله عدة مجالس أمام النائب حول عقيدته المضمنة في رسالته (الواسطية) وقد خرج الشيخ من هذه الجلسات ظاهر الحجة عليهم[١]، وما بين سنة (٧٠٥-٧٠٩هـ)/(١٣٠٥- ١٣٠٩م) سجن في مصر لم يتخللها إلا فترة واحدة لم تدم أكثر من شهر ما بين سجون مصر والإسكندرية وذلك بسبب الصوفية وعمره ٤٨ سنة، وفي الفترة ما بين (٧٢٠-٧٢١هـ)/(١٣٢٠- ١٣٢١م) سجن في دمشق وذلك بسبب فتواه في الحلف بالطلاق وعمره ٦٠سنة، وفي الفترة بين سنة (٧٢٦-٧٢٨هـ)/(١٣٢٥-١٣٢٦م) سجن بدمشق بسبب فتواه في منع شد الرحال إلى قبور الأنبياء على مقتضى الحديث الصحيح[٢]، وقد كتب رده على القاضي الإخنائي[٣]في السجن،

ص٢٠٠، ٢٠٢؛ ابن كثير: البداية، ج٧، ق١٤، ص١٣؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٨، ص٣١٠؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٢٤- ٨٢٩، ٨٤٧-٨٤٩.

(١) انظر أحداث هذه المناظرة وما كان فيها، ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج٣،ص ١٦٠-١٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٣٨؛ ابن حبيب: التذكرة، ج١، ص٢٦٩؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٦٣.

(٢) وهو قوله صلى الله عليه وسلم :((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى))، رواه البخاري : الجامع الصحيح، كتاب الجمعة، ص٢٣٣،٢٣٤ (ح١١٨٩، ح١١٩٧)، وفي كتاب الحج، ص٣٦٩ (ح١٨٦٤)، وفي كتاب الصوم، ص٣٩٤ (ح١٩٩٥)، ومسلم، الجامع الصحيح، في كتاب الحج، ج٢،ص١٠١٤، (ح١٣٩٧) وانظر في هذه المسألة ابن تيمية: مجموع الفتاوى ، ج٢٧، ص ١١٤-٢٨٨،٣١٤-٤٤٤ ، وانظر في محنته هذه : ابن حبيب: التذكرة، ج٢، ص١٦٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٩٩.

(٣) هو قاضي القضاة إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن عيسى السعدني المالكي، برع في الفقه وناب في الحكم، ثم تولى القضاء مدة خمسة عشر عاما إلى أن توفي سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)، انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص١٤٦.

وطار هذا الرد في الأفاق مما جعل المناوئين له يحرصون على إصدار أمر من السلطان بمنعه من الكتابة، فصودرت منه الأقلام فصار يكتب رسائله بالفحم، وكان هذا في تاسع جمادى الآخرة، سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، ثم تفرغ الشيخ بعد ذلك للعبادة وقراءة القرآن حتى توفي في السجن ليلة الثاني والعشرين من ذي القعدة من نفس العام وعمره ٦٧ سنة[١].

ومن أشهر تلاميذه: الحافظ **المزي** (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م)، والمحدث الحافظ **المقدسي** (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م)،ومؤرخ الإسلام **الذهبي** و**البزار** (ت٧٤٩/١٣٤٨م) ، وابن فضل الله **العمري** و**ابن قيم الجوزية** (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، و**ابن قدامة** (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، والمفسر المؤرخ **ابن كثير** (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، وثلة من العلماء والقضاة والمفتين والمحدثين[٢].

قال عنه **الذهبي**: (كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث)[٣]، وقال الشيخ **تقي الدين بن دقيق العيد**، وقد سئل عن ابن تيمية لما اجتمع به، فقيل له: كيف رأيته؟، فقال: رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء[٤]، وقال عنه شيخ النحاة أبوحيان لما التقى به: (ما رأت عيناي مثله)[٥]، وكذلك رثاء **ابن الوردي** بقوله:

غدا في عرض قوم سلاط   لهم من نثر جوهره التقاط
تقي الدين أحمد خير حبر   فروق المعضلات به تخاط[٦].

---

(١) البزار: الأعلام العلية، ص٨٢ ـ ٨٣؛ الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٢٣٣؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج٢، ص٢٣٦.
(٢) انظر في تلاميذ شيخ الإسلام: ابن ناصر الدين : الرد الوافي ، ص٦٢ وما بعدها؛ ابن كثير: البداية والنهاية : ج٧، ق١٤، ص٢١٦.
(٣) ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٤٠٩.
(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٨٣.
(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢، ص٤١٠.
(٦) ابن الوردي: تتمة المختصر، ص٤١٠.

وقال عنه **ابن تغري بردي** إنه: (كان إمام عصره بلا مدافعة في الفقه والحديث والأصول والنحو واللغة وغير ذلك)[1].

أما بالنسبة لمسألة حبس الشيخ بالثغر السكندري، فإنه لما كثر اجتماع الناس بابن تيمية في مصر، وكثر تلاميذه ومريدوه، ثارت نفوس الصوفية بقيادة ابن عطاء الله السكندري، فشكا أهل الخوانق والربط والزوايا بالقاهرة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وصعد جماعة منهم إلى القلعة في ضجة شديدة من أجل لفت انتباه السلطان، وقالوا له إنه يسب مشائخهم، واستعانوا عليه بالأمراء وغيرهم، وكان ذلك في شوال سنة (٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، وقد ظهر من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه الشيء الكثير، فادعى عليه ابن عطاء الله بأشياء لم يثبت عليه منها شيء، فقد فهم هؤلاء من قول الشيخ: (لا يستغاث بالنبي لأنه لا يستغاث إلا بالله)، أن فيه تنقصا من مقام النبي صلى الله عليه وسلم، لما ألفوه من الاستغاثة بغير الله، ثم إنهم خيروه بين أشياء إما أن يسير إلى دمشق أو الإسكندرية بشروط أو الحبس، فاختار الحبس، فدخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروا جبرا لخواطرهم، وفي أثناء سفره رده البريد، وحضر عند قاضي القضاة ، وقال بعض الفقهاء في المجلس (إن الدولة ما تريد إلا الحبس)، فرد القاضي بأن ذلك فيه مصلحة لابن تيمية، واستتاب أحد القضاة المالكية وأذن له أن يحكم عليه بالحبس فامتنع وقال: ما ثبت عليه شيء فأذن لقاضي مالكي أخر فتحير، فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال: أنا أمضي إلى الحبس، فقال القاضي المالكي: يكون في موضع يصلح لمثله، فأرسل إلى حبس القضاة، وكان ذلك كله بتخطيط من نصر المنبجي فقد كان مستحوذا على عقل السلطان بيبرس الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد[2]، واستمر الشيخ في محبسه يستفتى ويقصده الناس ويزورونه، وتأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس، فيكتب عليها من الكتاب والسنة، ثم بعد ذلك عقد للشيخ

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧١، ٢٧٢.

(٢) فقد كان السلطان في ذلك الوقت الناصر محمد بن قلاوون، إلا أن مقاليد الأمور بيد بيبرس الجاشنكير.

مجلس انتهى بنزوله إلى إحدى الدور بالقاهرة، حيث أكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً[١]. ولما كثر اجتماع الناس به وترددهم عليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم، وصاحب ذلك تطور سياسي، فقد تسلطن بيبرس الجاشنكير، حيث خرج الناصر محمد إلى الكرك مكرهاً بسبب كف يده عملياً عن السلطة لأجل كتاب زور عليه يتضمن عزله وأثبته القضاة ولم يكن صحيحاً[٢] وقد كان ابن تيمية على عدم وفاق مع الجاشنكير وشيخه نصر المنبجي، لذا قرروا نفيه إلى الإسكندرية لعل أحداً يتجاسر عليه فيقتله غيلة[٣].

ومما يذكره خادمه إبراهيم الغباشي، أنه لما جاء الأمر بنقله إلى الإسكندرية وقف يبكي، فقال له الشيخ: (لا تبك، ما بقيت هذه المحنة تبطيء وقال له إنسان يا سيدي: هذا مقام الصبر، فقال له: بل هذا مقام الحمد والشكر والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أدينا عشر هذه النعمة التي أنا فيها)[٤]، **فكلام خادمه يدل على الحالة النفسية** التي كان فيها الشيخ رحمه الله، فقد كان على يقين بزوال المحنة وانقلاب الأمر على الجاشنكير، فأراد أن يكسب الأجر في ذلك ببث العلم، وكان ذهابه في نهاية شهر صفر سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وأقام بمعتقله بالإسكندرية قرابة ثمانية أشهر، ببرج متسع مليح نظيف له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة، ووفروا له مواد الكتابة ومستلزماتها، وأحاطوه بالعناية والتبجيل، فقد قرر الشيخ بنفسه هذه الحقيقة وذلك حين أرسل رسالة من معتقله بالثغر إلى أصحابه بالشام ـ يحثهم فيها على التبتل والخشوع إلى الله ـ جاء فيها: (.. فإني والله العظيم الذي لا إله

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية، ج٤، ص٤٨؛ المحمود: موقف ابن تيمية، ج١، ص١٨٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٥٢؛ محمد العبده: رسائل الإمام ابن تيمية من السجن، ص٢٨، ٢٩.

(٤) إبراهيم الغباشي: ناحية من حياة شيخ الإسلام، ص٣١، ٣٢.

إلا هو في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله..)[1]، ولقد كان المسئولون عن سجنه في غاية اللطف معه فلم يمنعوا أحدا من الدخول عليه، فكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء، يقرأون عليه ويستفيدون منه، وهو في أطيب عيش وأشرح صدر[2]، وعلى عكس ما كان يتوقعه الجاشنكير ونصر المنبجي، فقد ألتف الناس حوله في محبة زائدة وحنوا عليه حنوا مفرطاً وتعظيماً لقدره وتقريباً لشخصه، وانتفاعاً بعلمه واشتغالاً عليه، يقول ابن كثير أنه قد جاء إلى دمشق كتاب من أخيه يصف حال ابن تيمية بالثغر قال فيه: (إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس على نية الرباط، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدونه بها، ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت كرامة في حقنا، وظنوا أن ذلك يؤدي إلى هلاك الشيخ فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة وانعكست من كل الوجوه وأصبحوا وأمسوا وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوه، وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له، وفي كل وقت ينشر كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به أعين المؤمنين وذلك شجى في حلوق الأعداء واتفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس قد باض فيها وفرخ، أضل بها فرق السبعينية[3]، والعربية[4]، فمزق الله بمقدمه عليهم شملهم وشتت جموعهم شذر مذر، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعة كثيرة منهم وتوب رئيساً من رؤسائهم، واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض

---

(١) محمد محمد السيدة: رسائل ابن تيمية في السجن، ص٣١.

(٢)اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٥٢؛ العليمي: المنهج الأحمد، ج٥، ص٣٤.

(٣) هم أتباع **ابن سبعين**، وهو رجل أندلسي انتقل إلى مكة ومات بها منتحراً سنة (٦٦٧هـ/١٢٦٨م) وأتباعه يسمون **(الليسية)**، لأن ذكرهم كان: "ليس إلا الله"، انظر عنها: محمود عبد الرؤوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية، ص٣٥٩.

(٤) هم أتباع **ابن عربي**، محي الدين المتوفى سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، ثبت عنه أنها يعتقد بوحدة الوجود، أو الوحدة ما بين الخلق والمخلوقات، انظر ترجمته في أحمد بناني: موقف ابن تيمية من التصوف، ص١٨٠.

وفقيه، ومفتي وشيخ وجماعة المجتهدين، إلا من شذ من الأغمار الجهال، مع الذلة والصغار، محبة الشيخ وتعظيمه، وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله، ولعنوا سراً وجهراً وباطناً وظاهراً، في مجامع الناس بأسمائهم الخاصة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ونزل به من الخوف والذل ما لا يعبر عنه..)[١].

وبالإضافة إلى ما ذكره أخو الشيخ في رسالته هذه عن أهل الإسكندرية ومناظرات الشيخ لأهل البدع والأهواء واستتابته الكثير من أقطابهم وجماعاتهم وقبول الناس لكلامه، المنبثق من الكتاب والسنة، فإن الشيخ كان يلقي الدروس بالسجن ويؤكد ذلك كلام الذهبي الذي قال: (أنه حدث بالثغر)[٢]، وبما أن الشيخ كان معتقلاً، فيكون قد حدث بالحديث من داخل المعتقل، **كما تضمن ثبت كتبه رسالة اسمها (المسائل الإسكندرية على الملاحدة الاتحادية والسبعينية)**[٣]، وهذا يدل على أنه كان يباحث الملاحدة والاتحادية والسبعينية في مسائل الاعتقاد في داخل المعتقل[٤].

وقد ظل ابن تيمية طيلة بقائه بالثغر يُدرس ويعلم حتى رجع الناصر إلى السلطة، فلم يكن له هم إلا بطلب ابن تيمية، فأحضر إليه وبالغ في إكرامه[٥]، وفي ذلك يقول ابن حبيب:

إن كان أصبح شيخ العلم معتقلاً من كيد قوم تناهوا في الذي نقلوا
لا تظهروا عجباً فالسيف يدخل في سجن القراب نعم والرمح يعتقل[٦].

رحم الله شيخ الإسلام، فقد أثر بقوة في الحياة العلمية بالإسكندرية على الرغم من قصر مدة إقامته بها.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ق١٤، ص٥٢، وانظر نصاً لهذه الرسالة بالملحق ص٦٠٨.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤ ، ص١٤٧٩.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٧٤.

(٤) سيأتي في مبحث المناظرات زيادة بيان لذلك إن شاء الله تعالى.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٧٨.

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٢٦ ــ ٢٧.

الرحلات العلمية

خرج العلماء السكندريون من ثغرهم طلباً للعلم فطافوا البـــلاد المصريـــة شرقها وغربها شمالها وجنوبها ، كذلك رحلوا إلى بلاد الحرمين والشام والعـــراق وغيرها من البلاد معتمدين في ذلك على قوله صلى الله عليه وسلم: ((مـــن ســلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))(١).

فممن رحل من الإسكندرية **ضياء الدين** محمد بن عبد الله بن إبراهيم بـــن عيسى المنيجي الإسكندراني المحدث (ت٦٥٩هـ/١٢٦٠م)، رحل إلى عـــدد مـــن البلدان طلباً للعلم حتى وصف بأنه **(الرحال)**، فعنى بالحديث وتفرد بعلو الإسـناد(٢) ومنهم **شمس الدين** علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن مفرج الأنصـــاري الإسكندري الشافعي، رحل إلى عدد من مدن مصر للسماع، وطلب العلم، فســـمع من الدمياطي، وابن دقيق العيد، وتفقه على العلم العراقي، وأجيز بالإفتاء، وتولـــى قضاء فوه وأسيوط، وتوفي في طريقه إلى اليمن سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)(٣)

ومنهم **كمال الدين** محمد الشمني الإسكندراني المالكي، رحل إلى القـــاهرة وسمع من شيوخ الحافظ ابن حجر، كالعراقي وغيره،(٤)، ومنهم **عمر** بن أبي بكـــر بن محمد بن أحمد السكندري، رحل إلى القاهرة للسماع من شيوخها، وقد اســـتغل القاهريون وجوده معهم ليستفيدوا من علمه ويأخذوا منه الإجازة، فممن أجاز لـــهم السخاوي وغيره، وتوفي سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٨م)(٥)، ومنهم **أحمد** بن محمـــد بـــن علي بن أحمد بن ناصر الشـــهاب الدرشـــامي **الســكندري** المـــالكي (ت القـــرن ٨هـ/١٦م)، ولد بالإسكندرية، ونشأ بها فحفظ القرآن ومختصـــر ابـــن الحـــاجب

---

(١) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الذكر والدعـــاء، ج ٤، ص ٢٠٧٤(ح٢٦٩٩) عـــن أبـــي هريرة رضي الله عنه .

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٨٠؛ ابن العماد الحنبلـــي: شـــذرات الذهـــب، ج٥، ص٢٩٩.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣،ص ١٧٣ـــ ١٧٤.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص١٨٦.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص١١٧.

والرسالة القشيرية وغير ذلك من كتب الفقه والنحو، ثم رحل إلى القاهرة لطلب الحديث، فقرأ على السخاوي واستجازه، ثم عاد إلى الإسكندرية فناب في قضائها ثم خرج إلى مكة حاجا، فاستطابها فجاور حتى وافته المنية بها[1]، ومنهم **الشمس** محمد بن محمد بن أحمد الشمس أبو عبد الله بن البدر السكندري الشافعي (ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، اشتغل بالإسكندرية بعلم الحديث حتى برع فيه، ولكن رغبته في الزيادة والتعلم جعلته يرحل إلى القاهرة غير مرة للأخذ من علمائها فأخذ من السخاوي وغيره علم الحديث والمصطلح[2].

كذلك رحل عدد من علماء الإسكندرية إلى الشام، حيث كانت حاضرته دمشق وغيرها من مدن الشام مزدهرة بالعلم، حافلة بالعلماء، لذا لم تخلو من محط رحال الإسكندرانيين.

فممن رحل إلي دمشق: شميل بن مهلهل بن أبي طالب اللخمي الإسكندراني المالكي التاجر (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، فلم تمنعه تجارته من سماع الحديث، فسمع بالثغر، ثم رحل إلى دمشق، فسمع بها من أبي اليمن الكندي[3] محدث الوقت، وغيره، وقد روى عنه جماعة منهم الدمياطي[4]، ومنهم **المسند الإمام شرف الدين** محمد بن عبد الخالق **بن طرخان** الإسكندراني ، رحل إلى بلاد الشام فسمع الكثير من علمائها ومشائخها أمثال أبي الحسن المقدسي وعبد الله بن عبد الجبار وغيرهم[5]، **ومنهم برهان الدين** إبراهيم بن محمد بن حاتم الإسكندراني، أخذ العلم بالإسكندرية، ثم شد الرحال في طلبه وهو في ريعان الشباب، فتوجه صوب دمشق، وسمع بها من عدد كبير من مشائخها، ثم عاد الى

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٢، ص١٤٤، ١٤٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص١٤٥.

(٣) هو تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي البغدادي، مسند الشام وشيخ القراءات والعربية، أفتى ودرس وصنف توفي بدمشق سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م). انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص٣٤.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص١٢٣.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢١٦.

الإسكندرية فتولى منصب القضاء بالإضافة إلى الخطابة والتدريس، كان خيراً صالحاً، انتفع الناس بعلمه، توفي سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م)[١]، **وفخر الدين أحمد بن المخلطة**، رحل إلى دمشق وأخذ عن الذهبي وجماعة حتى صار علماً في الحديث، ومكنه ذلك من أن يتولى التدريس بالمدرسة الصرغتمشية بالقاهرة والتحديث بها، ثم بعد ذلك عاد إلى الإسكندرية فتولى بها منصب القضاء إلى أن وافته المنية سنة (ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م)[٢].

وممن نزل مكة من علماء الإسكندرية في طلب العلم، كمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الهلالي السكندري المالكي المعروف **بابن الربيعي**، ولد بالإسكندرية وتلقى بها علومه، وتولى قضاءها، ثم رحل إلى مكة لسماع الحديث، فسمع من عيسى الحجي وغيره، وتوفي سنة (٧٦٧هـ/١٣٦٥م)[٣].

وإلى بغداد رحل الفقيه السكندري أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز وهو من رجال القرن السابع الهجري، فبعد أن تفقه بالإسكندرية على مذهب مالك، رحل إلى بغداد فلقي الفضلاء من علمائها من أهل الأدب، فتأدب بها، ولم يزل يأخذ نفسه بقول الشعر إلى أن صدر له [٤].

وبمقارنة من رحل من الإسكندرية لطلب العلم مقابل من دخل إليها من أقطار العالم الإسلامي[٥] نلحظ عدة أمور:

أولاً : ما حفلت به المصادر التاريخية من أسماء الوافدين إلى الإسكندرية قد فاق عدداً أسماء الخارجين منها في طلب العلم، وهذا له دلالته الواضحة على

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٤.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٣٢٩؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٤٧.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ص٤٤٥.

(٤) ابن سعيد : الغصون اليانعة، ج٢، ص٨٩.

(٥) انظر على سبيل المثال الفصل الرابع والمخصص للرحالة الذين وفدوا من جميع أقطار العالم الإسلامي إلى الإسكندرية طلباً للعلم.

مدى ما كان يزخر به الثغر السكندري من مختلف العلوم والفنون ومن كبار الشيوخ والأئمة الذين كانت الرحال تشد إليهم.

ثانياً: شملت الرحلة إلى الإسكندرية كل العهد المملوكي، فلم تخل الإسكندرية من وافد إليها لطلب العلم، إلا أنه في عصر التدهور العلمي بآخر العهد المملوكي قلت الرحلة إليها بصورة ظاهرة عن أول العصر، ويقرر هذه الحقيقة السخاوي معلقاً على كلام الذهبي[1] بقوله: (الآن عدم إلا من بعض الغرباء وغالبهم مالكيون)[2]، لذا لا غرو أن يرحل أهلها للسماع في عصور الدولة المتأخرة، يؤكد ذلك كثرة الأعلام المترجم لهم في أخر العصر المملوكي والذين رحلوا منها لطلب العلم.

---

(١) يذكر الذهبي أن الإسكندرية : (مازال بها الحديث قليلاً حتى سكنها السلفي، فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات، **ثم نقص بعد ذلك**)، الأمصار ذوات الآثار، ص١٧٠ـ ١٨٠.

(٢) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص ٦٦.

الإجازات

اختص الله سبحانه وتعالى هذه الأمة بشرف الإسناد[1]، وسلسلة الرواة فهي الأمة الوحيدة بين أمم الأرض التي تحمل تراثها الديني والثقافي بالأسانيد والروايات، ومنه ما هو بأعلى أنواع الأسانيد وهو التواتر[2]، ولا يختص ذلك بالكتاب العزيز وحده، بل كثير من الأحاديث النبوية والتواريخ تحمل أيضاً صفة التواتر.

وللإسناد أهميته في نقل التراث الفكري، قال الإمام ابن المبارك: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)[3].

ولقد كانت العصور الإسلامية الأولى تعني بالرواية والسماع، وكانت العلوم المتلقاة تقل طبقات أسانيدها باعتبار قرب العهد من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والأئمة المجتهدين، فكانت الأسانيد يقل عدد أفراد رجالها، مما يسهل حفظها على الأمة حتى صار عصر التدوين، وبدأت المصنفات تظهر إلى حيز الوجود بتدوين تلك الأسانيد المحفوظة، وصار الإسناد يدخل في مرحلة جديدة وهي حمل كتاب عن شخص بعد أن كان الأمر حمل عدة أحاديث.

وبهذا ظهر مصطلح جديد في طرق التحمل والرواية، وهو مصطلح **(الإجازة العلمية)**، وهي إجازة الشيخ مروياته للطالب بأن يرويها عنه، وبهذا تغلب المحدثون على الصعوبة الحاصلة من طول الأسانيد، فيكفي أن يجيز الشيخ كتاباً كصحيح البخاري مثلاً لتلميذه، فيروي التلميذ الجامع الصحيح بأسانيده من طريق هذا الشيخ، ولا تعدو الإجازة عبارة واحدة كأن يقول الشيخ

---

(١) المراد **بالإسناد** : سلسلة الرجال الموصلة إلى المتن، كأن يقول الرجل حدثني فلان أن فلاناً قال (كذا وكذا)، انظر في ذلك: محمود الطحان: أصول التخريج ودراسة الأسانيد، ص١٥٨.

(٢) **التواتر** : هو التتابع قال تعال: {ثم أرسلنا رسلنا تترا}، [المؤمنون، آية ٤٤]، وعند علماء المصطلح يعرفونه بأنه ما يرويه الجمع الذي تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وحده بعضهم بعشرة أشخاص في كل طبقة من طبقات السند، انظر تعريف المتواتر في: صبحي الصالح: علوم الحديث، ص١٤٦.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في المقدمة، ج١، ص١٥.

لتلميذه (أجزتك رواية صحيح البخاري بإسنادي إليه)، وأصبح بعد تدوين الكتب لا فرق بين الإجازة والسماع، وإن كان السماع في عصر السلفي عالم الإسكندرية أقوى وأولى[١].

واعتمد العلماء هذا النوع من التحمل والأداء ، مادام التلميذ سمع الكتاب من الشيخ، أو كان الكتاب بنسخة صحيحة بخط مؤلفه أو قوبل على نسخته[٢]، ولا سيما فيما اشتهر في الأمصار ككتب الحديث الستة[٣].

والإجازة في اللغة: مصدر: أجاز بمعنى إعطاء الإذن، وأجاز له: أي أذن له[٤]، وهي مشتقة من التجوز، وهو التعدي، فكأن الشيخ عدى روايته حتى أوصلها للراوي عنه[٥].

والإجازة عند المحدثين: هي طريقة من طرق التحمل ، وهي الطريقة الثالثة بعد السماع من الشيخ والقراءة على الشيخ[٦]، وهي أعم لأنها عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه[٧].

وتمنح الإجازة لطالب العلم إما مشافهة أو كتابة، وذلك بأن يكتب الشيخ إجازاته على الكتاب الذي درسه الطالب عليه، أو يكتبها له الشيخ مستقلة عن الكتاب[٨]، وقد حوى بعضها على طرق الرواية، وخلى البعض الآخر من ذلك[٩]

---

(١) السيوطي: تدريب الراوي، ج٢، ص٣١.

(٢) محمد لقمان السلفي: اهتمام المحدثين بنقد الحديث، ص٢٧٧.

(٣) هي صحيح البخاري وصحيح مسلم، والسنن الأربعة لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وهي أشهر كتب الحديث، ودواوين الإسلام الكبار.

(٤) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج٢، ص١٧٠؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٢٦؛ ابن حجر: نخبة الفكر، ص٢١٦.

(٥) القاسمي: قواعد التخريج، ص٢٠٥.

(٦) وعند بعض العلماء تأتي في المرتبة الخامسة بعد السماع والقراءة والمناولة والكتابة، انظر عياض اليحصبي: الإلماع، ص٦٨.

(٧) صبحي الصالح: علوم الحديث ، ص٩٥.

(٨) مريزن: الحياة العلمية في العراق، ص٢٥٠.

(٩) ابن حجر: نخبة الفكر، ص٢١٦.

ويمكن حصر الإجازة في خمسة أنواع، **أولها:** المناولة وهي أعلى أنواع الإجازة وصورتها أن يدفع المحدث إلى الطالب أصلا من أصول كتبه، أو جزءا منها كتبه بيده، ويقول : هذا الكتاب سماعي عن فلان فحدث به عني، وقد عدها بعض المحدثين مثل السماع(١)، **وثانيها:** أن يدفع الطالب إلى الشيخ صحيفة قد كتب فيها: إن رأى الشيخ أن يجيز لي جميع ما يصح عندي من حديثه فعل، فيجيزه الشيخ بقوله: قد أجزت لك كل ما سألت، أو يكتب له ذلك تحت خطه في الصحيفة فيقرؤه عليه(٢)، **وثالثها:** أن يكتب الشيخ بخطه حديثا أو جزءا من سماعه، ويكتب معه إلى الطالب أني قد أجزت لك روايته بعد أن صححته على بأصلي، أو صححه لي من أثق به(٣)، ورابعها: أن يكتب المحدث إلى الطالب: قد أجزت لك جميع ما صح ويصح عندك من حديثي، ولا يعين له شيئا(٤)، **وآخرها:** أن يأتي الطالب إلى الراوي بخبر فيدفعه إليه، ويقول هذا من حديثك فيتصفح الراوي أوراقه ثم يقول: نعم هو من حديثي ويرده إليه، أو يدفع الراوي للطالب بعض أصوله، ويقول له هذا من سماعاتي، فيحدث الطالب به من غير أن يستجيز منه في الوجهين، وقد قبل ذلك وصححه بعض أهل العلم(٥).

وأما أقسام الإجازة من حيث حكمها وجواز العمل بها فعلى وجوه، منها: ما هو مقبول ومنها ما هو مردود(٦)، فالمقبول منها أن يجيز الشيخ لشخص معين بكتب معينة، أو أن يجيز الشيخ لشخص معين لكن من غير تحديد كتب أو

---

(١) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص٣٢٦.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص٣٣٤.

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية ، ص٣٣٦.

(٤) الخطيب البغدادي: الكفاية ، ص٣٤٥.

(٥) الخطيب البغدادي: الكفاية ، ص٣٤٦.

(٦) ومن أهل العلم من تشدد في **رد كل أنواع الإجازة**، كابن حزم وجماعة، فاعترضوا عليها ورأوها (بدعة غير جائزة)، وأن من قال لغيره أجزت لك أن تروى عني ما لم تسمع، فإنه قال: أجزت لك أن تكذب على، لأن الشرع لا يبيح رواية ما لم يسمع، وإن كانت هذه مغالاة لأن الذي يروي بالإجازة لا يدعى السماع، ولا سيما والصور المقبولة عن الجمهور كثيرة، انظر: السيوطي: تدريب الراوي، ج، ص ٣٠، ٣١.

مرويات بعينها، كقوله: أجزتك مسموعاتي، أو أن يجيز الشيخ للشخص جميع إجازاته[١]، أما المردود منها فهو ما كان لمجهول بمجهول أو لشخص لم يولد بعد ونحو ذلك[٢]، أما الإجازة العامة وهي قول الشيخ أجزت أهل عصري أو الناس أو من شاء[٣] ونحو ذلك ففيها خلاف بين أهل العلم، هل يصح الاعتماد عليها أم لا[٤]، والتحقيق ما قاله الحافظ ابن حجر أن الرواية بها في الجملة أولى من إيراد الحديث معضلاً[٥]، ويمكن أن يستدل لذلك بحديث ((بلغوا عني ولو آية))[٦] [٧]، وكان محمد بن أحمد بن عرام الإسكندري، يرى أن الرجل عندما يروى بالرواية عن شيخ بالإجازة العامة عن شيخه بالإجازة الخاصة ويرويه أيضا عن شيخ بالرواية الخاصة عن شيخه بالرواية العامة فإن ذلك في حكم الإجازة الخاصة عن الإجازة الخاصة[٨]، ولعل هذا يظهر فائدة أخرى للإجازة العامة.

وقد شاعت الإجازة العلمية في الأوساط الفكرية حتى تعدت علم الحديث إلى العلوم الأخرى بل صارت شاملة لمعظم العلوم، كالفقه والقراءات والتفسير والنحو والأدب والطب وغيرها ، كما تعددت أغراضها إلى الإجازة بالفتيا والتدريس وعراضات الكتب والإجازة على الاستدعاءات[٩].

وقد شكلت الإجازات العلمية أحد المظاهر العلمية الواضحة في الإسكندرية خلال العصر المملوكي، فقد كانت دافعاً أحياناً على الرحلة إلى الثغر السكندري

---

(١) التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون، ج١، ص٢٩٥.

(٢) التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون، ج١، ص٢٩٥.

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية ، ص٣٢٥؛ القاضي عياض: الإلماع، ص، ٩٠،١٠١.

(٤) صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٩٦.

(٥) المعضل من الحديث ما سقط من إسناده راويان فأكثر على التوالي، صبحي الصالح: علوم الحديث، ص١٦٩.

(٦) البخاري: الجامع الصحيح، في كتاب أحاديث الأنبياء، ص٧١٢ (ح٣٤٦١).

(٧) السيوطي: تدريب الرواي، ج٢، ص٣٤.

(٨) السيوطي: تدريب الرواي، ج٢، ص٣٤.

(٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٦٤ــ ٣٧٤.

طلباً لها، كما ظلت الإجازة صورة رائعة لتواصل سلسلة الإسناد للعديد من العلوم يحمله اللاحق عن السابق.

وعلى الرغم من تعدد دور العلم بالإسكندرية من مدارس ومساجد وغير ذلك، إلا أن الإجازات العلمية بها ظلت أمراً شخصياً يعني باختصاص الشيوخ يمنحونها إلى طلبتهم[1]، فكانت الإجازات لا تصدر غالباً إلا من أحد شيوخ المدارس أو المساجد أو دور العلم والذين بذلوا أنفسهم للطلبة من أهل الثغر أو الوافدين عليه.

فمن الإجازات العلمية بالثغر: الإجازة بالقراءات، وقد انتشرت بسبب وجود كبار علماء القراءات بالثغر، فمنهم المكين الأسمر، المتصدر لإقراء القرآن بالإسكندرية، فقد أجاز لكثير من أبناء الثغر السكندري أو الوافدين عليه أمثال ابن رشيد، فقد سطر في كتابه ملء العيبة أن المكين الأسمر أجاز له ولبنيه ولأخوته جميع ما تجوز له روايته[2]، أيضاً من رواد القراء بالثغر وممن كانت الرحلة إليهم للسماع وأخذ الإجازات منهم الشيخ الكمال ابن فارس إبراهيم التميمي الإسكندري فهو أخر من قرأ بالرواية على الكندي، وكانت الرحلة إليه للإجازة منه[3].

ونظراً لوجود مدرسة الحديث بالإسكندرية ونزول الحافظ السلفي بها وكونه عمر طويلاً (أكثر من مائة سنة)، لذا كانت أنظار المحدثين تتجه للإسكندرية لأخذ الإجازة في الحديث بعلو الإسناد من تلاميذه بها، فقد كان السلفي معتنياً بالرواية مجيزاً لها بطرق تحمل كثيرة ومنها الإجازة، فقد قال: (أعلم أن الإجازة جائزة عند فقهاء الشرع، المتصرفين في الأصل منه والفرع، وعلماء الحديث في القديم قرناً فقرناً وعصراً فعصراً، إلى زماننا هذا يبيحون بها الحديث ويخالفون فيها المعاند المبتدع الخبيث)[4].

---

(١) بمعنى أنها لم تأخذ صفة الشهادات على النحو الذي تصدره المؤسسات العلمية الآن.

(٢) ابن رشيد: ملء العيبة، ج، ص٣٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٥٠٣.

(٤) عن مقدمة محقق المجاري ، ص٥١.

كذلك كان يرى الحافظ **السلفي** جواز الإجازة العامة المطلقة، كقوله مثلاً: (أجزت أهل زماني)[1]، وبها كان يروى على بن فاضل المقرئ الضرير[2].

وكان المكين الأسمر يجيز بالأمالي الخمسة والتي أخذها بإسناد عن جماعة منهم أبو القاسم الصفراوي عن السلفي، فقد أجازها بخطه سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) للرحالة ابن رشيد الفهري[3].

أيضاً أخذ الرحالة الوادي آشي كتاب الدعاء للمحاملي من طريق تلاميذ السلفي، فقد ذكر في برنامجه أنه قرأ بالإسكندرية كتاب الدعاء للقاضي أبي عبد الله الحسين ابن إسماعيل بن محمد المحاملي[4] على الشيخ محي الدين أبي القاسم بن عبد الرحمن بن جماعة بسماعه على أبي الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات هبة الله بن جعفر بن يحيى الهمذاني بسماعه على أبي الطاهر السلفي[5].

ومن المحدثين من لم يرض بهذه الإجازات، بل كان يحض على السماع بالترحال والتطواف لا بالإجازات العامة، أو بسماع ـ وبالإجازة في الباقي، وقد ذكر ابن رشيد أنه لما التقى بالإمام تاج الدين الغرافي بالإسكندرية وسألة الإجازة أنشده الغرافي:

علم الحديث فضيلة تحصيلها   بالسعى والتطواف في الأمصارِ
فإذا أردت حصولها بإجازةٍ   فقد استعضت الصفر بالدينارِ[6].

ومع ذلك فقد حفظت لنا كتب التاريخ جملة من المحدثين بالإسكندرية منحوا

---

(١) السيوطي: تدريب الرواي، ج٢، ص٣٣.

(٢) الصفدي: نكت العميان، ص٢١٢، ٢١٣.

(٣) ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٤٥.

(٤) هو أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل ابن محمد بن إسماعيل بن سعيد الضبي البغدادي **المحاملي**، سمع الحديث من خلق كثير وتصدر به حتى صار أسند أهل العراق، مع التصدر للإفادة والفتيا ستين سنة، مات (٣٣٠هـ/٩٤١م)، انظر ترجمته في الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٥،ص٢٥٨؛ طبقات الحفاظ، ص٣٤٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٢، ص٣٢٦.

(٥) الوادي آشي: البرنامج، ص٢٢٨.

(٦)العبدري: الرحلة، ص١١١؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٢١٥.

الإجازات لطلبة العلم منهم عبد الرحمن سبط السلفي ، وابن رواج وابن الجميزي فقد أجازوا لعدد كبير من طلاب العلم منهم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م)[١]، **ومنهم القاضي بهاء الدين** علي بن عيسى بن سليمان الثعلبي (ت٧١٠هـ/١٣١٠م)، فقد سمع من سبط الحافظ السلفي وغيره، ثم أجاز بما سمع لابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[٢]، **وأجاز من الإسكندرية أيضا** كل من تاج الدين الغرافي ووجيهة الصعيدية السكندرية لعبد الله بن الزين أحمد بن محمد الطبري المكي الشافعي، أقام بمكة ثم انتقل لسكنى المدينة فمات بها ودفن بالبقيع سنة (٧٨٧هـ/١٣٨٣م)[٣]، **كما** أن محمد بن محمد حافي رأسه الإسكندري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، سمع بالإسكندرية وحدث وأجيز له[٤]، **وذكر ابن رشيد** أنه لقي بالإسكندرية سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) مثقال الحبشي وأجاز له جميع رواياته مشافهة[٥]، **كما استجازه** علي بن أبي البركات الحميري الإسكندري[٦]، **كذلك استجازه** الشيخ ضياء الدين الخزرجي الإسكندري، وأجاز لأخوته وأبنائه جميع ما يجوز له روايتة وما له من نظم ونثر، وقد حضر الشيخ زين الدين أبو بكر بن منصور وشهد على هذه الإجازة لتعذر بصر الشيخ ضياء الدين وكان قد أسن وعمره آنذاك ٩٥ سنة[٧]، **كذلك ممن أجاز مروياته** الشيخ عتيق بن عبد الجبار بن عتيق الأنصاري (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، فقد أجاز مروياته للذهبي[٨].

---

(١) الصفدي: أعيان العصر، ج١، ص٣٤٤ــ ٣٤٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٣٦٨؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٢١٣؛ العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٣.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص١٠٠ــ ١٠١.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣١٠.

(٥) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ، ص١٩

(٦) ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٢١٤.

(٧) ابن رشيد: ملء العيبة، ج ٣، ص٤٣؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج٣، ص٢١٤.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٢٣٤.

وأما النظم في الإجازات فكان على وجهين، إمـــا **ينظـــم علـــى الإجـــازة كالمقدمة**، ومن ذلك ما كان ينظمه الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عيســى ضياء الدين المتيجي الإسكندراني المالكي العدل [١]، فكان يكتب على الإجازة:

أجـــزت لهم أعلى المهيـــمن قدرهم   وحـــلاهم ذكـــراً جميلاً معطراً
رواية مـــا أرويه شـــرقاً ومغرباً   وما قلتـــه نظـــماً ونثراً مســـطراً
على شرط أهل العلم والصيغة التي   يكون بـــها معنى الإجازة مظهراً
وهذا جوابـــي ثم واســـمي محمد   عفـــا الله عنـــه ما مضى وتأخرا
أقول وعبـــد الله اســـم لوالدي   وبراهيـــم جدى قد نصصت مخبراً
ويعرف بالمـــتي نســـــبة بلدة   وســـطرت خطى بالعريض معبرا[٢].

وذكر ابن حبيب أيضاً أن القاضي زين الدين محمد بن محمد بن عتيق بن رشيق المالكي كان له نظم يكتبه في الإجازة، ومن ذلك قوله:

أجزت لهم أبقاهم الله كل مـــــا   رويت عن الأشـــياخ في ســـالف الدهرِ
وما سمعت أذناى من كل عالم   وما جاء من نظمى وما راق من شعري
على شرط أصحاب الحديث وضبطهم   برياً من التصحيف عارٍ من النكرِ
وبالله توفيـــقي عليـــه توكلي   له الحمد في الحالين عســـر أواليســـرِ[٣].

أو ينظم نفس الإجازة مثل ما كتبه وجيه الدين منصور بـــن ســـليم بـــن العمادية للشيخ حازم بن محمد بن حسن الأنصـــاري القرطـــاجني جوابـــاً عـــن استدعائه الإجازة منه نظماً فقال:

إني أجزت لحـــازمٍ بن محمدٍ   صـــدر الأفاضل والإمام السيدِ
بجميع ما رويِّه فرويتـــه   عن ألف شخص[٤] من رواة المسندِ

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٣٩٥، ٣٩٦؛ العبر، ج٥، ص٢٥٥، ٢٥٦؛ تذكرة الحفـــاظ، ج٤، ص١٤٥٣.

(٢) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٣٥٨، وقد علق عليه بأنه: شعر غث ركيك، انظر كذلـــك ترجمته في ابن العماد الحنبلي: الشذرات، ج٥، ص٢٩٩.

(٣) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص١٠٨؛ العراقي: ذيل العبر، ص١١٢.

(٤) وهذا يدل على كثرة مرويات ابن العمادية ، فشيوخه ألف شخص !.

في شامها مع مصرها وعراقها وحجازها من متهم أو منجد[١].

هذا ولم ترتبط الإجازة دوماً بالرحلة، بل ظهرت إجازات بغير رحلة وهو ما يسميه العلماء بالاستدعاء، وهو أن يكتب الطالب طلباً للإجازة من الشيخ، ويرسلها له المجيز بخطه، وقد كثرت هذه الاستدعاءات بسبب تناقص أصحاب الرحلة، وصعوبتها، ولهذا كان المشايخ يستحبون إجابة المستدعين للإجازة بالمكاتبة لتبقى السلسلة متصلة بالرسول صلى الله علية وسلم وتدوم فضيلة الإسناد التي خصت بها هذه الأمة الإسلامية[٢].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أيضاً حرص العلماء على أن تستمر سلسلة الإسناد إلى أبنائهم وبناتهم، ولما كانت الرحلة لا تتيسر للنساء تيسرها للرجال، لذا كان الاستدعاء بالإجازة يغنيهن عن تجشم مشاق الرحلة بشروطها وضوابطها.

فعلى سبيل المثال ممن وقفت على إجازاتهم بالاستدعاء من شيوخ الإسكندرية: محمد بن عبد الملك بن عبد الله القرشي البكري الإسكندري المولد المكي الدار (ت٧٨١هـ/١٣٧٧م)، فقد أجاز له جماعة من مصر والإسكندرية، وأجاز للفاسي في استدعاء بخط الشيخ ابن سكر شيخ الفاسي[٣]

ومن النساء اللاتي طلبن الإجازة بالاستدعاء: أم كلثوم بنت الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن يحيى الغرناطي أم زين الدين الطبري المكية (ت٧٨٢هـ/١٣٧٨م)، ذكر الفاسي أنه أجاز لها ولأختها أم الحسين جماعة من مصر والإسكندرية في استدعاء مؤرخ سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، منهم الغرافي ووجيهية الإسكندرانية[٤].

---

(١) ابن القاضي: درة الحجال،ج١، ص٢٥٥. ومتهم أو منجد: أي ما كان بتهامة وما كان بنجد من أرض الجزيرة العربية.

(٢) وقد ذكر محقق برنامج المجاري أن أبا جعفر أحمد بن علي البلوي أشعر بهذا المعنى في رسالة الاستدعاء التي وجهها إلى أبي عبد الله محمد بن غازي، انظر مقدمة تحقيق برنامج المجاري، ص٥٢.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص١٢٦، ١٢٧.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٨، ص٣٤٩ـ ٣٥٠.

وكذلك ست قريش فاطمة بنت العلامة تقي الدين أبي الفضل محمد بن فهد الهاشمي، فقد ذكر ابن فهد أنه أجاز لها خلائق من الحرمين والشام ومصر والإسكندرية، منهم شرف الدين ابن الكويك السكندري وبدر الدين ابن الدماميني[١]، **ومنهن أيضاً** زينب بنت عبد الله بن أحمد بن علي بن محمد بن القاسم بن صالح بن هاشم والمعروفة بأم محمد (ت٨٥٩هـ/١٤٥٤م)، ذكر ابن فهد في معجم شيوخه أنه أجاز لها جماعة من أهل الإسكندرية[٢].

وقد تكون الإجازة بالاستدعاء منظومة أيضاً ، وقد كتب بالإسكندرية الإمام الغرافي الإسكندري، إجازة منظومة لما استدعى منه الخليفة المستنصر العباسي مطلعها:

سلام على مغنى الخلافة والهدى ... وحيث أقيم الدين والفضل والعلمُ
على سادة الإسلام شرقاً ومغرباً ... قضاء من الله الذي حكمه الحكمُ
قضى لبني العباس أن تعلو الورى ... فطاعتهم فرض على خلقه حتمُ

وبعد أن سرد أسماء الخلفاء من لدن السفاح حتى المستنصر قال:

إمام الورى المستنصر الأيد الذي ... بنصرةِ دين الله يعنى ويهتمُ
أجزت له دامت قواعد مجده ... مشيدة لا تنقضي خشية ولا هدمُ
جميع الذي ألفته ونقلته ... وما قلته مما تضمنه نظم[٣].

وقال أيضاً :

وجميع ما صنفته وجمعته ... مشروطة بتوثق وتشددِ
وليبق في روض العلوم منعماً ... بسيادة وسعادة وتأيدِ[٤].

كذلك كتب **وجيه الدين منصور بن العمادية الإسكندري** للشيخ **حازم بن محمد الأنصاري القرطاجي** جواباً عن استدعائه الإجازة منه **نظماً**[٥]

---

(١) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٤٠٥.

(٢) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٤٠٣.

(٣) العبدري: الرحلة، ص١١٥، ١١٦.

(٤) ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٢٥٥.

(٥) انظر ما سبق ص ٣٤٣.

وأما صورة الإجازة، فهي تختلف من مجرد قول الشيخ: (أجزت لفلان رواية كذا..) إلى نظم شهادة كاملة تشمل مقدمة في فضل العلم ثم بيان حال المجاز بأنه يستحق هذه الإجازة من الشيخ ثم بيان موضوع الإجازة والوصية من الشيخ للمجاز في ذلك ثم خاتمة الإجازة، وهذا يكون غالباً في إجازة التدريس[1] وقد حفظ لنا القلقشندي إجازة كتبت له في الإسكندرية عند قدوم الإمام سراج الدين أبي عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقن، وهو من كبار محدثي العصر ومن شيوخ ابن حجر العسقلاني، **وقد منح** ابن الملقن هذه الإجازة للقلقشندي بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي، وكان عمر القلقشندي وقتها إحدى وعشرين سنة، وهي إجازة طويلة حلوة العبارة، وجاء في مقدمتها من بيان فضل العلم: (وقال تعالى: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم}[2]، فثنى بذكرهم بعده لكونهم أفضل الخلائق عنده، وقال تبارك وتعالى اسمه وتقدس علمه: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}[3]، فأوضح بذلك أن أولياءه من خلقه العلماء، إذ وصفهم وخصهم بأنهم الخائفون منه الأتقياء، وقال عليه السلام: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))[4]، وقال أيضاً: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة))[5]، وقال أيضاً: ((ألا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالم ومتعلم))[6])[7].

---

(١) وهي كالشهادات التي تمنحها بعض الجامعات الآن للمتخرجين من طلبتها، إلا أن هذه الشهادة تكون مختصره وتلك مطولة.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٤) تقدم تخريجه ص ٢٠٥.

(٥) مسلم: الجامع الصحيح، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ج٤، ص٢٠٧٤ (ح٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) الترمذي: السنن، في كتاب الزهد، ج٤، ص٤٨٦ (ح٢٣٢٢)؛ وابن ماجة: السنن، في كتاب الزهد، ج٢، ص ١٣٧٧ (ح٤١١٢)؛ الدارمي: السنن، في المقدمة، ج١، ص١٠٦(ح٣٢٢).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٢٤، وانظر كامل نص الإجازة بالملحق ص ٦٠٩.

ثم ذكر حال المجاز وهو القلقشندي ، بأنه طلب العلم وصحب الأكابر ، ومما جاء في هذه الفقرة من الإجازة المذكورة:(ولما كان فلان أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه ويسر إلى الخيرات ريقه ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتمل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضي، وإلى نيل السعادة يفضي)(١).

ثم ذكر حال المجيز وهو الشيخ (ابن الملقن) وأضاف عليه ألقابا علمية عالية، وذلك لأن الذي كتب الإجازة هو القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية، مما يدلنا أيضا أن كتابة الإجازة قد تكون من غير المجيز وأن الإجازات الكبيرة يتحرى المجاز فيها أن يكتبها عند القضاة حتى تأخذ صورة علمية قوية مع إبقاء خط المجيز عليها كما في هذه الإجازة حيث كتب عليها بعد ذلك (ابن الملقن) بخطه(٢).

ثم بعد ذلك ذكر القلقشندي نص الإجازة وجاء فيه: (وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبي الشافعي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وأن يقرا ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يعين ذلك لطالبيه حيث حل وأقام كيف ما شاء متى شاء وأين شاء، وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه، لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته)(٣).

ويتضح لنا من هذا أن الشروط الواجب توافرها في من يتصدى لذلك هي: الأمانة والديانة ، والمعرفة، والدراية بالمذهب، وقد زاد (ابن الملقن) فيما كتبه بخطه أسفل هذه الإجازة، أن القلقشندي حفظ "مختصر الجوامع" للنسائي، وأنه

---

(١) القلقشندي، نفسه، ج١٤، ص٣٢٤.

(٢) القلقشندي: نسه، ج١٤، ص٣٢٤.

(٣) القلقشندي: نفسه، ج١٤، ص٣٢٥.

استحضر أمامه مواضع منه، وشرحها في حضرته، وهذا هو الدافع لمنحه هذه الإجازة[1].

ومما جاء أيضا في هذه الإجازة التي خص بها القلقشندي: (وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه، وليراقبه مراقبة من يعلم إطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، فذاك قول سعد قائله)[2].

وقد جاء فيما كتبه (ابن الملقن) عقب كتابة القاضي الإجازة لتآليفه ومروياته فقال: (أجزت له مع ذلك أن يروى عنى مالي من التآليف، ومنها "جامع الجوامع) أعان الله على إكماله، وكذا "شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري")..وذكر جملة تآليف ثم قال: (وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعنى روايته بشرطه عند أهله، زاده الله وإياي من فضله، ومنها الكتب الستة..والمسانيد.. وغير ذلك، ثم ذكر التاريخ وكتب اسمه وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره)[3].

وقد عقب القلقشندي بأنه إذا ذكر المجيز اسم المجاز فإنه يكتب له لقبا يوافقه، وإنما أهمل ذكر الألقاب في هذه الإجازة من حيث أنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه[4].

فهذه الإجازة تعتبر من الإجازات المهمة التي صدرت من الإسكندرية في القرن الثامن الهجري والتي تعطينا صورة واضحة عن أسلوب إنشاء الإجازات

---

(١) السابق، ج١٤، ص٣٢٦.

(٢) السابق، ج١٤، ص٣٢٦.

(٣) السابق، ج١٤، ص٣٢٧.

(٤) السابق، ج١٤، ص٢٣٧.

وأنواعها، فهي تمثل نموذج الشهادة العلمية العالية[1]،كذلك تعيين الكتب موضوع الإجازة، ولفظ الإجازة بقوله: أجزت له، أيضا ذيلت هذه الشهادة بإشهاد جماعة من أهل العلم عليها توثيقا، وبذلك تكون الإجازة جمعت عدة توثيقات، الأول: كون الذي كتبها هو القاضي، وذيلها الشيخ بخطه، وجاءت خطوط جماعة من أهل العلم بالشهادة عليها، فصار ذلك من أعلى درجات التوثيق.

كما نلاحظ فيها الوصية المباركة في آخرها والتي تضمنت مراقبة الله في السر والعلن، وأن لا يفتي إلا بما يعلم، وأن لا يترك قول (لا أعلم) فيما لا يعلمه.

ومن الإجازة بالتدريس والإفتاء أيضا ما أجاز به الفاكهاني السكندري للشيخ محمد بن محمد بن عبد الله الحسني الفاسي المكي(ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، فقد أذن له الفاكهاني بالإفتاء والتدريس لما زار الإسكندرية للطلب، وقد عاد الفاسي إلى مكة واستمر بها يفتي ويدرس حتى وافته المنية[2].

ومن أنواع الإجازات أيضا ما يقال له: الإجازة بعراضة الكتب، فقد ذكر القلقشندي أنه جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون، **يعرضه** على مشايخ العصر فيأخذ الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفتح منه أبوابا ومواضع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه في ورق مربع صغير[3]، ويمكن أن يكون من أمثلة هذا النوع عرض القلقشندي "مختصر الجوامع" على ابن الملقن بالإسكندرية كما تقدم قريبا.

---

(١) ومما يذكر أن بعض المؤسسات التعليمية الدينية تمنح شهاداتها باسم (الإجازات) حتى يومنا هذا، ويحلوا للكثيرين أن يسمى درجة الماجستيربـ (إجازة التخصص)، ودرجة الدكتوراة بـ (الإجازة العالمية)، كما هو معروف مشهور.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٤٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٢٧.

وقد تكون الإجازة بعرض الكتب قراءة لا حفظا، كما كتب بدر الدين **الدماميني** إجازة أخرى للقلقشندي **بعراضة** شيء من كتب الحديث واللغة[1].

وقد تكون إجازة بكتب ومؤلفات بغير عرض أيضا، **ومن أشهر الكتب الحديثية** التي كان الطلاب بالإسكندرية يحرصون على الإسناد والإجازة فيها كتاب "الموطأ" للإمام مالك[2]، وذلك لوجود مدرسة (ابن عوف) بها ولأن المذهب المالكي كان المذهب المعتمد بالإسكندرية طيلة عهدى الأيوبيين والمماليك تقريبا.

وقد نص البلوي على إسناده بالموطأ من طريق علماء الإسكندرية، فذكر أنه يرويه برواية الثبت يحيى بن يحيى الليثي[3]، **حيث قال**: أخبرني به عن أبي عبد الله البلوي[4] عن أبي شامل الشمني قال أخبرنا به عبد الوهاب الإسكندري بقرائتي عليه بها، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد الدماميني سماعا، قال أنا الخطيب ... وذكر باقي الإسناد إلى يحيى بن يحيى الليثي[5].

كما ذكر البلوي أيضا أنه: (في أسانيد العلامة ابن مرزوق في الموطأ أنه قرأ السيد الإمام والد شيخنا مقدار النصف منه على المسند المعمر بهاء الدين أبي محمد عبد الله بن القاضي تاج الدين أبي بكر ابن معين الدين محمد المخزومي

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٢٧-٣٢٩، وانظر نص الإجازة بالملحق ص٦١٢.

(٢) قال القاضي عياض في المدارك: لم يعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ، من مقدمة الموطأ ص (هى).

(٣) للموطأ عدة نسخ باعتبار رواته عن الإمام مالك ، والمشهور منها أربع عشرة نسخة أصحها هي نسخة يحيي الليثي قال فيها الشنقيطي: من مقدمة الموطأ ص (هي):

وأشهر الموطآت ذكرا   إذا كان بالصحة منها أحرى
موطأ الإمام يحي الليثي   من كان في العزم شبيه الليث
فهذا لذي شرحه النقاد   وانتفعت بدره العباد
وبلغت شروحه نحو المائة   فكلها عما حواه منبئه

(٤) هو أحمد بن سلامة بن أحمد البلوي القضاعي الإسكندري المالكي، كان من انظر الفقهاء وأوسعهم علما، عرف بالعفة والصرامة والديانة والوقار والحشمة، توفي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م). انظر في ترجمته : ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٩.

(٥) البلوي: ثبت البلوي، ص٤٦٨ــ ٤٦٩.

الشافعي وناوله إياه، وأجاز له وجميع ما يجوز له عنه روايته بثغر الإسكندرية في أواسط شوال سنة ٧٩٣هـ/ أواسط سبتمبر سنة ١٣٩١م بحق سماعه له من الشيخ الإمام الخطيب جلال الدين أبي الحسين يحيى بن محمد التميمي) [١] .. ..وساق السند[٢].

ويلاحظ أن هذه الإجازة مشتملة على المناولة، وهي كما سبق في أول هذا المبحث أعلى أنواع الإجازة.

كما يلاحظ الاهتمام بتذييل الإجازة بالتاريخين الهجري والميلادي مما يدل على شدة الاهتمام بها

كذلك كانت الإجازة بالمصنفات معروفة وكثيرة في هذا العصر، وسبق أن القلقشندي أخذ من ابن الملقن إجازة بمصنفاته وذلك بالإسكندرية.

كما أن الحافظ شرف الدين الدمياطي أخذ إجازة من أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي الإسكندراني بمصنفاته، وكان القرطبي له مصنفات عدة منها المفهم شرح مختصر مسلم وغيرها[٣].

ومن طرائف الإجازات في هذا العصر: الإجازة بالقصائد الشعرية والمنظومات اللطيفة، ومن طرائف ما ذكره الصفدي أنه أنشده إجازة الحافظ فتح الدين بن سيد الناس أخبرنا الزاهد الحريري الإسكندري لنفسه:

عد للحمى ودع الرسائل وعن الأحبة قف **وسائل**
واجعل خضوعك والتذلـ ـل في طلابهم **وسائل**
والدمع من فرط البكا ء عليهم جار **وسائل**
وأسأل مراحمهم فهـ ـن لكل محروم **وسائل**[٤].

وإنما وقعت الإجازة بها للتورية اللطيفة في آخر الأبيات في (وسائل)[٥].

---

(١) البلوي: ثبت البلوي، ص٤٧٠.

(٢) البلوي: ثبت البلوي، ص ٤٦٩.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص٤٤ـ ٤٥.

(٤) الصفدي: أعيان العصر، ج٣، ص٦٤١، ٦٤٢.

(٥) يأتي بيان معنى التورية واستخدامها في العصر المملوكي في الفصل الخامس ص ٥٣٧.

المناظرات والندوات العلمية

الاختلاف الفكري بين بني الإنسان يتولد معه نقاش دائم حول أفضل الأفكار وأنسبها، ولما كان العصر المملوكي مليئاً بالعلماء والفقهاء في مصر من أهلها ومن الوافدين عليها فضلاً عن اختلاف الديانات والأفكار والمذاهب، فمن المتوقع أن يشهد مناظرات وندوات علمية نشطة، ومما يؤكد على اهتمام علماء هذا العصر بالمناظرات أن منهم من ألف المصنفات فيها كأبي علي السكوني (ت٧٢٢هـ/١٣٢٢م)(١)، الذي ألف كتاباً سماه "**عيون المناظرات**"(٢) .

كما رعى سلاطين المماليك ونوابهم المناظرات العلمية الهادفة، فقد ذكر الحافظ ابن حجر قصة مناظرته للحافظ الهروي(٣) بين يدي السلطان المؤيد وكيف دار نقاش حاد حول أحاديث عدة منها حديث ((سبعة يظلهم الله .. ..))(٤)، وما جرى من السؤال حول وجود من يظلهم الله غير هؤلاء السبعة، حيث أدلى كل بدلائه في هذا المجال(٥)، ومما هو جدير بالذكر أن هذا كان دافعاً للحافظ ابن حجر إلى مزيد من الجمع في هذه المسألة وصنف فيها رسالة وضمن خلاصتها في "فتح الباري شرح صحيح البخاري"(٦).

كما شهد هذا العصر ظاهرة (الردود) كما هو الحال بين العيني وابن حجر في عصرهما، وبين السيوطي والسخاوي في العصر الذي يليه وهكذا، ومثله رد

---

(١) هو أبو علي عمر بن محمد بن أحمد بن خليل السكوني التونسي المغربي الإشبيلي، له عدة مؤلفات انظر ترجمته في : البغدادي: هدية العارفين، ج٥،ص٦٢٨.

(٢) وهو كتاب جمع فيه صاحبه ١٦٠ مناظرة كلها تدور حول التوحيد على وجهة نظر المذهب الأشعري، انظر المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ج٢، ص٦٩١.

(٣) هو شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد بن محمود الرازي الشافعي الشهير بالهروي (ت٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، كان عالماً فاضلاً، له تصانيف مفيدة، انظر ترجمته الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص١٠٩.

(٤) البخاري : الجامع الصحيح، في كتاب الأذان ، ج٢، ص١٤٣ (ح ٦٦٠).

(٥) ابن حجر: فتح الباري: ج٢، ص١٤٤.

(٦) وقد سماها ابن حجر "معرفة الخصال الموجبة للظلال"، انظر فتح الباري، ج٢، ص١٤٤.

شيخ الإسلام **ابن تيمية** على النصارى في "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"(١)، وكذلك **الرسالة القبرصية** له والتي وجهها إلى ملك قبرص يدعوه إلى الله تعالى ويحذره من الوقوع بأسرى المسلمين عنده، ويبين له فساد مذهب النصارى وما بدلوا فيه، والكثير من هذه المباحث على صورة بما يسمى بـ(الفنقلة)، أي فإن قيل كذا، قيل كذا وكذا، **وهي مناظرة صورية متخيلة، غير ما تحمله من ردود على شبه النصارى**(٢) وغير ذلك، وهذه الردود في الجملة نوع من **المناظرة الورقية** التي يبذل فيها العالم كل ما لديه من أدلة تؤيد مذهبه وتدحض شبه الخصم.

وعلى الرغم من كثرة المناظرات بهذا العصر إلا أن المصادر التاريخية التي تيسر لي الإطلاع عليها لم تحفل بذكر شيء من المناقشات الحادة وظهور منتصر وخاسر في مدينة الإسكندرية، وهذا أمر يحتاج إلى وقفه للنظر في العوامل التي أدت إلى قلة ذلك في الإسكندرية ولعل منها:

أولاً: كون الثغر السكندري **محل رباط دائم**، والعادة أن المجاهدين يتناسون خلافاتهم وقت الجهاد وقد ورد في ذلك حديث لفظه: **((إن الله لا يجمع على هذه الأمة سيفين : سيفاً من نفسها وسيفاً من عدوها))**(٣).

ثانياً: أن الثغر السكندري كان يعج بعلماء برزوا في علمي **القراءات والحديث**، والخلاف في هذين العلمين في الجملة أقل من الخلاف في الفقه واللغة وكان غالب **فقهاء الإسكندرية من المالكية ثم الشافعية**، ولم يكن بين هذين المذهبين في العادة التشاحن المعروف بين **الحنفية والشافعية** والذي صنفت فيه

---

(١) وقد طبع غير مرة وتم طبعه في ست مجلدات كبار بتحقيق العسكر وآخرين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) وهي رسالة مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى باسم الرسالة القبرصية ج٢٨، ص٦٠١-٦٣٠.

(٣) أبو داود : السنن، في كتاب الملاحم، ج٤، ص١٢٢ (ح٤٣٠١)، وأخرجه الإمام أحمد : المسند، ج٦، ص٢٦ (ح٢٤٠٤٤) عن عوف بن مالك رضي الله عنه.

المصنفات في بغداد وغيرها من العواصم العلمية في المشرق [1]، وحتى مع دخول بعض قضاة الحنفية في الإسكندرية، إلا أن وجود المذهب الحنفي لم يكن بالقوة الكافية لوجود المناظرات والندوات العلمية في مسائل الفقه المختلف فيها بينهما[2]. **ثالثا:** كثر علماء الإسكندرية اللذين كانوا **يمتهنون التجارة**، مثل أبناء ابن المنير والدماميني وبيت بني كويك وغير هؤلاء ممن سبق ذكر بعضهم في الفصل الثاني في بحث الأسر العلمية وغير هؤلاء[3]، ومن المعلوم **أن التاجر يكون ذا خلق واسع** في العادة بحيث يسمح له بأخذ وجهة النظر المخالفة بسعة صدر أكثر ولا ينشط في الغالب في الرد المباشر، إنما قد يلجأ للرد المكتوب إن احتاج الأمر عند الضرورة.

رابعا: كان الثغر السكندري يعج بالكثير من **الصوفية** الذين نزلوا فيه وكثير منهم من صوفية المغاربة[4]، والتصوف **مذهب أخلاقي**، ليس لأصحابه كبير علم بل منهم من كان ينهى عن العلم والتعلم[5]، فلم تكن سوق المناظرة رائجة في الثغر لهذا السبب.

خامسا: كان لبعض علماء الإسكندرية **ميل إلى منع المناظرات**، وكان ذلك يرجع إلى مهابته ووجاهته، كابن المنير ناصر الدين، فإنه كان لا يناظر تعظيما لفضيلته، بل تورد الأسئلة بين يديه ثم يسمع ما يجيب فيها[6]، بل أن الشيخ

---

(١) وعليه أكثر علم الخلاف الذي يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبه، وقوادح الأدلة الخلافية بإيراد البراهين القطعية، وكتب الحنفية والشافعية أكثر من تآليف المالكية... وكتاب الخلافيات للحافظ أبي بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، جمع فيه المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة" حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٥٥٣.

(٢) انظر الفصل الأول: الحياة الدينية ، ص١٤٠.

(٣) راجع في ذلك ما سبق ص ٢٠٥.

(٤) سبق ذكر طرف من ذلك في الحديث عن الأربطة والخانقاوات ص٣١٦.

(٥) يقول أحد أقطاب الصوفية وهو ابن عربي: (من قال لك : لا تبرح من العلم، فقد قتلك بسيف الأبد، العلم ليل لا صبح له، ومن قطع المفاوز في الظلمات وهو غير خريت زاد تيها على تيه)، انظر محمود عبد الرؤوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية، ص٥٧٢.

(٦) ابن تغري بردي: المنهل، ج٢، ص١٨٥ــ ١٨٦.

القاضي ابن دقيق العيد لما اجتمع به ترك مناظرته في أحد المسائل، وعلل ذلك بأن المناظرة ما كانت تقضي إلا إلى غضب ابن المنير فتركها لذلك[1]، وقال بأنه: (لا يقف في البحث على حد)، رغم أن ابن دقيق العيد كان يوصف بأن ذهنه ثاقب وأنه إمام عصره في المذهبين[2].

وهذا يبين أنه كانت المناظرات في الثغر تجري في اتجاه واحد، بمعنى أن ما تحدثنا به المصادر التاريخية من مناظرات كان ينتهي برجوع أحد المتناظرين لرأي الآخر أو ترك المناظرة تعففاً عنها، ولم يكن ثمة تعصب كما كانت المناظرات في كثير من البلدان والأمصار[3].

ومع ذلك لم يخل الثغر من بحث أو مناظرة يحسن إيراد شيء منها:

فعلى سبيل المثال يذكر السخاوي في ترجمة خلف بن علي بن محمد بن أحمد بن دارد بن عيسى السكندري الشافعي(ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م) أنه صار شيخ الشافعية بل والمالكية بالثغر بغير منازع، وأنه ذكر عنه أنه **بحث** مع أحد العلماء في مسألة كان الحق فيها مع خلف، فترك المراء وأظهر أن الحق مع الخصم وأنشد:

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام [4].

ومن أبرز المناظرات مناظرة سجلها العبدري في رحلته، كانت مع الفقيه زين الدين ابن المنير حول ثلاث مسائل فقهية: **الأولى** : في عدم انعقاد البيع بالإشارة إلا للأخرس وهي مسألة مشهورة في الفقه، فالشافعية يرون منع ذلك لأن

---

(١) وهي أنه لما سأله عن الحجة في كون عمل أهل المدينة حجة، فقال: وهل يتجه غير هذا؟ وتكلم بكلام طويل ، فلم يتكلم ابن دقيق العيد معه، فلما خرج سئل عن ترك الكلام معه، فقال: (رأيت رجلاً لا ينتقص منه إلا بالإساءة إليه)، انظر: الموسوي الأصبهاني: روضات الجنات في أحوال السادات، ج١، ص٣٠٥ ــ ٣٠٦.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع، ج٢، ص٢٣٠.

(٣) انظر على سبيل المثال في ذلك ابن حجر: إنباء الغمر،ج٩، ص١٢٩، حوادث سنة ٨٤٤هـ، وفي ص ١٦١ حوادث سنة ٨٤٥هـ.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٨٤ .

الإشارة غير دالة، والمالكية يرونها تدل على المراد، فأورد العبدري أن إشارة الأخرس وإن كانت غير دالة فهي عند غيره دالة أيضا، وقد اشترك في هذه الندوة أو المناظرة العبدري وزين الدين بن المنير وأحد الشيوخ الذين يقرأون على الزين، وهي تدل على الإنصاف والقوة والمتانة العلمية، **والمسألة الثانية:** في تفسير عبارة للفقيه المالكي (ابن الحاجب) صاحب "المختصر"، وهي عبارة مشكلة في باب الطهارة، **أما الثالثة:** فكانت في مسألة الطهارة بالماء في جراب الماء المصنوعة من الجلد[1].

ومن أبرز المناظرات التي جرت بالإسكندرية هي التي أشار إليها الشيخ **شرف الدين** عبد الله بن تيمية وهو شقيق شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وكان معه إبان سجنه بالإسكندرية، فقد ذكر فيما ذكر من حال الشيخ في الإسكندرية أنه بدأ يعلم الناس بالثغر إلى أن قال: (واتفق أنه وجد بها الفرق الضالة [2] فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم، وتوب رئيسا من رؤسائهم واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين وخدامهم من أمير وقاض وفقيه ومفت وشيخ وعموم المجاهدين وعلت كلمة الله بها على أعداء الله ورسوله)[3]، وهذا النص يفيد أمورا منها:

أولا: أنه حصلت مناظرات بين شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وبين هذا الرئيس الصوفي والتعبير بكونه (رئيسا) يدل على أن المناظرة لا بد أن تكون هامة وقوية وربما طويلة، لأن الرؤساء أكثر علما من الأتباع في الجملة، وربما لم تكتب هذه المناظرة ولم ينص اسم هذا الرئيس سترا عليه، وعموما فإن كتب شيخ الإسلام فيها الردود على شبه القوم بوضوح وإسهاب[4].

ثانيا: أن المناظرة انتهت بتسليم هذا الرئيس وتوبته مما كان عليه من أمور مخالفة للدين الإسلامي.

---

(١) انظر هذه المناظرة في العبدري: الرحلة، ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

(٢) يعني الصوفية الاتحادية كما سبق تقريره في مبحث أثر شيخ الإسلام على الحياة العلمية.

(٣) محمد العبدة: رسائل ابن تيمية، ص ٢٩.

(٤) أي الاتحادية من السبعينية والعربية ، وسبق التعريف بهما ص ٣٣٩.

ثالثاً: أن أخبار هذه المناظرة قد عمت الثغر الإسكندري حتى بلغت كافة الفئات من طلاب العلم والدولة فقد نص مؤرخ هذه المناظرة على أصحاب الحركة العلمية وهم القاضي والمفتي والفقيه والشيخ، كما نص على الأمير وعموم المجاهدين من المرابطة في الثغر، وهذا يدل على وجود متابعة من الرأي العام ولا سيما المهتمون بأمور العلم لما يحدث من مناظرات علمية ولا سيما مع هؤلاء الاتحادية الصوفية، كما يبين مدى الأثر الذي أحدثه شيخ الإسلام في الثغر الإسكندري على الرغم من اعتقاله به أشهرا، ويؤكد أيضاً ما ذكرناه سابقاً من أن التصوف لا يقارع الدعوة السلفية الصحيحة بأي حال من الأحوال.

وإلى جانب هذا فقد وجدت مناظرات وندوات عملية داخل المدارس، ومن أمثلة هذا النوع ما كان يحدث داخل المدرسة العوفية في عهد تدريس حفيد أبي الطاهر بن عوف فيها، وهو الإمام أبو الحرم مكي نفيس الدين، فقد كان يدرس كتاباً في الفقه المالكي، وهو كتاب التهذيب لأبي سعيد البراذعي[1]، قال ابن فرحون: (وكان يحضر عنده فضلاء، ويتحرر بينهم بحوث، فيكتبها في الحواشي فكمل على هذا الحال)[2].

---

(١) هو شيخ المالكية أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي البراذعي القيرواني المالكي، قال عنه القاضي عياض: كان من كبار أصحاب أبن أبي زيد القيرواني، توفي بعد سنة (٤٣٠هـ/١٠٣٦م)، وكتابه التهذيب هو اختصاره للمدونة للإمام مالك التي جمعها أصحابه من أقواله وفتاواه، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ج٥٢٣.

(٢) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٩٣. **وهذا الكتاب ضخم** في ستة وثلاثين مجلداً، وهو كما سبق نتاج الندوات العلمية التي كانت تحدث في المدرسة العوفية، وقد وصفه ابن فرحون بأنه كتاب نفيس إلى الغاية، وقد عد منه خمسة كراريس ونصف في مسطرة قدرها سبعة وعشرون سطراً في الكلام على سجود التلاوة فقط، انظر الديباج، ج١، ص٢٩٣.

المدرسون وطرق التدريس

أن مهنة التدريس مهنة شريفة، فالعلماء ورثة الأنبياء، وفضلها عظيم حتى ورد أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها وحتى الحوت ليصلون على معلِّم الناس الخير[1].

وقد شهد العصر المملوكي تخصصاً في وظائف التدريس، والتي من أهمها **وظيفة المدرس**: الذي يلقى الدروس على الطلبة، وعادة ما يكون متقناً فناً أو أكثر، وإذا بلغ الغاية في فنه فهو العالم، والعلماء فرق كثيرة، قال السبكي: (منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والنحوي وغيرهم، وتتشعب كل فرقة من هؤلاء شعوباً وقبائل، ويجمع الكل أنه حق عليهم إرشاد المتعلمين وإفتاء المستفتين ونصح الطالبين وإظهار العلم للسائلين)[2].

و درج العلماء على التنبيه على آداب المعلَّم وما الذي ينبغي له أن يفعله أثناء الدرس وبعده، ومن جملة ذلك أن يكون من أهل العلم والصلاح صحيح الاعتقاد،حسن النية، متحلياً بالأخلاق الكريمة، حسن الهيئة[3]، لا يكثر من الكلام والضحك، حليماً متواضعاً، متجنباً للكبرياء والإعجاب، متسماً بالعفو والصفح مع المهابة والوقار[4]، وأن يكون سليم النطق مجيداً للغة العربية التي يدرس بها، وأن يراعي الفروق الفردية بين الطلبة من حيث مستوى استيعابهم ومدى فهمهم واختلاف أعمارهم، (فإن كان الطلبة من المبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق)[5]، **كذلك عليه** أن يراعي الجوانب النفسية للطلبة ، فلا يفضل بعض

---

(١) ورد هذا في حديث أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج٥، ص٤٨، إلا أنه قال عنه: هذا حديث غريب.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص٦٧.

(٣)من وثيقة وقف جمال الدين الاستادار في مدرسة الشافعية، نقلاً عن محمد أمين: الأوقاف، ص٢٤٣.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٨٨، ٨٩، ١١٤.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص١٠٥.

الطلبة على بعض، إلا أن كان أحدهم أكثر اجتهادا أو أدبا، فيظهر ذلك أمام الطلبة من أجل أن يحذوا حذوه[1]، كذلك عليه أن يراعي الآداب الاجتماعية بمعنى أن يتودد للطالب الغريب وينبسط له ولا يكثر النظر إليه استغرابا لئلا يخجله[2]، وأن لا يفتى فيما يعلمه وما لا يعلمه، فإذا سئل عما لا يعلمه، قال: لا أعلمه أو لا أدري، وأن يقول عند ختم كل درس (والله أعلم)[3]، وأن ينزه مجلسه من اللغو والنميمة والكذب واللغط ورفع الصوت، متيقظا لما يفعله الطلبة بحيث يزجر كل من يتعدى في بحثه أو ظهر منه سوء أدب[4].

ومما حكاه **البدر الدماميني** من عقوبة علمية وزجر لأحد الطلاب بلطيفة علمية، وسجلها في حاشيته على المغني أنه كان يوما بمجلس الشيخ ابن عرفة عند قدومه إلى الإسكندرية سنة (٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، قال: وأنا أقرأ عليه درسا في كتاب الحج من مختصره، وكان شخص من الطلبة الموسومين بالتمشدق والإكثار بما لا يجدي حاضرا في المجلس، فمر موضع من كلام الشيخ عاد فيه ضمير على المضاف عليه، فقال ذلك الشخص: كيف أعدتم الضمير على المضاف إليه والنحويون بخلافه، فأجابه الشيخ فورا : قال تعالى: {كمثل الحمار يحمل أسفارا}[5]، قال البدر : وفيه من اللطف ما لا يخفى[6].

ولأهمية هذه المهنة الشريفة (التدريس) فقد أولاها المماليك ومن قبلهم من السلاطين برعاية واهتمام لدرجة أن سجل مهنة التدريس كان يخرج من قبل الخليفة أو السلطان، وقد ذكر القلقشندي نسخة سجل التدريس بالمدرسة الحافظية بالإسكندرية الصادرة من الخليفة الفاطمي إلى الفقيه أبي الطاهر بن عوف اشتملت على الوصية بالإخلاص في طاعة الله سرا وجهرا، والتفويض في توزيع الرواتب

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص٥٩.

(٢) ابن جماعة، تذكرة السامع، ٤٣، ٤٤.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص٤٢.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ، ص٢٢ ــ ٤١.

(٥) سورة الجمعة، آية: ٥.

(٦) الوزير السراج، الحلل السندسية، ج١، ص٥٦٢.

والتقريب والإبعاد للطلاب، والوصية بالمدرسة، وتلاوة ذلـــك الســجل بالمســجد الجامع وقد استمرت المدرسة الحافظية قائمة حتى العصر المملوكي[1].

ولقد حظي المدرس طوال العصر المملوكي **بألقاب علمية عالية، كالحـــافظ والمحدث والمسند**[2]، **والشيخ، والعالم، والفاضل، والإمام ، والفقيـــه والمفتـــي**، وكانت هذه الألقاب الشريفة لا تطلق إلا لمن من كانت له الأهلية التامـــــة، فعلـــى سبيل المثال لقب **وجيه الدين** منصور بن سـليم (٦٧٣هـــ/١٢٧٤م) ، **بالحـــافظ المحدث**، وصف بأنه جلس يدرس بالثغر سواء للطلبة المقيمين به أو القادمين إليـــه من الخارج[3]، كذلك لقب **رشيد الدين** أبـــو محمـــد عبـــد الوهـــاب بـــن ظـــافر الإســـكندراني المعـــروف بـــابن رواج (ت٦٤٨هــــ/١٢٥٠) بالمســـند الإمـــام المحدث[4]، أيضاً **تاج الدين** أبو بكـــر عبـــد الله بـــن أبـــي طـــالب الإســـكندري (ت٦٦٣هــ/١٢٦٤م)، لقب **بالمحدث والمفتي**[5]، **وكذلك الإمام المحدث المـــدرس** أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري المالكي، فقد ظل يحـــدث ويدرس بالثغر حتى وافته المنية به سنة (٦٥٦هــ/١٢٥٨م)[6] ، **أيضـــاً العالمـــان المحدثان** أولاد الغرافي **تاج الدين وشرف الدين** فقد تنقــلا للتدريــس فـــي عـــدة مدارس وأخذ عنهما جمع غفير من الطلبة سواء من أهل الإســـــكندرية أو مـــن ~~خارجها، فقد كانت الرحلة إليهما~~

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) من أشهر الألقاب التي أطلقها العلماء على المحدثين:**المسند**:وهو من يروي الحديث بإسـناده، سواء أكان عنده علم به أم ليس له إلا مجرد روايته، والمحدث أرفع منه بحيث عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وســمع الكتب الستة ومسند أحمد وسنن البيهقي ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء مــن الأجزاء الحديثية، أما الحافظ فهو أعلاهم درجةً وأرفعهم مقاماً، فمن صفاته: (أن يكون عارفاً بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم، حافظاً لصحيحها مميزاً لأســانيدها، عارفــاً برجالـــها، وبشيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة ، انظر: صبحي الصالح: علوم الحديث، ص٧٥.

(٣)اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٧٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٤١.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٣٧ــ ٢٣٨؛ المعين في طبقات المحدثين، ص٢٠٤.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤١٥.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ص٢٢٤ــ ٢٢٥.

في طلب الحديث[١]، **ومنهم المحدث** جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد البلوي السكندري المالكي ، حدث وتولي التدريس بالإسكندرية، وتوفي في القرن الثامن الهجري[٢]، أيضا **أبو الفتح** عبد الله بن أبي الفضل السكندري المالكي (ت٦٧١هـ/١٢٧٢م) الذي حدث بالإسكندرية واشتغل بالتدريس فيها، نعته كل من صاحب زبدة الفكرة وعقد الجمان بـ(**الشيخ الفاضل**)[٣]، وكذلك الحال بالنسبة **لشرف الدين** أبي عبد الله محمد بن الحسن بن إبراهيم الأنصاري (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) فقد جاء في وصفه بأنه: (كان **إماما عالما**، حدث ودرس بالإسكندرية)[٤] ولقب **حسين** بن أبي عمرو أبو العلاء الإسكندري (٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، **بالفقيه**[٥]،**ومنهم الفقيه** محمد بن يوسف الإسكندراني المالكي (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وصف بأنه **فقيه أهل الثغر** ، درس وأفتى وانتهت إليه الرياسة في العلم[٦].

كما وجد بالإسكندرية جماعة من العلماء جمعوا بين مهنة التدريس والمناصب الدينية العالية كالقضاء والحسبة ، فمنهم: **شرف الدين** ابن المرجاني ، أحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان المالكي المقرىء، فقد جمع بين التدريس والقضاء، توفي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)[٧]، ووجيه الدين منصور بن سليم فقد جمع بين التدريس والحسبة[٨]، **وناصر الدين** ابن المنير، وصف بأنه علامة الإسكندرية ، فقد برع ودرس في عدد كبير من العلوم منها القراءات والفقه

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٥، ص٣٥، كذلك انظر ترجمتهما فيما سبق في الفصل الثاني ـ الأسر العلمية ، ص٢٢٩.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٩٨ـ ٢٩٩.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٩٠؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص١٠٨.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ٣١٩.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٩٧.

(٦) ابن حجر: انباء الغمر، ج٢، ص٢٥٢.

(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٠٤؛ ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٢٩٣.

(٨) اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٧٣.

والحديث والتفسير والأصول واللغة والأدب[1]، وكان له درس بالجامع الجيوشي[2]، **ومنهم**: قاضي القضاة أبو الحسين أبو بكر بن أبي الحسين الكندري الإسكندري (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)، فقد حدث ودرس بالإسكندرية[3].**ومنهم** جمال الدين يوسف بن محمد بن عبد الله الحميدي الإسكندري ، فقد تولى قضاء الإسكندرية وكان يدرس بالثغر إلى أن توفي به سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)[4]، ومنهم **جلال الدين** محمد بن عبد الرحمن بن محمد الديروطي الشافعي البكري (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م)، كان عالما فاضلا بارعا في العلوم خاصة الفقه على المذهب الشافعي، كان يدرس في أكثر من مكان، تولى قضاء الإسكندرية فترة طويلة[5].

وممن تولى التدريس بالإضافة إلى توليته وظائف دينية أخرى كالإمامة والخطابة أو نظر الأحباس بالثغر، بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد الدماميني السكندري المالكي (ت٨٢٧هـ/١٤٢٣م)، فقد تولى إمامة وخطابة الجامع الغربي بالإضافة إلى تصدره إلى تدريس العلوم التي مهر بها سواء الأدب أو العربية أو الفقه في مدارس عدة[6] ، **وعلي بن محمد** بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب بن أبي بكر بن يفتح الله السكندري المالكي (ت٨٦٢هـ/١٤٥٧م)، ولد بالإسكندرية ونشأ بها وقرأ القرآن على خطيب وإمام الجامع الغربي الزين عبد الرحمن الفكيري، وسمع الحديث والفقه على علمائها ثم بعد ذلك تولى خطابة الجامع الغربي، إلى أن توفاه الله، وكان متصدرا لإقراء الطلبة فانتفع به عدد كبير منهم، لدرجة أن السخاوي قال عنه: (كان غالب قراء

---

(١) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٢٤٥ــ ٢٤٦.

(٢) العماد: الخريدة، ص١٩٣.

(٣) ابن فرحون: الديباج، ج١، ص٣١٢.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٣.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٢٨.

(٦) القرافي: توشيح الديباج، ص١٧٥ــ ١٧٦.

البلد من تلامذته)[1]، **وبهاء الدين** أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عرام بن ياسين بن أبي القاسم (ت٧٢١هـ/١٣٢١م) ، سمع الحديث وقرأ النحو، وولى نظر الأحباس بالإسكندرية ، وتصدر لإقراء العربية بها[2].

وربما وصف الشيخ بأنه من **أعيان علماء الثغر، أو من أعيان فقهاء الثغر،** مع اشتغاله بالتدريس، فقد وصف شرف الدين ابن المرجاني بأنه من أعيان فقهاء الثغر، مع وصفه بالتدريس[3]، **وشرف الدين** أحمد بن علي بن عبد العزيز بن المصفى الإسكندراني المالكي، وصف بأنه من أعيان علماء الإسكندرية[4].

هذا ولم يكن عمل المدرس قاصراً على مدرسة واحدة ، بل قد يتنقل الشيخ بين عدد من المدارس ، وذلك مثل الشيخ بدر الدين الدماميني، وكذلك الشيخ عبد الملك بن أحمد بن رستم المالكي الإسكندراني (ت٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، فقد حمل الفقه عن القاضي عبد الواحد بن المنير وأخذ العربية عن أبي حيان، وقرأ الأصول والمعاني والبيان على القويذي الشافعي، تولى التدريس بعدد من مدارس بالإسكندرية، بالإضافة إلى تولية نيابة القضاء بالإسكندرية سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)[5]. كذلك بالنسبة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الديروطي الشافعي البكري، فقد عمل بعدد من مدارس الإسكندرية، كما تولى قضاءها فترة طويلة[6]، أيضاً تولى العلامة تاج الدين أبو الحسن علي بن أبي

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص١٧ـ ١٨.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢١٢.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٢٩٣.

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٢٢٩ـ ٢

(٥) ابن فرحون: الديباج، ج٢، ص٢١.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٢٨.

العباس الفراني التدريس بعدد من مدارس الإسكندرية كالمدرسة النبيهية ومدرسة ابن الأبزاري[١].

وأما وظائف التدريس الأخرى، ومنها (المعيد) وهو الذي يقوم بإعادة الدرس بعد فراغ المدرس من إلقائه[٢]، وذلك لأن وقت المدرس لا يتسع لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، لذا فإن **الطالب المتقدم** يساعد المدرس في مادة التخصص في أعماله، ويعيد الدرس للطلاب، ويحضر كذلك الدروس التي يكلفه بها المدرس والطلبة يسمعون ذلك، ويجلس مع الطلبة لاستذكار بعض الدروس، وعادة ما يحضر **المعيد** قبل حضور مدرسه، ويحث الطلبة على الاشتغال بمراجعة الدروس ويبين لهم ما يشكل عليهم فيما يشتغلون فيه عليه، فيشرح لمن احتاج الشرح، أو يكرر أو يزيد، لمن لم يستوعب ما ألقي عليه من الدرس[٣].

وفي الحقيقة أن مهمة المعيد تبين مدى الترابط والتكامل بين المدرس ومعيده، بحيث يتمم المعيد ما يكون من نقص لدى الطلاب حتى تتم العملية التعليمية على أفضل وجه ممكن ، وهذا بدوره يؤكد علو شأن التعليم في المدارس المملوكية خلافا للأصوات التي تبرز من حين لأخر بانحطاط التعليم في هذا العصر، وتسميته بعصر الركود العلمي.

وحتى تتم العملية التعليمية على الوجه الصحيح لم ينس العلماء أن يبينوا آداب طالب العلم بين يدي الطلبة لتتم الاستفادة ، ومنها أن يصلح نيته في التعليم لله تعالى، وأن يتحلى بالتواضع والتقوى والصدق والبعد عن الغيبة والنميمة، ويبتعد عن المراء والجدال الذي لا فائدة منه[٤].

وقد ندب العلماء كذلك على احترام مجلس العلم وطريقة الجلوس به، وأن الطالب إذا حضر يسلم على الجميع ويخص الشيخ بالتحية والإكرام، وأن يصبر

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ج٣، ص٧١، ٧٦، ٩١.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٥٠

(٣) السبكي: معيد النعم، ص١٠٨؛ محمد أمين الأوقاف، ص٢٤٦.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج١، ص٣١٦ـــ ٣٢٨.

على الشيخ إن كان في خلقه أو خلقته شيء غير محبب، فمن اللطائف في هذا الباب أن الإمام الذهبي حين كان بالإسكندرية ذكر الإمام شرف الدين يحيى بن أحمد ابن عبد العزيز بن علي بن عبد الباقي بن الصواف الجذامي الإسكندراني ، وكان قد عمّر طويلاً مما جعل سمعه يضعف، قال الذهبي: (فوجدته صعب المراس، فقرأت عليه ، فانقطع صوتي مما أرفعه، فسمعت منه ثلاثة أجزاء ، وتركت القراءة، ولحقه بعدي القاضي تقي الدين السبكي بآخر رمق فلقنه أحاديث سمعها منه)[١].

وهذا يدل على احترام الشيخ والصبر عليه في التحصيل ، فإن ابن الصواف هذا هو آخر من حدث عن ابن العماد بالسماع، وآخر من قرأ على الصفراوي[٢]، فأراد كل من الذهبي والسبكي أن تطول أسانيدهما من طريقه فرحلا إليه وصبرا على ضعف سمعه.

وأما طريقة التدريس فلقد كانت طريقة فريدة في عصر المماليك في الإسكندرية وغيرها ، فهي تبدأ من طريقة تنظيم الطلاب في الحلقة، ويكون ذلك عن طريق **النقيب**، وهو طالب يعين من كل مجموعة دراسية، يتولى ضبط الحضور وترتيب جلوسهم على قدر منازلهم، وضبط الغياب، لذا يقال له أيضاً (كاتب الغيبة)، ويوقظ النائم وينبه الغافل، ويشير إلى ترك ما لا ينبغي فعله ، فيأمر بسماع الدروس والإنصات لها، وفي العادة ما كان يخصص له زيادة على معلوم الطلبة لأجل ذلك[٣].

فإذا تم جلوس الطلاب جلس الشيخ قبالة وجوههم ، ويكون المتميز من الطلاب والمعيد قبالته وجهته، ثم يبدأ الطالب في القراءة، فيستعيذ ويبسمل ويحمد الله تعالى ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويدعو للشيخ ولوالديه ومشائخه، ولنفسه ولسائر المسلمين ويترحم على مصنف الكتاب، فإن ترك شيئا

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، ص١٨٥ــ ١٨٦.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٥، ص١٨٥ــ ١٨٦.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع،ص٤١.

من ذلك نبهه الشيخ[1]، **ثم يبدأ الشيخ بشرح وتوضيح** المسائل بالأمثلة، وكذلك يشرح عبارات المصنف، وبعد أن ينتهي من الشرح، ويتأكد من فهم الطلبة له، يبدأ بطرح المسائل عليهم لامتحانهم ومعرفة فهمهم وضبطهم لما شرح لهم ليثبت في أذهانهم، ويطالبهم بإعادة المحفوظات في بعض الأوقات، ويجري لهم الامتحانات، ويوصي الطلاب بالرفق[2] لحديث: (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)[3].

وفي العادة كان الطلبة يفضلون تلقى العلوم بالتدريج وكذلك التنقل بين الكتب من السهولة إلى الصعوبة حتى لا يحدث الخلط وكذلك يسهل عليهم الفهم والحفظ.

فابن خلدون يقرر ذلك ويرى أن المتعلم عليه أن لا يخلط مسائل الكتاب الذي أكب على التعليم منه بغيره، ويعلل ذلك : (بأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوقه حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم)[4].

ولكي تكون العملية العلمية ذات جدوى، فقد حددت المدارس النظامية مواعيد الدراسة بها وصار هذا الأمر معتمداً به في كافة الدولة المملوكية، ففي العادة ما يبدأ اليوم الدراسي من طلوع الشمس إلى أذان العصر، وتتراوح أيام الدراسة بها ما بين ثلاثة وخمسة أيام في الأسبوع، وأما بالنسبة للعطلة الأسبوعية فتكون في يومي الاثنين والجمعة، أو الثلاثاء والجمعة، بالإضافة للعطلة السنوية والتي تتراوح ما بين ثلاثة أشهر إلى أربعة أشهر، تبدأ من شهر رجب حتى

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع، ١٦٢.

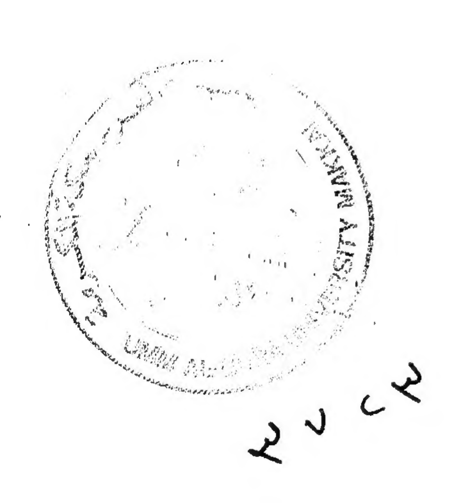
(٢) ابن جماعة، : تذكرة السامع، ص٥٧، ١٦٣.

(٣) البيهقي السنن الكبرى، في باب القصد في العبادة والجهد في المداومة، ج٣، ص١٩، ومعناه: لا تحمل على نفسك فيكون مثالك مثال من تابع السير، فبقى منقطعاً لم يقضِ سفره وأهلك راحلته.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٣٤.

العشرين من شهر شوال[١]، أما بالنسبة للطلبة غير النظامين خاصة الرحالة الذين ينزلون الثغر السكندري ، فكانت المدارس تفتح لهم أبوابها في أي وقت جاءوا ، وكذلك بالنسبة للشيوخ والمدرسين الذين كانوا يبذلون أنفسهم في كل وقت للطلاب محبة للعلم ورغبة في نشره[٢].

أما بالنسبة للكتب التي كانت تدرس في المدارس بالثغر السكندري، فقد كانت من الكثرة بمكان، وسيأتي بيانها بالتفصيل في الفصل الخامس من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.



(١) محمد أمين: الأوقاف ، ص٢٤٩ــ ٢٥١.

(٢) انظر في ذلك الفصل الرابع من هذه الرسالة، وكيف كان الرحالة يأتون إلى الإسكندرية ويفدون على مدارسها ومدرسيها في أي وقت كان .